حائز جائزة نوبل للآداب

«مو يان روائيّ من الطراز الأول»
الفاينننشال تايمز

مو يان

الضفادع





رواية

مكتبة ٣١٣



مكتبة | 313

الضفادع



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٨
ISBN: 978–9953–88–965–8

Originally published as: 蛙.

ترجمة: ميراي يونس

تدقيق لغوي: غالب هاشم
تصميم الغلاف: رينا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

مـو يـان

الضفادع



مكتبة | 313



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الشخصيات

عائلة الشرغوف (الخبب الوئيد)

الاسم	الوصف
وان القلب	قابلة، العمّة
جين كسيو	ابن خال الشرغوف.
الأسد الصغير	تلميذة وان القلب
كسيانغكون	طيّار في سلاح الجو، ابن أخ الشرغوف وان الفم
وان القدم، أو الشرغوف، أو الخبب الوئيد	ابن أخت وان القلب
وان الفم	الأخ الكبير للشرغوف، والد كسيانغكون
وان ليوفو (وان الملتقيات الستة)	والد وان القدم، جندي وطبيب، مؤسس مستشفى كسيهاي السري تحت الأرض
اللحا، الحواس الخمس	ابن عم الشرغوف
يانيان	ابنة الشرغوف

عائلة شين الأنف

الاسم	الوصف
إي ليان	والدة شين الأنف
شين الأنف	زميل الشرغوف في المدرسة
شين الجبين	والد شين الأنف
شين الأذن	ابنة شين الأنف
شين الحاجب	ابنة شين الأنف

شخصيات أخرى

الاسم	الوصف
الأستاذ شين	
دو العنق البطال	قروي، صياد سمك
فانغ ليانهوا	زوجة وانغ القدم
الجمجمة ـ المسطحة	مجدّف، ابن زميل الشرغوف في المدرسة
غاو مين	متسوّل

جنغ كسيوليان	زوجة زانغ قبضة اليد
هاو اليدان الكبيرتان	حرفي ونحّات صلصال
هوانغ جون	الملقّب بـ «الخيارة»، مدير المركز الطبي، ابن هوانغ البشرة من قرية هكسي
هوانغ كيوا	طبيبة في المركز الطبي، عدوّة وان القلب
المندوب السياسي لي	
لي اليد	ابن المعلّمة يو، رفيق الشرغوف الأصغر في الدراسة
القائد ليو	مديرية قوات المقاطعة
لو هواهوا	متسوّل
لو المجدور	الملحق في القضايا المدنية
لو السنّ	قائد اللواء الكبير
مسؤول البريد «ما»	
نينغ الأعرج	عنصر في الأمن العام
كين هي	متسوّل
كين شان	الأمين العام للجنة الحزب في البلدية، أخو كين هي
كيو	أمين عام حزب الكومونة، خلف كين شان
المرقطة	زوجة يوان الخدّ
شن	رئيس مكتب الصحة العامة والنظافة
القائد سوجيتاني	الجيش الياباني
سوجيتاني يوشيهيتو	معلّم الشرغوف
تيان غيهوا	قابلة عجوز
وانغ المرّة الصفراء	ابنة وانغ القدم، توأم وانغ الكبد، زميلة الشرغوف في الصف
وانغ الكبد	ابن وانغ القدم، توأم وانغ المرّة الصفراء، زميل الشرغوف في الصف
وانغ هوان	بائع الفاصولياء المتجوّل
وانغ القدم	عربجي القرية، والد وانغ الكبد ووانغ المرّة الصفراء
وانغ العجوز	طباخ المدرسة
وانغ رنمي	ابنة وانغ العجوز، زوجة الشرغوف

وانغ كسياوتي	خطيب وان القلب، طيار، خائن
وانغ كسياومي	فتاة في السابعة عشر من عمرها من قرية وانغ، عشيقة المدير هوانغ
السكرتير وو	سكرتير الكومونة الشعبية
وو جينبانغ	مدير المدرسة
بي الصغيرة	مسؤولة عن الشؤون الإدارية في شركة الضفادع الشيران، نحاتة
كسياو الشفة العليا	ناقل جرحى بالمحمل في فرقة المشاة الثامنة، أمين مخزن في أهراء حبوب المقاطعة الشعبية، قائد للمقاومة، عدو وان القلب، والد كسياو الشفة السفلى
كسياو الشفة السفلى	ابن كسياو الشفة العليا، زميل الشرغوف في الصف، متعهّد
جي المخالب الألف	صاحب مطعم
جي العصفور الصغير	ابن جي المخالب الألف
القائد كسْو	فرقة المشاة الثامنة
الأستاذ كسو	
يان	مساعد مدير الكومونة
يانغ القلب	مسؤولة لجنة التخطيط الأُسري
يانغ لين	سكرتير لجنة الحزب في المقاطعة
يانغ كسيونغ	رئيس المقاطعة، ابن يانغ لين
المعلّمة يو	
يوان الوجه	الأمين العام لخلية الحزب في القرية
يوان الخدّ	ابن يوان الوجه، زميل الشرغوف في الصف
زانغ السن الذهبية	سكرتير وحدة الحزب في قرية دونغفنغ
زانغ قبضة اليد	من قرية دونغفنغ

الجزء



عزيزي السيّد سوجيتاني يوشيهيتو،

مضى حوالى شهر مذ افترقنا، ومع ذلك أسترجع بوضوح جميع تلك اللحظات التي أمضيناها معًا في مسقط رأسي. لقد تأثرنا جدًّا لأنَّكم، على الرغم من سنّكم المتقدّمة وصحّتكم المعتلّة، قطعتم البحار والأقطار لتأتوا إلى هذه المنطقة النائية، المتخلّفة، لتلتقيني كما جميع المشغوفين بالآداب هنا، وتُحدّثنا بتواتر عن الأدب. نودّ، إن كنتم توافقون، أن ننشر في «**غناء الضفدع**»، المنشورة الداخلية التي تصدر عن «جمعية رجال الأدب» في منطقتنا، الكلمة الطويلة المعنونة «الأدب والحياة»، وهي الكلمة التي ألقيتم علينا صباح اليوم الثاني من العام الجديد، في القاعة الكبيرة في مركز استقبال الضيوف في المقاطعة. أُعيدت كتابتها اعتمادًا على التسجيلات التي تمّت آنذاك. فأولئك الذين لم يستطيعوا حضور محاضرتك ذلك اليوم، يمكنهم، هم أيضًا، تذوّق أناقة لغتكم واستخلاص بعض الفوائد من هذه القراءة.

في صباح اليوم الأول من العام الجديد، رافقتكم أثناء زيارتكم عمّتي، التي مارست مهنتها طبيبةً نسائية طوال أكثر من خمسين عامًا. على الرغم من أنها تحدثت بسرعة وبلكنة قوية أربكت في شكل ما قدرتكم على الاستيعاب، ما زلت مقتنعًا بأنّها أثّرت فيكم عميقًا. خلال محاضرتكم في اليوم التالي، أتيتم على ذكرها مرات كثيرة، كي توضّحوا مفهومكم للأدب. قلتم إن صورة هذه المرأة الطبيبة انطبعت في ذهنكم، سواء وهي تسير سريعًا بدرّاجتها فوق النهر المتجمّد، أو تسبق جحافل الضفادع، حقيبة الإسعافات على ظهرها، المظلّة في يدها، ورِجْلا بنطالها مطويّتان. ذكرتم أيضًا مشاهد أُخرى: كمّاها ملطخان بالدماء، تحمل مولودًا في

يد، وتنفجر ضحكًا، أو كئيبةً، مبعثرة المظهر، تحمل لفافةً في فمها... قلتم إن كلّ هذه الصور قد تشكّل واحدةً، أو قد تحيا كلُّ صورةٍ منها في ذاتها، على شكل سلسلة منحوتات تُمَثّلُ الشخص نفسه. لقد شجعتم عشاق الأدب في المقاطعة على استخدام هذه المادّة التي تقدّمها حياة عمتي من أجل كتابة أعمال مؤثّرة، أو روايات، أو قصائد، أو مسرحيّات. سيّدي العزيز، لقد حفّزتم فينا الحماسة الإبداعية، وتحرّق كثيرون منّا رغبةً. أحد أصدقائي الكتّاب في «قصر الثقافة» في المنطقة شرع في كتابة رواية، يتناول موضوعها طبيبة نسائية ريفية. وبما أنني لم أرد منافسته، حتى لو كنت أعرف أفضل منه بكثير أفعال عمّتي، تركته يكتب هذا العمل. سيدي العزيز، أنوي، في ما يتعلق بي، أن أؤلف مسرحية تستمدّ مادتها من حياتها. مساءَ اليوم الثاني من العام الجديد، وبينما كنّا جالسين معًا على الكانغ[1] العائلي نتحدّث ببساطة، فإن تحليلكم الدقيق، والعميق، ونقدكم القيّم لأعمال سارتر المسرحية، كانا بمثابة وحي بالنسبة إلي، واتضح كل شيء في ذهني! أريد كتابة مسرحيات توازي ببراعتها **«الذباب»** و**«الأيدي القذرة»**، والانطلاق بجرأة في هذا المجال، لأغدو كاتبًا مسرحيًا كبيرًا. سأتبع نصائحك: لن أتسرّع، سأخطو ببطء، متحلّيًا بصبر الضفدع الجالس بلا حراك على ورقة اللوتس في انتظار حشرة. عندما تنضج الفكرة، سأتناول الريشة، بسرعة هذا الضفدع نفسه وهو يهمّ بالتقاط فريسته.

في مطار تشينغداو، وقبل أن أرافقكم إلى طائرتكم، قلتم إنكم تأملون منّي مراسلة أخبركم فيها قصة العمة. على الرغم من أن حياتها لم تصل إلى خاتمتها، فإن من الممكن وصفها بعبارات من مثل: «موجة عارمة»، أو «متميزة ومضطربة». حكايات كثيرة يجدر قصّها، فلا أعرف كم ستطول هذه الرسالة، لذا أتوسل إليكم

(١) سرير من القرميد الناري، من شمال الصين، يُسخَّن من الأسفل في الشتاء، وتجلس عليه العائلة مجتمعةً.

أن تعذروني مسبقًا وتسمحوا لي بأن أتوقف عن هذه الخربشة بالريشة. في عصر الكمبيوتر، صارت كتابة رسالة بالقلم، على الورق، ترفًا في حد ذاته، لكنها أمر ممتع، وآمل أن تشعروا من جهتكم بمتعة هذا الأسلوب القديم عند قراءتها.

أعلمكم عَرَضًا فحوى اتصال هاتفي وردني من والدي أخبرني فيه أنه في اليوم الخامس والعشرين من الشهر القمري الأوّل، وعلى شجرة البرقوق(*) العتيقة ذات الشكل الغريب في فنائنا - وكنتم قد استخدمتم استعارةً أشرتم بها إلى الشجرة بأنها «زاخرة بالمواهب» - على شجرة البرقوق تلك، تفتّحت زهور حمرٌ، أتى كثر لمشاهدتها والاستمتاع بمنظرها، ومنهم عمّتي. وأضاف والدي، أنّ ثلجًا رقيقًا، في ذلك اليوم، تساقط بغزارة شديدة، وانتشر عبير الزهور بين ندف الثلج، عبيرٌ صفّى ذهن كلّ من تنشّقه وبلور أفكاره.

تلميذكم، تيتار (الشرغوف)(**)

بكين، ٢١ آذار/مارس ٢٠٠٢

(*) البرقوق شجر مثمر تشبه ثماره الخوخ.

(**) الشرغوف: الضفدع الصغير.

١

سيدي العزيز، شاء عرفٌ قديمٌ عندنا أن يُلقَّب الأطفال عند ولادتهم باسم عضوٍ أو جزءٍ من الجسم البشري. كان يمكن أن يُسمّى أحدهم مثلًا: شين الأنف، زاو العين، وو المعي الغليظ، صن الكتف... مِن أين أتت هذه العادة، لم أبحث في المسألة، لا بدّ من أنها تتعلق بذلك الاعتقاد الباطني بأنّ «مَنْ يحمل اسمًا متواضعًا يعيش طويلًا»، إلّا أن سببها تطوّر عقلية الأمهات ليعتبرن أولادهن فلذات منهن. ما عادت هذه العادة تُطبَّق اليوم، ولا يريد الآباء، في هذا العصر، أن تحمل ذرّيتهم أسماءً غريبة إلى هذا الحد. فأسماء معظم الأولاد عندنا، راهنًا، ظريفة ومبتكرة، من مثل أسماء شخصيات المسلسلات التلفزيونية الهونكونغية، والتايوانية، وحتى اليابانية أو الكورية. أما أولئك الذين كانوا يحملون اسم عضو أو جزء من الجسم، فجميعهم تقريبًا بدّلوه بآخر أكثر أناقة. لكنَّ البعض طبعًا أبقى على اسمه الأصلي، من مثل شين الأذن، وشين الحاجب.

والدهما، شين الأنف، كان رفيقي في الصفوف الابتدائية وصديق شبابي. دخلنا إلى مدرسة «غران برساي» في خريف العام ١٩٦٠. كانت فترة عوز، وأكثر الوقائع التي طبعت ذكرياتي في تلك الفترة تعلّقت بالطعام. على سبيل المثال، قصة أكل الفحم التي رويتها لك. قد يظن كثيرون أنها ضرب من خيالي، وأقسم، باسم عمتي، أنها الحقيقة.

كان طنًّا من الفحم العالي الجودة، ممّا يُنتجه منجم لونغكو. كان يتلألأ تحت أشعة الشمس، ويمكن للفرد أن يتمرّى بحواف القطع. لم أرَ مذذاك فحمًا لامعًا إلى هذا الحد. كان وانغ القدم، عربجي القرية، قد نقله من قاعدة المقاطعة في عربة يجرّها حصان. كان وانغ القدم صاحب رأس مربع، ورقبته كعنق ثور، ويُتأتئ؛ متى تكلم، قدحت عيناه شررًا، واحتقن وجهه. كان ابنه، وانغ الكبد، وابنته وانغ المرّة الصفراء، رفيقيَّ في الصف. كانا توأمين، الصبي طويل القامة، في حين أن أخته «منمنمة»، صغيرة القد، لم تكبر قط... ولنقلها صراحةً، كانت قزمة. يتناقل الناس أنهما يوم كانا في حشا والدتهما، استحوذ الأخ على كل العناصر المغذية ولم تستطع الصغيرة أن تنمو نموًّا طبيعيًا.

تمَّ تفريغ الفحم بعد الظهر تحديدًا، بعد دوام المدرسة، وجميعنا نتابع المشهد، حقائبنا على ظهورنا. كان وانغ القدم، بواسطة مجرفة من حديد، يفرغ الحمولة من العجلة، والقطع تتساقط وتتكدّس بعضها فوق بعض مصدرة ضجيجًا. انساب العرق على عنق الرجل، ففكّ قطعة القماش الزرقاء التي ربطها على وسطه، ومسح رقبته. وهو يفعل، لمح ابنه وانغ الكبد وابنته وانغ المرّة الصفراء، فوبّخهما بعنف قائلًا: «ارحلا من هنا!». استدارت الفتاة وولّت مهرولةً.

حين انطلقت، فقدت توازنها، وترجح جسمها، وبدت مثل طفل صغير يتعلم المشي، كان المنظر مؤثرًا...

ابتعد وانغ الكبد إلى الخلف، لكنَّه لم يرحل. كان فخورًا بالمهنة التي يمارسها والده. في يومنا هذا، لن يراود التلامذة هذا الشعور، حتى لو كان والدهم طيّارًا، ذلك أن العربة تجري بدويّ، فيما يتطاير الغبار تحت عجلتيها. قَطَرَ المحامل حصانٌ ترك الخدمة العسكرية. استُخدِم

في نقل القذائف ويُقال إنه استحق أوسمة عسكرية، ووُسمت مؤخرته بالكيّ. وفي المقدَّم، جرَّ السرجَ بغلٌ عنيف جدًّا. كان يبدو مرعبًا عندما يرفس، ومال إلى العضّ. كان سيئًا بالتأكيد، لكن قوته مذهلة ويعدو سريعًا. وحده وانغ القدم استطاع كبح جماح هذه الدابة المسعورة. حسده كثر في القرية على هذا المركز، لكنَّ منظر البغل جعلهم يترددون في منافسته. وقد سبق للحيوان أن عضَّ طفلين: الأوَّل يوان الخدّ، ابن يوان الوجه، والثانية وانغ المرّة الصفراء. رُكِنت العربة أمام بيتها، وراحت الفتاة تلعب قرب البغل، فحملها وهو يشدّ على رأسها بين فكيّه. شعرنا جميعًا برهبة ممزوجة بالاحترام تجاه وانغ القدم هذا. بلغ طوله مترًا وتسعين سنتيمترًا، عريض المنكبين، وله قوة ثور. أمكنه أن يرفع بذراعيه فوق رأسه رزمًا من الحجارة تزن مئات الكيلوغرامات. ولكن ما أثار إعجابنا خصوصًا، كان ذلك السوط الساحر.

حين عضَّ البغل المسعور رأس يوان الخدّ، شدَّ وانغ القدم فرامل العربة، وإذ وقف فاسخًا رجليه على عجلتي العربة، هزَّ سوطه وضرب الدابة على مؤخرتها. وترافقت كل ضربة مع شجّة دامية وفرقعة مدوّية. بدايةً، ظل البغل يرفس، ولكن سريعًا بدأ جسمه يرتجف، انطوت قائمتاه الأماميتان على الأرض، وفيما رفع ردفيه، لحس الغبار تحت وطأة الضربات. نهايةً، قال يوان الوجه، والد يوان الخدّ: «عزيزي وانغ، سامحه!». توقف وانغ القدم، مضطربًا. في الواقع، كان يوان الوجه الأمين العام لخليّة الحزب، الموظف الرسمي الأعلى في الهرمية في القرية. لم يجرؤ وانغ القدم ألَّا يمتثل لأمره. وحين حان دور وانغ المرّة الصفراء ليعضّها البغل المسعور، أملنا رؤية المشهد نفسه، لكنَّ وانغ القدم لم يضرب الدابة بالسوط ضربة واحدة. أخذ حفنة

من الكلس الموجود على حافة الطريق وغطى به رأس ابنته، وحمل الصغيرة من ثَمَّ إلى المنزل. وإن لم يضرب البغل البنّي، جلد زوجته بالسوط ورفس ابنه. ودارت وكثرت التعليقات المشككة في شراسة هذه الدابة المسعورة. كانت نحيلة؛ ولها فوق كل عين فجوة عميقة جدًّا، تتسع لبيضة دجاجة. كانت نظراتها حزينة، وكأنها ستنفجر فجأة من البكاء. لم نستطع أن نتصور من أين تستقدم مثل هذه الطاقة على الرغم من نحولها الزائد.

وإذ اقتربنا منها ونحن نتحدث، أوقف وانغ القدم حركته وصعقنا بنظرة حادة، لجوجة، فخفنا وتراجعنا أكثر وأكثر. كانت كومة الفحم ترتفع أمام مطابخ المدرسة، بينما يقل حمل العربة شيئًا فشيئًا. من دون أن نتشاور، قطبنا أنوفنا، إذ شممنا رائحة غريبة وشهيّة، تُشبه صمغ البطم المسخن، أو البطاطا وهي تُشوى. وجهت حاسة الشم نظرنا إلى كومة الفحم اللامع ذاك. ربط وانغ القدم الحصان، حثَّ البغل وأخرج العربة من ملعب المدرسة. خلافًا لعاداتنا، لم نركض وراءه لنقفز إلى العربة، متحدّين السوط الذي يمكن أن يلسع رؤوسنا ونحن مسرورون. تحركنا ببطء نحو كومة الفحم، ونظرنا مثبّت عليه. تقدَّم وانغ العجوز، الطبّاخ، يترنّح تحت ثقل حمّالة عليها سطلا ماء. كانت ابنته وانغ رينمي إحدى رفيقات صفنا أيضًا، وستصبح لاحقًا زوجتي. كانت في تلك الحقبة من الأطفال القلائل الذين لا يحملون اسم عضو من الجسم[1]. والسبب أن الطبّاخ وانغ العجوز كان مثقفًا. شغل أوَّلًا منصب رئيس مركز تربية الماشية في بلدية المقاطعة، ولكن عندما صدر عنه كلام في غير محله، أُقيل من منصبه وأُعيد إلى قريته.

---

(١) تعني «رين» النعومة، اللطف، الإنسانية؛ وتعني «مي» الجمال.

نظر إلينا وانغ العجوز بريبة. لقد ظن، بلا شك، أننا سنندفع إلى المطابخ لنسرق الطعام. ولذا، صاح بنا: «اذهبوا من هنا، أيُّها القذرون الصغار! عودوا إلى منازلكم وارضعوا من والداتكم!». سمعنا طبعًا ما قاله وفكرنا في نصيحته، ولكن كانت تلك من دون أدنى شك إهانة لنا. كنا في السابعة أو الثامنة من العمر، كيف يمكننا أن نرضع من أمهاتنا؟ ولو فرضنا أن الأمر ممكن، فأيّ حليب سيرضعننا وهنّ نصف ميتات من الجوع وأثداؤهن تلتصق بأضلاعهن؟ ولكن، لن يجادل أحد وانغ العجوز. وقفنا أمام كومة الفحم، مطأطئي الرؤوس، مَحْنيّي الظهر، نشبه عشاق الجيولوجيا عند اكتشافهم منجمًا عظيمًا؛ اهتزت أنوفنا مثل فقم كلب يبحث عن زاده بين الأنقاض. عند هذا الحد من قصتي، لا بدّ من أن أعترف بالجميل لشين الأنف، ووانغ المرة الصفراء من ثمَّ. كان شين الأمن أوَّل مَن حمل قطعة من الفحم، وضعها تحت أنفه ليشمّها، وقطَّب حاجبيه كأنه يفكر في مسألة مهمة. كان أنفه كبيرًا، قصبته واضحة جدًا، وكثيرًا ما كان محط تهكمنا. بعد لحظات من التفكير، رمى القطعة من يده على قطعةٍ أكبر. سمعنا صوتًا، وفي الوقت نفسه انكسرت القطعة التي رماها وفاح فجأةً العطر. تناول شظيّة صغيرة، وكذلك فعلت وانغ المرة الصفراء؛ لحسها بطرف لسانه، تذوّقها، دوَّر عينيه، ونظر إلينا. قلَّدته الصغيرة، ذاقتها، ونظرت إلينا. تبادلا التحديق، ابتسما، ومن دون أن ينبسا بكلمة، وبحذر، قضما جزءًا صغيرًا بأسنانهما القاطعة، مضغاه، وتناولا من ثمَّ جزءًا آخر ولاكاه بقوة. بانت على أساريرهما علامة حماسة. احمرَّ أنف الصبي الكبير، وتلألأت عليه قطرات العرق. أنف الفتاة الصغير اسودَّ وقد لطخه غباب الفحم، بينما سمعنا نحن، مسحورين، صوت المضغ

ذاك. ذهلنا إذ رأيناهما يبتلعان الفحم. وبعكس توقعاتنا، أنهيا القطعة كاملةً. قال لنا الصبي بصوت خفيض: «يا رفاق، طعمه شهي!»، وصاحت الفتاة بنبرة حادة: «يا فتيان، تعالوا سريعًا كلوا منه!». التقط شين الأنف قطعة فحم أُخرى ومضغها بحماسة أكبر. واختارت الفتاة بيدها المنمنمة قطعة كبيرة وناولتها لوانغ الكبد. فعلنا مثلهما، كسرنا الفحم ولممنا شظاياه، قضمناه بأسناننا القاطعة. ذقناه، أصدر صريفًا تحت أضراسنا بالطبع، لكنَّ طعمه لم يكن سيئًا قط. أخذ شين الأنف باندفاع قطعة فحم ونبهنا: «يا رفاق، هذا ما يجب أكله، إنَّه الأفضل». وأشار إلى الأقسام الشفيفة، ذات اللون الأصفر الفاتح، الشبيهة بالعنبر: «القطع التي تحوي صمغ البطم هي الأفضل!». أخذنا حصصًا في العلوم الطبيعية، وعرفنا أن الفحم يأتي من تحوُّل الغابات، بعد أن تُطمر تحت سطح الأرض طوال قرون. كان أستاذ العلوم الطبيعية، وو جينبانغ، مدير المدرسة. لم نصدق كلامه، ولا حتى ما تقوله كتبنا. الغابات خضر، فكيف يمكن أن تتحول إلى فحم أسود؟ بالنسبة إلينا، كان كل ذلك كلامًا بكلام. فقد أفهمنا اكتشاف صمغ البطم في قطع الفحم، أن قصص مديرنا، وتلك التي أخبرتنا إيّاها كتبنا، لم تكن واهية. حضر في المكان صفنا المؤلف من خمسة وثلاثين تلميذًا، باستثناء بعض الفتيات. كل واحد منا حمل بيده قطعة فحم وراح يمضغ، «سكروتش، سكروتش، كرانش، كرانش»، وارتسمت على وجوهنا تعابير امتزجت فيها الإثارة بالاستغراب، كأننا كشفنا خفايا سرّ ما. بدَوْنا كأننا نرتجل تمثيلية، أو نلعب لعبةً غريبة. كسياو الشفة السفلى، لم يكن يأكل. حمل القطعة بيده، فحصها، باشمئزاز، من كل الجوانب، ذلك أنه لم يكن جائعًا، وهو لم يكن جائعًا لأن والده يشغل

منصب حارس مخزن الحبوب في بلدية المقاطعة. أُصيب الطباخ وانغ العجوز بالذهول. فأسرع إلى المكان ويداه مملوءتان طحينًا. يا إلهي، في يديه طحين! آنذاك، وعلاوةً على المدير ومسؤول التعليم، كان يأكل في مقصف المدرسة موظفان إداريان من بلدية المقاطعة أقاما في القرية لإجراء تحقيق ميداني. صرخ وانغ العجوز متعجبًا: «يا فتيان، ماذا تفعلون؟ أنتم.... تأكلون الفحم؟ وهل يؤكل الفحم؟». رفعت وانغ المرة الصفراء قطعة الفحم الكبيرة التي تحملها في يدها الصغيرة وقالت بصوتٍ خافت: «عمي، طعمه لذيذ جدًّا، سأعطيك قطعة لتتذوقها». أومأ وانغ العجوز برأسه رافضًا وقال: «وانغ المرة الصفراء، أنت الفتاة الصغيرة ترتكبين الحماقات مع هذه الثُّلة من العفاريت!». عضّت الفتاة على قطعة الفحم وقالت: «لكنَّ الفحم لذيذ فعلًا يا عمي!». كان المساء يحل، وشمس حمراء تغيب في الأفق. موظفا بلدية المقاطعة اللذان أقاما في المكان وصلا على دراجتيهما. لفتنا انتباههما كذلك. طردنا وانغ العجوز رافعًا حمّالته. أوقفه الموظف المسمّى يان ـ كان على ما يبدو مساعد المدير. بدا منزعجًا، أشار بيده، واستدار وانسحب إلى المطابخ.

في اليوم التالي، وبينما كنا في الصف نستمع إلى شرح المعلمة، كنا نأكل الفحم.كانت الأفواه سودًا، وزوايا الشفاه ملطخة بغبار الفحم. ولم يتوقف الأمر على الصبية فقط. فالفتيات اللواتي لم يشاركن في وليمة الفحم أمس، فعلن ذلك بتشجيع من وانغ المرة الصفراء. رينمي، ابنة وانغ العجوز، الطباخ ـ زوجتي الأولى ـ أكثر من أكل بشهيّة. حين أتذكر الأمر اليوم، أدرك أنّها كانت تعاني بالتأكيد التهابًا في اللثة،

لأنَّها كلما أكلت الفحم، امتلأ فمها دمًا. بعدما كتبت المعلمة، السيدة يو، بضع جُمل على اللوح، استدارت وحدَّقت إلينا. نادت أوَّلًا ابنها، لي اليد، رفيقنا:

«اليد، ماذا تأكلون؟»

«الفحم، أمي».

«حضرة المعلمة، نأكل الفحم، هل تريدين تذوّقه؟»، صرخت وانغ المرة الصفراء، الجالسة في الصف الأمامي، رافعةً قطعة الفحم عاليًا. كان صراخها أشبه بالمواء.

نزلت المعلمة عن المنصة، أخذت قطعة الفحم من يدي الفتاة ووضعتها تحت أنفها، كأنها تريد أن تراها وتشمّها. أطرقت لحظة قبل أن تعيد القطعة إلى الفتاة، وقالت: «يا أولاد، اليوم سنتعلم الدرس السادس: 'الغراب والثعلب'. وجد الغراب قطعة لحم، وجثم فرحًا أعلى الشجرة. الثعلب تحت الشجرة قال له: 'سيدي الغراب، تغريدكم رائع، متى بدأتم بالغناء، ليس على طيور الأرض كلها إلّا أن تصمت'. الغراب المنتشي بهذا الإطراء والتملق، فتح منقاره، و'بلوف'، سقطت قطعة اللحم في شدق الثعلب». أشرفت علينا المعلمة لقراءة النص بصوتٍ عالٍ. قرأنا بعدها، وأفواهنا سودٌ.

معلمتنا المثقفة جدًّا، التزمت مع ذلك عادات القرية وسمَّت ابنها «اليد». لاحقًا، سينجح هذا الأخير بتفوق، في امتحان الدخول إلى كلية الطب؛ وسيتخرّج بعدها ويخدم في مستشفى المقاطعة باعتباره طبيبًا جرّاحًا. حين قطع شين الأنف أربعًا من أصابعه وهو يجز العشب، زرع له لي اليد ثلاثًا منها.

٢

لِمَ أنف شين الأنف كبير جدًّا، مختلف إلى هذا الحد عن أنوف الآخرين؟ لا بد من أن والدته وحدها تستطيع أن توضح الأمر.

حمل والد الصبي، شين الجبين، اسمًا اجتماعيًّا، هو تيانتينغ، وكان الرجل الوحيد في القرية المتزوج بامرأتين. عرف عددًا كبيرًا من الصور الرمزية، قبل التحرير، ملكت عائلته ستة هكتارات من الأراضي الصالحة للزراعة، وأدار مصفاة، وعلاوةً على ذلك، مارس التجارة في هربين. كانت زوجته الأساسية من القرية، قد أنجبت له أربع بنات. هرب شين الجبين قبل التحرير، وبعد التحرير، الأرجح عام ١٩٥١، ذهب يوان الوجه برفقة اثنين من الحرس الوطني إلى منشوريا، وجلبه تحت الحراسة. آنذاك، هرب وحيدًا، تاركًا زوجته وبناته في المنزل، ولكن عند عودته، اصطحب معه زوجة أُخرى. كان شعرها أشقر، وعيناها زرقاوين، بدا أنها تبلغ أكثر من ثلاثين عامًا بقليل، وكانت شهرتها إي واسمها ليان. حملت معها كلبًا، جسمه مرقط بالكامل. وبما أن المرأة تزوجت شين الجبين قبل التحرير، فالأخير يحق له قانونيًا أن تكون له زوجتان. عاش في القرية بضعة عازبين معدومي الحال، وقد ساءهم جدًّا أن يحظى شين الجبين وحده بزوجتين، وطلبوا منه، بين الجدّ والمزح، أن يتخلى لهم عن إحداهما. ارتسمت على محيّا شين الجبين بسمة هازئة، وصعب القول إن كان يضحك أو يكشر. بدايةً، سكنت المرأتان في الدار نفسها، ولكن حين وصل بهما الأمر إلى التشاجر، وبلغت الفوضى حدًّا لا يطاق، وافق الزوج أن تستقر الجديدة في الغرفتين المجاورتين للمدرسة. أساسًا، كان هذا المبنى مصفاة،

والغرفتان ملك عائلي أيضًا. واتفق شين الجبين مع المرأتين أن يسكن مداورة معهما. نَفَق الكلب الذي جلبته المرأة ذات الشعر الأشقر معها من هربين، بعدما هاجمته كلابٌ محليّة. جرَّت إي ليان الحامل بطنها، ودفنت كلبها؛ بعد ذلك بقليل، وضعت شين الأنف، ولذا، قيل إن الصغير تقمّصٌ للكلب المرقط. كانت حاسّة الشم عنده قوية، ولعل السبب يعود إلى ذلك. في تلك الحقبة، كانت عمتي قد ذهبت إلى مركز المقاطعة لتتعلم أساليب التوليد الجديدة، وأصبحت قابلة قانونية في القضاء. كنّا في العام ١٩٥٣.

في ذلك العام، كان القرويون لا يزالون يعارضون بقوة أساليب التوليد الجديدة تلك. وأتى رفضهم نتيجةً للشائعات التي أطلقتها سرًّا «القابلات العجائز». بحسب قولهن، سيُصاب جميع الأطفال المولودين بهذه الطريقة بـ «مرض الهواء»[1]. وما سبب إطلاقهن تلك الشائعات؟ إنَّ تعميم الأساليب الجديدة سيحرمهن لقمة العيش. حين يساعدن امرأة على وضع مولودها، يضمنَّ الحصول على وجبة لذيذة، علاوةً على منشفتين وعشر بيضات دجاج تُقدَّم إليهن بدل أتعاب. حنقت عمتي جدًّا على تلك «القابلات العجائز»، وصرفت بأسنانها بمجرد الإتيان على ذكرهن. قالت إنها لا تعرف كم طفلًا وامرأةً في حال المخاض ماتوا على أيدي أولئك الساحرات العجائز. أغرقتنا حكايات عمتي في الرعب. بَدَوْنَ جميعهن يملكن أظفارًا طويلة، ويلتمع في عيونهن بريق أخضر كشهاب بخاري، ورائحة نتنة تفوح من أفواههن. أخبرت عمتي كذلك أنهن يضغطن بطون المواخض بالشوبك، ويحشون فم

(١) وفق الطب الصيني، الهواء الموجود في الجسم يسبّب أوجاع المفاصل والطفح الجلدي.

المرأة بقطعة قماش قديمة، وكأن المولود سيخرج من هناك. قالت عمتي إنهن لا يملكن أي معارف عن بنية الجسم، ولا يفقهن شيئًا عن فيزيولوجية المرأة. حين تواجه القابلة حالة مستعصية، تولج يدها في القناة التناسلية وتسحب، وتسحب، لتسحب حتى الرحم مع المولود. ظللت لفترة طويلة مقتنعًا بأنه لو طُلب مني أن أختار مجموعة أشخاص كريهين يستحقون الإعدام، لأجبت من دون تردد: «القابلات العجائز». ولاحقًا، أدركت شيئًا فشيئًا إلى أي حدّ بالغت عمتي. هذا النوع من «القابلات العجائز» المتوحشات، الجاهلات، وُجِد طبعًا، ولكن غيرهن كنَّ خبيرات، اكتشفن، عبر تجربتهن الخاصة، أسرار جسد المرأة. في الواقع، كانت جدتي لأبي إحداهن. كانت تدعو، من جهتها، إلى عدم التدخل، محاججةً أنَّ اليقطينة الناضجة تنفصل وحدها. في رأيها كانت «القابلة» الجيدة تلك التي تجود بالتشجيع على الماخض، ولحظة الوضع، تقطع الحبل السُرّي بالمقصّ، تضع الجير الحيّ على الجرح وتضمده، ولا تفعل غير ذلك. لكنَّ جدتي لم تكن مطلوبة، لِظنّ الناس أنَّها كسولة في عملها. بدوا أنهم يفضلون اللواتي ينهمكن في العمل، ولا يهدأن عن الحراك، ويصرخن، ويبذلن الدم والماء مثل الماخض نفسها.

كانت عمتي الابنة البكر لأخي جدي[1] ، وكان طبيبًا في الجيش، في الفرقة الثامنة للمشاة. بدأ بدراسة الطب الصيني، وحين التحق بالجيش، تعلم الطب الغربي على يد نورمان بتون. تأثر جدًّا حين مات الطبيب الكندي ميتة الأبطال، ومرض جدًّا، وإذ أدرك أنَّه لن

---

(١) في الواقع، هي ابنة عم والد الراوي، ولكن بالنسبة للصينيين، بما أنَّها من جيل الأب، تُعَدُّ عمّةً.

يتحسن، قال إنَّه يحنّ إلى بلده، ويفتقد أهله. سمح له الحزب بالعودة إلى دياره ليتعالج. عند عودته، كانت جدة جدتي لأبي لا تزال على قيد الحياة. ما إن وطئ عتبة المنزل، حتى شمَّ رائحة حساء اللوبيا الخضراء الزكيَّة. كانت الجدة الكبرى قد غسلت الطنجرة بحماسة وأشعلت النار لتحضير الحساء، حاولت كنّتها مساعدتها، لكنَّ العجوز أبعدتها بعصاها. جلس أخو جدي على عتبة الباب، محاولًا ضبط قلة صبره. وأضافت العمة أنَّها منذ تلك الأيّام، تتذكر الأمور بوضوح، كما عندما طُلِب منها أن تقول «بابا»، فرفضت، مختبئة خلف والدتها، تسترق النظر إلى المشهد. وأخبرت العمة كيف، منذ نعومة أظفارها، سمعت والدتها وجدتها تتحدثان من دون كللٍ عن والدها، ولكنْ، حين رأته أخيرًا، شعرت بأنها في حضور رجل غريب. روت العمة أن أخا الجدّ جلس على عتبة الباب، مصفرّ السحنة، شعره طويل، في حين أن القمل يدب بعضه فوق بعض على رقبته. ارتدى سترةً ممزقة تظهر منها بطانتها. قالت العمة إن جدتها، أي جدة جدتنا، كانت تبكي وهي تحضّر الطعام. وحين أصبح حساء اللوبيا جاهزًا، لم يستطع أخو جدي الانتظار أكثر، حمل الكوب بين يديه، وشرب سريعًا، غير آبه لحرق فمه. ولم تتوقف العجوز عن التكرار: «يا بنيّ، لمَ العجلة، لا يزال الكثير بعد في الطنجرة!». وأيضًا حسب العمة، كانت يدا أخي جدي ترتجفان. أنهى الكوب الأول، تناول آخر، وحين فرغ، توقف عن الارتجاف. تصبب عرقًا على طول صدغيه، عاد البريق رويدًا رويدًا إلى عينيه، وتلوَّن خداه. ووفق العمة، كركرت معدة أخي جدي، وكان الصوت أشبه بمعصرة تدور. بعد ساعتين، ودائمًا حسب العمة، قصد الرجل الحمام، حيث سُمعت أصوات جريان معدته، حتى خُيّل لهم

أنَّه يتغوَّط أمعاءه. بعدها، استعاد عافيته تدريجًا، وبعد شهرين، أصبح بكامل طاقته، واستردّ نشاطه.

قلت للعمة: «قرأت في ما مضى في التاريخ غير الرسمي للأدباء أمورًا مماثلة». سألتني: «ما هو هذا الكتاب؟»، فأجبتها: «هو مؤلَّف شهير عن الأدب الكلاسيكي». وهنا، حدجتني بنظرةٍ: «حسنًا، إن أتى نوع الكتب هذا على ذكر أمور مماثلة فلِمَ لا تزال تشكك؟».

وحين تعافى أخو جدي نهائيًّا، أراد العودة إلى جبال تايهنغ للالتحاق بالجيش. قالت له جدة جدتي: «يا بُنيّ، لم يبقَ لي الكثير لأعيشه، ابقَ لأُدرك أجلي، ثمَّ ارحل». وإذ شعرت الكنّة بالإحراج في الإفصاح عن طلبٍ، دفعت عمتي إلى التدخل، فقالت الأخيرة: «أبي، قالت أمي إنَّها توافق على رحيلك مجددًا، ولكنْ قبل ذلك، عليَّ أن أحظى بأخ صغير».

وفي ذلك الوقت أتى رجال من الكتيبة نفسها ولكنْ تابعون لمنطقة جياودونغ العسكرية وألحّوا على أبي لمرافقتهم. كان أخو جدنا تلميذ نورمان بِتون، وكان ذائع الصيت. قال لهم: «أنا من منطقة شانكسي العسكرية». فردَّ الآخرون: «كلنا شيوعيون، ما الفرق إذا عملنا هنا أو في مكان آخر، ما دامت النتيجة واحدة؟ نحن بحاجة إلى رجل مثلك، وان العجوز، وسنحتفظ بك في شتى الأحوال. لقد أفصح القائد كْسو عن الأمر بالقول: «إن لم نستطع جلبه على كرسيّ يحمله حمّالون ثمانية، اربطوه بحبلٍ، لنستعمل القوة، والاحترام من ثمَّ، لأنني سأُقيم وليمة كبرى على شرفه!». وبهذه الطريقة بقي أخو جدي في جياودونغ وأصبح مؤسس مستشفى كسيهاي السرّي، التابع لفرقة المشاة الثامنة.

كان المستشفى سرّيًّا بالفعل، لأنّه كان تحت الأرض[1]، وتربط غرفه أنفاق تُفضي كلها إلى سراديب. وتوافرت فيه غرفة للتعقيم، غرفة للعناية، غرفة للعمليات، وغرف للراحة، وكلها ما زالت قائمة إلى يومنا هذا. في قرية عائلة زو، من بلدة يوتويان التابعة لمدينة لايزو، عملت العجوز وانغ كسيولان، التي تبلغ اليوم الثامنة والثمانين وتتمتع بصحة جيدة، ممرّضةً تحت إشراف أخي جدنا. كانت عدة غرف للراحة تقود إلى بئر. في تلك الآونة، قصدتها صبية لتعبئة المياه، فشعرت بقوة غريبة تشد الدلو، انحنت ونظرت إلى أسفل، لتجد في حفرة جانبية على طرف البئر جنديًّا من فرقة المشاة الثامنة مصابًا، يشير إليها، مكشر الوجه!

انتشرت شهرة تَفَوُّق أخي جدي سريعًا في جياودونغ. بفضل إسعافاته، استُخرجت شظية قنبلة استقرّت في مفصل كتف القائد كْسو، وهو من أجرى عمليةً جراحية لزوجة المندوب السياسي لي أثناء ولادتها الصعبة، لتنجوَ الأمّ والطفل على السواء. وحتى سوجيتاني، القائد الياباني الذي كان في مدينة بينغدو، بَلَغته شهرة عمي. كان على رأس قواته يقود عملية تمشيط نحو الجنوب، عندما انفجر لغم، وانقلب الحصان الأجنبي الكبير الذي يركبه. تركه القائد، وفرّ. طبَّب عمي الحصان، وحين شُفي، غدا مطيّة قائد الفوج واسمه كْسِيا. ولكنَّ الحصان انتابه الحنين، فقطع اللجام بأسنانه وهرب إلى مدينة بينغدو. فوجئ سوجيتاني وفرح جدًا لعودة حصانه الثمين، فأرسل عملاء صينيين في مهمّة سريّة لجمع المعلومات، وعلِم بهذه الطريقة أن فرقة

(١) في الصينية عبارة «سري» تُقال «تحت الأرض». وكان المستشفى فعلًا سريًّا، لأنه كان تحت الأرض.

المشاة الثامنة، على الرغم من حضور العدو، بَنَت مستشفى، وأن مدير هذه المؤسسة ليس سوى وان ليوفو[1]، ذلك الطبيب المعجزة الذي أعاد حصانه إلى الحياة. بيد أنَّ القائد سوجيتاني تدرَّب طبيبًا أساسًا، وانطلاقًا من مبدأ أن الأشخاص الأذكياء يكنّ أحدهم الاحترام للآخر، فكَّر أن يدعو العم إلى تسليم نفسه. ولهذا لجأ إلى حيلةٍ استوحاها مباشرة من «التاريخ القصصي للممالك الثلاث»[2]: أرسل مبعوثًا سريًّا تقضي مهمته بالتسلل إلى مقاطعتنا لخطف جدة جدتي، وكنّتها، وعمتي، وجلبهن إلى بينغدو حيث سيُحتجزن رهائن، وأرسل من ثمَّ موفدًا آخر حمل رسالةً إلى أخي جدي.

وكان الأخير شيوعيًّا، ذا إرادة حديدية. بعد أن قرأ الرسالة، كوّرها ورماها. لمّها مفوض شرطة المستشفى وأوصلها إلى القيادة العسكرية. كتب القائد كْسو والمندوب السياسي لي رسالة مشتركة إلى سوجيتاني، مشيرَين بحنق إلى دناءته. وأبلغاه في الرسالة بأنه إذا تجرّأ وآذى قريبات وان ليوفو الثلاث، فستُطلق قيادة جياودونغ العسكرية كل الفرق العسكرية الموضوعة في تصرفها في حملة على مدينة بينغدو.

وأخبرت العمة أنها بقيت وجدّتها ووالدتها في تلك المدينة أشهرًا ثلاثة، أكلن وشربن ولم ينقصهن شيء. ووفق ما قالت أيضًا، كان ذلك القائد الياباني شابًا فاتح اللون، يرتدي نظّارة هيكلها أبيض، وله شاربان صغيران، تصرّف بلياقة وتحدث الصينية بطلاقة. متى تحدث إلى جدة

---

(١) وان ليوفو، بعبارة أُخرى وان الملتَقيات الستة: الحويصلة الصفراوية، والمعدة، والمعي الدقيق، والمثانة، وإليها يجب إضافة كتلة السخانات الثلاثة (الفتحة العليا للمعدة، جوف المعدة، والفتحة العليا للمثانة).

(٢) رواية شعبية من القرن الرابع عشر، ولكن أحداثها تعود إلى القرن الثالث، تاريخ سقوط سلالة هان الحاكمة.

جدتي نعتها «عمتي»، ونادى الكنة «السيدة زوجة أخي الكبيرة»، والعمّة «ابنة أخي العزيزة». وفق الأخيرة، لم يعطها انطباعًا سيئًا. هذا ما كانت تقوله أقلّه في جلساتنا المغلقة، أمّا علنًا، فقد اختلف الأمر. روت أنَّها وجدتها ووالدتها تعرضن لأقسى تعذيب من اليابانيين، ولكن محاولات هؤلاء لتخويفهن أو إغرائهن لم تزعزع إرادة النسوة الثلاث.

سيدي العزيز، لن تكفيني نهارات ثلاثة وليالٍ ثلاث لأخبرك قصة أخي جدي، سنتكلم في الموضوع لاحقًا على راحتنا. ولكنْ يجب أن أقص عليك ميتته البطولية. حسب عمتي، قضى في السراديب، مختنقًا بغاز سامّ سرّبه العدو فيما كان يجري عملية جراحية لمصاب. وهذا ما تؤكده الوثائق التاريخية التي جمعها مجلس الدولة الاستشاري. ولكنْ إليك ما أخبره البعض في مجالسهم الخاصة: علّق أخو جدي على وسطه ثماني قنابل يدوية، وانطلق على ظهر بغل إلى مدينة بينغدو قاصدًا بقتالٍ بطولي يخوضه وحيدًا ضد الجميع، تحرير زوجته، وابنته، ووالدته العجوز. ولسوء حظه، مشى من دون انتباه على ألغام أرضية زرعتها الميليشيا الشعبية في زاوجياغو. كان مؤلف هذه القصة كسياو الشفة العليا، الذي خدم في مستشفى كسيهاي ناقل جرحى بالمحمل. كان مواطنًا غريبًا، عمل بعد التحرير أمين مخزن في أهراء حبوب المقاطعة الشعبية، وذاعت شهرته في مرحلة محددة حين اخترع مبيدًا للفئران فعّالًا جدًا، ونعتته الصحف حتى بـ«السيد العالي»، بدلًا من «الشفة العليا». ثمّ اكتُشِف أن المكوّن الرئيس لهذا المستحضر مبيد سام جدًا، يُمنع استخدامه في الصين. حمل الرجل ضغينةً على عمتي، لذا لم يكن كلامه محل ثقة. وهذا ما قاله لي: «عصى شقيق جدك أوامر المنظمة، فترك مصابي المستشفى ومرضاه، وقرر أن يقوم بدور

البطولة؛ قبل أن ينطلق، وليتشجّع، شرب لترًا من مشروب البطاطا الحلوة الكحولي، إلى أن تخدر فعلًا ومشى من دون انتباه على ألغام زرعها جماعته». تابع وهو يرفع شفتيه عن قواطعه الصفراء: «تقطّع أخو جدك وبغله إلى أشلاء، وحُمّلت بقاياهما في سلتين حيث اختلطت اليدان البشريتان بحوافر البغل، ووُضعت كما هي في تابوت». وهو يقول ذلك، بدا ببساطة شخصًا يبتهج بمصائب الآخرين. «أمّا التابوت، فلم يكن سيئًا أبدًا، وقد صودِر من عائلةٍ كبيرة في لانكون». حين نقلْتُ هذا الكلام إلى عمتي، اتسعت عيناها اللوزيتان وقالت بحدّة: «أُقسم بشرفي، سأخصي هذا اللقيط النذل!».

وتابعت العمة بلهجة صارمة: «يا بُنَيّ، يمكنك ألّا تُصدّق شيئًا، ولكن الأمر الأكيد أنَّ أخا جدك كان بطل المقاومة، وشهيدًا ثوريًا! يرقدُ جثمانه على تلة الشهداء، مبضعه وحذاؤه الجلديّ معروضان في متحف شهداء الثورة. زوج الأحذية الإنكليزي هذا ورثه من نورمان بتون يوم كان على فراش الموت».

٣

سيدي العزيز، إنْ أخبرتك سريعًا قصة أخي جدي، فذلك لأنني أريد أن آخُذ وقتي بسرد سيرة عمتي.

وُلِدَت في ١٣ يونيو/حزيران ١٩٣٧، في اليوم الخامس من الشهر الخامس من السنة القمرية. أُعطِيَت آنذاك اسم «خمسة أضعاف خمسة»، واختار لها والدها لاحقًا «وان القلب»[١] ليكون اسمها

(١) وان «عشرة آلاف» وكسين «القلب». والقلب أيضًا مركز الروح.

الرسمي تلميذةً. احترم هذا الاسم التقليد المحلي، فيما حمل معنى أعمق. بعد ميتة أخي جدي البطولية، تُوفيت والدته بسبب المرض في بينغدو، وحررت المنطقة العسكرية في جياودونغ، بفضل الجهود الجبارة التي بذلتها الصفوف الخلفية من الجبهة، العمة ووالدتها من سجنهما. استُقبِلتا في المنطقة المُحررة، أُلحِقت العمة بالمدرسة الابتدائية للمقاومة ضد اليابان، فيما خاطت العمة الكبرى النِعال في معملٍ لتصنيعها. بعد التحرير، حظيت العمة بفرصٍ كثيرة للخروج من البلادً باعتبارها سليلة شهيد للثورة، لكنَّ والدتهاً لم تقتنع بفكرة ترك تلك الأرض التي تعني لها الكثير، في حين أن عمتي من جهتها لم تتصور أن تُفارق والدتها. سألها مسؤولو المقاطعة عمّا تريد أن تفعل، فأجابت أنها تريد أن تتابع عمل والدها، ولذا التحقت بمدرسة الممرضات في المنطقة الخاصة. تخرجت ولم تكن تجاوزت السادسة عشرة، ومارست الطب في مركز طوارئ المدينة. وحين افتتح مكتب الصحة العامة في المقاطعة صف تدريب على طرق الولادة الجديدة، أُرْسِلت إليه. وهكذا توثقت علاقتها، بقوة واستمرار، بهذه المهنة المكرَّسة. ومنذ ٤ أبريل/ نيسان ١٩٥٣، تاريخ توليدها امرأةً للمرة الأولى، حتى اليوم الأول من العام الماضي، ساعدت، حسب قولها، على توليد عشرة آلاف طفل ممن أتوا إلى العالم بمعاونة شخصٍ آخر يُعَدّ النصف. هذا ما قالته لك أيضًا. وفق تقديراتي، بالغت فيٍّ العدد قليلًا من دون شك، لكنَّها شهدت طبعًا ولادة ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف طفل. ودرّبت سبع تلميذات، تحمل إحداهن لقب «الأسد الصغير». وهذه الأخيرة، مع شعرِها الأشعث، وأنفها المسطح، وفمها الكبير، وحَبّ الشباب على وجهها، أجلَّت العمة إلى حدّ أنها، لو طلبت منها هذه الأخيرة أن تقتُل

أحدًا، لسارعت إلى التنفيذ، السكين في يدها، من دون أن تحاول السؤال: هل الأمر خدمة لقضية محقة أم لا؟

وعلى ما ذكرنا آنفًا، ففي ربيع عام ١٩٥٣، عارض عددٌ كبيرٌ من النساء عندنا طرق التوليد الجديدة. ويجب الأخذ في الحُسبان أيضًا التشنيع الذي غذته «القابلات العجائز» خلف الكواليس والشائعات التي أطلقنها. وعلى الرغم من أن العمة لم تكن تبلغ إلّا سبعة عشر عامًا آنذاك، جعلها مسارها الاستثنائي منذ الطفولة، ومركزها الاجتماعي أيضًا اللامع كالذهب، شخصية بارزة، محترمة، ذات تأثير قوي في مقاطعتنا دونغبي. سماتها، وهو أمر غنيّ عن الذكر، كانت خارجة عن المألوف. لن أتحدث عن رأسها، ولا وجهها، أو حتى أنفها وعينيها، لا، لن أذكر إلّا أسنانها. عندنا، مقدار الفلور مرتفع جدًّا؛ لذا، أسنان الجميع سوداء، أكانوا شبابًا أم مسنين. أمضت عمتي فترةً طويلة من طفولتها في منطقة جياودونغ العسكرية، شربت من مياه النبع، وتعلمت كذلك من جنود فرقة المشاة الثامنة تنظيف أسنانها، ولعل ذلك كان سببًا في حمايتها من التسوس. حُسِدَت على بياض أسنانها، خصوصًا من الفتيات.

أوَّل طفل ولَّدته عمتي، شين الأنف. وهو أكثر أمرٍ تحسَّرت عليه طوال حياتها. قالت إنه كان يجدر أن تعود هذه الولادةُ الأولى لسليل أحد الثوريين بدلًا من أن تأتي بالقذر هذا، ابن أحد كبار الملاكين العقاريين. ولكنْ في تلك الحقبة، من أجلِ حلحلة الوضع وتغيير وسائل الولادة القديمة، لم تفكّر طويلًا في المسألَة.

حين عَلِمَت أنَّ إي ليان بدأت المخاض، ركبت دراجتها النادرة الوجود في ذلك الزمن، حقيبة الإسعافات على ظهرها، ووصلت بسرعة

سهم. كيلومترات خمسة فصلت المستوصف عن القرية، قطعتها في دقائق عشر. كانت زوجة يوان الوجه، الأمين العام لخلية الحزب في القرية، تغسل الثياب على حافة نهر جياو، ورأت بأمّ العين العمة تطير تمامًا على الجسر الحجري الضيّق. واضطرب أحد الكلاب الذي كان يلعب على الجسر، فرمى بنفسه في الماء.

حملت العمة الحقيبة في يدها وهرعت إلى الغرفتين اللتين تسكنهما إي ليان في جناح المدرسة. تيان غيهوا، إحدى «القابلات العجائز» في القرية، سبقتها إلى المكان. كانت قد تجاوزت الستين، ومع فمها المدفوع إلى الأمام وخديها الأجوفين، كان وجهها مميزًا؛ اليوم، عادت إلى التراب، الرحمة لروحها! حين دخلت العمة إلى الغرفة، رأتها جالسةً على بطن إي ليان كمن يركب حصانًا، تزن بكل ثقلها وقواها على البطن الناتئ. عانت العجوز من التهاب مزمن في القصبة الهوائية، واختلطت تنهداتها بصرخات الخنزير المذبوح التي أطلقتها الماخض، ما خلق جوًّا مأساويًا مؤثرًا. ركع الملاّك شين الجبهة في زاوية، يدق رأسه من دون توقف على الحائط في حركةٍ تُذكّر بما يقوم به مسكين ليّن العريكة، يطرق جبينه بالأرض ليشفع أحد لأمره. ردّد طلبه من كلمات غير مفهومة.

زرت شين الأنف مرات كثيرة، لذا ترتيب الغرفتين مألوف لديّ. يُطلّ الجناح على الغرب، السقف منخفض جدًّا، والغرفتان ضيقتان. عند المدخل وُضِع موقد النار، ليرتفع وراءه جدار فاصل علوه سبعون سنتيمترًا، ووراءه كذلك كانغ القرميد. من اللمحة الأولى، أدركت العمة ما يحدث فوقه. أغضبها ذلك أو، وفقًا لعباراتها، «نَفَثَت نارًا على ارتفاع أمتارٍ عشرة». رمت حقيبة الإسعافات جانبًا، ووصلت بخطوةٍ

واحدة إلىِ الكانغ، قبضت بيدها اليسرى علي كتف العجوز اليسرى، فيما أمسَكت يدها اليمنى بعنف الكتف الأُخرى، أدارت القابلة بقوة إلى الوراء ناحية اليمين، وطرحتها أرضًا. ارتطم رأس العجوز بالمبولة الكبيرة، فاندلق البول وفاحت في الغرفة رائحة نتنة. أُصيبت العجوز في رأسها، وسال دم أسود من الجرح. في الواقع، لم تكن الإصابة بالغة، لكنَّ ذلك لم يمنعها من إطلاق صرخات حادة، مبالغًا فيها. لو سمعها أحدهم، لفقد وعيه، لكنَّ العمة شهدت ما يفوق ذلك، فلم تتأثر.

وقفت أمام الكانغ، ارتدت قفّازَيّ كاوتشوك وقالت لإي ليان بنبرةٍ خطيرة، منخفضة: «لا تبكي، لا تصرخي، لن ينفع ذلك. إذا أردت البقاء على قيد الحياة، أطيعيني، ونفّذي ما أقوله لك». توقفت إي ليان عن البكاء مندهشةً، وكانت تعرف طبعًا مركز العمة الاجتماعي المجيد والأسطورة التي تكلّل مسيرتها. وتابعت الأخيرة: «أنتِ في سنٍ متقدّمة للولادة، ووضع الوليد غير طبيعي. عادةً، يخرج الرأس أوَّلًا، وطفلك أخرج يدًا، وما زال الرأس في الداخل». منذئذٍ، لطالما سخرت العمة من شين الأنف قائلةً إنَّه مدَّ يده أوَّلًا، وكأنه يطلب شيئًا من هذا العالم، ليرُدَّ شين الأنف عليها: «كنت أتسوَّل الطعام، طبعًا!».

وعلى الرغم من أنَّ الولادة هذه هي الأولى التي تجريها العمة، فإنها ظلت هادئة. الحفاظ على رباطة الجأش عند وقوع الحدث منتهى الإبداع، ويقطع بصاحبه نصف الطريق ليصل إلى الأفضل على الصعيد المهني. كانت العمة طبيبة نسائية ومولدة موهوبة، تعمل بإلهام عند مزاولة مهنتها، ويداها تستشعران الأمور. جميع النساء اللواتي أسعفتهن في التوليد، أو اللواتي شاهدنها تباشر العمل، أضمرن لها إعجابًا حقيقيًّا. كثيرًا ما رددت لنا أمّي في حياتها: «يدا عمتك ليستا عاديتين. تكون

الأيادي العادية مرَّةً باردة، ومرَّةً دافئة، أحيانًا خدرة، وأحيانًا رطبة، ويدا العمة هما أنفسهما في كل الفصول: لينتان، باردتان باعتدال، لينتان وغير رخوتين، تميلان قليلًا... كيف يمكن قول ذلك...».

وكان شقيقي الأكبر المتعلّم يتدخل:

ـ وكأنهما إلى حدّ ما إبرتان مبطنتان بالقطن، أليس كذلك؟ يدٌ من حديد في قفازٍ من مخمل؟

ـ هما كذلك بالضبط، تجيب والدتنا، برودة يديها ليست كبرودة قطعة ثلج، إنَّها... إنَّها...

وكانت معلومات أخي تُسعف والدتنا مجددًا:

ـ إنَّها برودة خارجية تتسق مع دفء داخلي، بما يشبه الحرير، اليشم النفيس.

ـ وهو كذلك، هو كذلك تمامًا، توافق والدتنا، ما إن تضع يديها على جسم مريضة حتى يزول ثلثا المرض». بجَّلت نسوة الضيعة العمة فعليًّا، ورفعنها تقريبًا إلى مصاف الآلهة.

كانت إي ليان حسنة الطالع، لكنَّها كانت ذكية قبل أي شيء آخر. ما إن وضعت العمة يديها على بطنها، حتى أحست بالطاقة. بعد ذلك، كلَّما التقت أحدًا، قالت إن العمة لها وقار جنرالٍ كبير. مقارنةً بها، كانت المرأة التي تزعق ممدّدة قرب المبولة مضحكةً بصراحة. فإي ليان التي ألهمتها قامة العمة المهيبة وتفكيرها العلمي، استعادت الأمل، وتسلحت بالشجاعة؛ حتى ذلك الألم الذي مزَّق أحشاءها بدا كأنه تداعى كثيرًا. توقفت عن البكاء والعويل، نفذت ما تقوله لها العمة، تعاونت معها بأفضل ما يمكن، ووضعت ذلك الطفل صاحب الأنف الكبير.

لم يكن يتنفس، أمسكته العمة من رجليه، صفقت على صدره وظهره، حتى سُمِع بكاؤه الأشبه بالمواء. وقالت العمة: «كيف يمكن لهذا الصغير أن يملك أنفًا بهذا الحجم؟ يُخَيَّل إليَّ كأنه يانكي!». طار قلب العمة فرحًا، كمثل حرفي ماهر ينجز أثره الفنّي الأوَّل. وأنارت ضحكة مشرقة وجه الماخض المتعب. كان مفهوم الطبقية راسخًا في ذهن العمة، ولكن وهي تسحب الطفل من الرحم، نسيت الطبقات وصراع الطبقات، والسعادة التي غمرتها لم يحدّها شيء، فكان شعورها إنسانيًا صافيًا.

حين فهم شين الجبهة أنَّ زوجته الثانية قد ولدت صبيًّا، قام من زاويته. دار حول نفسه والموقد في الغرفة الضيقة، من دون أن يعلم ما يفعل. ترقرق من محجري عينيه الرخوين صفًّا دموع سالا على خديه بما يشبه خَطَيْ عسل. لم يعرف طريقة للتعبير عن الفرحة التي تغمره. تدافعت الكلمات على شفتيه، من مثل: «البخور... العشيرة»[1] ، من دون أن يجرؤ على لفظها، إذ لرَجُلٍ في وضعه، يُعَدُّ ذلك خطأً.

قالت العمة لشين الجبهة: «لهذا الطفل أنف كبير جدًا، فلنسمّه شين الأنف!».

كانت تلك مجرد مزحة منها، لكنَّ شين الجبهة قال وهو ينحني وكأنه تلقى فرمانًا إمبراطوريًّا: «شكرًا للعمة القلب على هذا الاسم! نعم، شكرًا جزيلًا! شين الأنف، اسم يرنّ جيدًا، سنسمّيه شين الأنف!».

وفيما بالغ شين الجبهة في الشكر، واستسلمت إي ليان للبكاء، رتبت العمة حقيبة إسعافاتها استعدادًا للمغادرة. لحظت آنذاك تيان

---

(١) يقيم بكر العائلة الشعائر الدينية إجلالًا للأجداد. من دون وريث ذكر، تندثر السلالة.

غيهوا تجلس، ظهرها إلى الحائط، قبالة المبولة؛ بدت نائمة. تساءلت العمة كم مضى من الوقت وهي على هذه الحال، ولم تتذكر كذلك متى توقفت العجوز عن الصراخ الذي تقشعر له الأبدان. وأخبرت العمة لاحقًا أنّها ظنتها ميتة، ولكنْ، عند رؤية عينيها الشبيهتين بعيني هر تطلقان وميضًا أخضر في الغرفة، فهمت أنَّها حية تُرزق. انتابها إذذاك غضب عارم. سألت: «ماذا، ألم ترحلي بعد؟»، لتُجيب الأُخرى، على عكس أي توقّع: «قُمْتُ بنصف العمل، وأنتِ بالنصف الآخر، وكان يجب ألّا أتقاضى إلّا نصف أتعابي: منشفة وخمس بيضات، ولكنْ بما أنّكِ دفعتني وجرحت رأسي، واحترامًا لوالدتك، لن أتقدّم بشكوى ضدك أمام السلطات، وستعطينني المنشفة الأُخرى لأضمّد جرحي، والبيضات الخمس الباقية لأستعيد قواي». تذكّرت العمة عندها أنّ «القابلات العجائز» يطالبن عائلة المولّدة بأجر، وهذا أشعرها بالكره حيالهن.

«عار، هذا عار!» قالت العمة وهي تصرف أسنانها غضبًا. «كيف هذا، قمتِ بنصف العمل؟ لو تصرفت بمفردك لحظينا الآن بجثتين على الكانغ! أيتها الساحرة الشمطاء! هل تعتقدين أن رحم المرأة كقفا الدجاجة، يكفي أن تضغطي على البطن ليقفز الطفل منه على ما تفعل البيضة من مؤخرة الدجاجة؟ هذه ولادة برأيك؟ لا، هذا اغتيال! وتريدين التقدم بشكوى ضدي؟».

وركلتها العمة العجوز على حين غرة فأصابت ذقنها. «وتطلبين أيضًا منشفة وبيضًا!». رفسة جديدة، على مؤخرتها هذه المرة. من ثمّ، وفيما حملت حقيبة الإسعافات بيد، قبضت بالأُخرى على شعر العجوز المجمع خلف عنقها، وجرّتها إلى وسط الباحة الخارجية. وإذ تبعهما

شين الجبهة، متوسلًا أن تهدآ وتتصالحا، قالت له العمة بحنق: «عُد من حيث أتيت! اذهب واهتم بزوجتك!».

أكّدت العمة أنّها المرة الأولى التي تضرب أحدًا في حياتها، ولم تتوقع أن تبادر إلى الأمر بهذه السهولة. ركلت العجوز مرة جديدة على مؤخرتها. تدحرجت الأخيرة، وقفت، وجلست ثمّ بدأت العويل بأعلى صوت، لتُشهِد السماء والأرض على ما تقول، وهي تلطم التراب بكفيها: «النجدة! يضربونني... ابنة وان الستة ملتقيات، تلك الفظة، تضربني حتى الموت...».

كان النهار يدنو من نهايته، والشمس تغيب، وغيوم الغروب تتلألأ، والنسيم ينفخ بهدوء، وقد حمل معظم أهل القرية قصعاتهم في أيديهم، وتناولوا طعامهم وقوفًا في الطريق، وحين سمعوا الضجيج الصادر من ناحيتنا، تحوّلوا خببًا صوبنا. ووصل أيضًا يوان الوجه، الأمين العام لخلية الحزب في القرية، ولو السن، قائد اللواء الكبير. كانت تيان غيهوا إحدى عمات الأخير البعيدات، وعلى الرغم من ذلك، تبقى قريبته، فقال: «وان القلب، ألا تخجلين فعلًا أنتِ الشابة من ضرب امرأة عجوز؟».

وقد قالت لنا العمة: «ما كان لو السن ذاك؟ وحش مِن فرط ما يضرب زوجته، تدبّ على يديها ورجليها، ويجرؤ على تأنيبي؟».

فأجابت توًّا: «كيف ذلك، امرأة عجوز؟ مسخ عجوز قُلْ، روح شريرة! اسألها قليلًا، نعم، اسألها ما الذي قامت به؟».

وتابعت مكلّمةً العجوز: «كم شخصًا تُوفي بسببك؟ ولذا لو ملكت مسدسًا، أنا المرأة المسنّة، لقتلتك فورًا!». مدّت العمة سبّابة يدها اليمنى ووجّهتها إلى رأس القابلة. يومها لم تكن العمّة قد تجاوزت السابعة عشرة، فأثار جوابها الأخير ضحك جزء كبير من الحضور.

وفيما أراد لو السن الاستمرار في الدفاع عن تيان غيهوا، أعلن يوان الوجه، الأمين العام لخلية الحزب: «لم ترتكب الطبيبة وان أي خطأ، وتجدر معاقبة ساحرات مماثلات يتلاعبن بحيوات الآخرين بشدة! تيان غيهوا، لا تتمسكني، لم يكن الدرس قاسيًا، والأجدى بنا سجنك. بدءًا من اليوم، سنطلب الطبيبة وان لأي عملية توليد! وإذا تجرأتِ تيان غيهوا على العمل مجددًا، فسنقطع رجليك!».

ووفق العمة، فإن يوان الوجه، على الرغم من قلة ثقافته، رأى بوضوح كيف تتجه الأمور واتخذ موقفًا عادلًا، وتصرّف كموظف جيد.

٤

سيدي العزيز، أنا ثاني طفل ساعدت العمة في توليده.

حين دخلت والدتي المخاض، ووفق التقاليد القديمة، غسلت جدتي يديها وبدّلت ثيابها، وأشعلت ثلاثة عيدان من البخور وضعتها على طاولة الأجداد، طرقت جبينها بالأرض ثلاث مرات، وطردت جميع الرجال من المنزل. لم تكن تلك ولادة أمي الأولى، فقد وضعت صبيين وفتاة قبلي. قالت لها جدتي: «يشبه الأمر في نظرك قيادة عربة خفيفة في طريق مألوف، انطلقي وحيدةً وبهدوء». أجابت والدتي: «لست بخير أمي، أشعر بأن الأمر مختلف هذه المرة». لم يبدُ أن الجدة توافقها الرأي، فأضافت: «ماذا يعني ذلك؟ هل تحاولين إقناعي بأنّكِ ستلدين ليكرنة[١]؟»

---

(١) حيوان أسطوري له جسم حصان بقرن واحد.

لقد شعرت أمي فعلًا بالوضع المريب. ففيما خرج الرأس بدايةً عند ولادة إخوتي الكبار، أخرجتُ أنا إحدى رِجلَيّ.

تقززت جدتي خوفًا عند رؤية هذه الرجلِ الصغيرة. في الواقع، يقول مثل مأثور في قريتنا: «مَنْ يُخرج ساقًا أوَّلًا، يحمل روح دائن». وتعني تلك العبارة أن العائلة التي لم تفِ بديونها في حياةٍ سابقة، يتجسّد دائنها في المولود، لتدفع الثمن الماخض عند الولادة، فإما يجرّها معه إلى الموت، وإما يموت في عمر محدّد، مسبّبًا لعائلته خسائر مادية جسيمة، إضافةً إلى الآلام المعنوية. وعلى الرغم من ذلك، تمكنت جدتي من الحفاظ على رباطة جأشها، وقالت: «هذا الطفل مؤهل لأن يكون ساعي بريد، حين يكبر، سيعمل تحت قيادة ضابط». وتابعت: «لا تخشي شيئًا، خطرت لي فكرة». خرجت إلى الفناء وأحضرت وعاءً نحاسيًا، حملته بيد، ووقفت أمام الكانغ تدق عليه بالشوبك وكأنّه صنج. «دونغ، دونغ!»، وهي تدق، صرخت: «اخرج، هيا، اخرج... يطلب منك أبو جدّك أن تسلّم رسالة مستعجلة، إن لم تخرج، فستحظى بفلقة معتبرة...».

أدركت أمي خطورة الوضع، فتناولت المكنسة المهيأة لتنظيف الكانغ وضربت بها النافذة، وصرخت بشقيقتي المترصدة في الفناء: «ابنتي، اركضي سريعًا واجلبي عمتك!».

كانت أختي الكبرى ذكية جدًا، ركضت إلى مكتب يوان الوجه ليشغّل هاتفه ويتصل بالمستوصف. استحوذتُ على هذا الهاتف القديم ذي المقبض للتدوير. فقد أنقذ حياتي.

لقد كنا في اليوم السادس من الشهر السادس، وشهد نهر جياو فيضانًا صغيرًا. غمرت المياه سطح الجسر، ولكنْ من جراء الرغوة التي

تحدثها الحجارة، أمكن تبيان موضعه. ورأى دو العنق، موظف الخدمة العاطل عن العمل الذي كان يتسلى بالأسماك على حافة النهر، كيف قطعت عمتي السد قبالته؛ رفعت عجلات دراجتها الزبد بعلو متر وأكثر. كان التيار عنيفًا، وبإمكان النهر أن يجرفها، ما يعني عدم مجيئي إلى هذا العالم سيدي العزيز.

اندفعت إلى منزلنا، مبللة.

وأخبرتني والدتي أن وصول العمة أتى بمثابة مهدئ لقلبها. قصّت عليّ كيف أنها، عند دخولها، دفعت جدتي إلى زاوية من الغرفة وقالت لها بنبرة ساخرة: «عمتي، كيف سيجرؤ على الخروج مع أصوات الصنوج والطبول هذه؟»، فصمدت جدتي في وجهها: «يعشق جـ يع الأطفال الاستعراضات، ألن يدفعه ذلك إلى الخروج؟». روت عمتي لاحقًا أنّها قبضت على ساقي وشدّت، واستأصلتني من هناك كمن يقتلع لفتًا من الأرض. عرفت أنّها تمزح. بعد هاتين الولادتين الأوليين، غدت والدة شين الأنف وأمي المروّجتين بالمجّان لمهارات العمة. أنّى حضرتا، قدمتا أنفسهما مثالًا، فيما أثنت زوجة يوان الوجه، وكذلك دو العنق البطال، أمام جميع من قابلتا، على شجاعة عمتي وإنجازاتها على الدراجة، ما أكسب الأخيرة شهرةً مدويّة؛ أمّا «القابلات العجائز»، فلم يعد أحد يطلب خدماتهن، وأصبحن أطلالًا من الماضي.

لقد شهدت البلاد في المرحلة الممتدة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٧ ارتفاع نسبة المواليد، وكانت حقبة ازدهار اقتصادي. وفي ناحيتنا كذلك، أتى الطقس مؤاتيًا للحصاد، وكانت الغلال وافرة لأعوام متتالية. أكل الناس شبعتهم، وارتدوا الملابس الدافئة، وعمّ بينهم السرور، وحبلت النسوة

وأنجبن ما استطعن. أمّا العمة، فأنهكت نفسها في العمل. حفرت آثار عجلات دراجتها في كل طريق وزقاق من القرى الثماني عشرة التابعة لمقاطعة دونغبي، كما آثار دعساتها في معظم أفنية مساكنها.

ومن ٤ أبريل/نيسان ١٩٥٣ حتى ٣١ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٧، تدخلت ألفًا وستمئة واثنتي عشرة مرة من أصل ألف وستمئة وخمس وأربعين ولادة، توفي خلالها ستة أطفال، خمسة منهم ولدوا ميتين، فيما كان الأخير مصابًا بمرض وراثي. يُعدّ ذلك تاريخًا مشرفًا، دنت فيه من الكمال.

وفي ١٧ فبراير/شباط ١٩٥٥، التحقت العمة بالحزب الشيوعي الصيني. وولّدت في ذلك النهار الطفل الألف. وكان هذا المولود رفيقنا لي اليد.

قالت لنا العمة إنَّ معلمة مدرستنا أكثر امرأة تصرفت بأناقة بين جميع الحوامل اللواتي ولّدتهن. فيما جرى العمل، انصرفت إلى تحضير الدروس، والكتاب في يدها.

وحين حلَّت الشيخوخة، تذكَّرت العمة كثيرًا تلك الأيام. كان عصر الصين الذهبي، وعصرها كذلك. لا أذكر كم مرَّة استَسلمت لأحلام اليقظة العذبة وقالت وعيناها تلمعان: «في تلك الحقبة، اعتُبِرتُ إنسانًا كاملًا، بوديساتفا(*) حيًّا. كنتُ إلهة الخصب التي تجلب الصبيان، انبعث من جسدي أريج الزهر، ورافقتني أسراب النحل، وأطياف الفراشات كذلك. واليوم، حسنًا، لا يتبعني اليوم إلّا الذباب الفاجر...».

(*) حسب البوذية، إنسان بلغ غاية الكمال، فلا يحتاج إلى التقمّص.

وقد اختارت العمة اسمي أيضًا: فاسمي كطالب وان القدم، واسمي المُعطى لي عند الولادة، الخبب الوئيد(*).

اعذرني سيدي العزيز، يحتاج ذلك إلى بعض التوضيح: وان القدم هو إذًا اسمي الأصلي، والشرغوف اسمي المستعار ككاتب.

٥

لقد انتظرت العمة طويلًا السن التي يبدأ فيها الحديث عن الزواج. في الواقع، تقاضت راتبًا، وكانت موظفة، وأكلت حبوبًا من السوق[١]، إضافةً إلى أنَّها كانت من طبقة اجتماعية مجيدة، فلم يجرؤ أي شاب صغير من القرية على التفكير بها. في تلك الآونة، كنت قد بلغت الخامسة، وسمعت غالبًا والدتها تتحدث وجدتي عن هذا الزواج. قالت الأولى، والقلق بادٍ عليها: «يا عمتها[٢]، انظري قليلًا في الأمر، بلغت القلب الثانية والعشرين، والفتيات في سنّها لديهن طفلان على الأقلّ، فيما هي لا أحد يطلبها للزواج، ما الذي يحدث؟»، وتجيب جدتي: «يا زوجة أخي، لمَ أنت على عجل؟ شابة مثل القلب، من يدري أنَّها لن تدخل القصر لتصير إمبراطورة! تصبحين أنتِ حماة الإمبراطور، ونغدو نحن أقارب العائلة الإمبراطورية، ومن المؤكد أن ذلك سيعود علينا بالفائدة!»، وترد أخت الجد على ذلك بالقول: «هذه كلّها ترّهات!

(*) عَدْوُ الفرس.

(١) أي تمّ شراؤها، ولم تزرعها المعنية.

(٢) نوع من التسمية الشعبية القائمة على درجة القرابة. وبالطريقة نفسها، فالرجل الذي تُسمّى ابنته القلب، يمكن أن يتوجه إلى زوجته بالقول: «والدة القلب».

خُلع الإمبراطور عن الحكم منذ زمن طويل؛ يدير الجمهورية الشعبية اليوم رئيس». وتجيب جدتي بحدة: «حسنًا، في هذه الحال، نزوّج القلب للرئيس». وتستشيط أخت جدي غضبًا: «آه منك أنتِ، تعيشين في العصر الجديد، ولكنّ تفكيرك ظلّ على ما هو قبل التحرير». وتقول جدتي: «طوال حياتي، لم أغادر قرية هبينغ، لست مثلكِ، زرتِ المناطق المحررة، وأقمتِ في قرية بينغدو». وترد أخت جدي: «لا تأتي على ذكر هذه المدينة أمامي، مجرد سماع اسمها يصيبني بالحساسية! خطفني اليابانيون الأشرار، وعُذّبت هنالك كثيرًا، لم أمضِ فيها وقتًا ممتعًا!...».

وهكذا، كان ينتهي الأمر بالقريبتين تتشاجران. وتغادر أخت جدي غاضبة، كأنّها لا تريد أن ترى جدتي في حياتها، لتعود في اليوم التالي. وكلّما رأتهما والدتي تناقشان زواج العمة بهذه الطريقة، ضحكت في سرّها.

وأذكر يومًا، وقد بدأ يحل المساء، ولدت بقرتنا، ولا أدري إن كانت البقرة تشبّهت بأمي أو العجل قلّدني، المهم أنّه أخرج قدمًا بدايةً وظلّ محشورًا في الداخل. ضاق نفس البقرة، وراحت تخور، وبدا أنها تتألم بشدة. قلق جدي ووالدي إلى أقصى حد، ضربا أخماسهما بأسداسهما، ضربا الأرض بأرجلهما، دارا حول أنفسهما، ولم يعرفا إلى أي قدّيس يتضرّعان. فالبقرة للفلاح حياته، علاوةً على أن فريق الإنتاج أودعنا هذه، فلو ماتت، لأتت العواقب وخيمة. قالت والدتي بهدوء لأختي: «بنيَّتي، سمعت أن عمتك قد عادت»، وقبل أن تنهي كلامها، انطلقت شقيقتي راكضة. نظر والدي بازدراء إلى أمي وقال لها: «تتصرفين بغباء، إنّها تلد النساء!»، لترد والدتي: «بين البشر والحيوانات، الأمر سواء».

ووصلت عمتي خلف أختي.

وما إن دخلت، حتى انفجرت غضبًا: «تريدون إذًا قتلي بالعمل، وكأنه لا يكفيني البشر، تريدونني أن أساعد بقرةً في الولادة!».

قالت لها والدتي وهي تضحك: «يا أخت زوجي الصغيرة، أهي غلطتنا إن كنتِ جزءًا من العائلة؟ وإلى مَنْ سواكِ يمكننا أن نلجأ؟ يقول الجميع إنّكِ إنسان كامل تجسّد بشحمه ولحمه، والإنسان الكامل في الحقيقة يساعد كل الكائنات على عبور محيط الوجود، ينقذهم من دون استثناء، ومع أن البقرة حيوان، فإنها كائن حيّ في النهاية، والموت ينتظرها، ألن تنقذيها؟».

وأجابت العمة: «يا زوجة أخي الكبيرة، من حسن الحظ أنك أميّة، لو تعلمت قفتَيْن من الكلام، كيف كان يمكن لقرية هبينغ أن تجاريك؟».

- حتى لو تعلَّمت ثماني قفاف من الكلام، لما وصلت إلى عقب أختي الصغيرة.

وعلى الرغم من أن تعابير الحنق لم تختفِ عن وجه عمتي، فإن غضبها قد خفّ كثيرًا. وكان المساء قد حلّ تمامًا، فأضاءت أمي كل القناديل، ورفعت فتائلها وحملتها إلى الزريبة.

عند رؤية العمة، طوت البقرة قائمتيها الأماميتين، وركعت. أمام هذه الحركة، تدفقت دموع العمة بغزارة. وبكى جميع الحاضرين بدورهم.

فحصت العمة البقرة، وقالت بنبرة تمزج الرقة بالمزاح: «يأتينا آخرُ يخرِج ساقه بدايةً».

وقد طردتنا إلى الفناء، خوفًا من أن تزعجنا رؤية ما سيحدث. سمعناها تعطي الأوامر بصوت عال، وتخيلنا المشهد: والدانا تحت إشراف العمة، يساعدون جميعًا البقرة على الوضع. كان ذلك المساء اليوم الخامس عشر في التقويم القمري، وفيما ارتفع القمر ناحية الجنوب الشرقي، وغرق الكون في نور فضي، صرخت العمة: «حسنًا، لقد وُلد!».

وتدافعنا إلى الطاحونة التي تقوم مقام الزريبة نهلل فرحًا لنرى، وراء البقرة، كائنًا صغيرًا يغطيه سائل لزج. وأشار والدي بحماسة: «هذا رائع! إنها عِجلة صغيرة!».

وتذمرت العمة: «الأمر غريب فعلًا، عندما تلد المرأة بنتًا، يكفهر وجه زوجها، ويعبس، لكن إذا وضعت بقرته عجلة، تنفرج أساريره بابتسامة كبيرة!»

وأجاب والدي: «لأن العجلة لاحقًا يمكنها أن تضع!».

ـ والبشر؟ الطفلة الصغيرة عندما تكبر، ألن تلد أطفالًا أيضًا؟

ـ يختلف الأمر تمامًا.

ـ بمَ يختلف الأمر؟

حين رأى والدي أن العمة قد بدأت تحتد، أنهى الحديث.

أدارت البقرة رأسها، ولعقت طويلًا السائل اللزج عن جسم العِجلة. بدا لسانها يحمل دواءً سحريًا، إذ حيث مرَّ، نفخ قوةً. تابعنا المشهد متأثرين جدًا. راقبت العمة بطرف عيني، كان فمها مفتوحًا جزئيًا، ونظرتها مملوءة حنانًا، كأن لسان البقرة يداعبها أيضًا، أو كأنها بلسانها، تلحس الحيوان الصغير. حين لعقته أمّه البقرة كاملًا، وقف الأخير على قوائمه، يرتجف.

ذهبنا نبحث عن وعاء كبير، ملأناه ماءً، وأحضرنا كذلك صابونةً، ومنشفة، لتغسل العمة يديها.

وجلست جدتي أمام الموقد، تؤجّج النار بالمنفخ، وأمي، أمام الكانغ، تمدد العجين لتحضير المعكرونة.

غسلت العمة يديها وأعلنت: «أموت من الجوع! هذا المساء، سأتعشى معكم».

قالت والدتي: «ولكن، أنت في منزلك هنا، أليس كذلك؟».

وأضافت جدتي: «تمامًا، ألم نتقاسم طويلًا الطنجرة نفسها؟».

وفي تلك اللحظة، نادت أخت الجد ابنتها من خلف الجدار في الطرف الآخر من الفناء لتأتي وتأكل معها. فردت العمة على والدتها:

«لن أعمل لهم من دون مقابل، أريد أن آكل هنا».

«عمتُكِ تكابد لتعيش، فإذا تناولت صحن معكرونة عندها، فستتذكر ذلك طوال حياتها»، على ما أجابتها والدتها.

ركضت جدتي نحو الجدار، تحمل مضرم النار بيدها، وقالت:

ـ إن كنت ترغبين في تناول صحن، فتعالي، وإلّا فاذهبي!

ـ لن أتناول في حياتي شيئًا أعددته أنتِ!

حين نضجت المعكرونة، عبّأت أمّي صحنًا كبيرًا وطلبت من أختي أن تأخذه إلى أخت جدي. وعرفت بعد أعوام أن أختي، لفرط سرعتها، وقعت إلى الأمام ككلب يزحط على البراز، فاندلقت المعكرونة، وانكسر الصحن. وكي لاً تُعاقب الصغيرة، أخذت أخت الجد صحنًا من خزانة مطبخها وأعطتها إياه.

لقد كانت العمة ثرثارة كبيرة، وعشِقنا سماعها تروي الحكايات.

حين أنهت المعكرونة، أسندت ظهرها إلى الحائط، جلست جانبيًا على حافة الكانغ، وفتحت صندوق كلماتها. زارت عددًا لا يُحصى من المنازل، وتعرفت إلى كل أنواع البشر، وسمعت كمًّا هائلًا من النوادر المضحكة؛ ومتى أخبرتها بدورها، لم تتوان عن إضافة مكوناتها الخاصة إليها، لتأتي قصصها جذابة مثل قصص الرواة. في بداية الثمانينيات، عندما شاهدنا على التلفزيون مسلسل الروايات التي سردها ليو لانفانغ، أبدت أمي هذه الملاحظة: «أليس نسخةً طبق الأصل عن عمتك؟ لو لم تختر الطب، لكانت راوِيةً ناجحة!».

بدأت حكايتها تلك الليلة، مرّةً أُخرى، بالطريقة التي قارعت بها القائد الياباني سوجيتاني بالحنكة والشجاعة في بينغدو. «لم أكن تجاوزت السابعة»، رمقتني العمة بنظرةٍ، وتابعت: «كنت تقريبًا بعمر الخبب الوئيد، وقد تبعت أمي وجدتي إلى بينغدو. حين وصلنا إلى هناك، أُسِرنا في غرفة معتمة، حرس مدخلها كلبان كبيران من فصيلة العسبور. غذاء هذين الحيوانين الهائلين عادةً هو اللحم البشري، وعند رؤية الطفلة التي كنت، مدّا لسانيهما. بكت أمي وجدتي طوال الليل، أما أنا فلا، ما إن أويت إلى الفراش، حتى نمت توًا، لأستيقظ في وقت متأخر جدًا في اليوم التالي. لا أدري كم نهارًا وليلًا بقينا مأسورات في هذه الغرفة المعتمة قبل أن نُقاد إلى فناء صغير مستقل. كان فيه شجرة ليلك، عطرها مذهل، أثملني! وصل أحد وجهاء القرية يرتدي ثوبًا صينيًا طويلًا وقبّعةً رخوة، وبلّغنا أن القائد سوجيتاني يرغب في دعوتنا إلى مأدبة. لم تفعل أمي وجدتي شيئًا غير البكاء، ولم تجرؤا على قبول الدعوة. فتوجه إليّ وجيه القرية: «يا آنستي الصغيرة، حاولي إقناع جدتك ووالدتك، قولي لهما ألّا تخافا، فالقائد سوجيتاني لا يريد

أذيّتكن، ويرغب فقط في أن يصبح صديق وان الستة ملتقيات». قلت عندها لأمي وجدتي: «جدتي، أمي، توقفا عن البكاء، لن ينفعنا ذلك بشيء. هل يُنبِتُ لنا ذلك أجنحة؟ هل يُساعد ذلك في انهيار السور العظيم؟» صفّق الوجيه: «أحسنت القول! الآنسة الصغيرة حاذقة جدًا، حين تكبر، ستصبح شخصًا لا قرين له». وبفضل جهودي في الإقناع، توقفت والدتي وجدتي عن البكاء. تبعنا وجيه القرية، وصعدنا في عربة يجرّها بغل أسود. بعد عدد غير محدود من الدورات والمنعطفات، دخلنا إلى منزل كبير له بوابة عالية يحرسها رجلان: إلى اليسار، صاحب «بشرةٍ صفراء»،[1] وإلى اليمين، جندي ياباني. وامتد المنزل من فناء إلى فناء، حتى خُيّل إلينا أننا لن نرى نهاية هذه السلسلة من المباني. أخيرًا، دخلنا إلى صالة استقبال حيث كانت الأبواب والنوافذ والحواجب مشغولة بإتقان، وكان هنالك أيضًا كراسيّ بمرفقين من خشب الصندل. ارتدى القائد سوجيتاني كيمونو، وحمل بيده مروحة حرّكها بإيقاع معيّن، وأدركنا من النظرة الأولى أنه رجل مثقف. بعد تبادل بضع كلمات جوفاء، دعانا إلى الجلوس حول مائدة دائرية حملت أندر المأكولات. لم تجرؤ أمي وجدتي على استخدام العيدان، أما أنا فلم يردعني شيء عن الانقضاض على تلك الأشياء اللعينة! وبما أن الأكل بالعيدان غير عملي، استخدمت بحرية «مغرفتَيَّ البنيويتين»، فالتقطت الطعام ملء يدي وحشوته في فمي. حمل سوجيتاني كأس المشروب الكحولي بيد، وراقبني آكل مبتسمًا، عيناه نصف مغمضتين. حين شبعت، مسحت يدي بغطاء الطاولة، وشعرت برغبةٍ في النوم. سمعت عندها سوجيتاني يسألني:

---

(١) جندي صيني انضم إلى اليابانيين.

ـ آنستي الصغيرة، لو أتينا بوالدك إلى هنا، ألن تكون فكرة جيدة؟

فتحت عيني وأجبت: كلا!

ـ ولماذا؟

ـ والدي في الفرقة الثامنة، وأنت ياباني، والفرقة الثامنة تقاتل اليابانيين، ألا تخشى أن يأتي والدي ويهاجمك؟

حين وصلت إلى هذه النقطة من قصتها، رفعت العمة كمّها ونظرت إلى ساعة يدها. في تلك الحقبة، لم نكن لنجد أكثر من عشر ساعات يد في كل مقاطعة غاومي، والعمة ترتدي واحدة! واو! صرخ شقيقي الأكبر مذهولًا، وكان الوحيد في العائلة الذي سبق أن رأى ساعة يد. تابع دروسه في المدرسة الثانوية العالية الأولى في المقاطعة، وأستاذه في اللغة الروسية الذي درس في الاتحاد السوفياتي، ارتدى واحدة. بعد أن علّق بهذه الطريقة، قال: «ساعة يد!» فرددت وشقيقتي وراءه: «ساعة يد!».

أنزلت العمة كمّها بانزعاج: «حسنًا، ما الأمر، ليست سوى ساعة يد، فلمَ تصرخون بهذه الطريقة؟» زادت تلك اللامبالاة المدروسة من حماستنا. أوّل من جسّ النبض كبيرنا: «عمتي، لم أرَ إلّا من بعيد ساعة يد أستاذنا جي... أتسمحين لي برؤيتها...»، لنعيد وراءه: «عمتي، دعينا نرَها قليلًا!».

فقالت العمة وهي تضحك: «يا لزمرة العفاريت تلك، ساعة يد سيئة كهذه، بمَ تثير اهتمامكم؟» وعلى الرغم من ذلك، فكّتها من معصمها وناولتها لأخي البكر.

وحذرته أمي الجالسة قربنا: «انتبه عليها!»

أخذ أخي الساعة بتأنّ، وضعها بداية في كفه ليتفحصها جيدًا، وقرّبها من ثمّ من أذنه. حين اكتفى من النظر إليها، مررها لشقيقتي التي أعطتها من ثمّ لشقيقي الكبير الآخر. لم يتسنَّ للأخير إلّا إلقاء نظرة عليها. وقبل أن يحملها إلى أذنه أخذها البكر من بين يديه ليعيدها إلى العمة. استأت كثيرًا وبدأت البكاء، فوبّختني والدتي.

وقالت العمة: «الخبب الوئيد، حين تكبر ستحقق الكثير، فهل تظن أنك ستبكي يومها لأنك لا تملك ساعة يد!».

ـ أتظنين ذلك فعلًا؟ هو؟ يرتدي ساعة يد؟ سأرسم ذات يوم واحدة بالحبر على معصمه، قال أخي البكر.

ـ لا يمكن الحكم على الناس من خلال مظهرهم، كما لا يمكن قياس البحر بمكيال القمح. إن كان الخبب الوئيد بشعًا، فذلك لا يعني أن مستقبله لن يكون رائعًا، قالت العمة.

ـ لو كان ذلك صحيحًا لاستطاع الخنزير الذي في الحظيرة أن يغدو نمرًا، قالت أختي.

وسأل بكرنا:

ـ عمتي، أين صُنِعت هذه الساعة، وما هي ماركتها؟

ـ في سويسرا، ماركتها إريكار.

ـ واو! صرخ أخي الكبير متعجبًا.

ـ واو! صرخت أختي وأخي الآخر بدورهما.

فقلت غاضبًا: «أيتها الضفادع القبيحة!»

وسألت والدتنا:

ـ أختي الصغيرة، كم يبلغ ثمن شيء كهذا؟

ـ ليس لديّ أدنى فكرة، ردت العمة، أحد الأصدقاء أهداها إليّ.

ـ أي نوع من الأصدقاء يبلغ به الأمر ليهدي إليك شيئًا غالي الثمن إلى هذا الحد؟ سألت أمي وهي تراقب شقيقة زوجها بتمعن، هل يكون عم الأولاد؟

وقفت العمة وقالت: «يكاد الليل ينتصف، آن وقت النوم».

ـ حمدًا للسماء والأرض، أختي الصغيرة ارتبطت أخيرًا!

ـ إياكِ أن تخبري الجميع بالأمر، لم يُقرأ طالعنا الفلكي بعد![1] استدارت العمة وأمرتنا بإلحاح: «وأنتم كذلك، إياكم أن تخبروا أحدًا بالأمر وإلّا سلخت جلودكم وأنتم أحياء!»

في اليوم التالي، رسم شقيقي البكر على معصمي ساعة يد بقلم الحبر، بعد أن بكّته ضميره لأنه لم يسمح لي برؤية ساعة يد العمة في الليلة السابقة. أمكن القول إنها حقيقية لشدة إتقانها. اعتنيت بها أيّما عناية. فتحاشيت تبليلها عند غسل يدي، وحميتها من المطر؛ وكلّما بهت لونها استعرت قلم شقيقي البكر وأعدت تلوينها. واحتفظت بها بهذه الطريقة ثلاثة أشهر على معصمي.

٦

ولقد كان الشخص الذي قدّم الساعة للعمة طيارًا في سلاح الجو. وأن يكون المرء طيارًا في سلاح الجو في تلك الحقبة ليس أمرًا عاديًا!

---

(١) من أجل تحديد موعد الزواج، يُستشار عرّاف. يختار يوم فأل وفقًا للرموز الثمانية التي تدل على تاريخ ولادة الزوجين المستقبليين: اثنان، على التوالي، للعام، والشهر، والنهار والساعة.

عند إعلان الخبر صاح إخوتي الكبار «واو، واو» بما يشبه نقيق الضفادع، فيما وثبت أنا عدة وثبات.

لم نكن الوحيدين الذين فرحنا بهذا الحدث السعيد، فقد غمر السرور المقاطعة كلها. رأى الجميع أن العمة والطيار يشكلان زوجين فريدين. السيد وانغ، طباخ المدرسة الذي شارك في الحرب التي هدفت إلى دعم المناوئين لأميركا في كوريا، قال إن الطيارين من ذهب. «بشري مصنوع من الذهب، هل ذلك ممكن؟»، سألته مستغربًا. وفي حضور الأساتذة والموظفين الإداريين الذين يتناولون طعامهم هناك، أجابني: «وان الخبب الوئيد، أنت أخرق فعلًا، ما أردت قوله أن تعليم الطيّار يكلف البلاد مبلغًا هائلًا يوازي ثقله ذهبًا، حوالى سبعين كيلوغرامًا». عند عودتي إلى المنزل نقلت لوالدتي حرفيًّا كلمات السيد وانغ، فهتفت: «يا إلهي! عندما يزورنا، كيف نكرمه؟».

وهكذا، دارت بيننا، نحن الأولاد، كل أنواع الأساطير عن الطيارين. قال شين الأنف إن والدته رأت طيارين سوفيات في هربين، وقد ارتدوا جميعهم قمصانًا من الفرو، وأحذية عالية الساق من المادة نفسها. كانت أسنانهم من ذهب، وكانوا يضعون في معاصمهم ساعات من ذهب، ويأكلون الخبز الروسي والنقانق ويشربون الجعة. كسياو الشفة السفلى (الذي غيّر اسمه لاحقًا إلى الصيف ـ الربيع[1])، ابن كسياو الشفة العليا، أمين مخزن الحبوب، أعلن أن الطيارين الصينيين يأكلون أفضل حتى من زملائهم السوفيات، وعدّد لنا أطباقهم، وكأنه مَن يُعِدّ لهم الطعام: عند الفطور، بيضتان، وكوب حليب، وأربع قطع زلابية،

---

(١) تلاعب بالألفاظ (جناس) على تماثل الأصوات في اللغة الصينية بين «الشفة السفلى» و«الصيف ـ الربيع» (كسياشون).

ورغيفا خبز مخبوزان على البخار، وقطعة توفو مخمرة؛ ظهرًا، صحن يخنة باللحم، وسمكة لوت، ورغيفان كبيران؛ مساءً، دجاج مشوي، خبزتان محشوّتان بلحم الخنزير واثنتان أُخريان محشوتان بلحم الضأن وكوب من عصيدة الدخن. وبعد كل وجبة، وفرة من الفواكه: موز، تفاح، إجاص، عنب... وما يبقى منها، يمكن أخذه إلى المنزل. لِمَ تحمل سترة الطيار جيبين كبيرين؟ ليضعٍ فيهما الفواكه... تلك الحكايات عن حياة الطيارين أسالت لعابنا طويلًا. حلمنا جميعًا أن نصبح طيارين حين نكبر، أن نحيا تلك الحياة الكريمة، الجديرة بالخالدين.

وللتجند طيارًا في سلاح الجو، كان يجب الالتحاق بالمدرسة الثانوية الأولى في المنطقة، فتسجل فيها شقيقي الكبير بحماسة طافحة. عمِل جدي مزارعًا عند أحد ملاكي الأراضي، وأجيرًا زراعيًّا من ثمَّ، وكان أيضًا ناقل جرحى بالمحمل في جيش التحرير، شارك في معركة منغليانغو[1]، وهو من نقل جثمان زانغ لينغفو من الأعالي.

وتأتي جدتي لأمي، من جهتها، من عائلة فلاحين فقراء، ويضاف إلى ذلك أخو جدي، الشهيد الثوري، مما يجعل منزلة أصلنا وروابطنا الاجتماعية تفوق المستوى العادي. في المدرسة الثانوية، كان شقيقي الكبير رياضيًا من الطراز الرفيع، رامي قرص. ففي أحد الأيام، تناول على الغداء في المنزل ذنب ضأن دسمًا جدًا، وعند عودته من المدرسة، احتار كيف يصرف طاقته الزائدة، فما كان منه إلاّ أن التقط قرصًا ورماه بكل قوته؛ قطع القرص وهو يصفر سور المدرسة باتجاه أحد الحقول. صودف في تلك اللحظة فلاح في المكان يحرث الأرض مع ثوره، فوقع القرص

(١) حملة دارت في أيار/مايو ١٩٤٧ في جبال ييمنغ في شاندونغ وانتهت بانتصار جيش التحرير الشعبي على قوات الكومينتانغ.

تمامًا من دون أن يحيد عن مساره على قرن الحيوان وقصه في الحال.

لقد كان لأخي الكبير إذًا خلفية اجتماعية جيدة، تعلّم جيدًا، تمتع بصحة بدنية ممتازة، علاوةً على أنّ عمّه بالمصاهرة طيار أيضًا، لذا اقتنعنا جميعًا بأن سلاح الجو، وإن لم يقبل إلّا مرشحًا واحدًا من مقاطعتنا، فلن يكون إلّا شقيقي الكبير. لكنّ ذلك لم يحصل، فقد حمل في الواقع على ساقه ندبة دملة أصابته طفلًا. وقال وانغ العجوز، طباخ المدرسة: «لا يمكن أن يصبح المرء طيارًا مع ندبة على جسده إذ يمكن أن تنفتق على العلو بسبب الضغط الجوي، وإذا تجاهلنا موضوع الندبة، إن لم يكن منخراك متشابهين، فذلك مستحيل أيضًا».

باختصار، مذ بدأت قصة حبّ عمتي مع الطيار، أصبحنا شديدي الحساسية تجاه كل ما يتعلق بسلاح الجو. وراهنًا حتى، وعلى الرغم من أنني تخطيت الخمسين، ما زلت متباهيًا بالقدر نفسه، أحب أن أتباهى بنفسي، وإن ربحت مئة يوان في اليانصيب، يجب عليّ أن أجد مذياعًا هائل الحجم لأعلن الخبر في المدينة بأسرها. إذًا، فكّر في الأمر قليلًا، حظيتُ، أنا التلميذ الصغير، بعمّ طيّار بالمصاهرة، لذا يمكنك أن تتخيّل إلى أي حدّ تبخترت!

كان مطار جياوزو يقع على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من منزلنا جنوبًا، ومطار غاومي على بعد ثلاثين كيلومترًا غربًا. كانت طائرات الأوّل كبيرة وثقيلة، وكلها سوداء؛ سمعنا الكبار يقولون إنها قاذفات صواريخ. وكانت طائرات مطار غاومي رمادية فضية، أمكنها طي أجنحتها قليلًا وترك سحب دخان وراءها، لتترك أشكالًا في السماء.

قال شقيقي الكبير إنها جاي-٥ [1]، المبنية تشبّهًا بالميغ ١٧ السوفياتية، الطائرات المقاتلة الحقيقية، تلك نفسها التي طاردت الطائرات الأميركية وأرعبتها في الحرب الكورية. قاد عمنا بالمصاهرة بالتأكيد إحدى المقاتلات تلك. سيطر في تلك الحقبة جوّ قوي من الحرب، وحلّقت طائرات مطار غاومي يوميًّا للتدريب. وما كانت تكاد تطوي أجنحتها، حتى تصير فوق مقاطعتنا دونغباي، لتصطف في وضع قتال في الجو. تفاوت عددها بين ثلاث وست. أحيانًا كانت إحداها تقوم بالدوران مطاردةً أُخرى، أو تهبط فجأة نحو الأسفل، ومتى دنت مقدمتها إلى حد ملامسة قمة شجرة الحور العالية في قريتنا، استقامت الطائرة سريعًا واخترقت السماء على ما يفعل طائر المرزة. وفي أحد الأيام، سمعنا فجأة دوي انفجار في الجو...

لقد أخبرت العمة عن إحدى المرات التي كانت تولّد فيها امرأةً كبيرة في السن؛ فالماخض، لشدة خوفها، أصيبت بتشنجات. وفي اللحظة التي تقرر فيها إخضاعها للجراحة، دوّى انفجار في الخارج، فانتفضت المرأة من الخوف، وفقدت انتباهها، واختفت انقباضاتها، وقامت بجهدٍ ووضعت مولودها...

ارتجّ ورق نوافذ كل المنازل وتمزّق. جمدنا من الخوف، وبعد لحظة خبلٍ، ركضت المعلمة معنا لنخرج من الصف ورؤوسنا كلّها مرفوعة نحو السماء. شاهدنا طائرة في السماء الزرقاء، تأتي في المقدمة، تجر خلفها شيئًا على شكل أنبوب، وتتبعها طائرات أُخرى. وحول الأنبوب، ظهرت أوّلًا دوائر سميكة من الدخان الأبيض، وترامى من ثمَّ إلى مسامعنا قصف مدفع. لكنّ الأصوات تلك لم تكن بقوة

---

(١) جيان-٥، «إكسترمينايتور-٥».

الانفجار الذي وقع بدايةً، وهو الثاني من نوعه الذي سمعته؛ حتى الصاعقة القادرة على قصف صفصافة كبيرة جزأين لا تصدر ضجيجًا بهذا القدر. بدا أن الطيارين يتقصدون منع سقوط هذا الهدف المقطور، ورزم الدخان الأبيض الصادرة عن انفجار تلك القنابل تحوطها فقط من دون أن تمسها، إلى أن غابت عن أنظارنا. قال شين الأنف بازدراء، مداعبًا أنفه الذي أكسبه لقب «روسكوف الصغير»: «تقنية الطيارين الصينيين أدنى بكثير من المعدل. لو كان الطيارون السوفيات مكانهم، لأصابوا الهدف من الطلقة الأولى!...».

وأدركت أن كلماته تمليها الغيرة التي يشعر بها تجاهي، لأنّه وُلد في قريتنا ونشأ فيها ولم يرَ في حياته كلبًا سوفياتيًّا حتّى، فكيف يمكنه أن يعرف أن تقنية الطيارين السوفيات أفضل من تقنية زملائهم الصينيين؟

في تلك الحقبة، لم نعرف، نحن أطفال القرية النائية، أن العلاقات الصينية السوفياتية تتدهور. وعلى الرغم من أن ملاحظة شين الأنف عن تفوق الطيارين السوفيات لم ترُقنا كثيرًا، خصوصًا في ما خصني، لم نذهب في الأمر إلى أبعد من ذلك. بعد أعوام، انفجرت الثورة الثقافية، وكنا في السنة الخامسة في المدرسة الابتدائية، فكشف عندها رفيقنا كسياو الشفة السفلى أبعاد هذه القصة القديمة. ولم يقاسِ الأمرّين شين الأنف وحده، بل دفع والداه الثمن وعُذّبا طوال حياتهما. وُجدت في منزلهم أثناء تفتيشه روايةٌ سوفياتية عنوانها «رجل حقيقي»، تحكي قصة بطل من سلاح الجو، بعد أن فقد قدميه، عاد إلى الطيران. ووفق ما قيل، كانت رواية ثورية بحق وحماسية إلى أقصى حد، ولكن، بعكس أيّ توقع، قيل إن إي ليان، والدة

شين الأنف، كانت عشيقة الطيار التعديلي[1] ، وإن شين الأنف، ابن الزنى، هو الدليل على جرمهما.

وإن كانت المقاتلات جاي-٥ التابعة لمطار غاومي تتدرب نهارًا، فطائرات جياوزو، من جهتها، لم ترضَ الرضوخ والبقاء صامتة... إذ كانت تقلع كل مساء تقريبًا، حوالى الساعة التاسعة ـ الموعد الفعلي لنهاية بث إذاعة المقاطعة. كانت تُضاء كشافات أنوار المدرج فجأة. وحتى إن خفتت قوة الأنوار الساطعة متى سُلطت فوق قريتنا، فإنها لم ترعبنا أقل. غالبًا ما كنت أتفوّه بحماقة في غير محلها من نوع: «آه، لو ملكت مصباح جيب كهذا، لكان الأمر رائعًا!...».

«غبي!»، أنّبني شقيقي الثاني الكبير حين سمعني أقول أمورًا من هذا النوع، وفي الوقت نفسه، ضربني بقوة، وأصابعه مطويّة، على قمة رأسي. طبعًا، بسبب ذلك العم بالمصاهرة الطيار، أصبح شقيقي الثاني الكبير نصف خبير في شؤون الطيران، أمكنه غيبًا ومن دون عائق تعداد أسماء أبطال سلاح الجو المتطوعين، والإخبار عن إنجازاتهم بكل دقة. وهو من علمني كذلك يومًا، وقد احتاج إليّ لأنقي القمل من رأسه، وقبل أن أنفذ العمل، أن الصوت الهائل الذي رجّ ورق النوافذ ومزّقه يسمّى «انفجارًا صوتيًا»، ويحدث عندما تخرق الطائرات المتجاوزة سرعة الصوت جدار الصوت.

ـ وماذا يعني خرق جدار الصوت؟

ـ يعني أن ذلك يحدث عندما تطير الطائرات أسرع من الصوت! أيها الأخرق!

---

(١) في تلك الحقبة، اتهمت الصين الاتحاد السوفياتي بالتعديلية، وهي حركة ماركسية تؤيد التطور.

ومتى نفذت طائرات جياوزو مناوراتها، غدت أهم ما يمكن رؤيته، في ما عدا أشعّة كشافات الأنوار المذهلة. قال البعض إن الأمر لا يتعلق بتنفيذ تدريبات، بل تضاء لإرشاد الطائرات التي ضلّت طريقها. كانت المصابيح الهائلة تمسح السماء، لتتقاطع عرضًا، أو تسير بخط متوازٍ؛ وغالبًا ما كان يظهر عصفور في شكل مفاجئ وسط الضوء ويطير في كل الاتجاهات، مذعورًا... ليُخيّل أنه ذبابة سقطت في قنينة. بعد دقائق على ظهور الكشّافات، كان يُسمع هدير الطائرات في الجو. وما يكاد يمضي وقت قليل، حتى تصل إلى النور آلة سوداء كبيرة، تحدد أطرافها الغامضة في شكل مميز أضواء الرأس، والذنب والجناحين. كانت تبدو وكأنها تريد الرجوع إلى خمّها، وهي تنزل، منسحبةً على طول الشعاع ذلك. والحقيقة أنّ الطائرات، كما الدجاج، تملك خمًّا.

٧

في النصف الثاني من العام ١٩٦٠، أي بعد تذوُّقِنا الفحم، انتشر خبر زواج العمة القريب بالطيّار. من أجل حلّ مسألة المهر، اجتازت أخت جدي السياج للتشاور مع والدتي في الأمر، وتقرّر نتيجة محادثتهما قطع شجرة الكتلبة المعمرة خارج السور، والطلب من أفضل نجار في القرية، واسمه فان، صنع الأثاث. رأيت فعلًا والدي يقيس الشجرة مع النجار؛ والكتلبة الخائفة من أن تُقطع ترتجف بكل أغصانها، وترتعش أوراقها. بدا أن الشجرة كاملةً تئن.

ولكنْ من ثمّ، لم تعد تردنا أي معلومة عن الموضوع، وغابت العمة طويلًا عن القرية. ركضت عند أخت جدي للحصول على أنباء،

فطردتني من دون مداراة وضربتني بعصاها. أدركت فجأة أنها شاخت جدًا وصارت تُشبه أولئك «القابلات العجائز» في الحكايات الشعبية.

وفي اليوم الذي تساقط فيه الثلج للمرة الأولى ذلك العام، كانت الشمس حمراء تمامًا. تجمدت أطرافنا ونحن نسير إلى المدرسة بأحذية من قش. ركضنا في الملعب وصرخنا لعلنا ندفأ. فجأة، سمعنا هديرًا مرعبًا في الجو. رفعنا رؤوسنا فاغرين أفواهنا لنرى مسخًا ذا لون أحمر أدكن، يجر خلفه دخانًا أسود، عيناه الحمراوان مفتوحتان على وسعهما، ويكشّر عن أسنان كبيرة بياضها مخيف. كان المسخ يرتجف بكل هيكله ويندفع مباشرةً نحونا. إنها طائرة، يا للهول، طائرة! هل نوت، مصادفةً، أن تحطّ في الملعب الرياضي؟

لم نرَ يومًا طائرة من هذه المسافة القريبة. عصف الهواء الصادر من جناحيها بريش الدجاج وأوراق الشجر اليابسة. لو بإمكانها أن تحط في الملعب الرياضي! كنا دنونا منها وشاهدناها، قرّبنا يدنا ولمسناها، وهناك احتمال أن يحالفنا الحظ ويُسمح لنا بالتسلل إلى بطنها لنتسلى، ومَن يدري، قد يخبرنا الطيار قصّة قتالٍ خاضه. لا بد أن يكون رفيق سلاح عمنا بالمصاهرة، أو لا، فطائرة الأخير أجمل بالتأكيد من هذه المركبة الثقيلة، إذًا طيارها ليس رفيق سلاح عمنا. ولكنْ، في كل الأحوال، إمكان قيادة آلة مشابهة أمر مثير للإعجاب، أليس كذلك؟ كيف لا يكون بطلًا من يقدر أن يُطيّر في الجو هيكل المعدن هذا؟

لم أرَ من جهتي وجه الطيّار، ولكن أقسم بعض رفاقي بكل صدق، أنهم شاهدوه من زجاج غرفة القيادة...

وتلك الطائرة التي ظننت أنها ستحط بالتأكيد في الملعب الرياضي رفعت أنفها وكأنها مرغمةً، واستدارت فجأةً يمينًا، ولامس بطنها قمة

الحورة الكبيرة شرق القرية، وغطست في حقل القمح القريب من الشجرة. سمعنا صوتًا هائلًا أقوى بكثير من دوي اختراق جدار الصوت. شعرنا حتى بالأرض تهتز تحت أرجلنا، طنّت أذاننا، ورأينا نجوم الظهر. علا دخان كثيف فورًا، محيطًا عمود نار أحمر أدكن، وارتدى ضوء النهار لونًا قرمزيًّا، وشممنا توًا رائحة غريبة، خانقة.

استغرقنا استرجاع أنفاسنا وقتًا لا أدري كم طال. هرولنا نحو طرف القرية. وحين بلغنا الشارع الرئيس، هاجمتنا موجات الحرارة الحارقة. انفجرت الطائرة ألف قطعة، وانغرز أحد جناحيها في الأرض في شكل مائل كأنه مشعل ضخم. اندلع في حقل القمح حريق عنيف، وتصاعدت رائحة جلد محروق. وقع آنذاك انفجار آخر كبير، فصرخ السيد وانغ صاحب الخبرة في هذا المجال: «انبطحوا!».

نفّذنا الأمر، وبتوجيه منه زحفنا إلى الوراء. «بسرعة! هنالك قنابل تحت الجناح!».

علمنا في ما بعد أنه تحت جناحي تلك الطائرة يمكن عادةً تحميل أربع قنابل، ولكنْ في ذلك النهار لم يكن هنالك إلا قنبلتان، وإلّا لَأُبِدْنا جميعًا.

ذهب والدي مع رجال القرية الآخرين إلى المطار في اليوم الثالث بعد الحادث، يدفع كل منهم عجلة يدوية، ليجمعوا حطام الطائرة ويعيدوا رفات الطيّار؛ وفيما هم عائدون، ركض أخي البكر ودخل المنزل منقطع الأنفاس. هذا الرياضي الكبير أتى بلا توقف من المدرسة الثانوية الأولى في المقاطعة، وتُعدّ مسافة خمسة وعشرين كيلومترًا سباق ماراثون تقريبًا. حين دخل الفناء، لم يلفظ أكثر من كلمة

واحدة: «العمة...»، قبل أن يسقط مغشيًّا عليه، عيناه مقلوبتان، تسيل من فمه رغوة بيضاء.

حاوطته العائلة تُسعفه، فقرصوا وجهه، ويده بين الإبهام والسبابة، وقرعوا صدره قرعًا خفيفًا.

ـ ما بها عمتك؟

ـ ما الذي حصل للعمة؟

استعاد وعيه أخيرًا، زمّ شفتيه، وبدأ بالبكاء.

عبّأت أمي نصف قرعةٍ ماءً من الجرّة، سقته بعضه ودلقت الباقي على وجهه.

ـ قُلْ بسرعةٍ، ما بها عمتك؟

ـ طيّار عمتي... هرب كخائنٍ على متن طيارته...

وانزلقت القرعة من بين يدي والدتي، وسقطت أرضًا حيث تكسرت قطعًا.

«فرَّ إلى أين؟»، سأل والدنا.

«إلى أين برأيك؟»، مسح شقيقي البكر الماء عن وجهه بكمه وتابع يكز على أسنانه: «إلى تايوان! الخائن، الوسخ، هرب جوًّا إلى تايوان، ليلجأ إلى تشيانغ كاي ـ تشيك[1]».

ـ وعمتك؟ سألت والدتنا.

ـ أخذها عناصر من مكتب الأمن العام في المقاطعة، قال شقيقي.

كرّت الدموع من عيني والدتي، وأشارت علينا: «يجب ألّا تعرف

---

(١) شانغ كاي ـ تشيك

نهائيًا بالأمر أخت جدكم، وإيّاكم أن تتفوّهوا بحماقات في هذا الشأن أمام الناس».

ـ في كل الأحوال، المقاطعة بأسرها على علم بالخبر.

حملت والدتي من الغرفة الداخلية يقطينة كبيرة وناولتها لشقيقتي وهي تقول: «هيا، رافقيني إلى منزل أخت جدك».

بعد قليل، عادت اختي مهرولةً تلهث، ونادت فور دخولها الفناء: «جدتي، تريدك أمي أن تأتي حالًا، فأخت جدنا في أسوأ حالاتها!».

٨

بعد أربعين عامًا، كسيانغكون، أصغر أبناء شقيقي البكر، «تجنّد في سلاح الجو». طبعًا، تغيّر مجرى الكون، والأمور الكثيرة التي كانت في ما مضى مقدسة إلى حد تكلفتك حياتك صارت في أيامنا محط مزاح؛ والمهن التي كانت تنتزع الإعجاب في تلك الحقبة ما عادت تحظى بأي تقدير، وعلى الرغم من ذلك، ظل «التجند في سلاح الجو» حدثًا سعيدًا يثير حماسة العائلات وغيرة الجيرة. ولذا فشقيقي الذي تقاعد آنذاك من منصب مدير التربية، عاد خصيصًا إلى القرية لإعداد مأدبة على شرف الأهل والأصدقاء، من أجل الاحتفال بالحدث.

أُقيم العشاء في فناء شقيقي الآخر، حيث مُدّ كابل من المنزل عُلّق فيه مصباح كهربائي كبير أنار المكان وكأننا في وضح النهار. قُرّبت طاولتان إحداهما من الأخرى ووُضع حولهما حوالى عشرين كرسيًا، وجلسنا جنبًا إلى جنب. طُلِبت الأطباق من المطعم، أصناف أكل شهيّة، ملونة، غنية باللحم والسمك، متبّلة بطرق مختلفة. قالت زوجة شقيقي،

وقد تخلّت عن لهجة مدينة يانتي: «الطعام عادي جدًا، من دون مجاملة»، فلامها والدنا: «يجب ألّا تقولي ذلك، في حقبة الستينيات مثلًا، لم يكن الرئيس ماو ليحظى بأطباق كهذه». فقال ابن أخي الذي أقيمت الدعوة على شرفه: «جدّي، لمَ تفتح دفاتر التاريخ القديم؟».

بعد ثلاث دورات من الشرب، استأنف والدنا: «لعائلتنا طيّارٌ أخيرًا، جرّب والدك حظه، وإذ فشل، فبسبب ندبة الدملة تلك في ساقه، وحقق كسيانغكون هذا الحلم العائلي».

فقال الأخير وعلامات عدم الرضى تبدو عليه: «أن تكون طيارًا ليس أمرًا خارقًا، مَن يملكون القدرات فعلًا يصبحون أرباب الوظائف العليا أو كبار الأثرياء!».

«كيف يمكنكم التفوه بأمور مماثلة؟»، وأمسك والدنا بكلتا يديه كأس مشروب روحي، شربه جرعةً واحدة، ووضعه من ثمّ على الطاولة مع قرقعة قوية، وأضاف: «الطيّار بمثابة تنين أو فينيق بين البشر؛ في ما مضى، وانغ كسياوتي، الرجل الذي اختارته أخت جدك، بدا إذا وقف كصنوبرة، وجالسًا كجرس من البرونز، وإذا مشى، أثار عاصفة حوله... الظريف الصغير، لو لم يطر إلى تايوان في لحظة تخلّ، مَن يدري إن لم يكن الآن قائد القوات الجوية...».

ـ آه، حسنًا، حدثت قصة من هذا النوع؟ سأل كسيانغكون. ألا يصنع زوج العمة تماثيل من الصلصال؟ من أين أتى ذلك الطيّار؟

فقال له والده: «هذه قصة قديمة، يجدر بنا ألّا نتناولها».

واستأنف كسيانغكون: «لمَ لا؟ سأقصد العمة وأسألها، أن يهرب وانغ كسياوتي إلى تايوان بالطائرة أمر مثير!».

أجابه والده وقد بدت عليه علامات القلق: «حسنًا، لا تتحمس كثيرًا في هذا الشأن تحديدًا، يجب أن يحب المرء بلده والأمر ينطبق أكثر على مَن يخدم في الجيش، ويزيد أكثر إن كان طيارًا. يمكن للبشري أن يسرق، وينهب، ويحرق، ويقتل... أخيرًا، ما أريد قوله، يجب ألّا يكون خائنًا، مَن يصبح خائنًا يكن محط احتقار الأجيال الطالعة، وينتهِ نهاية سيّئة».

ـ يبدو أنني أرعبتك، ردّ كسيانغكون بلهجة ازدراء، لأنّ تايوان هي في النهاية جزء من البلد، وزيارتها بالطائرة لإلقاء نظرة عليها ليست أمرًا سيئًا.

ـ إيّاك أن تقوم بذلك! قالت والدته. إذا خطرت لك أفكار كهذه، فالأفضل ألّا تعمل طيارًا. حسنًا، سأتصل لاحقًا بالقائد ليو في مديرية قوات المقاطعة.

ـ لا تجزعي أمي، قال ابن أخي، أتظنّينني أبله؟ هل تجدينني أنانيًا لا أسعى سوى لإرضاء نفسي من دون أن أفكر بكم؟ وراهنًا، بات الحزب الشيوعي والكيومندانغ عائلة واحدة، فإذا طرت إلى هناك، أُجبروا على إعادتي إلى هنا.

ـ تلك هي تقاليدنا، نحن آل وان، قال شقيقي، كان وانغ كسياوتي نذلًا، ودنيئًا، وغير مسؤول، ومن دون مبادئ، وقد دمّر حياة أخت جدك.

ـ هل تتحدثون عني؟ قال صوت جهوري؛ ظهرت العمة فجأة من دون تكلف، وأجبرها ضوء المصباح القوي على إغماض عينيها. استدارت وارتدت نظارة صغيرة سوداء منحتها مظهرًا مميزًا ومضحكًا

في آن واحد. «ما حاجتكم إلى هذا المصباح الكبير؟ على ما قالت جدة جدكم، حتى لو أكلنا على الدسدسة في الظلام، فلن نضع الطعام في أنوفنا. تُنتج الكهرباء بفضل الفحم، والفحم تستخرجه يد الإنسان، وليس مهمّةً سهلة العمل على عمق ألف متر تحت الأرض، إنه الجحيم. فالموظفون الجشعون وحكام المقاطعات الفاسدون هم أسياد البئر السوداء، وحياة عمال المناجم لا تساوي أكثر من حفنة تراب. كل قطعة فحم مترعة بالدم!»، قالت ذلك وقد وضعت يدها اليمنى على وركها، إبهام وبنصر وإصبع يدها اليسرى الصغير مطويّة، فيما الإصبعان الأخريان مجموعتان وممدودتان إلى الأمام، كانت ترتدي بزة من «الذكرون» لضابط في الجيش راجت جدًا في السبعينيات، رفعت كمّيها عاليًا، وكانت مكتنزة، وشعرها شائب، يُخيّل للناظر أنها موظف إداري في بلدية المقاطعة من الحقبة الأخيرة للثورة الثقافية. انتابتني كل أنواع المشاعر: هكذا غدت عمتنا التي كانت تشبه في الماضي زهرة لوتس على صفحة الماء.

حين وجب علينا أن نقرر في مسألة دعوة العمة إلى المأدبة أو لا، تردد شقيقي وزوجته، وناقشا الأمر مع والدي الذي أطرق في التفكير لحظةً قبل أن يقول: «الأفضل التخلي عن هذه الفكرة، هي حاليًا... في أي حال، لم تعد تسكن في قريتنا... سنتكلم في الأمر لاحقًا».

حضور العمة أشعرنا بالحرج. وقفنا جميعًا مذهولين، حائرين.

«كيف يحدث أنني، بعد أن جهدت باستمرار في الخارج طوال حياتي، أعود إلى مسقط رأسي ولا أجد مكانًا شاغرًا لي؟»، قالت العمة بنبرةٍ لاذعة.

وتفاعلنا جميعًا، وسادت البلبلة ثواني، إذ أراد كل واحد منا أن يُجلسها مكانه.

وقد حاول أخي وزوجته أن يوضحا الأمر من دون توقف:

ـ أوّل شخص أردنا دعوته أنت، والمركز الأول في تسلسل عائلة وان القديمة سيظلّ لك أبدًا؟

ـ كفاك كلامًا! قالت العمة وقد ألقت بثقلها على الكرسي إلى جانب والدي، وتابعت مناديةً شقيقي الكبير باسمه: «الفم، أنتَ، البكر، ما دام والدك على قيد الحياة، فهذا المركز ليس لي، سيبقى الحال كذلك حتى بعد وفاته! الابنة المتزوجة، أشبه بمياه غير صالحة، أليس كذلك يا شقيقي الكبير؟».

ـ ولكنّك ابنة غير عادية، أنتِ الشخصية الكبيرة البارعة في عائلتنا، أجاب الأخير، وأشار إلى جميع الجالسين ليسأل: «مَن من بين الحاضرين من الجيل الجديد لم يولد بفضل عنايتك؟».

ـ الباسل لا يذكر شجاعته القديمة، قالت العمة، حين أتذكر الماضي... ما النفع من ذكر الماضي؟ دعونا نشرب! ولكن كيف؟ ألا توجد كأسٌ لي؟ لقد أحضرت معي مشروبًا كحوليًا! وأخرجت العمة من جيبها الكبير قنينة «ماوتي» ووضعتها بفظاظة على الطاولة وهي تقول: «عمر هذه القنينة خمسون عامًا. قدمها لي موظف كبير من مدينة تينغلان. تمنت عشيقته التي تصغره بثمانية وعشرين عامًا أن تلد صبيًا، وقالت إنني أملك وصفة سرّية لأحوّل جنس الجنين من أنثى إلى ذكر، وأصرّت على أن أقوم بالتحويل! أوضحت لها أن هذا الكلام كاذب، فلم أستطع أن أثنيها عن رأيها؛ بكت بكاءً مريرًا، ورفضت المغادرة،

وتوسّلت إليّ شبه راكعة. أخبرتني أن زوجة الموظف ولدت ابنتين، وإذا وضعت له هي مولودًا ذكرًا، فسيصير رجلها. فالموظف في الواقع يكره النساء وعقليته إقطاعية إلى أقصى حد. من يظن أن وعي الموظفين الحكوميين يزيد عندما تعلو مراتبهم، جاهل!»، وتابعت العمة، حانقةً: «في أي حال، هؤلاء الأشخاص يكسبون المال بطرقٍ ملتوية، فإن لم أغشهم، فمَن أستطيع أن أخدع إذًا؟ حضّرت لها بضعة أعشاب طبية، تسعة طرود، خلطت فيها حشيشة الملاك، وانيام الصين، وجذر الريهمانيا، والسوس، ولا أدري ماذا بعد، كل كمشة منها بعشرة قروش، وكل ما تكلفته لا يتجاوز ثلاثين يوان. طلبت منها مئة يوان للطرد، وكانت سعيدة جدًا إذ خرجت سريعًا بخطوات قصيرة نحو سيارة حمراء وانطلقت بسرعة البرق. بعد الظهر هذا، أتى الموظف وعشيقته يحملان ابنهما الضخم ليشكراني وقدّما لي المشروب الكحولي والسجائر ذات الجودة العالية. قالا إنّه لولا وصفتي السحرية لما رُزقا بصبي جميل إلى هذا الحد! ها ها ها»، قهقهت العمة، وتناولت الكأس التي وضعها شقيقي باحترام أمامها، وشربتها بجرعة واحدة، خبطت من ثم على فخذها وقالت: «يفرحني الأمر. يُفترض أن يملك هؤلاء الموظفون حدًّا أدنى من الثقافة، فكيف يمكنهم أن يكونوا أغبياء إلى هذه الدرجة؟ وكأن باستطاعة المرء تغيير جنس الجنين؟ لو ملكت تلك القدرات، لحزت جائزة نوبل منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ املأوا كأسي!»، قالت العمة وهي تطرق كأسها الفارغة على الطاولة. «لن نفتح قنينة الـ «ماوتي»، سنتركها لشقيقي الكبير...».

وأردف والدي سريعًا: «طبعًا لا، إذا شربت هذا النوع من الكحول، فسأتلف أمعائي، وأقع في ورطة». دسّت العمة القنينة بين يديه وقالت:

«أعطيك إياها وعليك أن تشربها». وفيما بحث والدي عن شريط القنينة الساتان، سأل بحذر: «ما سعر قنينة كهذه؟». أجابت زوجة أخي الكبيرة: «أقلّه، ثمانية آلاف يوان! ويقال إن سعرها ارتفع أخيرًا...».

ـ يا إلهي، قال والدي، هذا ليس مشروبًا روحيًّا! لن يبلغ سعر ريق التنين أو دم الفينيق هذا المبلغ! تُكلّف ليبرة القمح أربعة وثمانين سنتيمًا، أي إن القنينة توازي عشرة آلاف ليبرة قمحًا؟ حتى إن عملت بكدّ طوال عام، فلن أستطيع شراء قنينة نصفية! أعاد والدنا القنينة إلى العمة، قائلًا: «الأفضل أن تأخُذيها، لن أشرب نوع الكحول هذا، قد يضرّ بحصتي من العمر[1]».

ـ بما أنني أعطيتك إياها، عليك أن تشربها. هذه القنينة لم تكلفني قرشًا واحدًا، وإن لم تشربها، فأنت الخاسر. يذكرني هذا بالمأدبة التي أقامها على شرفنا في الماضي العفريت الياباني في بينغدو، لو رفضت طلبه يومها، لفوّت فرصة جيدة؛ بقبولي الدعوة، أكلت الكثير من دون أن أدفع قرشًا. فلمَ كان عليّ أن أرفض؟

ـ الأمر مقنع، ولكنْ، بعد التحقيق والتروّي، باسم ماذا تكلف تلك الكمية الضئيلة من السائل الحارق هذا الثمن الباهظ؟

ـ يا شقيقي الكبير، لم تفهم شيئًا من القضية. أقول لك، الذين يشربون هذا الكحول لا يشترونه، لو كان عليهم دفع الثمن من جيوبهم، فبالكاد يستطيعون تحمّل ثمن هذا. تناولت العمة كأسًا منه بكلتا يديها وشربتها بجرعة واحدة مجددًا.

---

(١) هناك اعتقاد سائد بأن كلّ شخص يُستقبل بحفاوةٍ واعتبار، يقلّ عدد أعوام حياته المتوقّعة.

«لقد تخطيتَ الثمانين، وإن أطلقت العنان لنفسك في الشرب، فهل تظن سيطول الأمر؟».

ربّتت العمة صدرها وقالت بجسارة:

ـ في حضور الجيل الفتي، أنا شقيقتك الصغرى المسنة، سأقول لك شيئًا هائلًا: من الآن فصاعدًا، سأزودك بالـ «ماوتي»! ممَّ نخاف؟ في ما مضى، خفنا من الذئب أمامنا والنمر وراءنا، وكلّما ازداد خوفنا، ازدادت أسباب خوفنا... هيا، صبّوا لي كأسًا! هل أنتم قصار النظر أم ماذا؟ هل يؤلمكم أن تعطوا كحولكم؟

ـ وكأن الأمر ممكن! عمتي، اشربي ما طاب لك...

ـ طبعًا، لكنني ما عدت أتحمّل الكحول، قالت العمة بحزن، حين أتذكر الماضي، يوم كنت مع الفاسدين أولئك في البلدية الشعبية، نتنافس من يشرب أكثر، وكان يظن أولئك الموظفون الكبار أنني سأقدم لهم استعراضًا، ونهايةً، كنت أُسكرهم إلى حد تخديرهم، ليتدحرجوا تحت الطاولة وينبحوا مثل الكلاب!... هيا، أيها الشباب، افرغوا الكأس بجرعة واحدة!

ـ عمتي، كلُي شيئًا...

ـ لِمَ؟ في تلك الحقبة، كان أخو جدكم يشرب نصف قنينة من كحول الـ «سورغو» مع فص ثوم قصبي فقط. فالشارب المحترف لا يتناول اللحم، ولا السمك، ولا الخضر. أنتم جميعًا شلة شرهين!». ففكّت العمة التي بدأ الكحول يدفئها أزرار سترتها، ربتت كتف شقيقها، وأضافت: «أخي الكبير، طلبت منك أن تشرب، وعليك أن تنفذ الأمر. لم يبقَ من جيلنا غيرنا نحن الاثنين، لنأكل ونشرب إذًا، فما النفع من ادخار المال؟ المال المكدّس مجرد قطع ورق، وقد وُجِد

ليُصرف. لدينا مهنة، فلمَ نخاف من العوز؟ مهما كان منصب الشخص مهمًا، فسينتهي به الأمر ليقع فريسة المرض ويأتي لأعاينه. والأهم، وانفجرت هنا العمة في الضحك، أملك تلك التقنية الهائلة في تغيير جنس الجنين، لأحوّله من أنثى إلى ذكر، وتلك التقنية ليست أمرًا سهلًا، وسنطلب منهم عشرة آلاف يوان لتنفيذها، وسيدفعون المبلغ بكل طيبة خاطر...

ـ نعم، ولكنْ، إذا استخدمت العلاج وولدت فتاة على الرغم من ذلك، فماذا تفعلين؟ سأل والدي قلقًا.

ـ أنتَ لم تفهم إذًا، أجابت العمة. ألم تفقه ما هو الطبيب الصيني التقليدي؟ هو نصف عالم بالغيب، أي قارئ بخت يستطيع بعد صولات وجولات أن يُفحم زبونهً، ولكنْ هو، هل يتورّط بشيء؟

استغل ابن أخي كسيانغكون الفرصة في تلك اللحظة، فيما العمة تشعل لفافة تبغ، وسأل:

ـ أخت جدي، هل باستطاعتك أن تخبرينا عن الطيار؟ من يدري، قد يخطر لي يومًا أن أزوره في تايوان!

ـ إنك تقول أي شيء! ردّ أخي.

ـ وقح! قالت زوجة أخي.

دخنت العمة بحركات تنم عن خبرة، وحامَ بعض الدخان حول شعرها الأشعث.

«عندما أفكر في الأمر الآن...»، وأفرغت العمة ما بقي من الكحول في كأسها وتابعت: «نعم، هو من كسرني، ولكن هو أيضًا من أنقذني!».

أخذت العمة بضع أنفاس من لفافتها، ثمّ نقفت، بالإصبع الوسطى، عقب اللفافة. رسم العقب قوسًا أحمر داكنًا قبل أن يحط بعيدًا على الدالية المعرشة. «حسنًا... لقد شربت كثيرًا، سأترككم وأعود إلى المنزل». وقفت، وبدا جسمها المهيب متعبًا، وتوجهت نحو البوابة الرئيسة وهي تترنح. سارعنا في اللحاق بها لمساعدتها. قالت: «هل تظنون أنني ثملة؟ أبدًا، أنا، عمتكم، بمقدوري أن أشرب ألف كأس من دون أن أسكر». ورأينا، أمام الباب، عمنا بالمصاهرة، هاو اليدين الكبيرتين، حرفي فن النحت على الفخار الذي حاز قبل فترة قصيرة لقب «المعلم الكبير للحرف الفنية الشعبية»، ينتظر هناك، بهدوء وصمت.

٩

سيدي العزيز، في اليوم التالي، عاد ابن أخي خصيصًا من قاعدة المقاطعة على دراجته النارية، وطلب من جدّه أن يأخذه عند العمة، كي يحصل على معلومات عن قضية وانغ كسياوتي. قال له والدي مرتبكًا: «الأفضل ألّا نذهب، فقد قاربت العمة السبعين، ولم تكن حياتها سهلة، وتذكرٌ قصص الماضي تلك يؤلمها. بالتالي، سيصعب عليها الكلام أمام زوجها».

ودعمت الفكرة: «كسيانغكون، جدك على حق، وبما أنك مهتم جدًا بهذه القضية، سأخبرك كل ما أعرفه. وفي الواقع، يمكنك أن تبحث كذلك خلفية القضية لتفهم بالإجمال ظروفها ونتائجها.

«على اعتبار أنني خططت دومًا لكتابة رواية انطلاقًا من المادة

المقدمة من عمتي ـ وقد تحوّل المشروع طبعًا إلى كتابة مسرحية ـ فإن وانغ كسياوتي ذلك يشكل بوضوح شخصية مهمة. أعمل منذ عشرين عامًا على هذا المؤلف. استخدمت كل أنواع العلاقات لأقابل الأشخاص المعنيين. ذهبت عمدًا إلى ثلاثة مطارات خدم فيها وانغ كسياوتي، وقصدت حتى مسقط رأسه في زيجيانغ. قابلت أحد رفاقه بالسلاح في السرب، وقائده، ونائب رئيس الكتيبة، وصعدت على متن الطائرة جاي-٥ التي قادها وانغ كسياوتي. التقيت كذلك قائد شعبة مكافحة التجسس في مكتب الأمن في المقاطعة، وقائد الدفاع في مكتب الصحة العام في المقاطعة نفسها. يمكن القول إنني أكثر من يعرف عن هذه القضية، والأمر الوحيد الذي أتحسر عليه أنني لم أقابل الشخص المعني، بينما والدك، برضى أخت جدك، ذهب يومًا إلى السينما قبل الموعد، حيث اختبأ، ورأى العمة ووانغ كسياوتي يدخلان المكان يدًا بيد. وقد جلس والدك قرب الأخير، ووصفه لنا لاحقًا: كان طوله مترًا وخمسة وسبعين سنتيمترًا، وربما أكثر بقليل، بشرته نضرة، وجهه طويل ونحيل، عيناه صغيرتان ولكن نظراته حادة، أسنانه متراصفة، شديدة البياض، تلمع.

قال والدك أيضًا إن فِلمًا سوفياتيًا عُرض ذلك اليوم، فِلم مرجع تسميته رواية لنيكولاي أوستروفسكي بعنوان «كيف سقينا الفولاذ». حكى والدك كيف راقب بدايةً بالسر حركات وانغ كسياوتي وأخت جدك، وجذبته من ثمَّ أحداث الثورة والحب التي دارت على الشاشة. في تلك الحقبة، راسل طلاب صينيون كثر طلابًا سوفيتًا، والشابة التي كاتبت والدك اسمها تحديدًا تونيا، مثل بطلة الرواية، فغرق والدك في الفِلم ونسي مهمته الرئيسة، أمر لا مفرّ منه. طبعًا، لم يعد خالي الوفاض تمامًا. قبل أن يبدأ العرض حدق إلى ملامح وانغ كسياوتي، وأثناء

تغيير البكرة (كانت أجهزة السينما في ذلك العصر أحادية القطب)، شمّ رائحة الملبس المنبعثة من فم الطيّار، ورائحة فستق العبيد وبزر البطيخ كذلك، وسمع الضجة التي تصدر عن الجالسين أمامه ووراءه وهم يقضمون. كان الأكل في السينما مسموحًا آنذاك، حتى الأشياء المغلفة بقشرة، ليجد الجالس تحت قدميه طبقة سميكة من أغلفة الملبس وقشر الفستق وبزر البطيخ. حين انتهى العرض، وفيما على مدخل السينما دفع وانغ كسياوتي دراجته تحت المصباح لمرافقة العمة إلى بيت المنامة في مكتب الصحة (نُقلت آنذاك إلى هنالك موقتًا)، قالت وهي تضحك: «وانغ كسياوتي، سأعرّفك إلى أحد الأشخاص!». «والدك المختبئ في ظل ركيزة الممشى عند مدخل السينما الرئيس، لم يجرؤ على الخروج.

- مَن هو؟

- وان الفم، هيا، تعال!

«خرج والدك من وراء العمود وتقدم بخجل. آنذاك، كان بطول وانغ كسياوتي، لكنه كان كبيرًا ونحيلًا، عصا حقيقية. أما قصة قرن الجاموس المكسور بواسطة القرص الذي رماه خارج سور المدرسة، فالأرجح أنها مجرد تبجّح منه. كان شعره مشعّثًا، وكأنه عش غراب العقعق...

«تولت أخت جدّك التعريف بهما: «ابن أخي، وان الفم».

«ها ها»، وربت وانغ كسياوتي كتف والدك بقوة. «في الواقع، هو جاسوس دُس في المكان! وان الفم، اسم على مسمّى!». مد يده وقال: «تعال بُنَي، سنتعارف، أنا وانغ كسياوتي!».

«فوجئ والدك قليلًا بهذا الاستقبال الحار، شدّ على يد الطيار بكلتا يديه وهزها طويلًا.

«أخبر والدك أنه أمضى لاحقًا وقتًا في المطار مع وانغ كسياوتي، ومرّةً تناول الطعام مع الطيارين: قريدس كبير مطهو مغموسًا بالزيت، ومكعبات دجاج متبلة، وبيض مقلي مع نبتة فتنة النهار، وأرُز، وأكلوا يومها قدر ما شاءوا. وَصْفُ والدك أثار حسدنا، لكنني شعرت طبعًا بالفخر أيضًا. ليس فقط بسبب وانغ كسياوتي، بل بسبب والدك كذلك، فهو شقيقي البكر، وشقيقي تناول الطعام مع الطيارين!

«أهدى وانغ كسياوتي إلى والدك هرمونيكا، من ماركة «آلويت» ذات الجودة العالية. ووفق والدك، كان الطيار متعدد المواهب، يلعب كرة السلة جيدًا، بخطوات ثلاث يصل إلى السلة، وحركته لوضع الكرة فيها بظهر يده أنيقة جدًا. إضافةً إلى الهرمونيكا، عزف على الأكورديون. كان خطه بقلم الحبر لافتًا، وأتقن الرسم علاوةً على ذلك. قال والدك إنّه علق على حائطه، بواسطة مسامير صغيرة، رسمًا تقريبيًا بقلم الرصاص يمثل العمة. وفي ما خص طبقته الاجتماعية، فحدث ولا حرج، كان والده من كبار الموظفين الإداريين، ووالدته أستاذة جامعية. كيف استطاع رجل مثله الطيران إلى تايوان، ليغدو خائنًا يشنعه الجميع؟

«وفق قائد كتيبة المذكور، فر كخائن بتلك الطريقة لأنه استمع سرًا إلى محطة إذاعة العدو. امتلك ترانزستور لتلقي الذبذبات القصيرة، واستطاع سماع إذاعات تايوان. وعلى محطة غيوميندانغ، كان صوت إحدى المذيعات ساحرًا، جذابًا، ذا تأثير قاتل، وقد لُقّبت «وردة السماء». ويعتقد قائده أنه تصرف بهذه الطريقة، مضللًا بذلك الصوت.

ـ ولكنْ، ألم تكن عمتي شابة مميزة؟

«أجابني قائد الكتيبة المحنيّ من ثقل السنين: صحيح، لم تكن عمتك سيئة، فهي من طبقة اجتماعية جيدة، وملامحها متناسقة، إضافةً إلى أنها كانت عضوًا في الحزب، ووفق المعايير الجمالية لتلك الحقبة، عُدّت من النخبة، وحسدنا جميعًا وانغ كسياوتي إلى أقصى حد. ولكنْ، كانت عمتك ثورية جدًا، ورصينة جدًا لشخص مثله أفسدته معاشرة الطبقة البورجوازية، كانت تفتقر برأيه إلى الطرافة والغرابة. لاحقًا، حللت مديرية الدفاع دفتر يومياته، حيث حملت عمتك لقب 'ثقيلة الظل الحمراء (الشيوعية)'! من حسن الحظ أننا وجدنا هذه المذكرات، على ما أضاف قائد الكتيبة، لأنها سمحت بإخلاء سبيل عمتك، وإلاَّ لما أمكن تبرئتها من كافة الشبهات».

سيدي العزيز، قلت لابن أخي إن أخت جده ليست الوحيدة التي كاد يُقضى عليها بسبب وانغ ذاك، ولكنْ، حتى والده دُعِي عدة مرات إلى مديرية الأمن، وصودرت الهارمونيكا باعتبارها برهانًا على جرم وانغ كسياوتي، المتهم بتأليب الشباب وإفسادهم. وفي يوميات الأخير، نقرأ أيضًا: «عرفتني 'ثقيلة الظل الحمراء (الشيوعية)' إلى ابن أخيها الأحمق، وهو من الطينة نفسها، شيوعيٍ أحمر، محدود العقل مثلها، ويحمل علاوةً على ذلك، اسمًا مضحكًا: وان الفم». «لولا هذه اليوميات، لمُرّغ أنف والدك في الوحل»، أكدت لابن أخي الشاب.

ـ لعل وانغ كسياوتي كتب عمدًا هذه السطور، لاحظ الأخير.

ـ هذا ما فكرت فيه العمة لاحقًا. وانغ كسياوتي ترك على الأرجح عمدًا هذه المذكرات لإبعاد الشبهات عنها. لذلك قالت أمس إنه كسرها، وخلّصها أيضًا.

سيدي العزيز، يبدو أن أكثر ما يهم ابن أخي، اكتشاف الطريقة التي فرّ بها الطيّار. ما أثار إعجابه جدًا، تميز تقنية وانغ كسياوتي في قيادة الطائرة. قال إنه بترك الـ «جي-٥» تسير على علو خمسة أمتار فوق البحر وبسرعة ثمانمئة كيلومتر في الساعة، كان أقل خطأ سيُغرق الطيارة في البحر. هذا الشخص يجسد فعلًا القول المأثور: «الجرأة والموهبة يتكاملان معًا!». مما لا شك فيه أنه الأفضل على الصعيد الفني، طيار كل التحديات. قبل هذه القصة المؤسفة، كان كلما تدرب فوق قريتنا، نفّذ حركات في الجو غمرتنا بهجةً. كنا نقول آنذاك إنه عندما ينزل عموديًا على حقل البطيخ شرق القرية، يمدّ يده ليقطف إحداها، وبحركة من جناحي طيارته، يعود ويخترق السحب.

ـ عندما وصل إلى هناك، هل نال حقًا خمسة آلاف أونصة ذهبية مكافأةً؟ سألني ابن أخي الصغير.

ـ ربما، قلت، حتى لو كانت عشرة آلاف، لا يستحق الأمر العناء. اسمعني كسيانغكون يا ابني العزيز، يجب ألّا يثير فيك ذلك الإعجاب أو الرغبة. فالمال والنساء أمور زائلة، كمثل غيمة عابرة، أو دخان، وما لا غنى عنه، الوطن، والشرف، والعائلة.

ـ عمي الثالث، قال ابن أخي الفتي، كم أنتم جميعًا غريبون ومضحكون! تبدلت الأحوال، وما زلت تحدثني عن أمورٍ كهذه!

١٠

في ربيع العام ١٩٦١، بعد أن تخلصت العمة من قضية دانغ كسياوتي، عادت لتعمل في القسم الخاص بأمراض النساء والتوليد

في مركز العناية التابع لبلدية المقاطعة الشعبية. ولكن طوال العامين التاليين، لم يولد أي طفل في القرى الأربعين المتعلقة بهذه الدائرة. كان السبب، بكل تأكيد، المجاعة. ما عادت النساء يَحِضْن، وبات الرجال في حكم المخصيين. لم يشغل القسم الخاص بأمراض النساء إلاّ العمة، وطبيبة تبلغ الأربعين، اسمها هوانغ. حملت شهادة معهد طب مشهور، ولكن، بسبب أصول طبقة عائلتها المتواضعة، ولأنها عُدَّت شخصيًّا مناصرة لليمين، أُنزِلت رتبتها وأُرسِلت إلى الريف. لمدةٍ طويلة، كلما أتت العمة على ذكرها، استشاطت غضبًا. قالت إن المرأة صاحبة مزاج غريب، بمقدورها أن تبقى صامتةً لأيام. وإذا نطقت فإنها تنطق عبارات ساخرة، بل تفيض في الكلام، حتى أنها تستطيع أن تلقي خطابًا كاملًا أمام مبصقة.

بعد وفاة والدتها، صار نادرًا أن نرى العمة. ولكنْ، كلما حضّرت والدتي أطباقًا مميزة، أرسلت حصة إلى عمتنا مع شقيقتي الكبرى. وفي أحد الأيام، عثر أبي في حقل على نصف أرنب ميت، ورأى أنه ما بقي من جثة خلّفها نسر. نبشت والدتي نصف سلة أعشاب برّية وطهتها مع الطريدة. صبّت والدتي لحم الأرنب في صحن، لفّته بقطعة قماش، وطلبت من أختي أن تحمله إلى العمة، فرَفَضَت. تطوعتُ آنذاك للمهمة، فقالت والدتي: «حسنًا، ولكنْ إيّاك أن تأكل منه خفيةً في الطريق، وانظر أين تضع قدميك كي لا تكسر الصحن».

تفصل خمسة كيلومترات منزلنا عن مركز العناية في البلدية الشعبية. سرت سريعًا، على أمل أن أصل قبل أن يبرد اللحم. ولكنْ، بعد دقائق، شعرت بثقل في قدميّ، قرقر بطني، تصبّب جسمي عرقًا باردًا، أصابني دوار وزاغ بصري. كنت جائعًا، فطبقا العصيدة

بالأعشاب البرية اللذان تناولتهما صباحًا هضمتهما منذ وقت طويل. والبخار المتصاعد من لحم الأرنب أثار شهوتي. تنازعني شعوران، ليتجادلا ويتخاصما. أحدهما يقول لي: «هيا، كُلْ جزءًا صغيرًا، جزءًا صغيرًا فقط!»، فيما الآخر يحتج: «لا، يجب ألّا تفعل، يجب أن تكون طفلًا نزيهًا، وتطيع أوامر والدتك!». كادت يدي تفك عقدة الصرّة مرات كثيرة، ولكن نظرات أمّي تراءت لي فجأة. وكانت حافتا الطريق التي تقودنا من قريتنا إلى مركز العناية مزروعتين بصفوف من شجر التوت، وقد قطف أوراقها من زمن طويل القرويون الجائعون. كسرتُ غصنًا، ورحت أمضغه، لكنَّ طعمه كان حادًا جدًّا، فعجزت عن بلعه. رأيت عندها زيزًا على الغصن انسلّ للتو، لونه أصفر زاهٍ، وجناحاه لم يجفّا بعد. جُنِنتُ من الفرحة، رميت الغصن، قبضت على الزيز، ومن دون تفكير دسسته في فمي. الزيز بالنسبة لنا طبق مميّز، ومنشّط رئيس، ولكن يجب أكله مطهوًا. أما أنا، فتناولته حيًّا، موفّرًا النار والوقت. كان طعمه لذيذًا، واقتنعت بأن قيمته الغذائية أهم من زيز مطهو. سرت، وبحثت عن زيزان أُخرى على الجذوع، من دون نتيجة؛ بدلًا من ذلك، لممت منشورًا ملوّنًا ذا جودة طباعية عالية، يحمل صورة شاب مشرق الوجه، يعانق امرأة أجمل من إلهة. والنص أسفل الصورة يقول: «الطيّار وانغ كسياوتي، قاطع الطريق الشيوعي هذا، غادر الدياجير ليبصر النور، نال رتبة قائد الجيوش، إضافة إلى مكافأة قدرها خمسة آلاف أونصة ذهبًا، وأصبح رفيق المغنية الشهيرة والخلابة تاو ليلي». نسيت الجوع، وغمرتني إثارة لا توصف، ورغبت في الصراخ. عندما كنت في المدرسة، سمعت أن الكيومينداتغ يرسل إلى هذه الناحية مناشير رجعية، تحريضية، بالمنطاد، لكنني لم أفكر

لحظةً أنني سألتقط واحدًا وسيكون جميلًا بهذا القدر. علاوةً على ذلك، عليّ أن أعترف بأن المرأة على المنشور فاتنة فعلًا أكثر من العمة.

وحين دخلت إلى قسم الأمراض النسائية والتوليد في مركز العناية، كانت العمة في تلك اللحظة في مشاجرة مع المرأة المدعوة هوانغ. ارتدت الأخيرة نظارة سوداء، وكان أنفها معقوفًا، وشفتاها رقيقتين؛ متى فتحت فمها، بانت لثتها البنفسجية اللون ـ ستحذرنا العمة لاحقًا، مرات عدة، من هذا الأمر: الأفضل لنا البقاء عازبين بدل الزواج بامرأة تظهر لثتها عندما تتكلم. كانت نظرة تلك المرأة الطبيبة مربكة، وسبّبت لي القشعريرة. سمعتها تقول: «من تظنين نفسك؟ بهذه الطريقة إذًا تملين عليَّ الأوامر؟ حين كنت أنا من تكلمك أدرس في كلية الطب، كنتِ لا تزالين ترتدين السراويل المشقوقة!».

وكالت لها العمة الكيل كيلين من دون لف ودوران: «نعم، وأعرف أنَّك أنتِ، هوانغ كيوا، آنسة مهمة من عائلة رأسمالية، وأعرف أيضًا أنَّكِ اشتهرت باعتبارك زهرة المعهد كله. آنستي، لا بد أنك استقبلت دخول اليابانيين إلى المدينة وأنت تلوّحين بعلم صغير، أليس كذلك؟ ولا بدّ رقصتِ مع يابانيين والتصق خدُّكِ بخدودِهم؟ حسنًا، كنتُ أنا كبيرتَكِ، في تلك الأثناء، أُقارع القائد الياباني ذكاءً وشجاعة!».

وقالت المرأة بتهكم: «ولديك شهود، أليس كذلك، أين الشهود؟».

ـ إنَّها وقائع تاريخية، الوطن يشهد، أجابت العمة.

قطعًا، كان يجب عليّ قطعًا، في تلك اللحظة، ألّا أُعطي العمة المنشور الملون الذي أحمل.

لم ترحّب بي العمة أساسًا: «ماذا تفعل هنا، سألتني، وما هذا الشيء؟».

ـ منشور رجعي، منشور رجعي من الكيومينداتغ! قلت مهتاجًا، وصوتي يرتجف.

بدايةً، ألقت العمة نظرةً عابرة عليه، ولكنْ بعدها رأيتها تنتفض فجأةً، وكأنها تلقت صدمةً كهربائية. استدارت عيناها، وامتقع لونها. وعلى ما تفعل بثعبان، أو بضفدع بالأحرى، رمت المنشور المذكور.

عندما أدركت الوضع بغتةً وأرادت أن تلمّ الورقة، كان الأوان قد فات.

لقد سبقتها هوانغ كيوا، فجالت بنظرها على المنشور، رفعت رأسها، نظرت إلى العمة، قرأت المنشور مجددًا، ورمت فجأة عيناها المخبّأتان وراء زجاج نظارتها السميك وميضًا شريرًا أشبه بشهاب بخاري. ضحكت متهكمةً. قفزت العمة إلى الأمام لتستولي على الورقة، لكنَّ هوانغ كيوا استدارت، متفاديةً الهجوم. أمسكتها العمة من ظهرها، متشبثةً بثيابها، وهي تصرخ: «أعيديه لي!».

تخلصت هوانغ كيوا من قبضة العمة، فتمزق قميصها، ليبين ظهرها الأشد بياضًا من بطن ضفدع.

«أعيدي لي المنشور!»

التفَّت هوانغ كيوا، يدها التي تحمل المنشور خلف ظهرها، ارتجف جسمها كاملًا، وتحركت بخطى ثابتة نحو الباب. قالت وهي تسير بلهجةٍ كئيبة وراضية في آن واحد: «أُعيده لك؟ هه! أيتها الجاسوسة القذرة! يا امرأة خائن! أيتها المخلوقة الساقطة التي تخلى عنها خائن!

ماذا؟ أتشعرين بالخوف بدورك؟ «يتيمة شهيدٍ من شهداء الثورة»، ما عدتِ تجرئين على ترداد هذا الكلام المنمّق والكاذب والمقرف، أليس كذلك؟».

هجمت العمة على هوانغ كيوا وكأنها أُصيبت بمس جنون.

ركضت الأخيرة إلى الممر، وصرخت بصوتٍ حاد: «أوقفوها، إنَّها جاسوسة!».

ركضت العمة وراءها، شدتها من شعرها، فارتدّ عنق هوانغ كيوا إلى الوراء، وحاولت الإبقاء على يدها التي تحمل المنشور ممدودة إلى الأمام. في تلك الحقبة، لم يكن مركز العناية في البلدية الشعبية مؤلفًا من أكثر من صفين من الغرف، الصف الأمامي مخصص للمعاينات الطبية، وفي الخلفي تقع المكاتب. عند سماع ذلك الصراخ، مدّ الجميع رؤوسهم خارجًا. كانت العمة قد طرحت هوانغ كيوا أرضًا، جلست على ظهرها، وأبقتها هكذا محاولةً قدر المستطاع انتزاع المنشور من يدها.

وصل رئيس المركز مهرولًا. كان رجلًا متقدمًا في العمر، أجلح الرأس، عيناه رقيقتان وممددتان يحدّهما جيبان كبيران، ويُظهر فمه أسنانًا مركبة مغالى في بياضها. صرخ: «توقفا! ماذا دهاكما؟».

بدت العمة كأنها لم تسمع الأمر، وحاولت طيّ ذراع هوانغ كيوا بحركات عنيفة أكثر وأكثر. ما خرج من فم الأخيرة لم يعد صراخًا بل غدا بكاءً صاخبًا.

«وان القلب، توقفي!». وزجر رئيس المركز غاضبًا أولئك الذين تحلقوا في دائرة: «هل أنتم أغبياء أم ماذا؟ افصلوهما بسرعة!».

تقدم بعض الأطبّاء، وكان عليهم بذل كل قوتهم لفصل العمة عن جسم هوانغ كيوا.

وتقدمت بضع طبيبات بدورهن، وساعدن الأخيرة على الوقوف.

وقعت نظارة هوانغ كيوا، وسال الدم من أسنانها، وتدحرج الدمع من عينيها المجوفتين. ولكنْ، ظلت يدها تقبض على المنشور. زعقت: «سيدي رئيس المركز، يجب أن توليني دعمك...».

كانت ثياب العمة غير مرتبة، وجهها كَمِد، والدم يسيل من أخدودين على خديها، حفرتهما بوضوح أظافر هوانغ كيوا.

«وان القلب، ما الذي يحصل هنا؟» سأل رئيس المركز.

ابتسمت العمة ابتسامة فاترة، وتدفقت الدموع من عينيها. رمت أرضًا بضع قطع من المنشور، ومن دون أن تنبس ببنت شفة، دخلت مترنحةً إلى قسم الأمراض النسائية والتوليد.

عند ذاك، وكأنها بطل أثبت جدارةً مقابل عذابات كبيرة، وضعت هوانغ كيوا في يد رئيس المركز المنشور الذي كورته في يدها. ركعت باحثةً عن نظارتها تلمّسًا.

كان ينقصها مسكة، وضعتها على أنفها وأمسكتها بيد. وحين رأت أجزاء المنشور التي رمتها العمة، سارعت حبوًا والتقطتها كأنها غرض ثمين، ونهضت بصعوبة.

«ما هذا الشيء؟»، سأل رئيس المركز وهو يفتح المنشور.

«منشور رجعي»، أجابت هوانغ كيوا، وناولته الأجزاء الناقصة وكأنها كنز. «إليكَ البقية، أنَّه منشور أرسله إلى وان القلب الخائن وانغ كسياوتي الذي فرَّ إلى تايوان».

وعلت هتافات الأطباء والممرضات الذين أحاطوه متعجبين.

أبعد رئيس المركز القصير البصر المنشور عن عينيه، وركز نظره قدر المستطاع. أحاطه الطاقم المعالج مثل سرب نحل.

«حسنًا، ما الذي يجري؟ ما هو الشيء المهم الذي ترونه؟ عودوا إلى أعمالكم!». طوى رئيس المركز المنشور بعد هذا التأنيب، وأضاف: «الطبيبة هوانغ، تعالي معي».

تبعته الأخيرة إلى مكتبه، فيما تحلّق الأطباء والممرضات في مجموعات وتبادلوا تعليقات حذرة.

وتعالى آنذاك من قسم الأمراض النسائية والتوليد بكاء العمة الصاخب. أدركت أنني سببت كارثة عظيمة، وحذِرًا، أجرّ رجلي، دخلت إلى الغرفة، فرأيت العمة جالسة، تسند رأسها إلى الطاولة، تدق عليها بقبضيتها، وتبكي.

«عمتي، طلبت مني والدتي أن أُحضر لك لحم الأرنب».

لم تعرني العمة انتباهًا، غارقةً بالبكاء.

«عمتي، كررت وأنا أبكي، كفي عن البكاء، أرجوكِ، كُلي القليل من لحم الأرنب...».

وَضَعْتُ على الطاولة الصرّة التي أحمل، وحملت بكلتا يديّ الطبق أمام العمة.

بضربةٍ من مرفقها، أطاحت الصحن الذي سقط وتكسر.

«اذهب من هنا، هيا، اذهب»، ورفعت العمة رأسها وصرخت: «أيّها القذر! أريدك أن ترحل من هنا!».

١١

تسنّى لي لاحقًا أن أفهم أيّ كارثة سببت.

بعد أن غادرت مركز العناية على عجل، قطعت العمة شرايين معصمها الأيسر، وكتبت رسالة بدمها ببنصر اليمنى: «أكره وانغ كسياوتي! انتميت في حياتي إلى الحزب، وحتى بعد موتي، سأظل أنتمي إلى الحزب!».

حين عادت هوانغ كيوا إلى المكتب مبتهجةً، كان الدم قد بلغ الباب. أطلقت صرخةً حادةً وانهارت مغشيًا عليها.

أُنقِذَت العمة، لكنَّها وُضعت تحت المراقبة في مقرّ الحزب. لم يكن سبب تلك العقوبة الشكوك المستمرة إن كانت فعلًا على علاقة مع وانغ كسياوتي أم لا، بل لأن الحزب رأى في الانتحار ذلك محاولة إثبات وجود ضده بالذات...

١٢

في خريف العام ١٩٦٢، أوان القطاف، أتى محصول البطاطا الحلوة المزروعة على مساحة ألفي هكتار في قضاء دونغباي التابع لمقاطعة غاومي، وافرًا. تلك الأرض التي أدخلتنا في مماحكة معها طوال ثلاثة أعوام، من دون أن تعطينا حبة حنطة واحدة، استعادت عطفها، وجودها، وسخاءها الذي يعد جزءًا من طبيعتها. أنتجت حقول البطاطا الحلوة في المتوسط أكثر من سبعين ألف طن في الهكتار. عندما أتذكر تلك الغلة، يغمرني انفعال يتعذر التعبير عنه. تحت كل

ساق من البطاطا الحلوة، كانت هنالك وفرة من الدرن. وأكبرها في ضيعتنا بلغ وزنها ثمانيًا وثلاثين ليبرة. يانغ لين، الأمين العام للجنة الحزب على صعيد المقاطعة، صُوِّر يحمل تلك الدرنة، واحتلت تلك الصورة الصفحة الأولى من «صحيفة الجماهير».

تُعَدّ البطاطا الحلوة كنزًا حقيقيًّا. تلك السنة، لم تكن الغلة منها جيدة فحسب، بل إن محتواها من النشا كان عاليًا كذلك، فما إن تُطهى حتى تُهرس بسهولة، وكان طعمها كالكستناء، تذوب في الفم، فضلًا عن غناها بالعناصر المغذية. تكدست البطاطا الحلوة في كل أفنية مقاطعة دونغباي، ومُدت أسلاك حديد على الحيطان عُلّقت عليها شرائح منها. أكلنا أخيرًا شبعتنا. انتهت تلك الأيام التي أُجبرنا فيها على الاكتفاء بتناول الجذور والحشائش ولحاء الشجر، تلك الأيام التي متنا فيها من الجوع ولّت إلى غير رجعة. زال الانتفاخ من سيقاننا، وصار جلد بطوننا أسمك، وبطوننا نفسها خفّ حجمها. تكدّس الشحم تحت جلدنا شيئًا فشيئًا، وما عادت نظراتنا كئيبة كالسابق، وزال الألم والخدر من أرجلنا عند السير، ونمت أجسادنا بسرعة قياسية. وفي الوقت نفسه، فالنساء اللواتي شبعن من البطاطا الحلوة، رأين صدورهن تكتنز رويدًا رويدًا، وعاد ميعادهن طبيعيًّا. أمّا الرجال، فقد اشتدت ظهورهم، ونبتت شواربهم مجددًا، واستعادوا طاقتهم الجنسية. بعد شهرين، مجمل نساء القرية الشابات كن حوامل. وبداية شتاء العام ١٩٦٣، واجه قضاء دونغباي أوَّل موجة كبيرة من الولادات منذ تأسيس البلد. في ذلك العام، وفقط في القرى الثماني والأربعين التابعة لبلديتنا الشعبية، سُجّلت ألفان وثمانمئة ولادة. أولئك المواليد، سمّتهم العمة «مواليد البطاطا الحلوة». وكان رئيس مركز العناية رجلًا شجاعًا، خيّرًا جدًّا. عاد العمة بعد محاولة

الانتحار، عندما عادت إلى المنزل لتتماثل للشفاء. كانت تجمعنا به قرابة بعيدة من جهة جدتي لوالدي. انتقد العمة لأنها تصرفت بطيش. قال لها إنه يأمل أن تتخلص من ذلك العبء المعنوي الذي يثقلها وأن تعمل كما يجب. وقال لها كذلك إن عيون أعضاء الحزب والشعب مبصرة. لا يُتَّهَمُ ظلمًا الشخص الصالح، ولكن السيّئ لا يُرْحَم. قال لعمتي إنّ عليها أن تثق تمامًا بالمنظمة، وأن تثبت من جهتها براءتها بأفعالٍ ملموسة، وأن تعمل لتستعيد سريعًا صفتها كعضو في الحزب. قال لها سرًّا: «يختلف وضعك عن وضع هوانغ كيوا. هي في الأصل سيئة، أما أنتِ فقد سرت على طريق مستقيم وأحمر، وإن زلّت قدمك أحيانًا، يكفي أن تبذلي جهودًا ليظلّ مستقبلك مشرقًا».

لقد جعلت كلمات رئيس المركز عمتي تجهش بالبكاء للمرة الثانية، وأبكتني كذلك.

نهضت العمة من مستنقع الدم ذاك، وبحماسة شديدة باشرت العمل. في تلك الحقبة، وعلى الرغم من أن كل قرية حظيت بقابلات تلقين التدريب المهني، أصرّت نساء كثيرات على التوليد في مركز العناية. تخطت العمة كل أحقادها السابقة، وتعاونت في العمل تعاونًا وثيقًا مع هوانغ كيوا، كطبيبة وممرضة في آن واحد؛ وظلت أحيانًا مستيقظة طوال نهارات وليالٍ متتالية، وخلّصتا من الموت عددًا كبيرًا من الأمّهات والأطفال. وفي غضون أكثر من خمسة أشهر، شهدتا ولادة ثمانمئة وثمانين طفلًا، من بينهم ثمانية عشر ولدوا ولادةً قيصرية. كانت تلك العملية الجراحية معقدة نسبيًّا آنذاك، وأثار ضجةً كبيرةً أن يُقدم قسم الأمراض النسائية والتوليد في مركز عناية تابع لبلدية شعبية صغيرة، ومؤلف من شخصين فقط، على تحدّي تلك الصعوبات. لم تستطع

العمة، على الرغم من كبريائها، إلّا أن تُعجَب بتقنية هوانغ كيوا البارعة. وإذا استطاعت أن تصبح طبيبةً مشهورةً توفق بين التقنيات المحلية والأجنبية في عملها كطبيبة نسائية وطبيبة أطفال، فإن عليها فعلًا أن تشكر تلك العدوة اللدودة.

كانت هوانغ كيوا عانسًا، لم تتحدث عن الحب من دون أدنى شك طوال حياتها. وإن كان طبعها غريبًا إلى هذه الدرجة، فلها أعذارها. عندما كبرت عمتي في السن، حدثتنا كثيرًا عن عدوتها القديمة. أن تُوَظَف هوانغ كيوا، تلك الآنسة المنحدرة من عائلة رأسمالية من شنغهاي، وخريجة إحدى الجامعات المعروفة، تحت قدراتها في قضائنا في دونغباي، فذلك يوضح المثل القائل: «الفينيق الذي يسقط أرضًا لا يساوي فرّوجًا!». ولكنْ، من كان الفرّوج في القصة؟ على ما قالت العمة، ليس من دون أن تسخر من نفسها، كنتُ فعلًا ذلك الفرّوج، فرّوج يصارع فينيقًا؛ لاحقًا، وبعد الضربات التي سددتها لها، أصبحت تخشاني حقًا، ومتى رأتني، ارتجفت كورقة، وكأنها هالكة، وأمكن القول عظاية ابتلعت للتو قطران التبغ. قالت لنا العمة أيضًا وهي تتنهد منفعلةً: «في تلك الحقبة، أُصبنا جميعًا بالجنون حقًّا، وإذ أعيد التفكير بالأمر، أشعر كأنني كنت أعيش كابوسًا». وأضافت: «كانت هوانغ كيوا طبيبة نسائية عظيمة، حتى وإن ضُرِبت بقسوة صباحًا، فإنها بعد الظهر، عندما تكون إلى طاولة العمليات، لم تكن أقل تركيزًا على عملها، هادئة، وكأن شيئًا لم يحدث، وكان يمكن حتى إعداد مسرح في الجهة الأُخرى من النافذة لعرض أوبرا بكين، ولا يؤثر الأمر عليها». أخبرت العمة أنَّ يديْ هوانغ كيوا كانتا فعلًا ماهرتين، بإمكانهما التطريز على بطون الخاضعين للجراحة... ومتى وصلت العمة إلى هذه النقطة

من القصة، أطلقت ضحكةً مدويةً، وقهقهت، وقهقهت، ليطفر الدمع من عينيها.

١٣

لقد أصبح زواج العمة همًّا حقيقيًّا لكل العائلة، ولم يُقلق الموضوع جيل الكبار فحسب، بل أنا أيضًا، المتوحش ابن العشرة أعوام، أزعجني الأمر. ولم يجرؤ أحد على مفاتحة المعنية بذلك، وإلاّ غضبت.

وفي ربيع العام ١٩٦٦، صباح عيد النور الصافي، أتت العمة إلى القرية مع تلميذتها ـ لم نكن نعرف آنذاك إلاّ لقبها، «الأسد الصغير» ـ صبية تبلغ حوالى الثامنة عشرة، معتدلة القامة، ممتلئة الجسم. ملأ حبّ الشباب وجهها، وكان أنفها على شكل رأس ثوم، عيناها متباعدتان جدًّا، وشعرها أشعث. رامتا من هذه الزيارة إخضاع النساء اللواتي في سن الإنجاب لفحص عام. بعد إنجاز العمل، تناولت العمة والأسد الصغير الطعام في المنزل.

كعك، وبيض مسلوق، وكراث وصلصة صويا كثيفة.

كنا قد تغدينا قبل وقت طويل، فرحنا ننظر إليهما تتناولان وجبتهما.

كانت الشابة خجلة جدًّا، أبقت عينيها مخفوضتين، من دون أن تجرؤ على رفعهما في وجوهنا، وحبيبات وجهها كأنها بازيلا حمراء أكثر من أي شيء آخر.

وبدا أنَّ والدتي تقدّر الآنسة جدًّا، فطرحت كل أنواع الأسئلة، وإن استمرّت على هذا المنوال، فلا بد ستتطرّق إلى موضوع الزواج.

ولذا، قالت العمة: «زوجة أخي الكبيرة، توقفي عن الثرثرة، أتريدينها كنَّة عَرَضًا؟

ـ لا، أبدًا، اعترضت والدتي، كيف يمكننا نحن المزارعين أن نطمح لذلك، فالآنسة الأسد الصغير تأكل من «معلف» الدولة، ومَنْ مِنْ أبناء أخيك جدير بها؟

خفضت الأسد الصغير رأسها أكثر، وما عاد باستطاعتها ابتلاع أي شيء.

وصل آنذاك رفيقا صفي وانغ الكبد وشين الأنف. وإذ انشغل وانغ الكبد بالنظر إلى ما يحدث في الداخل، داس على طاسة الدجاج وكسرها إلى قطعٍ.

وبّخته والدتي: «أيها الصغير العديم الكفاية، أنظر أين تضع قدميك!».

ابتسم وانغ الكبد ابتسامةً بلهاء وهو يلمس عنقه.

ـ وانغ الكبد، كيف حال شقيقتك؟ سألته عمتي، هل كبرت قليلًا؟

ـ ما زالت على حالها... أجاب رفيقي.

«حين تعود إلى المنزل، قُلْ لوالدك...»، بلعت العمة قطعة كعك، أخرجت منديلها لتمسح فمها وتابعت: «ستقول له إنّه مهما حصل، يجب ألّا تُنجب والدتك بعد اليوم، وإلّا فستصبح تجرّ رحمها على الأرض».

ـ لا تتكلمي عن شؤون النساء هذه أمامهم، قالت والدتي.

ـ ولم لا؟ ردّت العمة، يجب أن يفهموا تحديدًا أن حياة النساء ليست سهلة أبدًا! نصف نساء قريتنا يعانين هبوطًا في الرحم، والأخريات

مصابات بالتهاب. رحم والدة وانغ الكبد تخرج من فرجها، تبدو كإجاصة مهترئة، ووانغ القدم يريد ابنًا بعد! إن صادفته قريبًا... وأنت شين الأنف، والدتك مريضة أيضًا...

قاطعتها والدتي وأنّبتني: «اخرج من هنا، اذهب والعب مع شلتك من الأوغاد، لا تبقوا هنا تزعجوننا!».

وعندما وصلنا إلى الزقاق، قال وانغ الكبد: «الخبب الوئيد، يجب أن تشتري لنا فولًا سودانيًّا محمّصًا!».

ـ وما المناسبة؟

ـ لأننا سنفشي لك سرًّا، أنبأني شين الأنف.

ـ أيُّ سر؟

ـ عليك أن تدفع ثمن الفول أوَّلًا.

ـ لا أملك دراهم.

ـ كيف ذلك؟ قال شين الأنف، سرقت قطعة نحاس مستعملة من الفصيلة التي تحرث بواسطة الجرار التابع للمزرعة المملوكة من الدولة، وبعتها بيوان وأربعين قرشًا، فهل تظن أننا لا نعرف ذلك؟

ـ لم أسرقها، سارعت للتملص من التهمة، هم رموها، ما عادوا يريدونها.

ـ لنفترض أنَّك لم تسرقها، لكنَّك بعتها مقابل يوان وأربعين قرشًا، صحيح؟ عليك إذًا أن تولم لنا! وأشار وانغ الكبد إلى الأرجوحة قرب بيدر القمح. تحلّق أشخاص كثر حولها، وأصدرت الأرجوحة صريرًا. وقف هناك رجل يبيع فولًا سودانيًا محمصًا.

عندما قسمت بالتساوي السنتيمات الستين من الفول السوداني،

قال وانغ الكبد بوقار: «الخبب الوئيد، ستتزوج عمتك بالأمين العام للجنة الحزب في القضاء، لتحل محل زوجته المرحومة.

ـ أيّ كلام هذا؟ أجبت.

ـ عندما تصبح عمتك زوجة الأمين العام للجنة الحزب في القضاء، ستستفيد عائلتك كاملةً من الأمر، قال شين الأنف؛ بكر الصبيان، والأصغر منه، وشقيقتك الكبرى، وأنت أيضًا، ستُرسلون فورًا إلى المدينة، ستُمنَحون وظيفةً، تأكلون من «معلف» الدولة، تقصدون الجامعة، وتصبحون موظفين إداريين؛ إذا حدث ذلك، يجب ألّا تنسانا!

ـ الأسد الصغير جميلة حقًا! تجرّأ وقال من جهته وانغ الكبد.

١٤

وأبصر «أطفال البطاطا الحلوة» النور. كلما قصد ربّ عائلة، بعد ولادة طفل، البلدية الشعبية للحصول على بطاقة الإقامة، حاز قسيمة لقطعة قماش من خمسة أمتار إلى ستة، وليبرتين من زيت الصويا. ومَن رُزِق بتوأمين، تضاعفت مكافأته. عند رؤية ذلك الزيت الذهبي، وتَلَمُّس القسيمة التي تنبعث منها رائحة حبر الطباعة، تغرورق عينا كل رب أسرة بالدموع، ويشعر بالامتنان. نهايةً، من الأفضل العيش في المجتمع الجديد! تُرزقُ أطفالًا، وعلاوةً على ذلك، يَهبونَك أمورًا، وعلى ما قالت والدتي: «ينقص البلاد سكان، إنّها بحاجة إلى الناس ليتولوا الوظائف، فالسكان ثروة للدولة».

ومع شعورها بالامتنان، قرّرت الجماهير الشعبية سرًّا التناسل أكثر، لمبادلة الدولة المعروف على اهتمامها ذلك. فزوجة كسياو الشفة العليا،

حارس مخزن حبوب البلدية الشعبية ـ أي والدة رفيقي في الصف كسياو الشفة السفلى ـ أعطت الأخير أخوات صغيرات ثلاثًا، ولم تكن الأخيرة قد فُطِمت بعد حتى تكوّر بطن الوالدة مجددًا. على طريق عودتي بعد أن أرعى البقرة، كنت أرى أحيانًا كسياو الشفة العليا يقطع الجسر على دراجة هوائية قديمة. كان بدينًا، والدراجة بالكاد تحمل ثقله، وتصدر صريرًا. هزىء منه أهل القرية غالبًا: «كسياو العجوز، كم تبلغ من العمر؟ ألا ترتاح أبدًا في الليل»، وكان يردّ ضاحكًا: «مستحيل، يجب صنع مواطنين للدولة، يجب أن نبذل قصارى جهدنا!».

في نهاية العام ١٩٦٥، أقلقت الزيادة المفاجئة في عدد المواطنين السلطات. فشهدنا الموجة الأولى من التخطيط الأسري منذ تأسيس الصين الجديدة. وأطلقت الحكومة الشعار التالي: «واحدٌ ليس قليلًا، اثنان كفاية، والثلاثة يفوقون المعدل بواحد». عندما كانت تأتي الفرق السينمائية في القضاء لتقديم العروض، كانت تمرر إعلانات ترويجية لتحديد النسل. ومتى ظهرت على الشاشة الصور المكبّرة عن الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، أطلق المشاهدون في العتمة صيحات غريبة أو انتابتهم موجة ضحك متواصل. وراقبنا نحن المراهقين الحركة، وأثرنا جلبةً فيما تلاقت أيدي شبان وشابات كثر خلسة. عمل بنيةٍ صادقة هذا النوع من البروباغندا لمنع الحمل كمساعد على الولادة ومثير للشهوة الجنسية. ونظمت الفرقة المسرحية في القضاء عشرات المجموعات الصغيرة، قصدت القرى وقدمت مسرحية تنتقد التفكير السائد الذي يولي أهمية للجنس المذكر أكثر من الجنس المؤنث، وعنوان المسرحية «نصف السماء».

ولقد أصبحت العمة آنذاك مسؤولة قسم الأمراض النسائية والتوليد

في مركز عناية البلدية الشعبية، وكذلك نائبة رئيس الفريق الموجه للتخطيط الأسري في البلدية نفسها، ورئيسه كين شان، الأمين العام للجنة الحزب في البلدية. لم يكن الأخير يفعل شيئًا في الواقع، ووظيفته شكلية فحسب، وتولت عمتي فعلًا إدارة عمل التخطيط الأسري في البلدية، لتوزّع المهام، وتتأكد في الوقت نفسه من تنفيذها على أتمّ وجه.

ازداد وزنها قليلًا، وأسنانها البيضاء التي أثارت حسد الكثيرين اصفرّت، بسبب ضيق الوقت لتنظيفها. غدا صوتها خشنًا، رجوليًّا بعض الشيء، نسمعه في كثير من الأحيان عبر مكبر الصوت.

وقد بدأت معظم الأوقات حديثها بهذه العبارات:

«يُقرع الصنج كي يبيع كل منا أطايبه، ولكل منا وظيفته. نمجّد عملنا. وهذه المقدمة ليست غريبة عن القصد، لأنَّ ما أريد أن أحدثكم عنه اليوم، تحديد النسل...».

في تلك الحقبة، خفَّت الحظوة التي تمتعت بها العمة بين الجماهير، أمّا نساء القرية اللواتي استفدن كثيرًا من صنائعها، فبدأن هنّ أيضًا يتكلمن عنها بالسوء.

وعلى الرغم من أن العمة لم توفر جهدًا واهتمّت بعزم بالتخطيط الأسري، أتت النتائج مخيّبة، ولم يكترث القريون نهائيًّا للموضوع. وأتت فرقة القضاء المسرحية لتقدّم عرضًا. وفيما راحت الشخصية النسائية الرئيسة على المسرح تغنّي بملء صوتها: «تغيرت الظروف... وبين الرجال والنساء سادت المساواة...»، بدأ وانغ القدم، والد وانغ الكبد، الجالس أمام الخشبة، بالصراخ: «حماقات! مساواة؟ من يجرؤ على التكلم عن المساواة؟». أيّده الجالسون قربه، وبانسجام تامّ ضجوا وصرخوا. وتطاير الطوب والقرميد نحو المسرح، فهرب الممثلون

كالفئران، وقد حموا رؤوسهم بأياديهم. شرب وانغ القدم في ذلك النهار نصف ليتر من مشروب السورغو، وبتأثير من الكحول، غلب سلوكه الفظ تطبّعه، فشق طريقه بين الجموع، قفز إلى المنصة متمايلًا في كل الجهات ومؤدّيًا إيماءات مبالغًا فيها، وانطلق في خطبة: «أتريدون أن تحكموا الكون، هل تظنون أن باستطاعتكم السيطرة على رغبة الشعب في الإنجاب؟ إن كنتم قادرين، فاعثروا على حبل قنب لخياطة فروج النساء». تعالت قهقهات الحضور. شدد ذلك طبع وانغ القدم الشرير، فحمل إحدى القرميدات المرمية على الخشبة، سدّد نظره على قنديل كاز معلق على قضيب موضوع بالعرض أمام الستارة يبث بريقًا باهرًا، ورمى عليه القرميدة بكل ما أوتِيَ من قوة. انطفأ القنديل وسط فرقعة مدوية، وغرق المسرح والحضور في ظلام تام، ما سبّب سجن المعنيّ خمسة عشر يومًا؛ وحين أُطلِق سراحه، لم يرضخ أكثر للأمر الواقع، قائلًا بلهجة رديئة: «فليقطعوا ذيلي إذا استطاعوا ذلك!».

قَبْلَ بضعة أعوام، عندما كانت العمة تعود إلى المنزل، اعتادت أن يرافقها موكب صاخب. اليوم، حين تطلّ عند الحاجة، يقابلها الناس ببرودة، يتحاشونها.سألتها والدتي، بهدف نصحها: «عمتهم، قصة التخطيط الأسري تلك، هل أنتِ مَنْ دبَّر ذلك، أم هي أوامر تلقيتها من السلطات؟».

ـ إلامَ تلمّحين بقولِك «أنتِ من دبَّر ذلك»؟، ردّت العمة ساخطةً. هذا نداء من الحزب، توجيه من الرئيس ماو، سياسة وطنية. قال الرئيس ماو: «يجب على البشرية أن تضبط نموّها بطريقة مخطط لها».

هزّت والدتنا رأسها في إيماءة معترضة: «منذ التاريخ القديم، أتى الإنجاب دومًا ضمن النظام الطبيعي للأمور. في عهد سلالة هان

العظيمة، أصدر الإمبراطور فرمانًا أمر فيه بتزويج كل فتاة أتمَّت الثالثة عشرة، وإن لم تتزوج، يُسأل والدها وأشقاؤها الكبار عن السبب. إن لم تلد المرأة، فكيف يمكن للبلاد تجنيد الرجال؟ كل يوم، يبشروننا بصوت مرتفع بهجوم وشيك للولايات المتحدة، أو بتحرير تايوان، إن منعوا النسوة من الإنجاب، فأين نجد الرجال اللازمين؟ من دون جيوش، مَنْ يقاوم الغازي الأميركي، مَنْ يحرّر تايوان؟

ـ زوجة أخي الكبير، لا تُسئميني بترجيع هذا الكلام المكرر البالي، فالرئيس ماو بعد كل ذلك مثقف أكثر منكِ، أليس كذلك؟ ولذا قال: «يجب قطعًا ضبط زيادة السكان! من دون إعادة تنظيم، من دون انضباط، إذا استمررنا على هذا المنوال، فستهلك البشرية قبل الأوان.

ـ وقال أيضًا: «عددنا الكبير، يمدنا بالقوة، عددنا الكبير يساعدنا بسهولة على تحقيق أعظم الإنجازات، فالبشر كنز حيّ، وما دام الإنسان موجودًا، فسيخلد الكون!»، وأضافت والدتي: «الرئيس ماو قال كذلك: 'أنْ تمنع المطر من الهطل، يُعدّ ظلمًا، وظلمٌ كذلك منع النساء من إنجاب الأطفال'».

ردَّت العمة بضحكة مصطنعة: «زوجة أخي الكبير، أنتِ تحرّفين استشهادات الرئيس ماو، وفي الماضي، كانت عقوبة تزوير الفرمانات الإمبراطورية قطع الرأس. في كل الأحوال، لم نقل أبدًا إننا سنمنع الناس من إنجاب الأطفال، المطلوب فقط خفض عددهم، إنجابهم وفق تخطيط».

ـ عدد الأطفال الذي نحظى به في الحياة يحدّده القدر، تابعت والدتي، فهل نحتاج إلى تخطيطكم؟ بالنسبة لي، أنتم أشبه بأعمى يريد إضاءة شمعة... ذلك تبذير للشمعة من أجل لا شيء.

كانت والدتي محقة في قولها، فجهود العمة والأخريات لم تؤدِّ إلّا إلى تبديد الموارد المالية واكتساب السمعة السيئة. في بداية الحركة، وزَّعن مجانًا واقيات ذكرية على كل مسؤولة عن النساء في كل قرية، كي يوزِّعنها على اللواتي في سنّ الإنجاب، وطلبن منهن أن يُلزمن أزواجهن يوزّعنها عند الجماع. ولكنْ انتهى أمر تلك الواقيات الذكرية إما مرمية في حظائر الخنازير، وإما منفوخة كبالونات ومزينة برسوم ملونة ليلعب بها الأطفال. ودارت العمة والأخريات على البيوت لتوزيع حبوب منع الحمل، فرفضت النسوة تناولها بسبب آثارها الجانبية الخطرة. وإن أجبرنهنّ على تناولها توًّا، ما إن تُدير الأخريات ظهورهن حتى يسحبنها من حلقهن بأصابعهن أو بواسطة عصا الطعام ويبصقن الأقراص. حينها، وصلت تقنية قطع القناة الدافقة وحلّت بديلًا ملائمًا.

في تلك الحقبة، انتشرت التقنية في القرية، وقد ابتكرتها عمتنا وهوانغ كيوا. وقال البعض إنَّ مساهمة هوانغ كيوا كانت على صعيد التصوّر النظري، فيما تعلقت مساهمة العمة بالمزاولة السريرية. وقال لنا كسياو الشفة السفلى بكل جدية: «كلتاهما فاسدتان لم تتزوجا، حين تريان الأزواج، تحسدانهم وتكرهانهم، لذا ابتكرتا هذا المخطط ضد النسل». وحكى أنَّ عمتي وهوانغ كيوا اختبرتا أوَّلًا التقنية على خنازير صغيرة، ثمَّ على بعض ذكور السعادين، وأخيرًا على عشرة محكومين بالإعدام؛ على أثر نجاح العمليات الجراحية، وجد المساجين أن عقوبتهم خُفضت إلى السجن المؤبد. طبعًا، أدركنا سريعًا أن الفتى يتفوه بحماقات.

وفي تلك الفترة، نقل مكبر الصوت في أحيانٍ كثيرة صياح العمة: «إلى موظفي كل لواء كبير، إلى موظفي كل لواء كبير: وفق روحية

الدورة الثامنة للمجموعة الموجّهة للتخطيط الأُسري في البلدية الشعبية، جميع الرجال الذين رُزِقت زوجاتهم بثلاثة أطفال وما فوق، يجب أن يحضروا إلى مركز العناية للخضوع لقطع القناة الدافقة. وسينالون بعد العملية الجراحية عشرين يواناً تعويضًا لشراء منشطات، ويحق لهم بفترة نقاهة لأسبوع مع الحفاظ على نقاط العمل...».

ومتى سمع الرجال ما تقوله مكبرات الصوت، تجمعوا للتعبير عن سخطهم: «تبًا، الخنازيرُ تُنتزع خصاها، والثور يوهَص، والجحش أو الحصان يُخصى، ولكن هل رأيتم رجلًا يُخصى؟ وما دمنا لا ننوي دخول القصر الإمبراطوري كخصيان، فلماذا تريدون تخنيثنا؟». ومتى شرح لهم موظفو التخطيط الأُسري في القرية أن عصب القناة يقوم على... جحظت عيونهم وردّوا: «نعم، مَنْ يسمعكم يظن الأمر بسيطًا، ولكنْ متى دخلنا غرفة العمليات، وبعد إبرة البنج، من يعلم أنهما لن تنتزعا خصيتينا، وقضيبنا كذلك؟ آنذاك، سنكون مجبرين على التبوُّل مقرفصين مثل السيدات الصالحات».

عملية قطع القناة الدافقة تلك، المفيدة جدًّا للنساء، والسهلة التحقيق، والتي نادرًا ما تسبب مضاعفات، واجهت على الرغم من ذلك كل أنواع العوائق. وعبثًا حضرت عمتي والأخريات كل شيء بانتظار عملية جراحية، لكن أحدًا لم يتقدّم. اتّصل بهن يوميًّا مركز قيادة التخطيط الأُسري على مستوى المقاطعة وحثهن على تزويده بالأرقام، وقدا بدا المسؤولون فيه مستائين من عملهن. كما دعت لجنة الحزب في البلدية الشعبية إلى اجتماع بشأن الموضوع، واعتمدت قرارين: وفق الأول، يجب تطبيق عملية قطع القناة أوّلًا على قياديي البلدية، لتطال من ثَمَّ الموظفين العاديين، وأخيرًا العمّال والمستخدَمين. على

صعيد القرية، يجب أن يكون موظفو اللواء الكبير القدوة قبل تعميم الممارسة على الجماهير. ووفق القرار الثاني، يجب تطبيق دكتاتورية البروليتاريا على كل الذين يعارضون عصب القناة، ويزوّرون الحقائق ويبثون الشائعات. أمّا الذين يرفضون العملية فيما يستوفون شروط الخضوع لها، فسيبدأ اللواء الكبير بتعليق حقهم في العمل؛ وإذا استمروا بالرفض، تُخْفض حصتهم من الحبوب. إذا أبدى موظف معارضته، يُقال من وظيفته. وإذا عارض عاملٌ أو مستخدم، يُسرَّح من العمل. وإذا رفض ذلك عضو في الحزب، يُقصى من الحزب.

ألقى كين شان شخصيًّا، الأمين العام للجنة الحزب في البلدية الشعبية، خطابًا نُشِر عن طريق الإذاعة. قال فيه إن التخطيط الأُسري يتعلق بتلك المسألة المهمة التي هي الاقتصاد الوطني ورفاهية الشعب، لذا يجب أن يوليه كل قسم وكل لواء كبير في البلدية الشعبية أهمية خاصة. الذين يستوفون شروط العملية الجراحية بين موظفي وأعضاء الحزب، يجب أن يكونوا القدوة للجماهير، ويخضعوا أوَّلًا لقطع القناة الدافقة. تغيّرت نبرة كين شان فجأةً، وتكلم بلهجة المحادثة العادية: «رفاقي، أنا مثلًا، خضعت زوجتي المريضة لاستئصال الرحم، على الرغم من ذلك، من أجل تبديد خشية الجماهير حيال موضوع قطع القناة الدافقة، قررت أن أخضع للعملية الجراحية غدًا في مركز العناية».

وطلب كذلك الأمين العام كين في خطبته من رابطة الشباب الشيوعية، ورابطة النساء، كما المدارس، التعاون الفاعل، وبذل جهود دعائية كبيرة من أجل التحريض على قطع القناة الدافقة. وعلى ما كانت الحال مع الحركات السابقة، كتب الأستاذ كسو، الأكثر تضلّعًا

في مدرستنا بفن الكتابة، قصيدة مغنّاة لتُلحن على إيقاع صناجات من الخيزران. حفظناها بسرعة البرق، وبفِرَقٍ مؤلفة من أربعة، يحمل كلٌّ منا مكبرًا للصوت مصنوعًا من الكرتون أو من صفائح حديد ملفوفة، جاثمين على السطوح أو على قمم الأشجار، غنينا بأعلى صوت: «رفاقي أعضاء البلدية لا تجزعوا، رفاقي أعضاء البلدية لا تتسرعوا، العملية الجراحية للرجال ليست معقدة، لا تشبه بشيء خصي ثور أو كبش غنم، الجرح لا يزيد عن سنتيمترٍ أو سنتيمتران، بعد ربع ساعة تغادرون السرير، من دون أن تنزفوا أو تعرقوا، وفي اليوم نفسه تعودون إلى العمل...».

وأعلنت العمة أنّه في ذلك الربيع غير العادي، وعلى صعيد المقاطعة الشعبية ككل، أُجريت جراحة قطع القناة الدافقة لستمئة وثمانية وأربعين رجلًا، هي التي لا يتعدّى رصيدها أساسًا ثلاثمئة وعشرة رجال. وروت أنّه في الواقع، كان يكفي إيجاد الحجج المقنعة، وتعيين السياسة المناسبة، والعمل بحيث يعطي المسؤولون القدوة والتأكد من أن ذلك فاعل على كافة الصعد لتنحاز الجماهير إلى الصواب. خلال معظم العمليات الكثيرة التي نفذتها، كان المرضى يأتون مصحوبين بموظفي القرية والمسؤولين عن وحدات العمل. لم تشهد إلا حالتين من عدم الانضباط، ولمثيري المشاكل هذين، وَجَب اعتماد تدابير قمعية. أحدهما كان حوذي عربة قريتنا وانغ القدم، والآخر حارس مخزن الحبوب كسياو الشفة العليا.

معتمدًا على نسب عائلته الرفيع، تصرّف وانغ القدم بطريقة رجعية ومتغطرسة. حين خرج من مركز الاحتجاز، أطلق عنان نصله المتطرّف، قائلًا إن أوّل شخص يجبره على الخضوع لعمليّة عصب القناة، سيغرز

في جسده نصلًا أبيض لن يخرج إلا أحمر. صديقي وانغ الكبد، الذي أُغرم بمساعدة عمتي الأسد الصغير، انحاز إلى صف المرأتين. عبّأ شخصيًّا والده للذهاب إلى مركز العناية، وكان نصيبه صفعتين. هرب من المنزل آنذاك، فلحقه والده حاملًا سوطًا كبيرًا في يده. عند المستنقع في طرف القرية، تبادل الأب والابن الشتائم على جانبي سطح المياه. وانغ القدم: «يا ابن العاهرة! هكذا إذًا تجرؤ على حث والدك على الخضوع لعصب القناة!». وانغ الكبد: «بما أنَّك تقول إنني ابن عاهرة! فليكن، أنا ابن عاهرة». وإذ أدرك وانغ القدم أن شتم ابنه يعود إلى شتم نفسه، ركض وراءه حول المستنقع. دار الرجلان وكأنهما يدفعان حجر الرَّحى. بلهاء كثر صبّوا الزيت على النار، وبذروا الشقاق أكثر، ما سبَّب رشقات من الضحك.

أخذ خلسةً وانغ الكبد من منزله سيفًا قاطعًا، وسلَّمه إلى يوان الوجه، الأمين العام لخليّة الحزب في القرية، قائلًا إنه سلاح قاتل يحتفظ به والده. وأوضح وانغ الكبد: «قال والدي إنَّ مَن يجرؤ على إخضاعه لعصب القناة، سيشقه إلى شطرين بهذا السيف». والأمين العام، خشية أن يُلام بسبب الإهمال، قصد البلدية الشعبية لإعلام كين شان وعمتي بالقضية. كان الأمين العام غاضبًا جدًّا، فضرب على الطاولة قائلًا: «هذا عصيان. عرقلة التخطيط الأُسري سلوك ثوري معاكس!». وقالت العمة بدورها: «إن لم نعالج قضية وانغ القدم، فلن نتمكن من حلحلة الوضع». وسلَّم بالأمر يوان الوجه: «جميع رجال القرية الذين يجب أن يخضعوا للجراحة ينتظرون كيف ستجري الأمور مع وانغ القدم». وأردف الأمين العام: «يجب توقيف هذا الرجل لأنه مثال سلبي».

أتى نينغ العجوز، العنصر في الأمن العام، معلّقًا بندقية الموزر على وسطه، ليشارك في مجهود الحرب. دَهَم يوان الوجه، الأمين العام لخليّة الحزب في القرية، منزل وانغ القدم، على رأس مجموعة مؤلفة من المسؤولة عن النساء، وقائد الميليشيا وأربعة حرّاس وطنيين.

كانت زوجة الأخير، وهي تحمل ابنتها الصغرى على صدرها، مشغولة بجَدْلِ القشّ في ظل الشجر؛ حين رأت منظر الواصلين الشرس، فرمت ما في يدها، وجلست أرضًا وانفجرت بالبكاء.

وقف وانغ الكبد تحت الإفريز، ولم يتفوّه بكلمة.

ووانغ المرَّة الصفراء، مِن جهتها، جلست على عتبة الغرفة الرئيسة، مرآة صغيرة في يدها، تتأمل وجهها الرقيق والظريف.

«وانغ القدم، نادى يوان الوجه، أخرج حالًا، وإلّا فسيُرَدّ لك الصاع صاعين. نينغ وعناصر آخرون من الأمن العام حضروا كذلك، إذا استطعت الفرار منا اليوم، تكون كمَن يرتد إلى الوراء ليقفز بطريقة أفضل. أنت في النهاية رجل بكل معنى الكلمة، رجل شجاع، فدعنا نسوّ الأمر بسرعة».

وقالت المسؤولة عن النساء لزوجة وانغ القدم: «فانغ ليانهوا، توقفي عن الزعيق، وأقنعي رجُلَك بالخروج».

لم يصدر أيّ حسّ من المنزل. نظر يوان الوجه إلى المأمور نينغ. بإشارة من يد الأخير، اندفع الحراس الأربعة، يحملون حبلًا، إلى الغرفة.

آنذاك، غمز وانغ الكبد الذي ظل واقفًا تحت الإفريز المأمور نينغ، وأشار بحركة من فمه إلى حظيرة الخنازير عند زاوية الجدار.

وعلى الرغم من عرج المأمور نينغ، كانت حركته سريعة. بخطوات

قليلة وصل إلى باب الزريبة، أخرج بندقية الموزر من قرابها، وأعلن بنبرةٍ قاسية: «وانغ القدم، اخرج من هنا!».

خرج الأخير من الحظيرة ورأسه مغطى بنسيج العنكبوت. أحاطه الحراس الأربعة يُمسكون الحبل.

مسح وانغ القدم العرق عن وجهه، وقال غاضبًا: «نينغ الأعرج، ما الحاجة إلى كل هذا التباهي؟ أتظن أنك تخيفني بالبندقية القديمة التي تحمل؟».

ـ ليس الهدف أن أُخيفك، أجاب نينغ، إذا رافقتني بلطف، فلن يحدث شيء سيّئ.

ـ وإن لم أرافقك بلطف، فما الذي سيحدث؟ تُطلق عليّ النار؟ ومشيرًا إلى ما بين ساقي بنطاله، تابع: «إذا استطعت، سدّد هنا، لأنني أنا، وانغ القدم، أفضّل طلقة المسدّس على أن أُخصى بأيدي النساء».

وقالت له المسؤولة عن النساء: «وانغ القدم، توقف عن إسآمِنا بهذيانك، كل ما يتطلبه الأمر عند الرجال، عصب القناة الدافقة...».

ـ فَرْجُكِ هو ما يجب أن يُخاط! ردّ وانغ بفظاظة، مشيرًا إلى ما بين ساقي المرأة.

هز المأمور نينغ عندها المسدّس الذي يحمله وأعطى الأمر التالي: «هيا، أوثقوه!».

ـ آه فعلًا، سنرى إن كنتم تجرؤون! استدار وانغ القدم والتقط رفشًا حديديًا، حمله أفقيًا بكلتا يديه وعيناه تقدحان شررًا: «مَنْ يقتربْ أقطعْ رأسه!».

في تلك اللحظة، وقفت وانغ المرّة الصفراء، فتاة «الجيب»

الصغيرة، وهي لا تزال تحمل مرآتها الصغيرة. كانت قد بلغت الثالثة عشرة، لكنّ طولها لم يزد عن سبعين سنتيمترًا. على الرغم من حجمها، كانت متناسقة القد، حتى يُخَيَّل أنها ملكة جمال من جزيرة ليليبوت الخيالية. عكست بمرآتها الصغيرة شعاع نور قوي على وجه والدها. وفي الآن نفسه، انطلقت من فمها ضحكة بريئة، ناعمة.

استغل الحراس الأربعة هذه الهنيهة التي بهر فيها النور نظر وانغ القدم، فهجموا عليه، واستولوا على الرفش الذي يحمل، وأوثقوا يديه وراء ظهره.

وفيما حاول الرجال تقييده بالحبل، انفجر فجأةً بالبكاء. كان نحيبه مؤثرًا إلى درجة أن جميع الخرقاء الذين تسلقوا سور منزله أو تحلقوا حول المدخل الرئيس شعروا بالحزن. ولم يعد يعرف الحراس، والحبل في أيديهم، كيف يتصرفون.

قال يوان الوجه: «وانغ القدم، ألست رجلًا؟ عملية جراحية بسيطة، وها أنت ذا مرعوب! أنا، يوان الوجه، خضعت لها لأكون القدوة، ولم تحصل أي مضاعفات، وإن لم تصدّقني، دع زوجتك تسأل زوجتي.

ـ أيّها الرجال، لا تقولوا المزيد، قال وانغ القدم باكيًا، سأتبعكم، هذا كل ما في الأمر.

وروت العمة أنَّ ابن الزنى كسياو الشفة العليا، كان قدوة سلبية في جهاز تابع للبلدية الشعبية؛ مستندًا إلى حقيقة أنه كان ناقل جرحى بالمحمل في المستشفى السري لكتيبة المشاة الثامنة، قرر أن يقاوم. ولكنْ حين بحثت لجنة الحزب في البلدية الشعبية قرار تجريده من مهامه وإعادته إلى قريته ليكون مزارعًا، أتى طوعًا إلى مركز العناية على

دراجته الهوائية. وتُخبر العمة أنه طلبها تحديدًا لتُجري له الجراحة. كان فاسقًا، متهتكًا، يتفوّه بكلام بذيء. قبل أن يتمدد على طاولة العمليات، أزعج الأسد الصغير بأسئلته: «أيتها الشابة، هنالك ما لا أفهمه، ألا يقول المثل: «حين تمتلئ الحويصلة المنوية، يسيل المنيّ وحده»، ولكنْ، إذا عصبتم القناة الدافقة، فما الذي سيحل بمنيّي؟ ألن ينتفخ بطني حتى ينفجر؟».

«نظرت إليّ الأسد الصغير، وقد احمرّ وجهها. قلت لها: «أعِدّي الجلد!».

أثناء تلك التحضيرات، أصابه انتصاب. الأسد الصغير التي لم تواجه موقفًا مماثلًا في حياتها، رمت المبضع وخرجت. فقلت: «اضبط نفسَكَ قليلًا!»، فردَّ من دون حياء: «أنا أُحسِن التصرّف، ولكن هو يرغب بالانتصاب، لا أستطيع شيئًا».

ـ حسنًا! وتناولت العمة مطرقة كاوتشوك، حددت الهدف، وبطريقة لامبالية سددت عليه ضربةً، فتقلص القضيب.

ولقد أقسمت العمة بجميع الآلهة إنَّها أجرت العمليتين الجراحيتين هاتين بكل ضمير مهني، وأنهما نجحتا تمامًا. ولكنْ، بعد الخضوع للجراحة، حافظ وانغ القدم على ظهره مقوَّسًا، قائلًا إنَّها أصابت أحد أعصابه؛ أمّا كسياو الشفة العليا، فأتى مرارًا إلى مركز العناية ليختلق قصصًا، وذهب حتى مرات كثيرة إلى القضاء لعرض قضيته، مؤكدًا أنّها أصابت وظائفه الجنسية بضرر... «من هذين المهرجين، قالت العمة، لعلّ وانغ القدم عانى من مشكلة نفسية، أمّا كسياو الشفة العليا، فقد فعل ما فعل بهدفٍ واضح وبسيط هو إزعاج من حوله. خلال الثورة

الثقافية، حين كان قائد الحرس الأحمر، لا أدري كم فتاة استطاع أن يغوي. لو لم نخضعه لتلك الجراحة، لكان عليه أن يقلق: لو حبلت إحدى ضحاياه، لأصبح حلّ القضية صعبًا؛ ولكنْ، بما أن قناته عُصِبت، لم يُقلقه ضميره!

١٥

يوم أُعِدَّ اجتماع انتقاد يانغ لين، الأمين العام للجنة الحزب في المقاطعة، والكفاح ضده، عرف الجميع أن المشاركين سيكونون كثيرين، ولا يمكن لأي مكان استيعابهم. في تلك الحقبة، كان قائد اللجنة الثورية في البلدية الشعبية كسياو الشفة العليا نفسه؛ أثبت تميّزًا بتنظيم الاجتماع في منطقة ضبط فيضان المياه، على الضفة الشمالية من نهر جياو. كنا في عز الشتاء، والمياه مجمدة على سماكة كبيرة، ومن نظر إلى تلك الناحية، تراءى له عالم من الكريستال. كنت أوَّل مَنْ عرف في القرية أنَّ الاجتماع سيُعقد هناك. في الواقع، كثيرًا ما كنت أترك المدرسة وأذهب لألعب في المكان.

كنت في ذلك اليوم تحت قنطرة جسر السدّ الذي يضبط فيضان المياه أصنع ثقوبًا في الثلج لصيد السمك، حين سمعت أشخاصًا يتكلمون بصوت جهوري فوقي. عرفت صوت كسياو الشفة العليا، وكان بإمكاني التعرف إليه بين آلاف الأصوات. قال: «تبًا! يا للمشهد الطبيعي الجميل في الشمال!(١) سيُعقد اجتماع إبداء الحكم هنا، سنشيد المنصة الرئاسية على السدّ».

(١) استشهاد من قصيدة لماو تسي تونغ.

وقد كان ذلك المكان في الأصل أرضًا واطئة ورطبة، ثمَّ، لضمان سلامة المجرى الأسفل لنهر جياو، بُنِيَ حاجزاً لضبط المياه على السد. عند كل فيضان في الصيف أو الخريف، تُفتح الحواجز لتصريف المياه، فتتحول الحفرة إلى بحيرة. بدايةً، أعربنا نحن سكان كانتون دونغباي عن استيائنا لأن هذه الأماكن المنخفضة كانت في النهاية أراضيَ، لا يمكن زرعها بأشياء مهمة، ولكنْ أقلّه بالذرة البيضاء. ولكن كيف يمكن للشعب القليل الشأن معارضة مشاريع الدولة؟ لذا كنت أترك المدرسة في كثير من الأحيان لأقصد هذه الأماكن وأشاهد مياه الفيضان تتدفق من فتحات التصريف الاثنتي عشرة. عند تناقص مياه النهر، كانت المنطقة تصبح مجرد مساحة شاسعة مغمورة بالمياه، بحيرة محيطها حوالى خمسة كيلومترات. تطفح بالسمك والقريدس، وتؤمّها جماعة من الصيادين، ويزداد حتى عدد بائعي السمك. كانوا يبدأون بوضع الأكشاك على السدّ، والذين لا يجدون لهم مكانًا ينزحون شيئًا فشيئًا نحو ضفة النهر الشرقية، تحت صف شجرات الصفصاف. وفي الأيام التي تحتدم فيها الحركة، تُعرض البضائع على طول أكثر من كيلومتر. منذ أُقيمت سوق السمك تلك عند الهويس، انتقل إلى هناك رويدًا رويدًا المعرض التجاري الذي كان يشغل أصلًا مركز البلدية الشعبية. دخله كذلك باعة الخضر، أو البيض، أو الفول السوداني المحمّص. وتبع الحركة النشالون الصغار، والزعران والمتسوّلون الذين اعتادوا العمل في المعرض التجاري. شكلت البلدية الشعبية ميليشيا مسلحة، أتت مرات عدة لطردهم. ما إن كانت تصل الميليشيا الشعبية، حتى يفرّوا بددًا. وما إن يرحل عناصر الأمن، حتى يحاول الآخرون التجمّع مجدّدًا. هكذا كانوا يعيشون، في وضع شبه قانوني. كنت أعشق

التفرّس في السمك: الشبوط العادي، الشبوط الفضي، الذوع الذهبي، الصِلَّور، السمندل الأسود، الحنكليس، ولكن كذلك السرطانات، واللخ، والمحار. أكبر سمكة تسنّى لي أن أراها هناك كانت تزن أكثر من مئة ليبرة، كان بطنها شديد البياض، أشبه ببطن حامل. راقبها البائع العجوز خائفًا، كأنه يراقب معجزة. تآلفت وبائعي السمك الذين بقوا يقظي العيون، وآذانهم ترصد الأخبار. لمَ كانوا هكذا على حذر؟ لأنَّ مركز الضرائب في البلدية أرسل في كثير من الأحيان موظفين لمصادرة منتجاتهم. وبعض أعضاء البلدية أتوا للتسكع، مدّعين أنهم عناصر من مصلحة الضرائب، واستولوا من دون حق على البضائع. وكادت تلك السمكة الكبيرة التي تزن أكثر من مئة ليبرة تُختطَف من شخصين ارتديا بزّتين زرقاوين، وضعا لفافتيْ تبغ في فميهما، وحملا محفظة وثائق ومستندات من الجلد الأسود. لو لم تصل ابنة البائع العجوز مسرعةً تبكي، مثيرةً الضجيج، ولو لم يكشف كين هي عن هويتهما الحقيقية، لكانا شحنا السمكة.

كان كين هي متسوّلًا. ارتدى بزة طالب من الغباردين الأزرق، له فِرْق في الوسط، وفي جيب سترته انغرز قلم حبر سائل من ماركة «دكتور» وقلم حبر ناشف ثنائي اللون ماركة «الصين الجديدة»، فمنحه كل ذلك مظهر طالب من حقبة ٤ أيار/ مايو ١٩١٩ [١]. كان شاحب اللون، مظهره حزين، عيناه نديتان، بدا مستعدًا لذرف الدموع في أيِ لحظة. كان طلق اللسان، أتقن اللغة العامية، ومتى فتح فاه، تحسَب أنَّه يسمّع مسرحية ـ وبتأثير منه، انصرفت إلى تأليف المسرحيات لاحقًا. حمل دومًا قِدْرًا كبيرةً من المينا الأبيض رُسِم عليها بالأحمر نجمة خماسية

(١) حركة احتجاج طلابية ضد بنود معاهدة فرساي. وهي أيضًا تحقُق لثورةٍ ثقافية.

وكلمة «كأس». كان يقف أمام بائعي السمك وثمار البحر، ويقول بنبرةٍ مؤثرة:

«رفاقي، فقدت كل قدرة على العمل، قد تقولون لي: ما زلت في ريعان الشباب، وتريدنا أن نصدق ذلك؟ أُقسم لكم رفاقي، ما ترون ليس إلا مظهري الخارجي، في الحقيقة، أنا مصاب بداءٍ في القلب خطِر. لقد ثقب سكين قلبي: متى بدأت بالعمل، أوشكت الندبة على الانفتاح ثانيةً، وقد أموت بسبب نزف من الأنف، والعينين، والفم، والأذنين. هيّا رفاقي، أعطوني سمكةً، لا أجرؤ على طلب سمكة كبيرة، واحدة صغيرة تكفيني، الأصغر...».

وكان الأمر يفعل فعله، فينال دائمًا شيئًا: سمكة أو قريدسًا، فيركض إلى حافة النهر وينظف الدويبة بواسطة سكين صغير، ثمّ يبحث عن مكان بمنأى عن الهواء، يلم الوقود، يرتّب قرميدتين، يضع فوقهما القِدْر المطليّة بالمينا ويُشعل تحتها ليطهو الطعام على نار خفيفة... كنت أقف وراءه، أرقبه يُعِدّ الطعام بهذه الطريقة، وبينما تتصاعد رائحة شهيّة من الوعاء المطليّ بالمينا ويسيل، كنت أحسد من صميم قلبي نمط حياته.

كان ثاني إخوة كين شان، هو الأمين العام للجنة الحزب في البلدية الشعبية، وكان تلميذ أوَّل مدرسة ثانوية عالية في المقاطعة، ومجتهدًا علاوةً على ذلك. كي يتسول ثاني إخوة الأمين العام للجنة الحزب في البلدية الشعبية من الأسواق بهذه الطريقة، لا بدّ من أنَّ وراء الأمر سببًا معقدًا. قال البعض إنَّه أحبَّ عمتي حتى الجنون، وبما أن الأمر أحدث صدمة له، حاول الانتحار بمسدس شقيقه البكر، لكنَّ محاولته باءت بالفشل. بعد أن تعافى، أصبح ما أراه عليه. بدايةً، سخر منه كثر،

لكن بعد أن ساعد الرجل العجوز على الاحتفاظ بالسمكة الكبيرة، نظر إليه الباعة من منظار مختلف. شعرت بأنّ لديه كايزما كبيرة. أردت أن أفهم من هو. عند رؤية عينيه المليئتين دومًا بالدموع، أحسست تجاهه بالرأفة. في أحد الأيام، مع دنو المساء، وإغلاق سوق السمك، مشى وحيدًا نحو المغيب، يجرّ قامته الطويلة. تبعته خلسةً. أردت أن أعرف سرّه. حين تنبّه أنني أتبعه، توقف وانحنى أمامي بشدة:

ـ صديقي العزيز، أتوسّل إليك ألا تتصرّف معي بهذه الطريقة.

مقلّدًا النبرة التي اعتمدها، أجبت: «صديقي العزيز، أنا لا أرتكب سوءًا».

تابع بصوت مثير للشفقة: «كان معنى جملتي: أرجوك ألا تتبعني بهذه الطريقة»، ما رددت عليه: «أنت تسلك دربك، وأنا أسلك دربي. لا أتبعك أبدًا».

أومأ بحركة من رأسه بالنفي وهمس: «صديقي، أشفق على شخص بائس». استدار وتابع طريقه. ظللت أتبعه. بدأ يعدو. كانت خطوته واسعة، رفع ركبتيه عاليًا، وانطلق، خفيفًا، تمايل جسمه، غير ثابت، وكأن قامته من كرتون. من دون بذل جهود كبيرة، وجدت نفسي وراءه. توقَّف، كان يتنفس بصعوبة، ووجهه أشبه بورق مذهب، قال والدمع يملأ عينيه: «أيها الصديق، اتركني أرجوك، أنا عليل، أصبت إصابة بالغة...».

تأثرت جدًا، فتوقفت، ووضعت حدًّا لمطاردتي له. نظرت إلى قامته وقد ولّى ظهره، سمعت النحيب الخافت يتصاعد من حلقه. في الواقع، لم تكن نيّتي سيئة، أردت فقط أن أعرف كيف يعيش، على سبيل المثال، أين يُمضي الليل.

في تلك الفترة، كانت ساقاي طويلتين ورفيعتين وقدماي كبيرتين، كنت في العاشرة وأنتعل حذاءً بقياس أربعين. أحزن الأمر والدتي. كان أستاذ التربية البدنية في المدرسة، واسم عائلته شين، طرفًا في فريق المصارعة والمبارزة في المقاطعة، ورياضيًا من الطراز الرفيع، ومناصرًا لليمين. وعلى ما يفعل تاجر الخيل، قرص ساقي وقدمي، وإذ اعتبر أنني من طينة جيدة، جعلني مهره وانصرف إلى تدريبي. علّمني أن أرفع ركبتي، وأوسّع خطوتي، وأعدّل تنفسي بطريقة ملائمة، وأستعمل قواي البدنية على أحسن ما يكون. في المرحلة الابتدائية والثانوية، خلال اللقاءات الرياضية بين المدارس على صعيد المقاطعة، حللت في المرتبة الثالثة في سباق الثلاثة آلاف متر للصغار والناشئين. وأيضًا، حقيقة أنني كنت أهرب من المدرسة وأركض إلى سوق السمك للتنزه. أصبحت مسألة شبه علنية.

بعد تلك المطاردة، أصبحتُ وكين هي صديقين، وكلّما رآني، أومأ برأسه بمثابة تحيّة. كان يكبرني بعشرة أعوام، ولم تتوقف صداقتنا عند هذا الفارق في السن. باستثناء كين، كان في السوق متسوّلان آخران، أحدهما اسمه غاو مين، وكان عريض المنكبين ويداه كبيرتان، وبدا يتمتع بقوة جبّارة. واسم الآخر لو الزهرة، وهو في الواقع شخص سقيم أصفر الوجه، لا بدّ من أن يسأل المرء لِمَ سُمّي باسم أنثوي إلى هذه الدرجة. في أحد الأيام، ضرب الرجلان بقوة كين هي، أحدهما بقضيب من الصفصاف، والآخر بحذاء بالٍ، لكنَّ كين لم يرد الضربات، واكتفى بالترداد بتهذيب:

«يا أخويَّ الشجاعين، اضرباني حتى الموت، وسأكون لكما شاكرًا. ولكنْ، لا تأكلا الضفادع... إنَّها صديقة للجنس البشري،

لا يمكن أكلها... وهي تؤوي طفيليات... مَنْ يتناولها فقد يغدو أبلهًا...».

رأيت تحت الصفصاف نار مخيّم يتصاعد منها دخان أزرق بشكلٍ حلزوني، وعلى النار ضفادع نصف مطهوّة، وقربها جلود وعظامٌ ضفادع تنبعث منها رائحة نتنة تثير الغثيان. ففهمت أن كين هين تعرّض للضرب لأنه أراد منعهما من طهو الضفادع وأكلها. كدت أبكي وأنا أراه يُضرب بهذه الطريقة. خلال أعوام المجاعة تلك، اعتاد كثر تناول الضفادع، وقد كنّت عائلتنا كرهًا شديدًا لآكلي الضفادع أولئك. كنت على ثقة بأن أفراد عشيرتنا يفضلون الموت جوعًا على التصرف مثلهم. بهذا الصدد، شاركني كين هين الهدف الأسمى نفسه. أخذت من كومة الحطب حطبة متوهجة ولمست بها قفا غاو مين، وعنق لو الزهرة، ووليت مدبرًا، أركض على ضفة النهر، فلحقاني. تركت مسافة بيننا لأشاكسهما فحسب. ومتى توقفا قليلًا، شتمتهما أو رميتهما بكسر من الطوب والقرميد.

ولقد وصل في ذلك اليوم سكان القرى الثماني والأربعين التابعة للبلديّة الشعبية في مجموعات صغيرة، بعضهم يحمل علمًا أحمر على كتفه، وآخرون يعزفون على آلات موسيقية. أتوا إمّا على الطريق وإما عبر مجرى النهر؛ توافدوا إلى هنا مرافقين العناصر الفاسدين في قراهم، من أجل الاجتماع الموسّع للنقد والكفاح. وكان من بين المستهدفين يانغ لين، أوّل مَنْ سلك في مقاطعتنا طريق الرأسمالية، ومعه كل العناصر الفاسدين التابعين لأجهزة في الكومونة الشعبية، وفي كل قضاء أو قرية مرتبطة بها. اخترنا نحن النهر وتقدمنا على الجليد الزلق. سار بعضهم حتى على نعال شبكية من صنعهم. ارتدى أستاذ التربية البدنية،

الذي أدين له بالكثير، قبّعة عالية من الورق، وكانت قدماه حافيتين في خفّ ممزق من القش، وتقدّم مبتسمًا خلف مدير المدرسة؛ ارتدى الأخير كذلك قبّعة عالية، لكنَّ مظهره بدا حزينًا. واكبهما كسياو الشفة السفلى، ابن كسياو الشفة العليا، يحمل حربة. كان الوالد رئيس اللجنة الثورية في الكومونة الشعبية، والابن قائد اللواء الكبير للحرس الأحمر في مدرستنا. كان حذاء السكواش الأبيض الذي انتعله قد انتُزِع من الأستاذ شين. أمّا مسدس الإنذار الذي لا يطلق سوى طلقتين، ذلك الكنز الذي حسدته عليه، فكان ملكًا عامًا، ومع ذلك كان معلقًا آنذاك على وسط كسياو الشفة السفلى. كان يخرجه من القراب في كل مناسبة، يلقمه، ويطلق النار في الهواء. بان، بان! وينطلق العياران في آن واحد مع دخان أبيض، وتنتشر في الجوّ رائحة البارود والكبريت الطيّبة.

في بداية الثورة، فكرت أنا أيضًا في الالتحاق بالحرس الأحمر، لكن كسياو الشفة السفلى رفضني. قال إنني المتدرب المبتدئ لصاحب الضمير الأسود الأستاذ شين، ذلك اليميني. وقال كذلك إن عمي الكبير خائن للأمة وشهيد مزوّر، وعمتي جاسوسة للكيوميندانغ(*)، وخطيبة مشتق فار، وعشيقة رجل مرتهن للرأسمالية. كي أنتقم منه، لممت براز كلب لففته بورقة وخبأته في يدي، فتقدمت منه وقلت له عمدًا: «كسياو الشفة السفلى، لمَ لسانك أسود هكذا؟»، والآخر، من دون أن يشعر بالمكيدة الوشيكة، فتح فمه على وسعه، فدسست فيه البراز، ثم استدرت وهربت. لاحقني من دون جدوى. في المدرسة، لم يكن باستطاعة أحد أن يلحق بي إلّا الأستاذ شين.

وإذ رأيته على هذا النحو ينتعل حذاء الأخير، الحربة في يده،

(*) الحزب القومي الصيني.

مسدس الإنذار على خصره، شامخًا بأنفه، هو الذي لا يستحق الاعتبار، متباهيًا بأنَّه حقق مآربه، حسدته، وكرهته، وقررت أن ألقنه درسًا. كنت أعرف أنَّه يعاني رهاب الثعابين، لكنَّنا في عز الخريف، ومستحيل العثور على أحدها؛ وجدت آنذاك تحت شجرة توت قرب النهر حبلًا مهترئًا، لففته، خبأته وراء ظهري، دنوت منه خلسةً ووضعته على عنقه وأنا أصرخ: «ثعبان سام!».

أطلق صرخة غريبة، رمى الحربة، وسارع إلى التخلص ممّا التفّ على رقبته. عندما وجد أنَّه مجرد حبل مهترئ، استعاد أنفاسه شيئًا فشيئًا.

لَمَّ الحربة وصرخ بي يصرف أسنانه غضبًا: «وان الخبب الوئيد، أيّها المعارض للثورة! سأقتلك!». حمل الحربة بكلتا يديه وتقدّم، مسدّدًا حدّها نحوي.

ولّيت هاربًا.

حاول اللحاق بي.

لم يسمح لي الركض على الجليد بأن أجود بأفضل ما تعلمت من تقنيات. أحسست وراء ظهري بلهاث بارد ومتوعّد، خفت أن يطعنني بالحربة. عرفت أنَّه شحذ حدّها بحجر السنباذج ليسنّها أكثر، وعرفت كذلك أنَّه قادر على كل شيء، ومذ اقتنى ذلك السلاح الأبيض تفاقمت غرائزه القتالية. كان يغرز حربته في الشجر على ما يحلو له، من دون سبب، وصنع حتى أهدافًا على شكل بشر من حزم القش؛ وأخيرًا، قتل بها خنزيرًا يركب خنزيرة. وفيما أنا أركض، استدرت لأنظر خلفي، وعند رؤية شعره المقشعرّ وعينيه المدوّرتين من الغضب، قلت في نفسي إنَّه إذا لحق بي، فسيقضي عليّ لا محالة.

درت حول الناس أو تسللت بينهم. وقعت، رحت أنقلب وأحبو، وكادت تصيبني حربته. انغرز السلاح في الجليد الذي تطايرت شظاياه. وقع بدوره. وقفت وركضت مجدّدًا. وقف وتابع مطاردتي. أحيانًا، ارتطمت بالناس، رجالًا أو نساءً.

ـ أيها الفتى اللعين، ماذا دهاك لتصطدم بنا بهذه الطريقة؟

ـ آه!

ـ النجدة!... أوقفوا المجرم...

صدمت فرقة موسيقيين يتقدمون ويعزفون، فأضاعوا الإيقاع.

بعض العناصر الفاسدين المرتدين قبّعات عالية أوقعوها أرضًا.

درت حول شين الجبهة وإي ليان، والد ووالدة شين الأنف، وكذلك حول يوان الوجه، والد يوان الخدّ ـ وهو كذلك «سلك طريق الرأسمالية».

تجاوزت كالبرق وانغ القدم.

لمحت وجه أمّي، سمعت صرخة الرعب التي أطلقتها...

رأيت صديقي المفضّل، وانغ الكبد.

سمعت ورائي جلبةً خفيفة، ثمّ صرخة ألم كسياو الشفة السفلى ـ علمت لاحقًا أن وانغ الكبد، خلسةً، مدَّ قدمه ليعرقله. هوى كسياو الشفة السفلى إلى الأمام، وارتطم وجهه بالجليد، فانشقت شفته، ولحسن حظه، لم تتكسر أسنانه. نهض لينتقم من وانغ الكبد، لكنَّه خاف من وانغ القدم. وقال له الأخير: «كسياو الشفة السفلى يا ابن الزنى الحقير، إن تجرأت ولمست شعرة من رأس وانغ الكبد، فسأفقأ عينيك! في

عائلتنا، نحن عمّال مزارعون منذ أكثر من ثلاثة أجيال، وإن كنت تُرعب محيطك، فأنا، وانغ القدم، لا أهابك!».

أصبح مكان الاجتماع أسود من كثرة البشر. وقد بُنيت على السدّ المائيّ منصّة ضخمة من ألواح الخشب وحصائر القصب. في تلك الحقبة، رعت الكومونة الشعبية فريقًا كاملًا مخصصًا لبناء المنصات أو أعمدة البروباغندا؛ ملك أفراده تقنية جيدة، وكانوا ماهرين. نُصِبت على المنصة عشرات الأعلام الحمراء، وعُلّقت رايات أفقية من القماش الأحمر أيضًا، خُطَّت عليها كتابات رمزية بالأبيض. وفي زوايا المنصة، ارتفعت قضبان عالية ثُبّتت عليها أربعة مكبرات صوت ضخمة. وعند وصولنا إلى المكان، بثت أغنية الاقتباسات: «حقيقة الماركسية معقدة طبعًا ولكنها، في تحليل أخير، تعود إلى مدلول وحيد: مِنَ العدل أن نثور، من العدل أن نثور...».

كانت هنالك نشاطات، كانت هنالك عروض فعلية. تقدمت بين الجموع محاولًا شق طريقي وسط الزحام، عازمًا على أن أدنو ما أمكنني من المنصة. سدد لي الأشخاص الذين دفعهتم، من دون مداراة، الرفسات، واللكمات، واللطمات. بقيت أبذل جهدًا على هذا النحو لدقائق، فتبللت ثيابي عرقًا وغطتني الكدمات؛ ولم أخفق في الوصول إلى الصف الأول فحسب، بل أيضًا طُرحت بعيدًا من حلقة الجمهور. سمعت صفحة الجليد تتشقق، وانتابني شعور باطني سيّئ. في تلك اللحظة، هدر صوت ذكري أخنّ عبر مكبر الصوت: «سيبدأ الاجتماع الموسع للنقد والكفاح... يُرجى من الفلاحين الفقراء والمتوسطي الحال الهدوء... وليجلس مَن يقف في الصفوف الأمامية... اجلسوا، اجلسوا...».

توجّهت نحو الجهة الغربية من السدّ، حيث يقوم مستودع تُخزّن فيه قطع غيار الأقفال. تسلّقتُ البناء من الخلف، مثبتًا قدمي في الشقوق بين القرميدات، ومتشبثًا بالإفريز بخفة، ووصلت إلى السطح. زحفت على طول صفوف القرميد، وتقدمت هكذا بهدوء إلى أن وصلت إلى القمة، وهنالك مددت رأسي إلى الخارج: رؤوس بالآلاف، أعلام حمر لا تُعد ولا تُحصى، حظيت برؤية شاملة للمنظر، وكان الجليد على المستنقع باهرًا للنظر. على الجهة الغربية من المنصة، جلس عشرات الأشخاص القرفصاء، خافضين رؤوسهم. كنت أعرف أن الأمر يتعلق بأرواح الثيران والثعابين[1] الشريرة في كومونتنا الشعبية، أولئك الذين سيصعدون بعد قليل إلى المنصة ليخضعوا للنقد. زمجر كسياو الشفة العليا في مكبر الصوت. أمين مخزن الحبوب ذلك الذي يعيش في البؤس، لم يتصور يومًا، حتى في أحلامه، أنه سيحظى بفرصة بعد ليكون مأمورًا. منذ بداية الثورة الثقافية، تسلّم قيادة الثورة وشكّل فرقة من المتمردين سُمّيت «الزوبعة» وأعلن نفسه آمرها.

ارتدى بزة عسكرية بالية مبيضّة من الغسل ومرقعة بقطع دكناء اللون، وحمل شارة حمراء على ساعده. كان شعره خفيفًا: التمع رأسه الأصلع تحت أشعة الشمس. قلّد كبار الرجال الذين نراهم يلقون الخطب في السينما: تباطأ بلفظ الجُمَلِ، يدٌ على وركه، والأخرى تتحرك، مجسّدةً مختلف الإيماءات. كان صوته المضخّم عبر المكبّرات مزعجًا، والضجيج المتصاعد من الجموع يشبه أمواجًا تتكسّر على الصخور.

(١) إحدى التسميات التي أُلحقت بالمتهمين أثناء جلسات المراجعة في عهد الثورة الثقافية.

طبعًا، بذر بعض الأشخاص البلبلة، إذ ما إن يسود الهدوء في ناحية، حتى يُثار الصخب في ناحية أُخرى. قلقت بعض الشيء على سلامة والدتي والمسنين من قريتنا. جلت بنظري بحثًا عنهم، لكنَّ انعكاس النور على الجليد شوَّش بصري. واخترق الهواء القارس سترتي المبطنة والممزقة، فشعرت ببرد شديد.

بإيماءة من يد كسياو الشفة العليا، تدفق من خلف المنصة عشرات الرجال الأقوياء البنية، يحملون عصيّ خشب طويلة، وعلى سواعدهم شارات كُتب عليها «القوة النظامية». قفزوا إلى الأرض، تغلغلوا بين الجموع الهائجة، وهنالك بدأوا بعصيّهم ممارسة قمعهم. شرائط القماش الأحمر المعلقة على رؤوس العصيّ المرفوعة جعلتها تبدو كمشاعل. أُصيب أحد الشبّان برأسه؛ بغضب، أمسك عصا عنصر الأمن كي يتفاهم معه، فتلقى عندها لكمة على صدره. كان «عناصر لواء القوة النظامية» منزّهين عن الفساد، تصرّفوا من دون تفريق، انتشرت العصيّ في كل مكان، والناس، وقد اختلط الحابل بالنابل، انحنوا قدر ما أمكنهم. في مكبرات الصوت، صرخ كسياو الشفة العليا: «اجلسوا، اجلسوا جميعًا! فلنعزل مثيري المشاكل!...».

والشاب الذي لُكِم على صدره أمسكه عنصر الأمن من شعره وجرَّه بعيدًا من الجموع... انتهى الأمر بأن هدأ الحضور، قرفص بعض الأشخاص، جلس آخرون، لم يجرؤ أحد على الوقوف. وتوزع عناصر لواء الأمن بين الجمهور يحملون عصيّهم الطويلة، وظلوا واقفين، وكانوا أشبه بفزاعات في مزرعة أرز.

«أحضِروا إلى المنصة 'أرواح الجواميس والثعابين'!»، عند إطلاق

كسياو الشفة العليا هذا الأمر، اندفع إلى المنصّة عنصران من قوى الأمن، كانا ينتظران في الأسفل بثبات، يحملان تحت إبطيهما عنصرًا فاسدًا لا تطال قدماه الأرض.

شاهدت العمة.

لم تذعن. عبثًا حاول عناصر القوة النظامية خفض رأسها، كانت ترفعه مجددًا كلما خففوا الضغط عليه. المقاومة التي أبدتها جرَّت قمعًا أعنف. أخيرًا، وجدت نفسها من شدة الضرب ممددة وبطنها إلى الأرض. وضع أحد عناصر قوى النظام قدمه على ظهرها. اعتلى بعض الأشخاص المنصة وبادروا إلى إطلاق الشعارات، ولكنْ، لم يتجاوب معهم أحد أسفل المسرح، فنزلوا من دون حماسة، مغتاظين. انفجرت آنذاك بين الجمهور صيحات تصمّ الآذان. كانت تلك والدتي: « آه يا أختي الصغيرة البائسة... يا لبئس مصيرك... أيُّها المتوحشون أصحاب الضمير الأسود!...».

أمر كسياو الشفة السفلى بإنزال «أرواح الجواميس والثعابين» مخفورين لتبقى عمتي وحدها على المنصة. أبقى عنصر القوة النظامية قدمه على ظهرها، وأعطى دلالةً على أنه بطل لا يهاب شيئًا...

كان ذلك في الواقع تجسيدًا لشعار شائع في تلك الأيام: ترمي العدو ذا الشأن أرضًا وتضع قدمك عليه. لم تتحرّك العمة، خشيت أن تكون تُوفيت. وأسفل المنصة، توقف عويل أمي، فخشيت أن تكون فارقت الحياة أيضًا.

جُمع من سُمّوا «أرواح الجواميس والثعابين» بعد أن أنزلوا عن المنصّة تحت شجرة الحور الكبيرة، يحرسهم بعض عناصر القوة النظامية، يحملون بنادق المشاة. جلسوا في المكان، طأطأوا رؤوسهم، وكأنهم

تماثيل من طين. كانت هوانغ كيوا جالسة، رأسها إلى الوراء، مُسند إلى الجدار. قُصَّ شعرها «يينيانغ»[1] ، فكان مظهرها منفرًا ومرعبًا.

سمِعْتُ على ما قيل أنَّ العمة، بداية الحركة، كانت من باعثي «لواء الكفاح ضد نورمان بيتون» في النظام الصحي. بدت متزمتة خصوصًا، وتعاملت من دون مراعاة مع رئيس المركز الذي حماها في ما مضى، وبقسوة أكبر مع هوانغ كيوا تلك. فهمت أن العمة رامت من ذلك أن تحمي نفسها، كمن يغني بصوت قوي وعال لينسى خوفه وهو يسير ليلًا. لم يتحمل الرجل النزيه واللطيف تلك الإهانات، فرمى بنفسه في بئر. هوانغ كيوا، في المقابل، مدفوعةً من معارضين للعمة، إن لم يكن بفعل تهديداتهم، كشفت بالأدلة عن العلاقة السرية بين الأخيرة والمنشق الفار وانغ كسياوتي. أعلنت أنَّ وان القلب كانت تصرخ في كثير من الأحيان وهي تحلم: «وانغ كسياوتي!». وروت أنَّها ذات ليلة، دخلت إلى بيت المنامة لتجلب شيئًا ولاحظت أن وان القلب غير موجودة. حيَّرها الأمر، إلى أين يمكن أن تذهب امرأة عازبة في مثل هذه الساعة المتقدمة من الليل؟ وفيما كانت غارقة في الحيرة، رأت ثلاثة أسهم إنذار حمراء تنطلق من حرج الصفصاف على ضفة نهر جياو، لتسمع من ثمَّ هدير طائرة في الجو. ووفق أقاويل هوانغ كيوا، بعد وقت قصير، تسلل ظلٌّ خلسة إلى بيت المنامة، أدركت، بناءً على قامته، أنّه ظلّ وان القلب. بلَّغت فورًا رئيس المركز بالأمر، ولكن بما أن ذلك العنصر المرتهن للرأسمالية كان متواطئًا مع العمة، فقد ستر الفضيحة. أكدت أن زميلتها جاسوسة للكيوميندانغ من دون أدنى شك. إفشاء هذه القضية كان يكفي ليعرّض حياة عمتي للخطر، ولكن بعد حين، خرجت المرأة

(١) كان يُحْلَق نصف شعر رأس الأعداء ذوي الشأن.

بقصة جديدة، قالت إن عمتي تقصد كثيرًا قاعدة القضاء حيث تعيش مساكنة غير شرعية مع ذلك العنصر المرتهن للرأسمالية، أي يانغ لين، وقد حملت منه، وهي بالذات، هوانغ كيوا، مَنْ نفّذت عملية الإجهاض. تُخفي الجماهير إبداعًا غنيًّا، علاوةً عن مخيلة خبيثة. الجرمان اللذان ارتكبتهما عمتي وأفصحت عنهما هوانغ كيوا يستجيبان تمامًا لحاجات الناس النفسية، وإذا أضفنا إلى ذلك رفض عمتي الاعتراف بجرائمها، وتمركزها في المعارضة، يتضح لم كان كل اجتماع للنقد والكفاح في كانتون دونغباي فاقع الألوان يتحوّل إلى حفلةٍ مخلّة بالآداب.

أشرفتُ على المكان حيث جلست هوانغ كيوا، حدقت بذلك الرأس الغريب، كرهتها وأشفقت عليها في آن واحد، ولكن اعتراني الارتباك، شعرت بالخوف والحزن. تناولت قرميدة من السقف وصوّبت نحو ذلك الرأس الـ «يينيانغ». لو أفْلَتّ القرميدة، لسحقته. لكنني ترددت طويلًا، وأخيرًا أحجمت عن التنفيذ...

بعد عدة أعوام، رويت الحادثة للعمة، فقالت لي: «من حسن الحظ أنك لم تفلت القرميدة، وإلّا جعل ذلك جرائمي أشد سوءًا».

مع تقدّمها في السن، لم تنفك العمة تلوم نفسها على أخطاء ارتكبتها، ورأت أنّها لن تستطيع يومًا التكفير عن جرائمها الكبيرة. رأيت أن العمة تقسو بالحكم على نفسها، إذ في تلك الفترة، لم يكن أيّ شخص آخر ليتصرّف على نحو أفضل مما فعلت. «لا تفهم شيئًا...»، كانت العمة تقول والحزن يضنيها.

بعد أن أُصعِد يانغ لين إلى المنصّة محمولًا تحت إبطيه، أُزيحت القدم عن ظهر العمة. جرّوها وأوقفوها قرب يانغ لين، مخفوضة الرأس، منحنية الظهر، ذراعاها ممدودتان إلى الوراء، مثل طائرة

«جي-٥» التي كان يقودها وانغ كسياوتي. نظرت إلى رأس يانغ لين الكبير والأصلع. قبل ستة أشهر، كان الرجل صعب المنال أكثر من إله، وتمنينا جميعًا في سرّنا أن تربطه وعمتي أواصر السعادة. وإن كان يكبرها بعشرين عامًا، وإن كانت عمتي بالزواج منه تحل محل زوجته الراحلة، فذلك لم يقلل من شأن أنَّه الأمين العام للجنة الحزب في المقاطعة ويتقاضى كل شهر راتب موظف كبير، أي أكثر من مئة يوان. كان شخصية هامة، يتنقل في الأرياف في جيب أخضر، يرافقه سكرتير وحارس شخصي! ولقد أوضحت العمة من جهتها بعد أعوام طويلة: «في الواقع، لم أره إلّا مرة واحدة، وإن كنت لا أحب كرشه الكبير الشبيه ببطن حامِل، ويقززني فمه الذي تفوح منه رائحة الثوم النتنة ـ في الحقيقة، كان قرويًا فظًا هو أيضًا ـ كنت على الرغم من ذلك موافقة على هذا الزواج. من أجلكم، من أجل هذه العشيرة، كنت تزوجته». وقالت إنها عندما زارت قاعدة المقاطعة لمقابلته، قام في اليوم التالي تحديدًا كين شان، الأمين العام للكومونة الشعبية، بعملية تفتيش لمركز العناية. برفقة رئيس المركز، دخل إلى قسم الأمراض النسائية والتوليد، والبسمة تعلو وجهه، والكلام المعسول يسيل من فمه، شخص حقير بحق. أردفت العمة: «لطالما كان كين شان، قبل ذلك، متعجرفًا ووقحًا، يتصرّف باستعلاء، فواقع أن يتبدل بهذه السرعة تركني عرضة لآلاف المشاعر المتضاربة. بسبب هؤلاء الأشخاص الوضيعين الذين يتزلفون إلى الأقوياء ويحتقرون المتواضعين، أردت الزواج بيانغ لين لو لم تحدث الثورة الثقافية...».

وقد صعدت إلى المنصة إحدى الحارسات الحمر، وكانت قصيرة ومكتنزة، حملت حذاءين باليين، علقت أحدهما في عنق يانغ

لين، والآخر في عنق العمة. قالت الأخيرة لاحقًا: «إن أمكنني تقبل الاتهامات بأنني معارضة للثورة وجاسوسة، كان يستحيل عليّ تحمّل فكرة أن أُنعت بالبابوج. كان ذلك بمثابة اختلاق الأكاذيب لتشويه سمعتي، إلحاقي بعارٍ لا يُسمّى!». نزعت العمة سريعًا الحذاء البالي من رقبتها ورمته بكل قواها. وبنحو غريب، بدا أن للبابوج عينين لأنه حطّ تحديدًا أمام هوانغ كيوا.

قفزت الحارسة الحمراء في الجو، أمسكت العمة من شعرها، وشدته بقوة إلى أسفل. ردّت العمة رأسها إلى الوراء، رافضةً الخضوع. «عمتي، اخفضي رأسك، اخفضيه، وإلا أخشى أن يبقى شعرك وفروة رأسك في يديها! فالفتاة الكبيرة، التي تزن على الأقلّ خمسين كيلوغرامًا، تبدو معلقة في الهواء فوقك تمامًا!». هزت العمة رأسها بحركة مفاجئة، كما يفعل جواد نشيط بلبدته، فهوت الفتاة على الخشبة، وفي قبضتيها كومتا شعر. قطر الدم من رأس العمة ـ وما زالت إلى اليوم تحمل ندبتين كبيرتين بحجم سبيل(*) ـ وسال على صدغيها وأذنيها. وبقيت العمة مستقيمة كما «الأَلِف». ساد صمت شديد الوقع بين الحضور. رفع حمار يجرّ عربة رقبته ونهق بأعلى صوت. وإذ لم أسمع بكاء أمي وعويلها، شعرت بالضيق.

حملت آنذاك هوانغ كيوا الحذاء من أمامها، أسرعت خطاها، وصعدت إلى المنصة. قلت في نفسي إنها لم تعرف ما الذي حدث، وإلّا، لما تصرفت بهذه الطريقة. وقفت على مدخل المسرح مترددة. رمت الحذاء، همهمت شيئًا، وتراجعت خطوة خطوة. صعد كسياو

(*) عملةٌ صينية قديمة.

الشفة العليا إلى المنصة بخطوات كبيرة وصرخ بنبرة قاسية: «وان القلب، أنت متغطرسة جدًّا!». حرَّك يديه، باشر بإنشاد الشعارات، آملًا لا شك تحمية الأجواء والخروج من هذا المأزق، لكنَّه لم يلقَ ترحيبًا بين المشاهدين. ورمت الفتاة البدينة خصلات الشعر وكأنها تتخلص من ثعابين سامة، وغادرت المنصّة متعثرةً، باكيةً.

«توقفي!»، أمر كسياو الشفة العليا هوانغ كيوا التي كانت تتراجع للنزول عن المنصّة، وقال لها: «ستعلّقين أنتِ الحذاء على رقبتها!».

سالت الدماء على أذن العمة وصولًا إلى ياقتها، وغطت حاجبيها، ودخلت عينيها. رفعت العمة يدها لتمسح وجهها.

لمّت هوانغ كيوا الحذاء ودنت من العمة ترتجف بكامل أعضائها. رفعت رأسها وألقت نظرة على وجه الأخيرة، فأطلقت صرخة غريبة، ووقعت على ظهرها متقيئةً رغوة بيضاء.

صعد بعض الحراس الحمر إلى المسرح وسحبوها إلى الأسفل كمن يجر كلبًا ميتًا.

أمسك كسياو الشفة العليا يانغ لين من ياقة سترته ورفعه ليستقيم ظهره.

كانت يدا يانغ لين متدليتين، ساقاه مطويتين، وجسمه كاملًا كقماش رديء، لو أفلته كسياو الشفة السفلى لهوى أرضًا.

«إن مقاومة وان القلب العنيدة تقودنا إلى طريق مسدود! قال كسياو الشفة العليا. بما أنها ترفض الكلام، عليك أن تفعل، العدل لمن يعترف والقسوة للمتمردين. هيا اعترف: هل زنيتما؟».

لم يتفوه يانغ لين بكلمة.

أومأ كسياو الشفة العليا بيده، فصعد شاب قوي البنية إلى المسرح، وصفع يانغ لين عشرات المرات، وعلا صوت الصفعات إلى أن بلغ أعالي الشجر. تطايرت أشياء بيضاء ووقعت على المسرح. افترضت أنها أسنان. ترنح يانغ لين، وكاد يقع، فالتقطه الشاب من ياقته ومنعه من السقوط.

ـ اعترف، ارتكبتما الزنى؟

ـ نعم...

ـ كم مرة؟

ـ مرة واحدة...

ـ اعترف صراحةً...

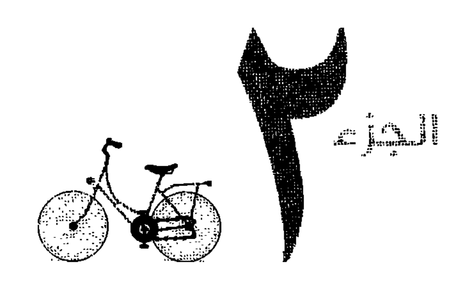
ـ مرتين...

ـ لستَ صادقًا!

ـ ثلاث مرات... أربع... عشر... مرّات كثيرة... ما عدت أذكر كم مرة...

أطلقت العمة صرخة حادة توقِف شعر الرأس؛ ومثل لبوة تنقض على فريستها، هجمت فجأة على يانغ لين. كان الأخير ممددًا من دون حراك على المنصة، والعمة، بكل ما أوتيت من قوة، خدَّشت وجهه... بعض عناصر القوة النظامية المفتولي العضلات، قوى طبيعية خارقة، أُجبِروا مع ذلك على بذل طاقة كبيرة قبل أن يتمكنوا من فصل العمة عن جسم يانغ لين.

سُمِعَت آنذاك سلسلة أصوات غريبة على سطح المستنقع، تشققت صفحة الجليد، غرقت، ووقع الكثيرون في المياه المجلدة.


الجزء
٢

عزيزي السيّد سوجيتاني يوشيهيتو

متأثر أنا ومربكٌ في آن لمعرفتي بأيّ أناة قرأتم تلك الرسالة الطويلة، غير المترابطة، التي كتبتها طوال شهرين وأرسلتها إليكم على شكل طرد لتوفير بعض المال. إضافةً إلى ذلك، وعلى الرغم من أنني بدّدت وقتكم الثمين، فقد أوليتموني، علاوةً عليه، تشجيعكم وموافقتكم.

انتابتني آلاف المشاعر حين علمت - من كان يصدّق - أن ذلك القائد الياباني، سوجيتاني، في موقع مدينة بينغدو خلال العدوان الياباني على الصين، كان في الواقع والدكم الراحل. فالاعتذارات التي تقدّمونها باسمه إلى عمتي، وعائلتي، وسكان بلدي تُظهر أنكم تنظرون إلى التاريخ بموضوعية، وشجاعتكم في هذا الالتزام تركت فينا أثرًا عميقًا. في المبدأ، كنتم أنتم أيضًا ضحية تلك الحرب. تتحدثون في رسالتكم عن الحياة التي عشتم ووالدتكم في تلك الفترة حين كان الخوف يسكنكم، وعمّا عانيتم شخصيًّا من جوع وبرد بعد انتهاء الحرب. وكان والدكم في الحقيقة ضحية تلك الحرب، فلو لم تقع لاستطاع، وفقَ قولكم، أن يصبح الطبيب الجراح ذا المستقبل العظيم الذي كان يحلم أن يصيره، لكن الحرب غيَّرت المعطيات وغيَّرته، فجعلت منه آمر موت، هو الذي كان من المفترض أن يكون منقذ أرواح.

قرأت رسالتكم على عمتي، ووالدي، وأشخاص كثر في الجوار ممن عايشوا تلك الحقبة. عند الانتهاء من قراءة الرسالة، كانوا جميعًا يذرفون الدمع ويتنهدون بانفعال لا حدود له. يوم كان والدكم في الخدمة في بينغدو، كنتم مجرد طفل في الرابعة أو الخامسة، وما من سبب يلزمكم بتحمّل مسؤولية الجرائم التي ارتكبها

في مدينة بينغدو؛ على الرغم من ذلك، تتحملونها، بشجاعة تحملون العبء على كتفيكم وترتضون بذل كل الجهود للتكفير عن الجرائم التي ارتكبها الجيل السابق. إن أحزننا ذلك، ندرك قيمة ذلك الحس بالمسؤولية الذي تتمتعون به والذي يفتقده بقسوة عالمنا الحاضر، ولو دقق كل شخص في التاريخ وراجع نفسه بضمير وصفاء مثلكم، لاستطاعت البشرية تجنب الكثير من التصرفات الخرقاء.

عمتي، ووالدي وأبناء بلدي سيستقبلونكم بالترحاب إذا رغبتم في العودة إلى كانتون دونغبي. قالت عمتي إنها سترافقكم في زيارة لبينغدو. وهمست لي سرًّا كذلك أنها لا تحمل انطباعًا سيئًا عن السيد والدكم. بين ضباط جيش الاحتلال الياباني، على ما تُظهره الأفلام الصينية، كُثُر تصرفوا بوحشية، وقسوة، وشراسة، وكان آخرون مثل السيد والدكم سامين جدًّا، عاملوا الناس باحترام. والرأي الذي أبدته عمتي فيه هو التالي: «الأقلُّ شرًّا بين الأشرار».

عدت إلى غاومي بداية شهر حزيران/يونيو، وما زلت فيها منذ أكثر من شهر. خلال هذه الفترة، قمت ببعض الأبحاث ذات الطابع الاجتماعي، مما يساعدني على الإعداد لكتابة تلك المسرحية التي تتناول حياة عمتي. في الوقت نفسه، ونزولًا عند طلبكم، سأتابع تلاوة قصتها عليكم، وفق أسلوب الرسائل؛ علاوةً على ذلك، وتماشيًا مع نصائحكم، سأحاول أن أُضمّن هذه الرسالة عَرَضًا أحداثًا عشتها شخصيًّا.

عمتي ووالدي طلبا مني أن أتقدم منكم، ومن عائلتكم، بأحر التحيات.

أنتم على الرحب والسعة بين أبناء بلدي في كانتون دونغبي.

الشرغوف

غاومي، يوليو/تموز ٢٠٠٣

١

سيدي العزيز، كان السابع من تموز/يونيو ١٩٧٩ يوم زفافي. كانت وانغ رينمي، العروس، رفيقتي في المدرسة الابتدائية. مثلي، كانت ساقاها طويلتين كطير الرهو. عند رؤيتهما، كان قلبي يخفق بشدة. كنت في الثامنة عشرة وذهبت لأملأ الماء، فالتقينا عند البئر. كان دلوها قد وقع فيها، وهي تدور حولها، متوترة. ركعت على حلقة البئر لمساعدتها على التقاط الدلو. حالفني الحظ ذلك اليوم ونجحت من المحاولة الأولى. تنهّدت بإعجاب: «الخبب الوئيد، أنت فعلًا ماهر في انتشال الدلو من الماء!». كانت في تلك الحقبة معلمة بديلة في المدرسة الابتدائية وتعلّم التربية البدنية. كانت ممشوقة القد، جيدها نحيل وطويل، رأسها صغير، وقد جدلت شعرها بضفيرتين.

ـ وانغ رينمي، تمتمتُ، أريد أن أقول لك شيئًا.

ـ وما هو؟ سألت.

ـ وانغ المرّة الصفراء وشين الأنف يتواعدان، هل عرفتِ ذلك؟

أطرقت للحظة، ثمّ راحت تضحك مقهقهة. أجابت ضاحكة:

ـ الخبب الوئيد، تقول فعلًا أي شيء، وانغ المرة الصفراء صغيرة القد فيما يشبه شين الأنف جوادًا أجنبيًّا ضخمًا، كيف يمكنهما أن

يكونا معًا؟ ثمَّ، كأنها تفكّر بأمرٍ ما، احمرّت وجنتاها، والتوت من شدة الضحك.

قلت لها بجدية:

ـ لا أختلق الروايات، وإن كنت أفعل، فليتني أتحوَّل كلبًا! رأيتهما بعيني.

ـ ما الذي رأيته؟ سألت وانغ رينمي.

تابعت همسًا:

ـ سأقول لك، ولكن إيّاكِ أن تخبري أحدًا... أمس، خرجت من قاعة العمال، وأثناء مروري أمام بيدر القمح، سمعتُ أصواتًا مخنوقة تصعد من خلف كومة التبن. تقدّمت بهدوء وأصغيت، كان شين الأنف وانغ المرة الصفراء مشغولين بحديث حميم. سمعت الأخيرة تقول: «أخي الكبير شين، كن مطمئنًا، وإن كان قدّي صغيرًا، فبنيتي قوية، وسأعطيك ابنًا قويًا، هذا مؤكد...».

وانفجرت وانغ رينمي بالضحك مجدّدًا... سألتها: «أتريدين سماع البقية أم لا؟

ـ آه، طبعًا، وماذا فعلا بعد ذلك؟

ـ أظنّ أنهما تبادلا القبل بعد ذلك.

ـ تتفوّه بترّهات، كيف تبادلا القُبل؟

ـ هل أختلق لكِ القصص؟ تسألين كيف فعلا ذلك؟ وجدا وسيلة، هذا جليّ! قد يكون شين الأنف عانقها وكأنها طفل صغير، وتبادلا القُبل كما يشاءان، ببساطة!

احمرّت وانغ رينمي مجددًا وقالت:

ـ الخبب الوئيد، أنت نذل! وشين الأنف كذلك!

قلت لها: «وانغ رينمي، حتى شين الأنف ووانغ المرة الصفراء مغرمان، ألا يمكننا نحن أن نصبح صديقين؟

ترددت قليلًا، ثمّ ضحكت وسألتني:

ـ ولِمَ تريد أن تصبح صديقي؟

أجبت: «لأنَّ ساقيكِ طويلتان، وساقاي كذلك. تقول عمتي إن تزوجنا فسيحظى ولدنا بالتأكيد بساقين طويلتين، ويمكننا أن ندربه ليصبح بطلًا عالميًّا».

قالت ضاحكة:

ـ عمتك ظريفة جدًّا! لا تهتمّ بقطع القنوات فحسب، بل تؤدّي أيضًا دور الوسيطات!..

وذهبت وانغ رينمي، تحمل دلوها. سارت كالريح، بخطوات كبيرة، الحمالة ترتجف على كتفيها، والسطلان يرقصان صعودًا ونزولًا كأنهما سيطيران. غادرتُ بعد ذلك البلدة لألتحق بالجيش. سمعت بعد أعوام عدة أنها خطبت كسياو الشفة السفلى. عمل الأخير مدرّسًا بديلًا في المدرسة الثانوية الزراعية حيث علَّم اللغة والآداب. كتب نصًا نثريًّا تحت عنوان: «مديح الفحم»، نُشِر في صحيفة الجماهير وأحدث وقعًا في كانتون دونغبي. عند سماع هذه الأخبار، تأثرت جدًّا. رغم أنه لم يتذوّق الفحم، كان وحده من بين رفاقنا من كتب نصًّا كهذا. بدا أن وانغ رينمي أحسنت الاختيار.

بعد نجاح كسياو الشفة السفلى في امتحان الدخول إلى الجامعة، أطلق والده آلاف المفرقعات في الشارع الرئيس؛ إضافةً إلى ذلك،

استأجر فريقًا لعرض الأفلام قام بتثبيت شاشةٍ في الملعب الرياضي في المدرسة الابتدائية وعَرَض الأفلام لثلاث ليالٍ متتالية. كان مجبولًا بالغطرسة، يظنّ نفسه أهم من الآخرين.

في تلك الفترة، كنت قد عدت للتو من «حرب الهجوم الدفاعي المضاد ضد فييتنام»، وحزت تنويهًا من الدرجة الثالثة ورُقيت إلى رتبة ضابط بالأسبقية. وانشغل كثيرون بالتوسّط لأتزوج. قالت لي العمة:

ـ الخبب الوئيد، سأعرّفك إلى فتاة جيدة جدًّا، أضمن أنَّك ستكون راضيًا.

وسألت والدتي:

ـ من هي؟

وأجابت العمة:

ـ الأسد الصغير طبعًا، تلميذتي!

تابعت والدتي:

ـ هذه الفتاة تخطت الثلاثين، أليس كذلك؟

ـ بلغت الثلاثين تحديدًا.

وأبدت والدتي الملاحظة التالية:

ـ لكنَّ الخبب الوئيد في السادسة والعشرين.

ـ من الأفضل أن تكون أكبر منه سنًّا، المرأة الأكبر سنًا تعرف كيف تُحبّ.

وتدخلت هنا:

ـ الأسد الصغير جيدة حقًّا، ولكنّ وانغ الكبد مغرم بها بجنون منذ أعوام، لا يمكنني أن أتزوج امرأة يحبها صديقي.

فقالت العمة:

ـ وانغ الكبد؟ لكنَّه مدّع قدر ضفدع ماءٍ يريد أن يتذوق لحم الإوز! الأسد الصغير لن تتزوجه بالتأكيد! يأتي والده وانغ القدم أوان كل معرض تجاري منحنيًا ومتكئًا على عصاه، ليثير مشاجرة ويَعيب عليّ، وكم عامًا مضى وهو يراوغ بهذه الطريقة؟ سلب مني على الأقلّ ثمانمئة يوان «تكاليف منشطات».

وقالت والدتي:

ـ وانغ القدم هذا مخادع قليلًا.

ـ كيف ذلك، قليلًا، استأنفت العمة بغضب. إنه مخادع بالتمام والكمال، نعم. حين يسلبني المال يذهب إلى المعرض ليأكل اللحم المشوي ويشرب الكحول؛ ومتى ثمل، استقام ظهره كالألف وعاث فوضى في المكان كله. قولي لي لمَ طوال حياتي، لم أقع إلّا على هذا النوع من الأوغاد؟ أمَّا ابن الزنى ذلك كسياو الشفة العليا، فقد كاد يُقضى عليّ بسبب تعنيفه خلال الثورة الثقافية، وها هو ذا اليوم يتصرف بطريقة توحي بأنه رجل محترم، يستعمل مروحةً ويتمتع في منزله بالسعادة لأنه عاطل من العمل. سمعت أنَّ ابنه نجح في امتحان الدخول إلى الجامعة. يقول المثل المأثور: «من يزرع الريح، يحصد العاصفة»، ولكن ماذا عن الحاضر؟ فالأخيار لا يُكافأون على أعمالهم الصالحة، فيما يتمتع عديمو الأخلاق بالسعادة بكل طمأنينة!

قالت والدتي:

ـ الثواب الحقيقي موجود، ولكن يجب ببساطة انتظار الوقت المناسب.

ـ إلى متى؟ ابيضّ رأسي!

بعد رحيل العمة، تنهّدت والدتي من شدة الانفعال: «لم تكن حياة عمتك وردية».

سألتُ:

ـ سمعتُ أنَّ وانغ لين عاد لاحقًا للقاء العمة؟

أجابت والدتي:

ـ استنادًا إلى ما قالته بنفسها، عاد فعلًا. يقال إنه أصبح مفوَّضًا إداريًّا، يتنقَّل بسيارةٍ مع سائق. اعتذر من العمة وطلب منها الزواج للتعويض عن الأذى الذي لحقها بسببه خلال الثورة الثقافية. رفضت عمتك ذلك قطعًا.

وفيما كنا على هذه الحال نتأسف على حظ العمة، دخلت وانغ رينمي فجأة إلى الغرفة. قالت لوالدتي: «يا خالة، سمعتُ أن الخبب الوئيد يبذل جهدًا هنا وهناك بحثًا عن زوجة، فما رأيك بي؟».

ـ ولكن يا ابنتي، ألست مرتبطة؟ سألت والدتي.

ـ انتهت علاقتنا.

ـ تخلى عن امرأته بعد نجاحه في امتحان الدخول إلى الوظيفة العليا، أليس هذا ما فعله شين شيمي[1]؟ قالت والدتي حانقةً.

ـ لا يا خالة، ليس هو من تخلّى عني، أنا تركته. أكّدت وانغ رينمي؛ نجح في امتحان الدخول إلى الجامعة، وما الغريب في الأمر! مع ذلك، شهدنا المفرقعات، والعروض، وكثيرًا من الغطرسة. الخبب

---

(١) شخصية من مسرحية تقليدية من عهد سلالة كينغ، أصبحت لاحقًا من مجموعة الأعمال التي تقدمها فرقة أوبرا بكين.

الوئيد أفضل منه بكثير، حاز ترقيةً، فلم يصنع من الحبة قبة. وحين عاد إلى الديار، انصرف إلى العمل في الحقول.

ـ يا ابنتي، المشكلة أن الخبب الوئيد ليس أهلًا لنسبك، قالت والدتي.

ـ خالتي، كل ما ستقولين بشأن هذه المسألة لا يهم، يجب أن نسأل الخبب الوئيد عن رأيه. الخبب الوئيد، أريد أن أصبح زوجتك لنرزق ببطل عالمي. هل تريد ذلك؟

ـ نعم! أجبت، ونظري مثبّت على ساقيها.

٢

يوم زفافنا، كان الطقس عاصفًا. غطَّت الغيوم السوداء السماء، ورعدت، ثمّ أمطرت سيولًا.

أزعجتنا والدتي بترداد هذه الجملة: «يوان الوجه ذاك، قال إنَّه اختار لك يومًا مشرقًا، وعلى الرغم من ذلك، إنَّه الطوفان».

بعد العاشرة، وصلت وانغ رينمي إلى منزلنا متحدّيةً المطر، ترافقها ابنتا عمّ لها من جهة والدها. ارتدين ثلاثتهن مشمّعات وبَدَوْنَ كأنهن ذاهبات إلى السد للمشاركة في عملية الحماية من فيضان النهر. أُقيم في الفناء ملجأ من أوراق بلاستيكية، حيث بُنِيَ موقد موقت؛ جلست القرفصاء أمامه محاولًا إشعال النار لتسخين المياه. فقال لي ابن عمي اللحا، الحواس الخمس، بقلة تهذيبه العادية:

ـ هه، يا بطل حرب الهجوم الدفاعي المضاد، العروس تخطت عتبة المنزل، وأنت ما زلت هنا مقرفصًا تسخّن المياه؟

فأجبت:

ـ حلّ محلي إذًا لتسخين المياه.

ـ لا أستطيع. الخالة طلبت مني أن أطلق المفرقعات. مع هذا المطر، يتطلب الأمر براعةَ فنيّ.

فصاحت به والدتي الواقفة على عتبة المنزل:

ـ الحواس الخمس، توقف عن الثرثرة وأطلقها.

أخرج الحواس الخمس من جيبه سبحة من المفرقعات النارية مغلفة بشريط بلاستيك، وأشعل الفتيل يحمله بيده من دون أن يستخدم عصا؛ لوى جسمه جانبًا، وأطلق المفرقعات تحت المطر، محتميًا بمظلة رفعها عاليًا. بدل أن يتبدّد الدخان، غمر ابن العم الشاب. الأطفال الذين وقفوا متفرجين، مبللين حتى العظام، صفقوا، ضربوا الأرض بأرجلهم وهم يصرخون: «الحواس الخمس، الحواس الخمس، الدخان الأزرق يملأ رأسه».

ـ أولئك المسوخ الصغار، عمّ يتحدثون هنا؟ قالت والدتي.

عادةً، حين تدخل العروس إلى دار أهل زوجها، عليها ألّا تتفوّه بكلمة؛ تقطع البهو، وتقصد غرفة الزفاف وتجلس على الكانغ، الساقان جانبًا، هذا ما يُقصد بـ«الجلوس على السرير». لكنَّ وانغ رينمي، حين دخلت الفناء، وقفت هناك تتفرج على عرض الحواس الخمس. كان الدخان قد لطّخ وجه الأخير بالأسود، كأنَّه خرج للتوّ من الموقد. قهقهت وانغ رينمي عاليًا. ابنتا عمّها، باعتبارهما إشبينتيها، شدّتاها بتحفظ من كمّها، لكنّها لم تعرهما اهتمامًا. انتعلت حذاءً بلاستيكيًّا عالي الكعب، فبدت أطول، قُلْ شجرة. قاسها الحواس الخمس من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها وقال:

ـ زوجة أخي الكبيرة، من يريد أن يقبلك عليه أن يعتلي سيبة!...

ـ الحواس الخمس، يسعدني أن تطبق فمك! ردّت والدتي، فيما تكلمت وانغ رينمي:

ـ الحواس الخمس، أيُّها الغبي! حتى وانغ المرة الصفراء وشن الكبد لا يحتاجان إلى سيبة ليتبادلا القُبَل...

عند سماع العروس، عكس كل توقع، تشاكس ابن العم الصغير بهذه الطريقة وسط الفناء، بدأت الخالات والعمات والكنات يتوشوشن. خرجتُ من الملجأ ورفش الفحم بيدي. صفق الأولاد وخبطوا الأرض بأرجلهم: «ها هو ذا البطل! ها هو ذا البطل!».

كنت مرتديًا بزة عسكرية جديدة، علقت عليها إشارة الرتبة الثالثة المستحقة، ووقفت هناك، الرفش في يد، ووجهي ملطخ بالسخام، والأرجح أن المشهد بدا معيبًا. تلوّت وانغ رينمي من الضحك. تحيّرتُ، لم أعرف إن كان عليّ أن أضحك أو أبكي. تبدو وانغ رينمي تلك مختلة. صرخت والدتي:

ـ أدخلوها سريعًا إلى المنزل!

قلت بنبرة ساخرة:

ـ سيدتي، تفضّلي إلى غرفة الزفاف أرجوكِ!

أجابت وانغ رينمي:

ـ نختنق في الداخل، الجوّ منعش هنا.

صفق الأولاد مجددًا، ضربوا الأرض بأرجلهم، وزعقوا:

«أوه، أوه، أوه!»

دخلتُ إلى المنزل وجلبت طاسة من القرع مليئة بالملبس، ركضت

إلى البوابة ورميت السكاكر في الزقاق. اندفع الأولاد نحوها كسرب من النحل، وتنازعوا عليها في الوحل. أمسكت بحزم وانغ رينمي من معصمها وجررتها نحو المنزل. كان الباب منخفضًا، فصدمت جبينها وأحدث ذلك ما يشبه انفجار «بوم!»، وصرخت:

ـ آخ، يا أمي الحنون، شججت رأسي!

واهتزت من الضحك العمّات والخالات والكنات.

كان المنزل صغيرًا ويعج بالناس إلى حد أن لا أحد يستطيع أن يحرّك قفاه. خلعت الشابّات الثلاث مشمّعاتهن التي تقطر ماءً، ولم يجدن مكانًا لتعليقها إلّا على إطار الباب. كانت الأرض رطبة ممّا حمله كلّ منّا بقدميه من وحل، فتحولت الغرفة فعلًا إلى مستنقع آسن، قذر. وكان المكان ضيقًا: بلغ طول الكانغ حوالى مترين، وُضِعت على رأسه أربع بطانيات، ولحافان محشوّان قطنًا، إضافة إلى وسادتين وحرامين من الصوف، وكل ذلك جديد؛ كانت تلك هدايا أهل العروس التي كادت تصل إلى الهودج الورقي. ما إن وضعت وانغ رينمي ردفيها على الكانغ حتى صرخت:

ـ آي، أمي الحنون، هذا ليس بكانغ، هذه بصراحة صفيحة لشيّ الكعك!

غضبت والدتي، طرقت الأرض بعصاها، وقالت: «نعم، هذه صفيحة لشيّ الكعك، ويسرني أن تبقي جالسة عليها، لنرى هل سيُشوى ردفاك في الوقت اللازم!».

أُصيبت وانغ رينمي بنوبة ضحك جديدة وقالت لي همسًا:

ـ الخبب الوئيد، والدتك ظريفة جدًّا! إذا احترق ردفاي، فكيف يمكنني أن أُرزَق ببطل عالمي؟

جُننت من شدّة الغيظ، ولكن كان عليّ أن أتمالك نفسي في يوم السعد هذا، تحسست حرارة الحصيرة على الكانغ، وكانت محرقة حقًا. كان الضيوف كثيرين، إذ دُعيت جميع نساء العائلة إلى المأدبة، فاشتغل موقدا الغرفة من دون توقف لتحضير الخبز، وقلي الأطعمة في الـ «ووك»، وسلق الشعيرية، إلى حد أن الحصيرة كانت على وشك الاشتعال. أخذت بطانية من الكومة، طويتها على شكل مربع، ثبّتها إلى الحائط وقلت:

ـ سيدتي، اصعدي للجلوس عليها أرجوكِ!

قهقهت وانغ رينمي وردَّت:

ـ الخبب الوئيد، أنت مضحك فعلًا بمناداتي في كل مناسبة «سيدتي»، نادني وفق العادات «زوجتي» أو كما كنت تفعل، نادني رينمي.

لم أجد ما أقول، تزوّجت امرأة غبيّة جدًّا، ماذا يمكنني أن أضيف؟ لم تفهم أنني ناديتها «سيدتي» كي أسخر منها، لأطلق العنان لاستيائي منها. «حسنًا، زوجتي رينمي، اصعدي إلى الكانغ». بمساعدة ابنتيْ عمها اللحا، نزعتُ حذاءها وجوربيها النايلون المبللين ورفعتها إلى الكانغ. فورًا، وقفت ولمس رأسها الهودج الورقي. في هذا المكان المنخفض والضيق بدت أطول، وساقاها، ساقا الرهو، كأنهما من دون بطة. وقدماها كذلك لم تكونا صغيرتين، بل بمقاس قدمي تقريبًا. دارت حافيةً حول ذلك الكانغ الذي لا يزيد طوله عن مترين. عادةً، يجب أن تجلس الإشبينتان على حافة السرير مع العروس، لكن وانغ رينمي احتلت وحدها الكانغ كله؛ ظلت إحدى ابنتي عمّها واقفة في زاوية، فيما الأُخرى جلست فعلًا. وكأنها تريد أن تبرز طولها، وقفت

وانغ رينمي على رؤوس أصابعها، رافعة برأسها الهودج الورقي. بدا ذلك لعبة ممتعة، راحت تدور حول الكانغ، دائمًا على رؤوس أصابعها، وتقفز، ويدق رأسها على الورق: «بام، بام». والدتي، يدها على إطار الباب، مدّت رأسها لتلقي نظرة على ما يجري في الداخل، وقالت:

ـ كنتّي، إذا كسرت السرير وأنتِ تقفزين عليه هكذا، فأين تنامين الليلة؟

ضحكت وأجابت:

ـ إذا حصل ذلك، فسأنام أرضًا.

مع دنوّ المساء، أتت العمة إلى العشاء. قالت وهي تدخل:

ـ عمّكتم المسنَّة هنا لتهنئتكم! ما الأمر؟ ألن يستقبلني أحد؟

خرجنا مسرعين لتنفيذ الأمر. قالت والدتي:

ـ مع هذا المطر، ظننت أنَّكِ لن تأتي.

حملت مظلة من الورق المزيَّت، رفعت ساقي سروالها، وسارت حافيةً، حذاؤها مثبّت تحت إبطها.

ـ بغضّ النظر عن المطر، فلو أمطرت سكاكين كنت سآتي مع ذلك! قالت العمة، ابن أخي بطل، والبطل يتزوّج، ولا آتي؟

وأجبتها: «عمتي، تتحدثين عن بطل، ولست سوى طاهٍ في الجيش، أعدّ الطعام إذًا، ولم أرَ ظلّ عدوّ».

ـ حتى الطاهي البسيط مهم جدًّا، إن كان الرجل من حديد، فالغذاء هو الصلب، كيف يمكن لجندي لا يأكل شبعته أن يهجم ويخترق خطوط العدو؟ وتابعت: «أعطوني ما آكله لأن عليّ أن أعود سريعًا، بدأ النهر يفيض، وإذا غمر الجسر، يستحيل عليّ الرجوع».

ـ إن حصل الأمر، فسترتاحين يومًا أو يومين في المنزل، قالت أمي، مضى زمن طويل مذ سمعناك تتحدثين، وهذا المساء سنصغي إليك قدر ما نريد.

ـ مستحيل! غدًا لديّ اجتماع للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني على مستوى المقاطعة.

ـ أيُّها الخبب، هل عرفت؟ سألتني والدتي، عمّتك ترقّت، أصبحت في اللجنة الدائمة للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني.

ـ ترّهات، قالت العمة، لا اعتبار لي. عيّنوني هناك لإكمال العدد، هذا كل ما في الأمر.

دخلت العمة إلى الغرفة الغربية، فساد الهرج والمرج بين جمع الأقارب الحاضرين، مَنْ جلسوا على الكانغ انحنوا ليتراصّوا على حافة الكانغ من أجل أن يفسحوا لها مكانًا. فقالت:

ـ ابقوا جميعكم في أمكنتكم، سآكل لقمة وأذهب فورًا.

أمرت أمي شقيقتي الكبرى بإحضار طعام للعمة. رفعت الأخيرة غطاء الطنجرة، وأخذت رغيف خبز صغيرًا على البخار. كان ساخنًا جدًّا، فقلبته بين يديها، ونفخت عليه بقوة. فتحته، حشرت داخله قطعة لحم مطهوّة على البخار ومغلفة بدقيق الأرز والتوابل، أغلقته بين يديها وقضمته بشهوة. قالت وفمها مليء بالطعام: «آكله بهذه الطريقة، فلا ضرورة لجلب طاسة أو صحن، هكذا أفضل. مذ زاولت هذه المهنة، أستطيع أن أعدّ على أصابع يديّ المرات التي تناولت فيها الوجبات جالسةً كما يجب».

وأضافت وهي تأكل:

ـ دعوني أرَ غرفة العروسين.

وانغ رينمي التي وجدت الكانغ حارًّا جدًّا، جلست على حافة النافذة، كانت تقرأ قصة مصوّرة، وتضحك وهي تقرأ.

ـ العمة هنا! قلت.

قفزت وانغ رينمي بوثبة واحدة عن الكانغ وأمسكت بيد العمة وقالت: «أيّتها العمة، كنت أريد أن أسألك شيئًا، وها أنتِ هنا».

ـ آه فعلًا، وما هو؟ سألت العمة.

خفضت وانغ رينمي صوتها وتابعت: «سمعت أنَّ لديك دواءً يسمح بحمل توأمين؟».

قالت العمة بازدراء: «أين سمعت بالأمر؟».

ـ وانغ المرَّة الصفراء قالت ذلك.

ـ شائعات، إنَّها مجرد شائعات...

غصّت العمة بالخبز، سعلت واحمرّ وجهها، فناولتها شقيقتي كوب ماء، شربت العمة، ربتت بطنها وقالت بوقار:

ـ حتى إن وُجد عقار كهذا، فمن يجرؤ على تسويقه ووصفه؟

ـ تقول وانغ المرة الصفراء إنّه في قرية عائلة شين تناولت امرأة التركيبة التي أعطيتِها بناءً على وصفة طبية وإنها ولدت تنينًا وفينيقًا!

دست العمة نصف رغيف الخبز الذي كان تأكله في يد شقيقتي وقالت: «سأجنّ من الغضب! وانغ المرّة الصفراء متلاعبة حقيرة، والحق يقال إنني بذلت جهدًا هائلًا لأسحب الطفل الذي حملته في بطنها، وهي، مخالفةً لضميرها، تختلق عني الشائعات. في المرّة المقبلة التي ألتقيها، أعدك بأن أشوّه ذلك الفـ... فمها».

- عمتي، يجب ألّا تغضبي هكذا، قلت، وركلت بتحفظ رِجل وانغ رينمي وقلت لها همسًا: «اصمتي!».

وصاحت بطريقة مبالغ فيها: «آخ، يا أمي الحنون، كسرتَ رِجلي بهذه الضربة!».

فقالت لها أمي بحدّة: « لا تُكسر قدم الكلب بسهولة!».

- حماتي، صرخت وانغ رينمي! ما تقولين غير صحيح! الكلب الأصفر الكبير لثاني إخوة أبي كُسِرَت قدمه عندما أطبق عليها فكّا «الهر الحديد» لكسياو الشفة العليا.

هذا الأخير، عاد إلى القرية بعد تقاعده، وتخصّص في أفعال دنيئة، منها قتل الكائنات الحيّة. صنع بندقية، واصطاد كل الطيور، من أيّ نوع، حتى العَقْعَق الذي يعدّه سكان الجبل طيرًا ذا فأل حسن. وصنع شبكة مبيدة عُراها رفيعة، دوَّرها في الماء لاصطياد السمك، فما كان ينجو منه شيء، حتى الفراخ التي لا يزيد طولها عن بضعة سنتيمترات. وصنع كذلك «الهر الحديد» – ملقط قوي جدًا - ؛ كان يطمره في الغابة، في المقابر وسط الطبيعة، ويصطاد الغرير والسرعوب. وقد داس كلب عم وانغ رينمي بالخطأ على «الهر الحديد»، فعلقت قائمته بالفخ وانكسرت.

عند سماع اسم كسياو الشفة العليا، امتقع وجه عمتي، فقالت تصرف أسنانها من شدة الغيظ:

- كان يجب أن تُنزِل السماء أشد العقوبات بهذا الوغد الحقير، ولكنه ما زال هنا، على قيد الحياة، ويتمتع بالصحة، وله قوة ثور. أعتقد أن السماء حتى تخاف من الأنذال!

ـ عمتي، قالت وانغ رينمي، إن كانت السماء تخاف منه، فأنا لا أفعل، وإن كنت تحقدين عليه، فسأنتقم لك!

أطلقت عمتي، مذهولة، ضحكة مدوّية، ثمّ قالت:

ـ يا زوجة ابن أخي، سأكون صريحةً معك، حين قال لي الأخير إنه يريد أن يتزوّجكِ، لم أوافق، لكنني سمعت أنك بادرتِ وتركتِ ابن كسياو الشفة العليا، فغيّرتُ رأيي. قلت في نفسي، جازاها الله، هذه الصغيرة ذات شخصية قوية. إنّه طالب جامعي، وماذا بعد؟ لاحقًا، أبناء عائلة وان العريقة، لن يقصدوا الجامعة فحسب، بل أفضل الجامعات، جامعة بكين، وكينغوا، وكمبريدج، وأوكسفورد. ولن يكتفوا بالشهادة العادية، بل سيحصلون على الماجستير والدكتوراه. سيغدون أساتذة، وعلماء. آه نعم، سيكون بعضهم كذلك من أبطال العالم!

وعاودت وانغ رانمي الحديث في الموضوع نفسه:

ـ أيتها العمة، في هذه الحال، عليك أن تعطيني ذلك الدواء كي أُرزق بتوأمين، وأهب عائلة وان العريقة ذرّية جيدة، وأُميت كسياو الشفة العليا من الغيظ!

ـ يا إلهي! ويقولون إنَّ ذكاءك محدود! كل ذلك اللف والدوران لتعيديني إلى نقطة البداية! وأردفت العمة بنبرة رصينة: «أنتم الجيل الشاب، عليكم أن تطيعوا الحزب، وتواكبوه، وتتخلوا عن الأفكار المخالفة لعقيدته. فالتخطيط الأُسري سياسة أساسية للبلد، مسألة ذات أولوية. حين يكون الأمين العام في مركز القيادة، يلتزم الحزب كاملًا بتوجيهاته. ينير الدرب، يكون المثال. يدعم البحث العلمي. يرفع التقنية، ينفذ الإجراءات المتخذة. في التحركات الجماهيرية، يجب المثابرة. طفل لكل زوجين، تلك هي السياسة الراسخة، «الثابتة للأعوام

الخمسين المقبلة». إن لم نضبط التزايد السكاني، فسينتهي أمر الصين. الخبب الوئيد، أنت عضو في الحزب الشيوعي، أنت جندي ثوري، يجب أن تؤدّي دورًا نموذجيًا، أن تكون قدوةً.

ـ عمتي، أعطيني الدواء سرًّا، سأبلعه فورًا، حتى الشياطين لن تعرف بالأمر، تابعت وانغ رينمي.

ـ كم أنتِ طفلة، نعم، على ما يبدو، تفتقرين في النهاية إلى بعض المنطق، قالت العمة، أعيد وأكرر، لا وجود لهذا الدواء! ولو وُجد، لا أستطيع أن أصفه لك! العمة عضو في الحزب الشيوعي، وفي اللجنة الدائمة للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني، ونائبة رئيس المجموعة الصغيرة الموجهة للتخطيط الأُسري، كيف يمكنها أخذ المبادرة بمخالفة القانون؟ سأشرح لك بوضوح، على الرغم من أن العمة كانت ضحية الظلم، فقلبها ما زال أحمر، ولن يتغير أبدًا. في حياتها، تنتمي العمة إلى الحزب، وبعد موتها، ستظل تنتمي إلى الحزب. أندفع في الاتجاه الذي يشير إليه الحزب! الخبب الوئيد، زوجتك تفتقر إلى المنطق، ولا تدرك بين النار والرماد أيهما الأسخن، ولكنْ يجب أن تعي أنت الوضع بوضوح، وإياك أن ترتكب حماقة. البعض يلقّب العمة اليوم بمَلِك الجحيم الحيّ، وأشعر بالفخر! فإنّ من تعطي الحياة لمولود في إطار التخطيط الأسري، ستُشعل العمة البخور وتستحم لتساعد في ولادة ذلك الطفل؛ وأولئك اللواتي يحملن خارج ذلك الإطار»، ونحرت العمة الهواء بإيماءة من يدها... «لن أدع واحدة تُفلت من خرم الشبك!».

٣

بعد عامين، شهد اليوم الثالث والعشرون من الشهر الثاني عشر من

السنة القمرية، يوم وداع جنّ المنزل[1]، ولادة ابنتي. أقلّنا ابن عمي اللحا، الحواس الخمس، في جرّار آلي من المركز الطبّي. قبل أن نغادر، قالت لي العمة:

ـ وضعت لولبًا لزوجتك.

رفعت وانغ رينمي المنديل الذي يغطي رأسها، غاضبةً جدًّا، وطلبت بعض الإيضاحات من العمة:

ـ لم أُسأل رأيي حتى، لمَ وضعوا لي لولبًا؟

ردّت عمتي المنديل وأجابت:

ـ زوجة ابن أخي، تغطّي جيدًا، ولا تبردي. وَضْعُ اللولب بعد ولادة طفل أمر ملزم غير قابل للنقض، صادر عن لجنة التخطيط الأسري. إن تزوّجتِ فلاحًا، وبما أنَّ طفلك الأول فتاة، فبإمكانك نزع اللولب بعد ثمانية أعوام للحمل بولدٍ آخر. ولكنّك تزوجت ابن أخي، وهو ضابط، ومع الجيش الأمر أشدّ صرامة منه على الصعيد المحلي؛ إن لم يلتزم الجندي بإطار التخطيط الأسري، يُعْزَل ويُعَدْ إلى دياره ليزرع الأرض، لذا طوال حياتك، إيّاك أن تفكري بطفلٍ ثانٍ. لتكوني زوجة ضابط، عليك أن تدفعي هذا الثمن.

بدأت رينمي تنتحب.

حضنت الطفل ولففته بمعطف، قفزت في الجرّار الآلي، وقلت للحواسّ الخمس: «هيا انطلق!».

سار الجرّار بأقصى سرعة على طريق الريف المحفرة، ينفث دخانًا أسود. كانت وانغ رينمي ممددة تحت غطاء في الصندوق، تتخضخض

(١) في ذلك اليوم، ذهب إله المنزل كي يقدّم تقريره إلى السماء.

بسبب تعرّج الطريق وصوت نحيبها يرتجّ وفق ذلك. «بأي حق لم يسألوني رأيي... وضعوا لي هكذا لولبًا... باسم ماذا لا يحق لنا بأطفال آخرين... بأي حق...».

بعد أن ضقت ذرعًا، قلت: «توقفي عن البكاء! إنَّها سياسة وطنية!».

انتحبت أكثر، أخرجت رأسها من تحت الغطاء... كانت شاحبة اللون، شفتاها زرقاوان، والتبن ملأ شعرها...

ـ عن أي سياسة وطنية تتكلم، هذه سياسة عمتك المحلية. في إقليم جياو، ليسوا متشددين إلى هذا الحد، تفكّر عمتك بإثبات جدارتها لتترقى في منصبها، وليس مستغربًا أن يلعنها الجميع...

ـ كفى! قاطعتها، إن كان لديك ما تقولين، قوليه في المنزل، ألا تخافين أن يسخر الناس منك وأنت تزعقين بهذه الطريقة على الملأ؟

أزاحت الغطاء فجأة، جلست، وبعينين تقدحان شررًا سألتني:

ـ مَنْ يسخر مني؟ مَنْ يجرؤ أن يفعل؟

مرَّ بجانبنا من دون توقف أشخاص كثر على دراجاتهم. كانت ريح الشمال شديدة، والجليد الأبيض يغطي الأرض، بدأت الشمس الحمراء تشرق، والأنفاس الحارة المتصاعدة من الأفواه تتحوَّل توًّا إلى حبيبات صقيع على الأهداب والحواجب. شعرت بشيء من الحزن لرؤية شفتيْ وانغ رينمي الرماديتين، الجافتين والمشققتين، وعينيها الجاحظتين، وشعرها الأشعث، فراضيتها ببعض الكلام المعسول: «حسنًا، لا أحد يسخر منك، هيا تمدّدي وتغطي سريعًا، إذا مرضت في شهر النِفاس، فلن يكون الأمر سهلًا.

ـ لا يخيفني الأمر، أنا صنوبرة على قمّة جبل تاي، أُنازِلُ قسوة الشتاء، والريح والثلج، فشمس الشرق تسكن قلبي!

أطلقتُ ضحكةً متكلفة وقلت لها: «أعلم أنَّكِ قادرة على كل شيء، خليقة بالأبطال! ألا تريدين طفلًا آخر؟ إذا تردّت صحتك، فكيف نأتي به؟

أشرقت عيناها فجأةً، وقالت بحماسة: «هل توافق على أن نرزق بطفلٍ ثانٍ؟ أنتَ قلت! الحواس الخمس، سمعتَ ذلك، أنتَ تشهَد!».

ـ حسنًا، أنا أشهد! قال الأخير بصوت خافت في مقدمة الجرار.

تمددت بلطف، سحبت الغطاء وغطت رأسها، ووصلني صوتها من تحته:

ـ الخبب الوئيد، الأفضل لك ألّا تتراجع بكلامك، وإلّا أعلنتُ الحرب.

حين وصل الجرار الآلي إلى الجسر الصغير عند مدخل القرية، رأيت شخصين يتشاجران هناك، وقد قطعا علينا الطريق.

وكان الشخصان المتخاصمان يوان الخدّ، أحد رفاقي في الصفوف الابتدائية، وهاو اليدان الكبيرتان، وهو حرفي ونحّات صلصال.

قبض الأخير على معصم يوان الخدّ.

صرخ صديقي متخبطًا: «اتركني! اتركني!».

وعبثًا حاول الإفلات من قبضته، ولكنْ من دون جدوى.

نزل الحواس الخمس من الجرار، اقترب منهما وسأل: «يا شباب، ما الذي يحدث؟ أن تتقاتلا بهذه الطريقة، في هذا الوقت المبكر!».

وأجاب يوان الخدّ: «جئتَ في الوقت المناسب، الحواس الخمس،

ستحسم في الأمر. مشى أمامي يجر عربته اليدوية، وصلت وراءه على دراجتي الهوائية. سار أساسًا إلى اليسار، فاستعددت لأتجاوزه عن يمينه، حين ـ بحركة من أردافه ـ انتقل فجأة إلى الجهة الأُخرى وسدّ عليّ الطريق. لحسن الحظ، أتى رد فعلي مؤاتيًا، أفلت المقود وقفزت إلى الجسر، وإلا لسقطت الدراجة تحته ومعها الرجل. في هذا البرد الشديد، حتى لو نجا من هذه السقطة، لظلّ مقعدًا طوال حياته. على الرغم من ذلك، يحمّلني العم هاو مسؤولية الأمر برمّته، ويتهمني بأنني صدمت عربته وأوقعتها».

لم يعارضه الأخير، لكنه ظل قابضًا على معصمه بقوة.

قفزت من الجرار الآلي، وابنتي بين يدي. وما إن وطئت قدماي الأرض، حتى شعرت بألمٍ غريب يخترق قلبي. في ذلك الصباح، كان البرد حقًا شديدًا.

توجهت وأنا أعرج نحو سطح الجسر. رأيت على الطريق تماثيل صغيرة ملونة من الفخار. بعضها تكسر، والبعض الآخر لم يمسسه سوء. إلى شرق الجسر، مالت على سطح النهر المتجمّد دراجة هوائية، وقربها تكوّر علم صغير أصفر. كنت أعرف الكلمات المطرزة عليه: «النصف خالد». ذلك الرجل، منذ طفولته، أظهر حيوية غريبة، وحين كبر، أثبت فعلًا أنه إنسان مميز، كان باستطاعته بواسطة مغنطيس فحسب سحب الدُمَّل من كرش جاموس، وخصي الكلاب والخنازير كذلك. كما كان ضليعًا بالفراسة وفق تعاليم «ما يي»[1]، والضرب بالرمل و«التكهن بالمستقبل بواسطة تعرّجات الأرض»، وفق رموز «التريكرامات»

---

(١) ما يي، «الرجل الذي يرتدي الكتان»، وهو مؤلف مغمور لكتاب في علم الفراسة تعود نسخته الأكثر انتشارًا لعهد سلالة مينغ.

الثمانية من كتاب التغييرات. لقّبه أحدهم ممازحًا «النصف خالد»، فأعجبه اللقب وتبنّاه، قصَّ قطعة قماش مشمشية اللون، صنع منها علمًا طرّز عليه تلك الكلمات، وثبته على مشبك أمتعته الخلفي؛ متى قاد دراجته، رفرف العلم في الهواء وراءه. وفي المعرض التجاري، رفعه فوق بضائعه، وكانت تجارته، يا للغرابة، مزدهرة.

وعلى صفحة المياه المتجمّدة غرب الجسر، هوت عربة يدوية. كان أحد محاملها مكسورًا. تمزقت سلال القش على جانبي عريش العربة، وتناثرت عشرات التماثيل الفخارية على الجليد، معظمها محطم، فيما يبدو القليل منها، للوهلة الأولى، سليمًا. كان هاو اليدان الكبيرتان صاحب طبع غريب: هابه الناس واحترموه في آن واحد. ملك يدين ماهرتين. كان يجبل الصلصال وعيناه مثبتتان عليك، وفي لحظة، يصنع تمثالًا صغيرًا نابضًا بالحياة يشبهك تمامًا. حتى خلال الثورة الثقافية، لم يتوقف عن صنع أطفالٍ من الفخار. سبقه جده ووالده في تلك الحرفة. ولكنْ معه، صُقِلَ العمل. وكان مصدر رزقه. ولم يكن الأمر سهلًا، إذ كان باستطاعته تشكيل تماثيل كلاب، وسعادين، ونمور وغيرها من الأغراض الحرفية من الفصيلة البسيطة التي تلقى رواجًا ويحبّ الأطفال اللعب بها. في الواقع، نوع التجارة هذا موجّه للأطفال، والبالغون مستعدّون للإنفاق على أمورٍ كهذه لإرضائهم. إلّا أنَّ هاو اليدين الكبيرتين لم يكن يشكّل إلّا أطفالًا من فخار. تألَّف منزله من خمس غرف رئيسة وأربع جانبية، وبنى في الفناء إضافةً إلى ذلك عنبرًا كبيرًا. امتلأ المنزل والعنبر بالتماثيل الصغيرة، بعضها جاهز، الوجه ملوّن، والحاجبان والعينان مرسومة، والبعض الآخر شبه حاضر، بانتظار اللونِ. على الكانغ الخاص به، لم يترك إلا فسحةً صغيرة ليتمدد، وحوله، شكّل أطفال الفخار صفوفًا مرصوصة. تخطى الأربعين، وجهه

كبير مائل إلى الحُمرة، شعره ولحيته الرفيعة التي تشبه العقد وتنتهي عند الصدغين، رماديا اللون، مع ضفيرة صغيرة تتدلى على عنقه. كان هنالك أيضًا في القرى المجاورة صانعو تماثيل صلصالية صغيرة، لكنَّها صُبَّت في قوالب وتشابهت كلها. كانت تماثيله مجبولة باليد، كل واحد منها فريد من نوعه، لا آخر يشبهه. اتُفِقَ على القول في كانتون دونغبي إنَّه مثَّل جميع الصغار في الصلصال ويمكن لأي فرد أن يجد في مخزون هاو نسخةً عن نفسه صغيرًا. وقيل كذلك إنَّه لم يكن يبيعها في المعرض التجاري إلّا متى فَرَغت جعبته من الطعام. وحين يبيعها، تغرورق عيناه بالدمع وكأنَّه يتخلى عن أولاده. ولذا، إذ تحطّمت تماثيل كثيرة، شعر بألم شديد. له الحق ألاَّ يُفلت معصم يوان الخدّ.

طفلتي بين يديّ، مشيت حتى صرت أمامهما. كنت جنديًّا منذ فترة طويلة، وارتداء الثياب المدنية يشعرني بعدم الراحة، لذا، حتى لمرافقة وانغ رينمي إلى المستشفى لتولد، ارتديت بزتي العسكرية. ضابط شاب يحمل في ذراعيه مولودًا جديدًا أمر يفرض الكثير من النفوذ. قلت: «عمي، دع يوان الخدّ، لم يفعل ذلك عمدًا بالطبع».

ـ صحيح، صحيح عمي، لم أفعل ذلك عمدًا، أضاف يوان الخدّ، والبكاء يتصاعد من حلقه: سامحني، سأجد مَنْ يُصلح المحمل المحطم والسلال الممزقة، وسأعوّض عليك ثمن التماثيل المكسرة.

ـ مِنْ أجلي، مِن أجل هذه الصغيرة وزوجتي أيضًا، دعه يذهب واسمح لنا بالمرور.

انحنت وانغ رينمي فوق الصندوق وقالت: «العم هاو، اصنع لي دميتين، صبيين، أريدهما أن يتشابها كقطرتي ماء».

اعتاد أهل القرية القول إن من يشتري تمثال طفل شكّله هاو اليدان

الكبيرتان، ويربط حول عنقه حبلًا رفيعًا أحمر، ويضعه على رأس الكانغ، ويقدم له الهدايا، يُرزق بطفلٍ يشبه بكل شيء التمثال الصغير. ولكنْ، لم يكن يحق للفرد أن يختار بنفسه الطفل الفخار. حرفيو المقاطعات المجاورة كانوا يضعون التماثيل على الأرض بكميات كبيرة، ويتركون للناس حرية الاختيار. هاو اليدان الكبيرتان وضعها في سلال قشٍ تحت العربة اليدوية وغطاها. حين تقصده لشراء أحدها، يبدأ بتفرّسكً بدقة، ثمّ تغوص يده في سلةٍ من السلال تتحسس التماثيل، ليُعطيك أخيرًا التمثال الذي اختاره لك. إذا وجدت كشارٍ أن الدمية ليست جميلة، لم يكن يبدلها مع ذلك، وترتسم على ثغره ابتسامة حزينة. لا ينبس ببنت شفة، ومع ذلك تخاله يقول لك: «هل يوجد في الدنيا آباءٌ يتذمّرون من بشاعة أطفالهم؟». ولذا، تدقق أكثر بتفاصيل الطفل الذي أعطاك، ورويدًا رويدًا، تجده جذابًا. يبدو لك معبّرًا، يضجّ حياةً. وهاو اليدان الكبيرتان لا يتحدث عن المال. إن لم تعطه شيئًا، فلن يطلب شيئًا. ومهما دفعت، فلن يشكرك. على مرّ الوقت، اقتنع الناس بأن شراء أحد تماثيله الصلصالية يوازي طلب طفل حقيقي. وكلما زاد الكلام عن هاو، زادت حوله هالة السحر. قيل عنه إذا منحك دمية فخار أُنثى، تُرزق بالضرورة بابنة، وإن كان التمثال من الجنس الآخر، تحظى بابن. وإن أعطاك تمثالين، يكونان توأمين. كان التعامل معه عبارةً عن ميثاق سرّي، إذا أفشيته، زالت فاعليته. وزوجتي، وانغ رينمي، التي لا تذعن للصواب، كانت، وحدَها، لتزعق بهذه الطريقة وتفرض عليه صبيين...

حين عرفنا بالقصة الغريبة عن تماثيل الفخار التي يبيعها هاو اليدان الكبيرتان، كانت وانغ رينمي حاملًا، وقد فات الأوان لتصح العملية.

واحترامًا لي، أفلت هاو اليدان الكبيرتان يوان الخدّ. فرك الأخير

معصمه وقال بنبرة جنائزية: «لا حظ لي اليوم فعلًا. لحظة خرجت من المنزل رأيت كلبةً تبول ناحيتي، وها هي ذي النتيجة!».

ولقد انحنى هاو اليدان الكبيرتان، لمَّ قطع الفخار المحطمة ووضعها في الجيب الداخلي لحاشية لباسه. ظل واقفًا على الجسر، مفسحًا لنا للمرور. علقت على لحيته حبيبات الثلج، وكان وجهه وقورًا، مهيبًا.

ـ بمَ رُزِقت؟ سألني يوان الخدّ.

ـ فتاة.

ـ ليست مشكلة. المرة المقبلة، سيكون صبيًّا.

ـ ما مِن مرة مقبلة.

ـ لا تَشْغَل بالك، قال بصوت غريب مغمضًا عينيه، متى آن الأوان، أنا، شقيقك، سأساعدك.

٤

اليوم الأول من الشهر الأول من سنة الكلب كان اليوم التاسع بعد ولادة ابنتي. وفقًا للعادة المتبعة في الريف، يُقام احتفال كبير يشارك فيه جميع الأقارب والأصدقاء. في الليلة السابقة، دعوت الحواس الخمس ويوان الخدّ وكلّفتهما مساعدتي لاستعارة الطاولات، والكراسي، والمقاعد، وأباريق وأكواب الشاي، والكؤوس، والأوعية، والصحون، وأعواد الطعام. قمت بحساب تقريبي: خمسون مدعوًّا مِنَ الجنسين. في كل جناح، غرب المبنى وشرقه، وضعنا طاولتين لاستقبال الرجال؛ وأمام كانغ والدتي، أعددنا طاولةً للنساء. أعددت بنفسي قائمة

الأطباق: ثمانية أطباق باردة وثمانية ساخنة لكل مائدة، وفي الختام، حساء.

بعد أن اطَّلع يوان الخدّ على القائمة، قال ضاحكًا:

«يا عزيزي، ما أعددته لا ينفع. مدعوّوك فلاحون شرهون. هذه الأمور لن تكفي لملء الفراغات بين أسنانهم. اسمع نصيحتي ولا تعد كل هذه الأطباق، ستولم لهم أفضل مع قطع اللحم وكؤوس الكحول الكبيرة، وتلك هي الفائدة من إقامة مأدبة للمزارعين. مشروعك منمق جدًّا، سيقضون على الطعام من أوَّل ضربة لأعوادهم، وإن لم يتوافر المزيد، فهل تظن أنهم سيبقون لحظة؟ صدقني، ستخسر ماء الوجه».

كان عليّ أن أعترف بأنه محق. طلبت من الحواس الخمس أن يقصد المعرض وأن ينقل على الحمّالة خمسين ليبرة من لحم الخنزير المتوسط الدسم، وعشرة فراريج مشويّة، فراريج المزارع[1] الكبيرة. وكذلك أوصيت وانغ هوان أن يشتري أربعين ليبرة من التوفو، وكان على يوان الخدّ أن يبتاع كذلك عشر ملفوفات صينية كبيرة، وعشر ليبرات من الشعيرية بنشا الفاصولياء وعشر لترات من المشروب الروحي سورغو. أرسلت عائلة وانغ رينمي مئتي بيضة. والد زوجتي، أي حميَّ، أتى ليرى ما أعددت، وبدا راضيًا: «صهري العزيز، جهزت كل المطلوب! لطالما كانت عائلتك بخيلة قليلًا، ما عرَّضكم للسخرية، هذه المرة يجب أن تغيّر عاداتكم العائلية وأن تبدو أكثر كرمًا، يجب في حدث مهم كهذا تنفيذ الأمور بفخامة ليرحل كل ضيف ممسّدًا على كرشه!».

(١) كانت آنذاك أغلى ثمنًا من الفراريج البلدية.

وبينما وصل نصف المدعوّين، تنبهت فجأة إلى أنني نسيت السجائر. أسرعت لأرسل الحواس الخمس إلى المتجر. دخل آنذاك شين الأنف ووانغ المرَّة الصفراء مع أولادهما. دلّ قريبي على الهدية التي يحملها شين الأنف وقال فرحًا: «لا ضرورة لشرائها».

في الأعوام الأخيرة، جمع شين الأنف ثروة، وعُدَّت عائلته من عائلات القرية التي يصل مدخولها السنوي الصافي إلى عشرة آلاف يوان، وتلك واقعة مشهورة. ذهب أوًّلا إلى شنزن، حيث اشترى بسعر الجملة ساعات يد إلكترونية وباعها لشباب يواكبون التطور. قصد بعد ذلك جينان حيث اشترى من مصنع، بفضل أحد معارفه، سجائر بسعر الجملة أيضًا وكلَّف وانغ المرَّة الصفراء بيعها بالمفرّق في المعرض التجاري.

وقد رأيت كيف تتصرف الأخيرة. علَّقت على صدرها عدّةً ذكيّة للبيع: مغلقة، كانت مجرد علبة، مفتوحة، تصبح رفًا صغيرًا اصطفت عليه العلب. كانت تذهب مرتديةً سترة قصيرة مبطنة ملائمة جدًّا، قماشها قطني مطبَّع بزهور زرقاء، وتحمل على ظهرها طفلًا سمينًا ملفوفًا ببرنس مبطنٍ كذلك، لا يظهر منه إلّا أنفه وعيناه. لفتت بالطبع من يعرفها أَو لا يعرِفها. أهل الجيرة علموا أنها زوجة بائع السجائر، شين الأنف، والطفل طفلهما، أمّا الغرباء فلا بد أنهم كانوا يقولون: هذه المراهقة التي تحمل أختها على ظهرها يُرثى لحالها، وهي جميلة علاوة على ذلك. والذين يشترون منها السجائر هم أنفسهم أولئك الذين يشفقون عليها.

ارتدى شين الأنف سترةً من جلد الخنزير مشدودة، وتحتها كنزة سميكة عالية الياقة. كان وجهه قرمزي اللون، ذقنه المحلوق أسود مائل

إلى الزرقة، أنفه خانس وضخم، عيناه غارقتان في محجريهما، بؤبؤاهما رماديان، وشعره مجعد.

قال الحواس الخمس: «وصل الغني الكبير».

ـ كيف ذلك، الغني الكبير، اعترض شين الأنف، لست سوى بائع سجائر جوّال!

تدخَّل يوان الخدّ: «أو كما تقول بشكل ملائم اللغة الصينية: توفاريتش[1]!».

رفع عاليًا شين الأنف كيس الورق الذي يحمل وردَّ: «أرعبتني فعلًا!».

ـ هل هذه سجائر؟ سأل يوان الخدّ، طالب المدعوّون بها الآن.

رمى شين الأنف الكيس إلى الأخير. التقطه وفتحه، فإذا بداخله أربع علب سجائر من ماركة «الديك الكبير».

ـ لتجلب هذا القدر منها، جليّ أن تجارتك رائجة!، قال يوان الخدّ.

ـ آه يا إلهي، يوان الخدّ، بلسانك السليط هذا قد ترقّص الأموات حتى الديسكو! قالت وانغ المرَّة الصفراء بصوتها الرقيق،

ـ ياه، شقيقة أخي الكبير، اعذريني على قلة تهذيبي، ولكنْ لمَ اليوم شين الأنف لا يحملك على ذراعيه؟ أجاب يوان الخدّ.

ـ سأحطّم فمك! قالت وانغ المرة الصفراء غاضبة، وهي تلوّح بيدها الصغيرة.

(١) رفيق... باللغة الروسية!

ـ أمّي، احمليني... احمليني... شين الأذن التي كانت وراء والدتها، التفت ووقفت أمامها وهي تتباكى، وقد وازتها طولًا تقريبًا.

ـ شين الأذن، قلت لها فيما انحنيت أمامها، عمّك سيحملك، ورفعتها بين ذراعي.

«وان، وان»، وبدأت الفتاة تبكي. حملها والدها بدوره، ربت قفاها وقال:

ـ أيتها الأذن، لا تبكي، أما أردتِ أن تري عمّك الجندي في جيش التحرير؟

مدّت الفتاة يديها، مطالبةً بوالدتها.

ـ هذه الطفلة خجولة. أعطى شين الأنف الفتاة لوانغ المرة الصفراء وقال: «قبل قليل بكت وانفعلت لتأتي وترى عمها الجندي».

آنذاك صرخت وانغ رينمي وهي تدق على عارضة الباب: «وانغ المرّة الصفراء، وانغ المرّة الصفراء! تعالي بسرعة!».

كان منظر الأخيرة، مع شين الأذن في يديها، مضحكًا قليلًا، وكأنها كلب صغير يحمل في فمه لعبة ضخمة، لكنها امتلكت كذلك شيئًا من العظَمَة. تحركت ساقاها الدقيقتا الحجم بسرعة، ما يذكر بتلك الحيوانات التي نراها تركض بأقصى طاقتها في الصور المتحركة.

ـ هذه الطفلة جميلة جدًا، قلت، كأنها دمية!

ـ لها جذور روسية، فكيف لا تكون كذلك؟ قال يوان الخدّ، وهو يطرف بعينيه: أخي الأنف، أنت لا ترحم فعلًا، يخبرون أنَّك لا تترك زوجتك بحالها ليلًا؟

ـ أغلق فمك!

وعاود يوان الخدّ الكرَّة: «ارحمها إذا أردت أن تعطيك ابنًا!»

لبطه شين الأنف قائلًا: «ألم أقل لك أن تُطبق فمك؟».

ضحك يوان الخدّ: «حسنًا، حسنًا، سأطبقه، لكنني أحسدكما حقًّا، تزوجتما منذ زمن طويل وما زلتما تتعانقان، وتتبادلان القبل، وتتعضعضان، نلحظ جيدًا الفرق بين الحبّ المتوافق عليه والزواج الذي يدبّره الأهل...

وأجاب شين الأنف: «لكل عائلة مشاكلها، وأنت لا تعرف شيئًا!».

ربتت بطن شين الأنف البارز وقلت:

ـ ها قد بدأت تربي كرشًا كالجنرالات.

ـ لأننا نعيش حياةً أفضل! أجاب، حتى في الحلم لم أتصور أننا سنحظى بحياةٍ أفضل.

ـ يعود الفضل في ذلك إلى الرئيس هوا[1]، قال يوان الخدّ.

ـ في رأيي، علينا أن نشكر الرئيس ماو، قال شين الأنف، لو لم يأخذ المبادرة بالرحيل، لبقي كل شيء على حاله.

وصل آنذاك مدعوّون آخرون، وقفوا جميعًا في الفناء يستمعون إلى حديثنا. أولئك الذين جلسوا في الغرف الجانبية، عند رؤيتهم الحركة في الخارج، انضمّوا إلينا.

جين كسيو، ابن خالي الصغير، شق طريقه حتى وصل أمام شين الأنف، رفع رأسه وقال: «الأخ الكبير شين، الكل في قريتنا يتحدث عنك وكأنك أسطورة».

أخرج شين الأنف سيجارةً من علبة دخان، ناوله إيّاها، وأشعل

(١) رئيس الحزب بعد وفاة ماو، منذ العام ١٩٧٦ حتى العام ١٩٨١، وباعث الإصلاحات الأولى.

أخرى لنفسه، ثمّ وضع يديه في جيبتَيْ سترته الجلد وقال بشيء من الزهو: «حسنًا، قل لي، ماذا يخبرون؟».

- يقول الجميع إنَّك مع عشرة يوانات في جيبك، ركبت الطائرة إلى شنزن (حكَّ ابن خالي الصغير رقبته). قيل إنَّك تبعت بعثة روسية، متصرّفًا بطلاقة ومن دون تكلف، والموظفون الذين ظنوا أنَّك من ضمن المجموعة، انحنوا أمامك إلى أقصى حد، فقلت لهم: «خوروشو، خوروشو[1] ...». وقيل إنَّك رافقت البعثة تلك إلى شنزن ونزلت في فندق فاخر، أكلت وشربت شبعتك طوال ثلاثة أيّام، وتلقيت كومة من الهدايا، فبعتها في الشارع وبثمنها اشتريت عشرين ساعة يد إلكترونية، بعتها أيضًا. ويخبرون أنَّك حين عدت إلى الديار، وبرأس المال ذلك، كررت العملية عدة مرات وجمعت ثروةً بهذه الطريقة.

لمس شين الأنف منخاره الكبير وقال: «أخبرني بعد، تابع اختلاق قصتك!».

وتابع قريبي الشاب: «يُروى أنَّك ذهبت إلى جينان، وبينما كنت هناك تتسكع في الشوارع العريضة، التقيت مسنًّا يبكي. سألته: «سيدي، لِمَ تبكي؟»، وأجابك العجوز: «خرجت أتنزه، لكنني ضللت الطريق إلى المنزل». رافقته، وأعدته إلى منزله. وكان ابنه رئيس قسم التموين والبيع في مصنع السجائر في جينان؛ حين وجد أنك رجل طيّب، عدَّك بمثابة أخ، واستطعت بذلك شراء السجائر بسعر الجملة».

وأطلق شين الأنف ضحكة رنانة، وحين هدأ قال: «يا صديقي، ألست منهمكًا في كتابة رواية مصادفةً؟ سأخبرك الحقيقة: سافرت

---

(١) «جيّد، مثالي» باللغة الروسية.

بالطائرة مرات كثيرة، لكنني دفعت دومًا ثمن البطاقة. وفي ما يتعلق بمصنع جينان، صحيح أنّ لديّ بعض الأصدقاء، لكنهم يبيعونني السجائر بثمن لا يختلف إلاَّ قليلًا عن سعر السوق، فأربح ثلاثة قروش بكل علبة».

ـ مهما قيل، أجد أنَّك رجل مقتدر، أجاب ابن خالي بكل صدق. قال لي والدي أن أحيّيك باعتبارك معلّمي.

ـ الأقوى بيننا هو هذا الرجل، قال شين الأنف مشيرًا إلى يوان الخدّ، لأنَّه ضليع بعلم الغيب بواسطة التنجيم والفراسة، يعرف كل الأحداث التي وقعت منذ خمسة قرون ونصف وما يحمله المستقبل للقرون الخمسة المقبلة. يجدر بك أن تعترف به معلمًا لك.

ـ الأخ يوان إنسان رائع أيضًا، قال قريبي، له كشكه للتنجيم في المعرض التجاري عندنا في كسيازوانغ، وقد لُقِّب بـ «النصف خالد». اختفت يومًا دجاجة عمتي، فعدَّ الأخ يوان على أصابعه ليتكهّن قائلًا: «البطة تمشي على حافة الماء، الدجاجة تسير بين الأعشاب، اذهبوا وأحضروها». وجدناها بالفعل في كومة عشب.

وأضاف شين الأنف: «ذلك لأن معرفته لا تتوقف على التنجيم بواسطة التريغرامات(*)، ويملك قدرات أُخرى. يمكنه أن يعلّمك إحداها لتعيش منها حتى آخر أيامك».

فقال الحواس الخمس: «حيِّ المعلم وجبهتك إلى الأرض!».

ـ لا أستحق كل هذا التكريم، بصدق. ما أفعل لن يدخلني المجتمع المخملي، ومهنتي هي الأقل اعتبارًا بين المهن. عليك أن تقتدي بابن عمتك، فتلتحق بالجيش، وتغدو ضابطًا مثله، أو تتقدّم إلى امتحان الدخول إلى الجامعة. عندها فقط يرتسم مستقبل زاهر أمامك

(*) التريغرام هو شكل ذو ثلاثة خطوط متوازية.

وتصبح شخصًا محترمًا. وأشار يوان الخدّ إلى أنفه ثمّ أنف شين الأنف وأضاف: «لا تُعدُّ مهنتانا مستقيمتين. نفعل ذلك لأننا لم نجد حلًا آخر، ما زلتَ شابًا، عليك ألّا تقتدي بنا».

وتشبث ابن خالي برأيه: «لا، أنتم تملكون القدرات، الالتحاق بالجيش أو النجاح في امتحان الدخول إلى الجامعة لا يُعد إثباتًا للمواهب الحقيقية».

قال آنذاك شين الأنف: «حسنًا يا صديقي الشاب، يبدو أنَّك كوَّنت فكرتك الخاصة، هذا جيد، متى حان الوقت، فسنعمل معًا!».

وسألتُ الحواس الخمس: «عجبًا، وانغ الكبد ليس هنا؟».

ـ آه، هو، يجب أن يُناوب في مركز العناية بالتأكيد!

ـ إنَّه مسكون بالجنّ فعلًا، قال شين الأنف، فقوة ثلاثة أحصنة لن تحركه من مكانه.

ـ ذلك لأنَّ منزله غير مصمّم على ما يجب، أردف يوان الخدّ بنبرة غامضة، فموقع المدخل الرئيس ليس سليمًا، وكذلك الغرف. قبل أعوام، تكلمتُ مع حميك في الموضوع وأوصيته بأن يقوم فورًا بهذين التغييرَيْن، وإلّا تعرضوا لخطر اختلال عقلي! ظنّ حموك أنني ألقي عليه لعنةً، وأراد أن يضربني بالسوط.

ـ وماذا بعد؟ هل صحَّ الأمر؟

ـ متّكئٌ على عصاه، محنيٌّ، يستغل أي وقت فراغ ليتسلل إلى مركز العناية حيث يؤدّي دور القبضايات والزعران. إن لم يكن هذا اختلالًا عقليًّا، فبمَ تصفه؟ وحال وانغ الكبد أفضل، فلاح بكل معنى الكلمة ولكن بذهنية بورجوازية، أُغرم بالأسد الصغير تلك المغطى وجهها بالبثور إلى أن فقد عقله بسببها، ويُشار إلى ذلك، عمليًّا، بأنه مرض نفسي».

وقلت مقاطعًا: «حسنًا أيها الأهل والأعزاء، لن نستمع إلى مزيد من الحماقات، دعونا نجلس إلى المائدة، تفضلوا إلى المائدة!».

لكنَّ يوان الخدّ واصل الكلام: «إنَّ فنغ شوي(*) فناء الكومونة الشعبية ليس ملائمًا كذلك؛ لطالما كان مدخل اليامن(١) موجَّهًا إلى الجنوب، أمّا مدخل كومونتنا الشعبية فيُفتح إلى الشمال؛ علاوةً عليه، تقع قبالته تمامًا المسالخ، وطوال النهار، شفرات السكاكين التي تدخل أجساد الحيوانات بيضاء، وتخرج منها حمراء، ليتكدّس اللحم والدم ويغرق الجميع في جوّ مجزرة. ذهبتُ إلى الكومونة الشعبية لأحيطهم علمًا بالموضوع، فاتهموني بالإقطاعية والخرافة، وكادوا يعتقلونني. وحاليًا، إلامَ وصلنا؟ الأمين العام العجوز كين شان أُصيب بشلل نصفي، وخَلَفه كين هي مختلّ عقليًّا ومعتَرَف بوضعه. الأمين العام الجديد كيوا، ذهب برفقة عشرات الأشخاص للقيام بتحقيق في الجنوب، لكنَّهم كانوا ضحيّة حادث، وإذا جمعنا القتلى والمصابين، يمكننا القول إنَّ الفرقة كاملة قُضِيَ عليها. الفنغ شوي مسألة مهمة، وإذا سلَّمنا جدلًا بأنَّكم متحفّظون، لا يمكنكم أن تكونوا أكثر تحفظًا من الإمبراطور، أليس كذلك؟ حتى الإمبراطور عليه أن يأخذ الفنغ شوي في الاعتبار...

ـ إلى المائدة! قلت، وفي الآن نفسه، لكزت يوان الخدّ: يا معلم، إن كان الفنغ شوي مهمًا، فالأكل والشرب لا يقلّان عنه أهمية.

(*) فلسفة صينية نشأت منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة وهي فنّ التناغم مع الفضاء المحيط وتدفقات الطاقة من خلال البيئة والتصالح مع النفس ومع الطبيعة المحيطة بالإنسان وبذلك يستطيع التعايش بشكل إيجابي بدون توتر.

(١) المقر الرئيس لحاكم المقاطعة، ويضم كذلك الأبنية الإدارية ومنها المحكمة المحلية، والقاعات الرسمية، ومستودعات الخزانة والسجن.

ـ إنْ لم نُغيّر مدخل الكومونة الشعبية الرئيس، فسنشهد حالات اختلال عقلي وأمورًا أُخرى مكدّرة جدًّا، أضاف يوان الخدّ، أنتم لا تصدقونني، حسنًا، مَنْ يعِش يرَ!

٥

فقط بسبب حبّه من طرفٍ واحد للأسد الصغير، قام وانغ الكبد بأفعال غريبة أضحت محط الأحاديث وموضع الاستهزاء في أوقات السلوى. ولكنْ، من جهتي، لم أسخر منه يومًا، وكننْتُ له دومًا محبّة عميقة والكثير من الاحترام. وجدت أنَّه عبقري أخطأ الزمان والمكان، هذا العاطفي الكبير، المرتضي بالحب، الذي لم تتوافر له ظروفٌ سعيدة، من المهم حقًا أن يؤلف قصيدة خالدة عن هذا الشغف.

كنّا بعد أطفالًا، نجهل هذه الأمور، ما خلا وانغ الكبد الذي عرف حينها يقظة الشغف: وقع في غرام الأسد الصغير. أتذكر تلك الجُملة التي قالها، متنهدًا، قبل عدة أعوام: «الأسد الصغير حقًّا جميلة!». كي أكون موضوعيًّا، لم يكن ذلك صحيحًا، لم تكن جميلة أبدًا. حاولت عمتي أن تعرّفني إليها في ما مضى، رفضت بتهذيب، متحجّجًا بأنَّها مَنْ اصطفى قلب وانغ الكبد. في الحقيقة، لم تعجبني. ذلك لا يمنع أن تكون، في نظر رفيقي، أجمل امرأة على الأرض، أو لنقلها بأناقةٍ أكثر: «الرجل الذي يُحبّ يرى «كسيشي الجميلة» في شخص المرأة المعشوقة». ويمكن كذلك أن ننتقي تعبيرًا أكثر ابتذالًا: «وقع اختيار السلحفاة على اللوبياء الشعاعية، وذلك يليق بها».

بعد أن أرسل بالبريد رسالة الحبّ الأولى إلى الأسد الصغير، جرّني وانغ الكبد منفعلًا إلى ضفة النهر وأسرَّ لي بمكنوناته. كان ذلك صيف

العام ١٩٧٠، وقد تخرَّجنا للتو من الكلية الزراعية. فاض النهر وتدفقت مياهه بقوة، وطفا على سطحها قش الزروع وجِيَف الحيوانات، وحلّق فوقنا نورس وحيد. كان والد وانغ رينمي يصطاد على الضفة حيث المياه هادئة، ولي اليد، أحد رفاقنا الأصغر سنًا يراقب المشهد، جالسًا القرفصاء.

ـ هل نُعْلِم لي اليد بالأمر؟

ـ إنَّه مجرد مراهق، لن يفهم شيئًا من ذلك.

تسلقنا شجرة الصفصاف المعمرة التي نمت مائلة على السد، وجلسنا جنبًا إلى جنب على غصن يمتدّ نحو النهر، تدلّت أفنانه الصغيرة في الماء محدثةً من دون توقف تموّجات متغيرة الأشكال.

ـ هيا، أخبرني سريعًا.

ـ أقسم لي أوَّلًا أنَّك ستحفظ السر.

ـ حسنًا، سأقسم: إن كشفت سرّ وانغ الكبد، فلأقع في الماء وأقضِ غرقًا.

ـ اليوم... قررت أخيرًا أن أرسل في البريد المكتوب المخصّص لـ...، كان شاحب اللون، شفتاه ترتجفان.

ـ المخصّص لمن؟ تبدو جديًّا... للرئيس ماو؟

ـ أين قادك خيالك؟ سألني وانغ الكبد، ما العلاقة بيني وبين الرئيس ماو؟ رسالة موجّهة لها، لها!

ـ مَنْ هي؟ سألت، متلهفًا لأعرف.

ـ أقسمت ألّا تفشي سري...

ـ لن أفعل، أبدًا...

ـ إنَّها بعيدة وقريبة في آن واحد.

ـ توقف عن إثارة توتري.

ـ هي، آه، هي... شعّت عينا وانغ الكبد ببريق غريب، وقال حالمًا: إنَّها أسدي الصغير...

ـ لِمَ تكتب لها؟ هل تريد أن تتزوجها؟

ـ أمر لا سموّ فيه، مبتذل، عادي جدًّا! وأضاف وانغ الكبد بانفعال: «الأسد الصغير، الأسد الصغير المعبودة، التي أريد منحها كل نبض شبابي لأحبَّها بتَوْق... محبوبتي أنتِ، الأقرب مني إليَّ، سامحيني، فقد قبَّلْتُ اسمكِ مئة مرة...».

شعرت بعرقٍ بارد يتصبّب مني، وبقشعريرة تسري في ذراعيّ. جليٌّ أن وانغ الكبد يتلو عن ظهر قلب رسالته، وقد عانق جذع الشجرة بقوة، والدمع يلمع في عينيه.

ـ مذ رأيتك للمرة الأولى عند الخبب الوئيد، فتنتني. منذئذٍ إلى اليوم، وسيكون كذلك إلى آخر يوم من حياتي، قلبي ملك لك. سحرني وجهك الأحمر القرمزي، طرف أنفك النابض حيوية، شفتاكِ الرقيقتان، شعرك المتموّج، عيناكِ المشرقتان؛ يثير جنوني صوتك، رائحتك، ابتسامتك. حين تضحكين، ينتابني الدوار ويُبْهَر بصري، تجتاحني الرغبة في أن أركع، أعانق ساقيك، وأرفع رأسي نحو وجهك الضاحك...

رفع السيّد وانغ فجأة قصبة الصيد، فنثر الخيط البرّاق سلاسل من حبيبات المياه التي التمعت تحت نور الشمس كاللآلئ. علقت على الصنارة سلحفاة صغيرة صفراء، بحجم كوب شاي، حطت بقوة على السد. لا بد من أن السقطة دوَّختها إذ بقيت مستلقية على ظهرها، بطنها

الأبيض إلى فوق، تحرك قوائمها الأربع الصغيرة، وكان منظرها مثيرًا للشفقة والدهشة على السواء.

صرخ لي اليد فرحًا: «سلحفاة!».

ـ ... الأسد الصغير، الأحب إليَّ في الكون، لست إلّا ابن فلاح، من طبقة اجتماعية متواضعة، وأنت طبيبة نسائية، تأكلين الحبوب التجارية، والهوّة عميقة بيننا على الصعيد الاجتماعي، قد لا تتكرّمين عليّ بنظرة، أو ربما، بعد قراءة هذه السطور، سترتسم على فمك الناعم ضحكة صفراوية، تمزقين بعدها هذه الرسالة. قد لا تقرئينها حتى، وترمينها في سلة المهملات، ولكنْ، يجب أن أقول لك يا محبوبتي، يا أحبَّ الناس إليَّ في العالم، إذا قبلت بحبّي، فمثلَ نمر وحشي مزوّد بأجنحة، وجواد أصيل مسرج بسرج مزخرف، ستبثينني بقوة لا تنضب، كما يحدث بعد حقن المرء بدم الديك الفتي ليفيض طاقةً وحماسة. سيتوافر لك الخبز والحليب، ومتأكد أنا من أنّني بفضل تشجيعك سأحسّن مركزي الاجتماعي، سأصبح شخصًا يأكل الحبوب التجارية لأقف إلى جانبك...

ـ أنتما، ماذا تفعلان على الغصن؟ هل تسردان روايةً؟ صاح بنا لي اليد الذي رآنا.

ـ ... إن رفضتِ طلبي يا حبيبتي، فلن أتراجع، لن أستسلم، سأتبعك بصمت، أنّى ذهبت، سأركع لأقبّل آثار قدميك، سأظلّ واقفًا أمام نافذتك، نظري مثبت على الضوء في الغرفة مذ تضيئينه إلى أن تطفئيه، أريد أن أغدو شمعةً تحترق لأجلك إلى أن تذوب. يا محبوبتي، إن كان عليّ أن أموت من أجلك وأنزف دمًا، يكفيني ويرضيني أن تتفضّلي وتلقي نظرةً على قبري. إذا سكبتِ دمعة من أجلي، فسأموت

أقولها: من دون حسرة إن تلك الدمعة، أيّتها الأحب إلى قلبي، ستكون الإكسير الذي سيعيدني إلى الحياة...

لم تعد القشعريرة تسري في ذراعيّ. لقد اضطربت شيئًا فشيئًا من الخطبة التي ألقاها تحت تأثير التوهان الناجم عن العشق. من كان يظن أنَّه سيغرم بالأسد الصغير، وإضافةً إلى ذلك، بهذه الطريقة العمياء، بهذا الهوس. من كان يظن أنَّه يملك تلك الموهبة الأدبية ليكتب رسالة حبّ مؤلمة إلى هذا الحد. في تلك اللحظة، شعرت بأنّ باب البلوغ شُرّع بقوة على مصراعيه ووانغ الكبد كان مرشدي. طبعًا، لم أكن أعرف بعد ما هو الحب، لكنَّ بهاءه جذبني وكنت مستعدًا للارتماء فيه دونما مبالاة مثل فراشة ليل تتجه نحو شعلة محرقة.

ـ تحبّها جدًّا، هذا مؤكد، ستحبُّك، قلت.

ـ حقًّا؟ أمسك بيدي وشدّها بقوة وعيناه لامعتان: «قُلْ بصدق، هل ستحبني فعلًا؟».

ـ نعم، أكيد.

بدوري شددت بقوّة على يده. «وإن لم يتحقق ذلك، فسأكلم عمتي باسمك لتؤدّي دور الوسيطة، فهي تُنفّذ دائمًا ما تقوله لها عمتي.

ـ لا، بالطبع لا، قال، لا أريد مساعدةً من أحد. الشمّام الذي يُدفع إلى النضوج بسرعة ليس حلو المذاق. أريد أن أكسب قلبها بمثابرتي وحدها.

رفع لي اليد رأسه نحونا وسأل:

ـ أي مؤامرة تدبّران سرًّا في الأعلى؟

التقط السيد وانغ كمشة وحلٍ ورماها نحونا: «صه، خففوا تلك الضجة، سيخاف منكم السمك!».

صعد النهر زورق بمولد من الحديد المصفح، مطليّ بالأحمر والأزرق، ووصل إلى المجرى السفلي من النهر. «طق، طق، طق»، تصاعدت من الآلات أصوات قوية، مزعجة، تغرقك بقلق لا يمكن تفسيره. تدفق النهر بقوة، فيما تقدَّم الزورق عكس التيّار ببطء، محدثًا عند مقدمته دوائر من الزبد الأبيض، وشقَّ هيكله ثلمين على الجانبين عادا والتقيا رويدًا رويدًا. عامت على سطح المياه دخنة زرقاء، وانتشرت في الهواء رائحة غازول يحترق طالت شفاهنا. حامت حول القارب الصغير عشرات النوارس الرمادية.

كان الزروق الرسمي لوحدة التخطيط الأُسري في الكومونة الشعبية، أي زورق العمة. وكانت الأسد الصغير بالطبع على متنه. منعًا لأن يسبِّب انغمار الجسر الحجري بالماء وانقطاع المواصلات بين الضفتين حالا ت حمل غير قانونية أو مشاكل أُخرى غير متوقعة، ومن أجل تحاشي أي زيادة في نسبة الولادات في كومونتنا الشعبية عن الحد المسموح به، وخدمةً للبيرق الساطع المرفرف على جبهة التخطيط الأُسري المناضلة، وضعت المقاطعة عمدًا زورقًا في تصرف العمة. تألف من حجرة ضيقة فيها صفّا مقاعد مغطاة بجلد اصطناعي، وسار بواسطة محرّك قوته اثنا عشر حصانًا، وثُبّت على مقدمته مكبرا صوت. كانا يبثان أغنية تمجّد الرئيس ماو: نشيدٌ من هونان، إيقاعه رائع، وتطرب له الآذان. بدَّل الزورق مساره واقترب من قريتنا. توقفت الموسيقى بغتة. بعد لحظة صمت، علا صوت الآلات مدويًا. صدح فجأة صوت عمّتي الأجش: «قائدنا العظيم، الرئيس ماو، علَّمنا أن التقدم السكاني للبشرية يجب أن يُضْبَط ومن الصواب اتباع نمو مخططٍ له...».

مذ دخل زورق عمتي مجال رؤيتنا، توقف وانغ الكبد عن الكلام.

رأيته يرتجف بكل أطرافه. فغر فاهه، وتركزت عيناه الدامعتان على الزورق. لحظة قَطْع المركب التيّار الأوسط، مال قليلًا، أطلق صديقي صرخة رعب، وتوتر، كأنه سيقفز في الماء في أيّ لحظة. غيّر الزورق طريقه عن المنبع نحو مياه أكثر هدوءًا، وتقدّم باتجاهنا بخفّة. كانت عمتي هناك. وكذلك الأسد الصغير.

كان القبطان ذلك الشخص الذي نعرفه جميعنا جيدًا: كين هي. عند نهاية الثورة الثقافية، استعاد شقيقه البكر منصبه أمينًا عامًا للحزب في كومونتنا الشعبية. أن يتسوَّل شقيقه الصغير في السوق، وإن فعل ذلك بأناقة، كان يحطّ من قدره. قيل إنَّ الشقيقين تفاوضا، واشترط عليه كين هي أمرًا طريفًا: أن يعطيه عملًا في قسم الجراحة النسائية والتوليد في مركز العناية في الكومونة الشعبية.

ـ أنتَ رجل، كيف يمكنك أن تعمل في هذا القسم؟

ـ كثر من الأطباء النسائيين رجال.

ـ لكنَّك لا تفقه شيئًا في المهارة الطبية.

ـ ولِمَ عليَّ أن أفهم في الطب؟

وأصبح بهذه الطريقة الربّان الرسمي لهذا الزورق. في الأعوام التي تلت، بقي مع العمة. قاد المركب في الأيام التي يُسْتَخدم فيها، ومتى كان راسيًا، جلس داخله، يحدّق في الفراغ.

احتفظ بفرق شعره في الوسط، مثل الشباب الذين نراهم في الأفلام عن حقبة أيّار/مايو ١٩١٩. حتى في عزّ الصيف، ارتدى بزة الطالب الخالدة تلك من الغباردين الأزرق، وفي جيبها غرز قلمي الحبر أنفسهما، أحدهما سيّال ذو ريشة، والآخر جاف ذو لونين.

كان أشدّ اسمرارًا من المرة الأخيرة التي رأيته فيها. يداه على المقود، دنا بالقارب ببطء من الضفة، حيث الصفصافة العتيقة الملتوية الجذع. تغيَّر نظام محرك الديزيل، خفَّت سرعة سير القارب، صارت الأصوات الصادرة من مكبري الصوت مدوية، فطنت منها آذاننا وصُمَّت.

بُنِيَ إلى غرب الصفصافة جسر عائم موقت مخصّص، وفق توجيهات الكومونة الشعبية، لزورق التخطيط الأُسري. ارتفعت في الماء أربعة أعمدة ضخمة ثبّتت عليها بواسطة أسلاك حديد عارضات خشب، وُضعت عليها ألواح. رسا القارب وربطه كين هي بحبل، وظل واقفًا إلى مقدمة المتن. توقف ضجيج الآلات، وكذلك صخب مكبري الصوت. عدنا نسمع جلبة المياه وزعيق النوارس الحاد.

أوَّل شخص خرج من المقصورة، كان العمة. تمايل القارب، فترنحت، ومد كين هي يده محاولًا مساعدتها، فنحّتها بعيدًا. استعدّت وقفزت على الجسر الخشبي. لقد ازداد وزنها، وعلى الرغم من ذلك لا تزال رشيقة الحركة. رأيتُ أنها وضعت على رأسها عصابة، بياضها يُعمي الأبصار.

الشخص الثاني الذي ظهر كان، الأسد الصغير، طبعًا. كانت قصيرة ومكتنزة، حملت على ظهرها حقيبة إسعافات ضخمة جعلتها تبدو أقصر. ومع أنها أصغر سنًا من العمة ـ بكثير ـ كانت حركاتها بليدة. ومِن أجلها تحديدًا، عانق وانغ الكبد قبل قليل جذع الشجرة، شاحب الوجه، وعيناه تدمعان.

وكانت هوانغ كيوا ثالثهما. لم أرَها منذ أعوام طويلة. احدودب ظهرها، انحنى رأسها، تقوّست ساقاها، وتباطأت حركتها. بقيت واقفةً

على متن المركب، جسمها يهتزّ، تحرّك يديها في كل اتجاه، حتى خيّل إلي أنَّها ستقع في الماء في أيّ لحظة. بدا أنها تريد النزول من القارب، لكنَّ قدميها واجهتا صعوبة في اجتياز المسافة بين الزورق والجسر. تابع كين هي المشهد بلامبالاة، ولم يفعل شيئًا لمساعدتها. انحنت، مدّت يديها، وتعلقت بحافة الجسر العائم مثل غوريلا. آنذاك، قالت العمة بخشونة: «هوانغ، انتظري في المركب». من دون أن تلتفت، تابعت العمة إصدار الأوامر: «تجدر مراقبتها، يجب ألّا تهرب».

كانت هذه العبارات موجّهة بوضوح إلى كين هي وهوانغ كيوا على السواء، لأنني رأيت الأول ينحني مباشرةً لينظر إلى المقصورة. وسمعتُ عندها نحيب امرأة مخنوقًا يصدر من الداخل.

مشت العمة على ضفة النهر بخطوات كبيرة، واتجهت غربًا بمحاذاة السد. سارت الأسد الصغير وراءها مسرعةً كي تلحق بها. رأيت العصبة على رأس عمتي ملطخة بالدم، وعضلات وجهها متصلبة، عيناها تقدحان شررًا، وتعابير وجهها حازمة، قاسية حتى. لم ينظر وانغ الكبد بطبيعة الحال إلى عمتي، ولاحقت عيناه الأسد الصغير. ارتجفت شفتاه، ولم يتوقف عن تمتمة أمرٍ ما. أشفقت عليه بعض الشيء، لكنني تأثرت جدًّا، خصوصًا أنني لم أكن أفهم بعد في تلك الفترة كيف يمكن للحبّ أن يقلب رأس الرجل بهذه الطريقة.

علِمنا لاحقًا أن إصابة العمة في رأسها سبَّبتها عصا رجلٍ من قرية دونغفنغ، المكان الذي اشتُهِر قبل التحرير بقطّاع طرقه وعاداته الهمجية. كان للرجل ثلاث فتيات وزوجته حامل بطفل رابع. اسمه زانغ، ولقبه قبضة اليد. كانت له عينا عجل، وهو من طبقة اجتماعية جيدة، عُرِف عنه أنَّه رجل قوي، لم يجرؤ أحد في القرية على مواجهته.

النساء الأُخريات اللواتي كنَّ في سنّ الإنجاب ورزقن بولدين أحدهما صبي، خضعن بمجملهن لقطع القناة؛ إن كانتا فتاتين، على ما قالت لنا العمة، أُخذ مليًّا في الاعتبار وضع القرى، فلم تُخضع قسرًا أيّ امرأة للعملية الجراحية، ولكن كان يجب عليها وضع لولب. اللواتي رُزقن بثلاثة بنات، كان عليهن قطع القناة. في القرى الخمسين التابعة للكومونة الشعبية، وحدها زوجة زانغ قبضة اليد ذاك لم تمتثل، لا للعملية ولا للّولب؛ والأسوأ من ذلك، حملت من جديد.

تحدّت العمة وحاشيتها سيول الأمطار. قادوا زورقهم إلى تلك القرية لإقناع المرأة بالمجيء إلى المركز الطبّي والخضوع لعملية إجهاض. وبينما كانوا في طريقهم، اتصل سكرتير لجنة الحزب في الكومونة الشعبية، كين شان، بسكرتير وحدة الحزب في القرية المعنية، زانغ السن الذهبية، وأملى عليه أوامر ملزمة، طالبًا منه حشد كل القوى واتخاذ كافة التدابير لنقل زوجة زانغ قبضة اليد إلى الكومونة الشعبية كي تجري عملية الإجهاض.

وروت العمة أنَّ الرجل حرس الباب، في يده قضيب من شجر الصفيراء مليء بالشوك. احتقنت عيناه بالدم وصرخ كالمجنون. طوَّقه زانغ السن الذهبية وميليشيا القرية من مسافة قريبة، من دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه. ركعت الفتيات الثلاث الصغيرات أمام الباب، وبين المخاط والدمع صرخن معًا عبارات بدت محضَّرة مسبقًا: «يا أعمام، يا عمات، يا إخوة ويا أخوات... أشفقوا علينا... ارحموا والدتنا... إنَّها تعاني من داء في القلب... إن أجهضت... فسيُقضى عليها... وإن ماتت، فسنغدو يتيمات الأمّ...».

وأضافت العمة أن مسرحية زانغ قبضة اليد لكسب العطف فعلت

فعلها علىٰ النساء اللواتي تحلقن في المكان، وكثيرات ذرفن الدمع. وبطبيعة الحال، وازتهن عددًا مَنْ لم يقتنعن. مَنْ لهنّ ولدان ووضعن اللولب، من رُزقن بثلاثة أطفال وقمن بعملية قطع القناة امتلأنَ حقدًا من رؤية زوجة زانغ قبضة اليد في حملها الرابع. قالت العمة إنَّ وعاء الماء يجب أن يُحمل أفقيًا، ولو سمحت بولادة ذلك الطفل الرابع في عائلة زانغ، لسلخت جميع أولئك النساء الفاضلات جلدها وهي حيّة! لو نجحت تمثيلية عائلة زانغ، لمرغ العلم الأحمر في الوحل، وليس ذلك أسوأ ما قد يحدث؛ سيكون عدم تنفيذ العمل لتحديد الولادات أكثر مأسوية.

ـ وبناءً على ذلك، شرحت العمة، أومأت بيدي، وبرفقة الأسد الصغير وهوانغ كيوا، مشيت نحو زانغ قبضة اليد. الأسد الصغير، تلك الصغيرة، شجاعة وحاذقة، متفانية في سبيلي، اندفعت أمامي لتقيني من العصا، فرددتها إلى الوراء. هوانغ كيوا مثقفة بورجوازية، تتقن عملها، لكنَّها في أوقات الشدَّة، حين يتعلق الأمر فعلًا بالقتال والدم، تخاف كثيرًا.

سارت العمة بسرعة نحو زانغ قبضة اليد. «كانت الشتائم التي وجهها إلي نابية جدًّا، قالت العمة، تكرارها سيلوّث آذانكم وفمي في آن واحد. للوهلة الأولى، حافظت على رباطة جأشي ولم أهتم لسلامتي. زانغ قبضة اليد، يمكنك أن تتقيأ كل الإهانات التي تريد، «عاهرة»، «كلبة»، «ملكة الجحيم المهلكة»، سأتقبل كل تلك الأوصاف والتسميات المهينة، ولكنْ، يجب أن ترافقني زوجتك. إلى أين؟ حسنًا، إلى المركز الطبي في الكومونة الشعبية».

تقدّمت العمة خطوة بخطوة، وقد ثبّتت نظرها في وجه زانغ قبضة

اليد الشرس. هجمت الفتيات الثلاث عليها، يبكين ويصرخن، يتلفظن بكلمات فظة، تعلقت الصغيرتان برجلي عمتي، فيما نطحتها الكبيرة ببطنها. تخبطت العمة، لكنَّ الفتيات الثلاث التصقن بها مثل علقات. شعرت العمة بوجع حاد في ركبتها، ففهمت أنَّها عُضَّت. تلقّت ضربة رأس جديدة في بطنها، فوقعت. أمسكت الأسد الصغير آنذاك كبرى الفتيات بعنقها وطرحتها جانبًا، فاندفعت الفتاة بالتالي نحوها، رأسها دائمًا إلى الأمام وسدّدت إليها ضربة على بطنها. جرحت عقدة حزام الأسد الصغير أنف الفتاة وسالت منه الدماء، فلمست الفتاة وجهها الذي ارتسمت عليه ملامح رعب مفجع. أثار ذلك أكثر حنق زانغ قبضة اليد، هجم على الأسد الصغير ككلب مسعور بقصد تسديد ضربة مؤذية إليها، فوثبت عمّتي وحالت بينهما متلقفةً على جبهتها العصا الموجّهة إلى تلميذتها. طُرحت أرضًا مرّة جديدة. صرخت آنذاك الأسد الصغير: «جميعكم أموات أم ماذا؟». وهكذا، اندفع زانغ السن الذهبيّة على رأس الميليشيا، صرعوا زانغ قبضة اليد مكبّلين يديه خلف ظهره. أرادت الفتيات المقاومة، ولكنْ بدورهن، أمسكتهن الكوادر النسائية في القرية.

فتحت الأسد الصغير وهوانغ كيوا حقيبة الإسعافات الأولية وضمّدتا جرح العمة. لفة، لفتان. لطخت الدماء القماش. أضافتا ضمادة ثالثة. أُصيبت العمة بالدوار وطنَّت أذناها، رأت نجوم الظهر، وكل شيء حولها رأته أحمر. الوجوه التي تحوطها كانت بلون عرف الديك، والشجر حتى أحمر، كأنَّه لهب سميك يتصاعد مفتولًا.

حين سمع كين هي الخبر، ترك النهر وقصد المكان. عند رؤيته

العمّة مصابة، تجمّد في مكانه للوهلة الأولى، ثمّ، «بلوف»، تدفق الدم من فمه. أسرع البعض لمساعدته، فأَبْعَدَ الجميع وسار مترنحًا كأنَّه ثمل، حمل العصا الملطّخة بدماء العمة ورفعها فوق رأس زانغ قبضة اليد!... «توقف!»، أمرته العمة، ووقفت باذلةً قصارى جهدها، ووبّخت كين هي: «عليك أن تبقى على الضفة تراقب الزورق، ماذا تفعل هنا؟ أنت تزيد البلبلة أكثر!». رمى كين هي العصا مرتبكًا، ومضى نحو النهر.

أبعدت عمتي الأسد الصغير التي حاولت مساعدتها، وذهبت وتسمّرت أمام زانغ قبضة اليد.

في تلك اللحظة، انفجر كين هي، الذي كان يسير ببطء نحو النهر، بالبكاء.

لم تلتفت عمتي، وأبقت نظرها مثبتًا على زانغ قبضة اليد. ظل الأخير يتخبّط مطلقًا السباب، ولكنْ تراءت في عينيه بعض ملامح الجُبن. قالت العمة للحرس الذين ثبّتوا يديه: «اتركوه!»، وفيما تردَّد هؤلاء، كررت العمة: «اتركوه!»، وتابعت: «أعطوه العصا!».

جرَّ أحد الحرس العصا ورماها أمام زانغ قبضة اليد.

قالت العمة بضحكة ساخرة: «التقط العصا!».

تمتم الرجل: «من يجرؤ على وضع حدّ لذريتي، شأنه معي!».

ـ عظيم! أجابت العمة، لنفترض أنَّك تملك الجرأة ـ وأشارت إلى رأسها ـ هيا، اضربه، هيا!

تَقَدَّمَت خطوتين، وصرخت بملء صوتها: «أنا، وان القلب، أُخاطر بحياتي اليوم! حين أتذكر ذلك النذل الياباني الذي هدّدني في الماضي

بحربته، وكيف، في تلك اللحظة، لم أشعر حتى بالخوف، هل تظن أنني سأهابك اليوم؟».

دنا زانغ السن الذهبيّة من زانغ قبضة اليد ولكمه قائلًا:

ـ ما الذي تنتظره لتعتذر من المسؤولة وان!

ـ لا ضرورة لذلك، قالت العمة، التخطيط الأُسري قضية وطنية سامية. من دون ضبط التزايد السكاني لن يكفي الغذاء واللباس الجميع، لن يتحسن مستوى التعليم، وسيصعب رفع جودة رفاه السكان وجعل البلد غنيًا وقويًا. أنا، وان القلب، أعلن أن الموت فداء هذه القضية الوطنية يشرفني.

وقالت الأسد الصغير: «زانغ السن الذهبيّة، اذهب سريعًا واتصل واطلب دعمًا من مكتب الأمن العام!»

لبط المذكور زانغ قبضة اليد وقال له: «اركع واطلب السماح من المسؤولة وان!»

ـ لا ضرورة لذلك، كرّرت العمة، زانغ قبضة اليد، بسبب هذه الضربة التي سددتها إلى رأسي فحسب قد تُسجن ثلاثة أعوام! لكنني لا أنظر إلى الأمور من منظار ما تفعله، وأنا مستعدّة لمنحك فرصة. أمامك الآن خياران، إمّا أن تسمح بكل لطف بأن ترافقنا زوجتك إلى المركز الطبّي لتجهض؛ سأنفذ أنا العملية الجراحية، وأضمن لك أننا سنتخذ كل الاحتياطات، وإمّا أن أقودك إلى مكتب الأمن العام حيث ستدفع ثمن أخطائك. في ما يتعلق بزوجتك، من الأفضل أن تقبل مرافقتي وإلّا ـ وأشارت العمة إلى زانغ السن الذهبية والحرس الوطني ـ يجب عليكم أن تأخذوه!».

كان زانغ قبضة اليد يجلس القرفصاء، رأسه بين يديه، فقال منتحبًا: «أنا زانغ قبضة اليد، منذ ثلاثة أجيال وعائلتي تحظى بصبي، فهل تتغير التقاليد بسببي؟ آه أيتها السماء، انظري إلى حالي...».

في تلك اللحظة أطلَّت زوجته من الفناء باكيةً. كان العشب اليابس يملأ شعرها، والأرجح أنَّها كانت تختبئ في الطاحون. قالت:

«المسؤولة وان، أستحلفك، سامحيه! سآتي معكم...».

سلكت العمة والأسد الصغير طريق السد خلف قريتنا نحو الشرق، ومؤكّد أنهما توجهتا إلى مقر السرية الرئيس لدرس الوضع مع الموظفين، وما إن نزلتا عن السد ودخلتا الزقاق حيث يقوم المقرّ ذلك حتى تسللت إلى الخارج المرأة التي كانت في حجرة الزورق، أي زوجة زانغ قبضة اليد، وبكل اندفاع قفزت في الماء. فعل كين هي الأمر نفسه، لكنَّه لم يكن يتقن السباحة: غرق فورًا، وكلَّما حاول إخراج رأسه من المياه كان يغوص من جديد. صرخت هوانغ كيوا بصوت حاد: «النجدة... النجدة!...».

كنا لا نزال على الشجرة، ورأينا العمة والأسد الصغير تعودان أدراجهما وتصعدان السد مهرولتين.

وثب وانغ الكبد وغطس، فعل ذلك بحرفية، وكأنه سمكة في الماء. لقد ترعرعنا على ضفة النهر وتعلمنا السباحة أوان تعلمنا المشي. ويخيل إليّ أنَّ هذه الصفصافة ذات الجذع الملوي نبتت عمدًا بهذه الطريقة لنتمرّن على القفز والسباحة. أملت أن تكون الأسد الصغير رأت الغطسة المتقنة التي قام بها وانغ الكبد. تَبِعْتُه. لي اليد غطس أيضًا من الضفة. كان علينا أوَّلًا إنقاذ تلك المرأة الحامل، لكنها اختفت من دون أثر. كين هي، ذلك المسخ المسكين، كان أمامنا، يدور حول نفسه وكأنه

زلابية في مقلاة زيت. ذكرنا المعلم وانغ بما يجب القيام به: «التقطوه من شعره، تحاشوا يديه!».

سبح وانغ الكبد حتى صار وراء كين هي، مدّ يده والتقطه بخصلة الشعر أعلى رأسه. «شعره فعلًا جميل»، قال لي رفيقي لاحقًا، «حيوي مثل لبدة الحصان».

كان وانغ الكبد أفضل سبّاح في مجموعتنا، بمقدوره اجتياز مجرى النهر حاملًا ثيابه فوق رأسه، ليصل إلى الضفة الأخرى من دون أن يتبلل شيء منها. أيّ فرصة أتيحت له اليوم ليظهر براعته في السباحة أمام المرأة التي يحبّها سرًّا! رافَقْتُهُ ولي اليد، أحدنا إلى يساره، والآخر إلى يمينه، إلى أن سحب كين هي إلى الضفة.

أسرعت العمة والأسد الصغير نحونا.

سألت الأولى غاضبةً: «ماذا دهاه هذا الأبله ليقفز في الماء؟».

تقيّأ كين هي الماء بصخب شديد، منحنيًا فوق النهر.

قالت هوانغ كيوا باكيةً: «قفزت زوجة زانغ قبضة اليد في الماء، فعل ذلك ليخلصها».

امتقع وجه العمة، وجالت بنظرها على صفحة المياه: «ولكن، أين هي؟ أين هي؟».

ـ غطست واختفت...، قالت هوانغ كيوا.

ـ ألم أطلب منكِ أن تراقبيها؟

قفزت العمة إلى المركب وأضافت، مستاءة جدًّا:

ـ أنت ببساطة امرأة معتوهة! أنت مسؤولة عمّا حدث! هيا لننطلق، بسرعة!

حاولت الأسد الصغير أن تدير المحرك، محاوِلةً بأي طريقة، لكنها لم تفلح.

صرخت العمة: «كين هي، تعال سريعًا وأدر محرك المركب!».

وقف كين هي مرتجفًا، انحنى، تقيأ كمية كبيرة من الماء، ومن ثَمَّ «بوم»، جثا مجددًا على ركبتيه.

«الخبب الوئيد، وانغ الكبد، ساعدونا لننقذها! صاحت العمة. سأكافئكما بسخاء!».

وجَّهنا أبصارنا نحو النهر وفتشنا سطحه بانتباه.

كانت مساحة المياه شاسعة، والمجرى العكر يتدفق. طافت على الوجه باقات من الزبد والأعشاب. دلَّ آنذاك لي اليد على قشرة بطيخ تعوم وتقترب ببطء، حيث المجرى أكثر هدوءًا، وقال: «انظروا هناك».

انجرفت قشرة البطيخ مع تيار الماء، لكنها كانت تختفي عن السطح أحيانًا، ليظهر عنق المرأة وشعرها المشعث.

جلست العمة فجأة على متن المركب، تنفست الصعداء، ثم ضحكت بملء رئتيها.

وبينما كنّا على استعداد لنقفز إلى الماء وننقذ المرأة، صاحت بنا: «لا داعي للعجلة!».

وسألت الأسد الصغير: «هل تتقنين السباحة؟».

أومأت الأسد الصغير برأسها أن لا.

«يبدو أنّه لنكون عاملين فاعلين في التخطيط الأسري، يجب أن نتعلم ألّا نتلقى الضربات فحسب، ولكن أن نسبح كذلك». وأشارت العمة وهي تضحك إلى قشرة البطيخ التي تعوم وتدور تباعًا، وأضافت:

«انظري كيف تتقن العوم، هي! تستخدم حتى تلك الوسيلة التي اعتمدتها المقاومة الشعبية للكفاح ضد الأبالسة اليابانيين».

صعد كين هي بصعوبة إلى المركب، منحنيًا. قطرت المياه من كل جسمه، وتشعّث شعره أكثر من حزمة عشب يابس. شحب لونه، وازرقت شفتاه.

أمرت العمة: «أدِر المحرّك!».

شغّل كين هي المقبض وأدار محرّك الديزل. ربّما عانى من الدوار، لأنّه فقد توازنه، أصيب بالغثيان، وتقيّأ من جديد.

ساعدناه في فك حبال الزورق، فقالت العمة: «اصعدوا!».

أمكنني أن أتصور انفعال وانغ الكبد، جالسًا على المتن قرب الأسد الصغير. رأيته يبسط يديه على ركبتيه، وأصابعه ترتجف بعصبية. عبر قميصه المبلل الملتصق على جسده، رأيت قلبه يخفق بوضوح وكأنه أرنب برّي في قفص، يتخبّط بين قضبانه. ظلّ مسمّرًا في مكانه، لا يجرؤ على التحرك قيد أنملة. لم تنتبه الفتاة المكتنزة إلى شيء، مشغولةً بمراقبة قشرة البطيخ تلك العائمة إلى البعيد.

أمال كين هي الدفة قليلًا، وتقدّم الزورق في المجرى الهادئ قرب السد، وانتظم صوت المحرك أكثر. وقف لي اليد قرب كين هي، مراقبًا أدنى حركةٍ يقوم بها كما يفعل متدرّج حرفةٍ ما.

قالت العمة: «تقدم ببطء، هكذا، نعم، أحسنت، أبطئ قليلًا بعد».

غدت مقدمة الزورق على بعد خمسة أمتار فقط من الشيء العائم. أوشك محرك الزورق أن ينطفئ. ميَّزنا آنذاك رأس الحامل المختفي تحت قشرة البطيخ.

«إنَّها حقًّا سباحة ماهرة لتستطيع العوم بهذه الطريقة وهي حامل في شهرها الخامس!»، قالت العمة.

أمرت العمة الأسد الصغير أن تدخل الحجرة وتشغّل مكبرات الصوت. نهضت الأخيرة فورًا، خفضت رأسها ودخلت إلى الحجرة. قرب وانغ الكبد، بدا كأنّ فراغًا هائلًا حلَّ؛ ارتسمت على محيّاه علامات الألم والقنوط. بمَ كان يفكّر؟ هل تلقَّت الأسد الصغير رسالة الحبّ تلك التي تنمّ عن موهبة أدبية حقيقية؟

وفيما كنت فريسة أفكارٍ مضطربة، طنّت فجأةً مكبرات الصوت على مقدمة الزورق. عرفت طبعًا أنَّها ستدار، لكنَّ ذلك لم يمنعني من القفز رعبًا. «وفق تعاليم قائدنا العظيم، الرئيس ماو، يجب قطعًا ضبط النمو السكاني». عند هذا النداء، رفعت المرأة قشرة البطيخ وأخرجت رأسها من المياه العكرة. مذعورة، نظرت خلفها وغطست فورًا في الماء.

ابتسمت العمة، وأومأت لكين هي بأن يخفف أكثر من سرعة الزورق، وهمست: «أريد أن أرى فحسب إلى أي حد يمكن لامرأة قرية دونغفنغ تلك أن تصل بقدراتها في السباحة!».

خرجت الأسد الصغير من الحجرة، شقت طريقها إلى مقدمة الزورق، ونظرت قلقةً. بدا أن أمنيات وانغ الكبد تتحقق لأنَّ جسدها المكتنز عاد ووقف قربه تمامًا. شعرتُ ببعض الغيرة. جسده الأشبه بشكل سعدان قبيح ملتصق بجسم الأسد الصغير الممتلئ جدًّا، المشدود جدًّا! حاولت أن أتكهّن ما الأحاسيس التي تراوده وهو يلاصق ذلك الجسد الناعم والدافئ، باستطاعته طبعًا أن... وهذه المرة صار قلبي يطرق. شعرت بخجل لا مثيل له لتلك الأفكار الشائنة. فأشحت نظري عنهما سريعًا، وضعت يدي في جيبَيْ سروالي، وقرصت بغضب فخذي.

«إنَّها تُخرج رأسها، إنَّها تُخرج رأسها!»، صاحت الأسد الصغير.

على بعد أمتارٍ من الزورق، بانت المرأة من جديد. استدارت لتنظر، طاف جسمها على سطح الماء، خبطت بيديها، وتقدمت سريعًا في المجرى.

أومأت العمة بحركة من يدها لكين هي، فهدر المحرك، وأبحر المركب بسرعة أكبر، ودنا من السابحة.

أخرجت العمة من جيب سروالها علبة دخان مجعدة، سحبت منها سيجارة ووضعتها في فمها. ثمّ أخرجت قداحة، برمت دولابها مرَّة، مرتين... إلى أن أشعلت السيجارة. بعينين شبه مغمضتين، نفثت الدخان. هبَّ الهواء على النهر، وتلاحقت موجات المياه العكرة. «لا أظن أنَّكِ تستطيعين أن تسبقي مركبًا مزودًا بمحرك قوته اثنا عشر حصانًا». عادت مكبرات الصوت تبث أغنية هونان الشعبية تمجيدًا للرئيس ماو: «إنَّ نهر ليوانغ، بعد تسعة منعطفات ومسافة تسعين فرسخًا، يصب في نهر كسيانغ». رمت العمة عقب لفافتها في المياه، فهوى عليها نورس، التقطها وطار إلى أعلى، عقب السيجارة في منقاره.

انتهت الأغنية وسكتت مكبرات الصوت. التفتت الأسد الصغير نحو عمتي تسألها بعينيها ما العمل. أجابت الأخيرة بأنْ لا جدوى، وصرخت: «جنغ كسيوليان، هل تفكرين في الوصول إلى البحر الأصفر بهذه الطريقة؟».

لم تجب المرأة، وتابعت السباحة بضراوة، لكنَّ سرعتها خفت تدريجًا.

ـ أتمنّى أن تُظهري بعض التعقل، قالت العمة، وتصعدي بلطف إلى الزورق وتأتي معنا لإجراء العملية.

ـ أن تقاومي بعناد بهذه الطريقة لن يجديك نفعًا، قالت الأسد الصغير بحدّة، وحتى إنْ سبحتِ لتصلي إلى البحر، فسنتبعكِ أيضًا!».

انفجرت المرأة بالبكاء. وأبطأ صفق يديها رويدًا، رويدًا.

«تعبتِ، أليس كذلك؟ قالت الأسد الصغير ضاحكةً، حسنًا، اسبحي ما دمتِ قوية إلى هذا الحدّ، السمك والكلاب تغطس، أمّا الضفادع فتقفز هكذا «بلوك»!...».

غاصت المرأة شيئًا فشيئًا، وبدا إضافةً إلى ذلك أن رائحة دماء تنبعث بقوة في الهواء. انحنت العمة لتنظر إلى سطح المياه، وصرخت: «الأمور تسوء!»، فأمرت كين هي: «بسرعة، تجاوزها!»، وطلبت منا أن نقفز بالماء: «أنجدوها!».

انطلق وانغ الكبد مثل سهم، غطست وراءه، وكذلك فعل لي اليد.

أمال كين هي مقدمة الزورق قليلًا ومرَّ بالقرب من المرأة.

اقتربتُ ووانغ الكبد منها. رفعتها من تحت ذراعها اليسرى، فتحركت اليمنى، وأشبه بمجسّات أخطبوط، أغرقتني في الماء. صرخت وابتلعت كمّية كبيرة منها. استطاع وانغ الكبد أن يلتقطها من شعرها ويشدّها إلى أعلى، فيما أمسك لي اليد كتفيها ودفعها بالاتجاه نفسه، فتمكنت من الصعود على السطح. بدا كل شيء أسود أمامي وسعلت بقوة. كان الزورق أمامنا، وقد أوقفه كين هي. اصطدمت كتفاي بالمركب، وكذلك فعل جسد المرأة. مدّت العمة والأسد الصغير أيديهما عن المتن، وجذبتها إحداهما بشعرها والأخرى بكتفيها، بينما دفعناها نحن من تحت بأردافها ورجليها إلى أن تمكنا وسط الصراخ والجهود المتضافرة من إصعادها إلى الزورق.

رأينا جميعًا الدماء تسيل على فخذيها.

«لا ضرورة لأن تصعدوا إلى المتن، اسبحوا إلى الضفة»، وسارعت العمة بعد أن قالت لنا ذلك بإصدار أوامرها لكين هي: «بسرعة، انطلق، فلنسرع، هيا».

على الرغم من كل العلاجات التي طبقتها العمة والأسد الصغير، وعلى الرغم من كل ما بذلتا من جهود، لم تنجُ جنغ كسيوليان.

٦

أَبْرَزَ أمامي أحد المسؤولين الكبار رسالة عاجلة، يعلمني أن زوجتي وانغ رينمي تنتظر مولودًا ثانيًا. سألني بنبرة قاسية كيف أمكنني أن أجعل امرأتي تحمل مجددًا فيما كنت عضوًا في الحزب، وضابطًا في الجيش، وقد تلقيت إفادةً بأن لي طفلًا وحيدًا وأقبض كل شهر النفقة المترتبة على ذلك. اضطربتُ ولم أحر جوابًا. أمرني المسؤول: «اذهب فورًا إلى منزلك واقضِ حازمًا بالإجهاض!».

وصولي المفاجئ أرعب عائلتي. اختبأت ابنتي البالغة سنتين وراء والدتي، تنظر إليَّ بخوف.

ـ كيف يحدث أن تصل هكذا من دون سابق إنذار؟ سألتني والدتي قلقةً.

ـ كنتُ في مهمة، فمررت.

ـ يانيان، هذا والدك، هيا، بسرعة، قولي له «بابا».

دفعت والدتي الصغيرة لتقترب مني قائلةً: «لا تنفك هذه الطفلة تطالب بك وأنت غائب، وعندما يحضر والدها، تخاف».

مددتُ يدي، أمسكت ذراعيها لأعانقها، فتململت وبكت.

تنهدت أمي طويلًا وقالت: «كل يوم، نبقى على حذر، نخفيها، والنتيجة... انتشر الخبر على الرغم من ذلك».

ـ ولكن ما الذي حدث تحديدًا؟ ألم تكن تضع لولبًا؟

ـ أخبرتني الحقيقة عندما بدا عليها الحمل. قبل أن تعود لإجازةٍ، قصدت يوان الخدّ الذي نزعه.

ـ ابن الزنى! أطلقت الشتيمة تلك بحقد: «ألم يعلم أن ذلك غير شرعي؟».

ـ إيّاك أن تشي به، قالت أمي، توسّلَتْ إليه رينمي مرات عديدة ورفض، إلى أن طَلَبَت نهايةً وساطة وانغ المرَّة الصفراء، فقبل أخيرًا.

ـ في الأمر مجازفة، على ما قلت، يوان الخدّ يخصي الكلاب والخنازير، وها هو ذا يجرؤ على نزع لولب، لو حدث طارئ، لعانينا الأمرَّيْن.

ـ كثيرات يقصدنه ـ وخفضت أمي صوتها ـ سمعت الكنة تقول أن تقنيّته ممتازة، يستخدم شنكل حديد، وبعد بضع محاولات، يعلقه ويسحبه.

ـ إنَّه فعلًا قليل الحياء!

ـ لا تكن سيِّئ الظن إلى هذا الحد، قالت والدتي حين لحظت تعابير وجهي. رافقتها وانغ المرة الصفراء، وأثناء العملية، ارتدى يوان الخدّ قناعًا ونظارتين سوداوين وقفازين بلاستيكيين، وطهَّر الشنكل الحديد بالسبيرتو ومرره فوق النار، يمكننا أن نضمن أن كل شيءٍ معقم. وقالت زوجتك إنها لم تخلع سروالها حتى، وكل ما في الأمر أنَّه أحدث فيه ثقبًا صغيرًا.

ـ ليس هذا ما قصدتُ قوله.

ـ يا خبيي الوئيد الصغير، قالت أمي بحزن، لشقيقيك الكبيرين صبيان وأنت لا، والأمر يكدّرني. برأيي، دعها تُنجب الطفل.

ـ أرغب بذلك، ولكن من يضمن أن يكون فتى؟

ـ بالنسبة لي، يبدو ذلك مؤكدًا، قالت أمي، سألتُ يانيان: «ماذا تحمل والدتك في بطنها، أخًا صغيرًا أم أختًا صغيرة؟»، فأجابت: «أخًا صغيرًا!»، وكلام الأطفال يتحقق دومًا. وما المشكلة إن كانت فتاة، ستحظى يانيان بسند. إذا حصل أمر ما للفتاة، فما الذي تفعله؟ صرتُ طاعنة في السن، متى أغمضت عينيّ إلى الأبد، فلن أعرف شيئًا عن هذا العالم. مِن أجلِكَ أفكّر بهذه الطريقة!

ـ أمي، قلت، نظام الجيش صارم جدًّا، إذا وُلِد طفل ثانٍ، فسأُطرد من الحزب، أُقصى عن وظيفتي، وأعود أزرع الأرض. ناضلتُ أعوامًا لأرقى بنفسي عن عملي فلاحًا، هل يجب أن أتخلى عن كل ذلك من أجل طفل، هل يستحق الأمر تلك المجازفة؟

ـ وهل البطاقة الحزبية والوظيفة أعزّ من الولد؟ سيبقى الكون موجودًا ما دام البشر يتوالدون، وإن حظيتَ بوظيفة أهمّ وصرت حتى نائب الرئيس ماو، فما قيمة ذلك إن لم تكن لك ذرّية؟

ـ مات الرئيس ماو منذ أمد طويل.

ـ وكأنني لا أعرف، أجابت والدتي، قلت ذلك على سبيل المثال ليس أكثر.

في تلك اللحظة، سمعنا ضجة عند باب المدخل. صاحت يانيان: «أمي، والدي هنا!».

رأيت ابنتي تركض نحو وانغ رينمي، غير ثابتة الخطو على رجليها

الصغيرتين. لفتني ارتداء زوجتي سترة رمادية كنت ألبسها قبل التحاقي بالجيش، وقد برز بطنها. حملت صرَّة حمراء تظهر في داخلها قطع قماش ملونة. انحنت، أخذت الطفلة بين ذراعيها وقالت بضحكة مصطنعة: «آه، الخبب الوئيد، أنت هنا؟».

ـ ولِمَ لا؟ أجبت بفظاظة. لقد فعلتِ المعجزات في غيابي!

امتقع وجهها المليء ببقع الحمل، ولكنْ سريعًا ما تغيَّر لونه من الأبيض إلى الأحمر، وقالت عاليًا بحدّة: «آه فعلًا، وما الذي قمتُ به؟ نهارًا أعمل في الحقل، ومساءً أعود إلى المنزل وأهتمّ بالطفلة، لم أُلحِق بكَ أي أذى!».

ـ وتجرئين على أن تتحاذقي عليّ! لِمَ خدعتني وقصدتِ يوان الخدّ سرًّا؟ لَمَ لمْ تخبريني بالأمر؟

ـ أيُّها الجاحد الخائن! أنزلت وانغ رينمي الطفلة ودخلت إلى الغرفة تستشيط غيظًا، تعثّرت بمنضدة اعترضت سبيلها، فقذفتها في الهواء بلبطة، وسألت بعنف:

ـ مَنْ قاسي القلب الذي أعلمك بالأمر؟

بكت ابنتي بصخب في فناء الدار.

سالت دموع والدتي الجالسة قرب الموقد.

ـ توقفي عن افتعال المشاكل واتهام الآخرين، ستتبعينني بكل لطف إلى المركز الطبّي، ولن يخلف الأمر أي عواقب.

ـ اهرُب دومًا إلى الأمام.

التقطت وانغ رينمي مرآة، رمتها أرضًا، وصاحت: «هذا الطفل لي، أحمله في أحشائي، من يجرؤ على مسّ شعرةٍ منه، سأشنق نفسي على عتبة منزله!».

ـ أيّها الخبب، قالت أمي، لنُنهِ قصة بطاقة الحزب، ووظيفتك تلك، عُدْ وازرع الأرض، وما الضير في ذلك؟ ما عُدنا في عصر الكومونة الشعبية، وقد أُعيد توزيع الأراضي وكل فرد يعمل على حسابه، نحصد أكثر مما نستهلك، ونعيش بحريةٍ أكبر؛ برأيي، الأفضل أن تعود إلى الديار...

ـ مستحيل، الأمر غير وارد!

بينغ! بانغ! في الغرفة المجاورة، قلبت وانغ رينمي الصناديق والأدراج.

ـ ليست القضية مسألة شخصية، قلت، الأمر يطال شرف وحدتنا.

خرجت وانغ رينمي، تحمل صرّة كبيرة. اعترضت سبيلها:

ـ أين تحسبين نفسكِ ذاهبة هكذا؟

ـ اهتمّ بشؤونِكَ!

أمسكتها بالصرّة، ناويًا ألّا أدعها ترحل. أخرجت من صدرها مقصًّا ووجّهته نحو بطنها، عيناها تقدحان شررًا، وصرخت بصوت حادّ: اترُكني!

ـ أيّها الخبب! زعقت والدتي.

كنت أعرف جيدًا طبع زوجتي.

ـ حسنًا، ارحلي، قلت، ولكنْ عاجلًا أو آجلًا سيلقون القبض عليكِ، وستُجبرين على الإجهاض!

شدَّت الصرّة على بطنها وخرجت بسرعة الريح. لحقتها ابنتنا تمدّ يديها نحوها، وسقطت، فلم تُعرها والدتها انتباهًا.

اندفعتُ وأخذتُ الطفلة في أحضاني. تململت وانتحبت، مطالبةً

بوالدتها. وجدت نفسي لوهلة فريسة لمشاعر مختلفة، ونفر الدمع من عيني.

خرجت أمّي من المنزل، تترنّح، متّكئةً على عصاها، قالت:

ـ بُني... دعها تحمل الطفل... وإلّا، فستغدو الحياة مستحيلة...

٧

مساءً، بكت الطفلة، طلبت والدتها، وباءت كل محاولات ملاطفتها بالفشل. قالت والدتي:

ـ اذهب وابحث عند جدّتها.

ابنتي بين ذراعيّ، دققت باب حميَّ. كلمني الأخير من فتحة الباب: «وان الخبب الوئيد، ابنتي تزوجتك، ومن الآن وصاعدًا، عادت فردًا من عائلتي، عمّن جئت تبحث هنا؟ إذا أصابها أيّ مكروه، فسأجعلك تدفع الثمن».

لذلك قصدت شين الأنف، كانت البوابة موصدة، والفناء غارقًا في الظلمة. انتقلت إلى منزل وانغ الكبد، طرقت على الباب طويلًا، فيما نبح كلب خلفه بجنون. أضيء المصباح، فُتح الباب. وقف وانغ القدم على الباب، جارًّا خلفه عصا، وسألني بحنق:

ـ مَنْ تطلب؟

ـ عمّي، هذا أنا.

ـ عرفت أنّه أنت، عمّن تبحث؟

ـ أين وانغ الكبد؟

ـ مات! قال وانغ القدم صافقًا الباب في وجهي.

كنت أعلم أنَّ ذلك غير صحيح. تذكرت ما نقلته لي أمي أثناء ثرثرتنا في المرَّة الأخيرة التي أتيت فيها بمأذونية. قيل إن وانغ الكبد طرده والده من المنزل، ويتسكع يمينًا ويسارًا من دون مأوى، يظهر في القرية في المناسبات ولا يعرف أحد مكان سكنه.

بعدما تعبت ابنتي من كثرة البكاء، غفت على كتفي. تهت هنا وهناك في الطرقات، الطفلة بين يديّ، كئيبًا، ألوك همومي. قبل عامين، مُدَّت القرية بالكهرباء. وعلى العمود الإسمنتي خلف مركز لجنة الحزب في القرية، أُضيف مصباح إلى مكبرات الصوت المثبتة على علو مناسب. تحت المصباح وُضعت طاولة بلياردو مغطاة بلباد أزرق، تحلَّق حولها بعض الشبان يلعبون، يطلقون الهتاف أو الصراخ. جلس على كرسي صغير بالجوار ولد لا يزيد عمره عن خمسة أعوام، يعزف بضع نوتات بسيطة على أرغن إلكتروني ذي حجم مصغر. من تقاسيم وجهه، أدركت أنَّه لا بدّ ابن يوان الخدّ.

قام في الجهة المقابلة المدخل الكبير، المبنيّ حديثًا، لمنزل الأخير. بعد لحظات من التردّد، قررت أن أزور يوان الخدّ. حين خطر لي أنَّه نزع لولب وانغ رينمي، شعرت بالإهانة. لو كان طبيبًا حقيقيًّا، لما قلت شيئًا، ولكنْ هو... سحقًا!

فاجأته زيارتي كثيرًا. كان يشرب وحيدًا على الكانغ. على الإسكملة أمامه وُضع صحن مكسّرات، وآخر فيه أنشوفة معلّبة، وطبق من البيض المقلي المخفوق. حافيًا، قفز عن الكانغ، وأصرَّ على أن أصعد بدوري وأشرب برفقته. طلب من زوجته أن تحضّر أطباقًا أُخرى. كانت الأخيرة

رفيقتنا كذلك في المرحلة الابتدائية، وقد ترك الجدري على وجهها آثارًا واضحة، فاستحقت لذلك لقب «المرقطة».

ـ يظهر أنَّك تعيش حياةً هانئة! قلت، جالسًا على كرسيّ أمام الكانغ. أخذت المرقّطة الطفلة من يدي قائلةً إنها ستنام أفضل على الكانغ. بعدما رفضت حفاظًا على الشكليات، تركتها تفعل.

غسلت المرقطة المقلاة، أشعلت النار واقترحت أن تقلي سمكة سيَّاف البحر لنتناولها مع الكحول. أردت أن أمنعها، لكنَّ الزيت بدأ يفشفش، بينما انتشرت في الغرفة رائحة شهيّة.

ألحَّ عليَّ يوان الخدّ أن أتحفى وأصعد إلى جانبه؛ رفضت، مدعيًّا أنني لن أبقى طويلًا، ويزعجني أن أنزع حذائي لقليلٍ من الوقت. وحين أصرَّ، أذعنت وجلست في الزاوية على حافة الكانغ.

صبَّ لي كأسًا ووضعها أمامي.

ـ أيّها الرجل، أنتَ ضيف متميّز، ما هي رتبتك اليوم، قائد كتيبة أم آمر فوج؟

ـ هه، ترّهات، قلت، أشغل وظيفة بسيطة في الفوج. أخذت الكأس وشربت محتواها بجرعة واحدة، وأضفت: «حتى هذه الرتبة، سأخسرها قريبًا، وعليَّ أن أعود سريعًا لأزرع الأرض!».

ـ كيف ذلك؟ أفرغ كأسه أيضًا. «أنتَ من بين جميع الرفاق مَنْ يَعِدُ بمستقبلٍ زاهر. كسياو الشفة السفلى ولي اليد، على الرغم من نجاحهما في امتحان الدخول إلى الجامعة، لا يمكنهما أن يقارنا أنفسهما بك. كسياو الشفة العليا، ذلك الوغد المسنّ يتباهى طوال النهار في الشوارع بأن ابنه عُيّن في الحكومة الصينية. كسياو الشفة السفلى

وجنتاه عريضتان وجبهته ضيقة، أذناه مستدقتان، إنها قسمات الوجه المثالية لمرافق يامن (مسؤول بيروقراطي). تقاطيع وجه لي اليد دقيقة، لكنَّه لن يعرف السعادة. أمّا أنت، فساقاك طويلتان مثل قائمتي رهو ولك يدا سعدان[1]، عينا فينيق، وبؤبؤا تنين، لولا تلك الشامة تحت عينك اليمنى، لكان لك رأس سلطان. إن حُرِقَت تلك الشامة باللايزر، فمن دون أن تكون في قمّة الهرمية العسكرية أو المدنية، يمكنك أن تصبح آمر لواء أو سرية من دون أيّ إشكال.

ـ أقفل فمك، قلت، واحتفظ بأكاذيبك لإبهار الناس في المعرض التجاري، ما حاجتك لتلاوتها عليَّ؟

ـ تلك هي الفراسة، علم مهمّ ورثناه عن أجدادنا.

ـ توقف عن قول الخرافات، كرّرت، جئت اليوم لأصفّي حسابي معك لأنَّك، أيّها النذل، سبّبت لي ضررًا كبيرًا.

ـ كيف ذلك؟ سأل يوان الخدّ، لم أسئ إليك بشيء!

ـ مَنْ طلب منكَ أن تنزع سرًّا لولب وانغ رينمي؟ قلت وقد خفضت صوتي، نحن الآن في وضع حرِج، تلقت إدارة الجيش برقية بهذا الشأن وأمروني أن آتي لتُجهِض وإلاَّ فسأُقال من وظيفتي وأُطرد من الحزب. علاوةً على ذلك، هربت وانغ رينمي من المنزل، إذًا، قُلْ لي، ما الذي يجب أن أقوم به؟

ـ مَنْ لفَّق كل تلك الأخبار؟ قال يوان الخدّ، وقد جحظت عيناه، فتح يديه وأضاف: «متى نزعت لولبها؟ أنا أطالع الأبراج الفلكية،

(١) الرهو رمز للخلود والعمر المديد، فيما يدا السعدان الطويلتان والرشيقتا الحركة، ترمزان إلى الشجاعة.

أصفُّ الرموز الثمانية[1]، أسألُ الين واليانغ، أتبصّر بالمستقبل، أراقب الفنغ شوي، تلك هي نقاط قوتي. باعتباري رجُلًا، كيف أنزع لوالب النساء؟ أُف، قد لا تكون قصدت في كلامك أن تجلب عليَّ النحس، لكنني أرى أنَّكَ فعلت ذلك.

ـ لا تحاول أن تراوغ، أجبت، مَنْ لا يعرف أنَّ يوان «النصف خالد» صاحب مواهب خارقة؟ مراقبة الفنغ شوي والتنبؤ بالمستقبل من اختصاصاتك، أمَّا نشاطاتك المُلحقة، فإلى خصي الخنازير والكلاب، يجب إضافة نزع لوالب النساء. لن أتقدَّم بشكوى ضدك، لكنني ألعنُكَ. نزعت لولب وانغ رينمي، ومهما كان الأمر، كان يجب أن تعلمني!

ـ تتهمني باطلًا، هذا جور هائل حقًا! قال يوان الخدّ، اذهب وأحضرْ وانغ رينمي لمواجهتي.

ـ اختفت من دون أن تترك أثرًا، إلى أين تريدني أن أذهب وآتي بها؟ ثمَّ هل هي مستعدة للاعتراف بالحقيقة؟ أن تغدر بك؟

ـ الخبب الوئيد، أيُّها الدنيء، ما عُدتَ مجرد أي شخص، أنت ضابط، وعليك أن تتحمّل مسؤولية كلامك. وبناءً على ذلك هل تؤكد قاطعًا أنني نزعت لولب زوجتك؟ من يثبت الأمر؟ أنت تسيء لسمعتي، وإن سعيت لذلك، فسأرفع شكوى ضدك.

ـ حسنًا، قلتُ، أدرك في النهاية أنّه ليس بمقدوري التهجّم عليك. قصدتك لتنصحني، صرت تعرف الوضع، قل لي، ماذا عليّ أن أفعل؟

أغمض يوان الخدّ عينيه، فرك إبهامه بسبابته من دون أن يتوقف عن التمتمة. فتح فجأة عينيه وقال: «أخي العزيز، أنبئُك بفرحٍ عظيم!».

---

(١) العام، والشهر، واليوم لولادة شخص لتكون قاعدة نوع من التنجيم.

ـ ومِنْ أين يأتي هذا الفرح؟

ـ الجنين الذي تحمل زوجتك هو تقمّص، من أجل حمايتكم، لشخصية رفيعة المستوى من السلالة الحاكمة السابقة، تتمتع بشهرة واسعة. وبما أن ذلك يتعلق بما أضمرته السماء، لا يمكن الكشف عن اسمها، لكنني سأعطيك أربع جُمَلٍ، دَوِّنْها، ولا تنسَها أبدًا: ستكون بنية ذلك الطفل عند الولادة هشة، سيملك موهبة بارزة وينجح في علومه، سيخضع لامتحان أمام الإمبراطور، وسيكون أمرًا عاديًّا بالنسبة إليه أن يرتدي القفطان الأرجواني والحزام اليشم دلالةً على منصبه الرفيع!

ـ كما تشاء، اخترع قصتك بشتى الطرق...

بينما لفظت تلك العبارات، شعرتُ، بطريقة لا يمكن تفسيرها، ببعض المواساة. آه، ليتني أُرزق بابنٍ كهذا...

بدا يوان الخدّ وكأنه قرأ أفكاري، فقال بابتسامة غامضة: «يا صديقي، تلك إرادة السماء، لا يمكنك أن تخالفها!».

قلتُ مطأطئًا رأسي: «إذا أبقت وانغ رينمي على الجنين، فسينتهي أمري».

ـ تقول حكمة قديمة: «في أصعب الظروف، لا تتخلّى السماء عن أبنائها».

ـ قُلْ ما لديك بسرعة.

ـ أرسل برقية عاجلة إلى إدارة الجيش تعلمهم فيها أن وانغ رينمي ليست حاملًا، وأنَّه اتهام باطل من عدوّ لدود.

ـ أهذا كل ما وجدت في جعبة حِيَلِك؟ قلت متهكمًا، وهل نؤجّج النار بالورق؟ حين يولد الطفل ألا يُفترض تسجيله؟ إلحاقه بالمدرسة؟

ـ يا عزيزي، ما النفع من التفكير بما سيأتي لاحقًا؟ دعه يولد أوَّلًا. فذلك انتصار بحدّ ذاته، الرقابة قاسية هنا، ولكن في مقاطعة أُخرى، «الأطفال غير المسجلين» أعدادهم غفيرة؛ في كل الأحوال، بتنا حاليًا نعمل على حسابنا، والحبوب متوافرة، دعه يولد. إن سُجّل أم لا، هو في النهاية مواطن في جمهورية الصين الشعبية، لا أظن أن الدولة تحجب الجنسية الصينية عن أولئك الأطفال؟

ـ ولكنْ إذا افتُضِح أمري، فسيُقضى على مستقبلي، أليس كذلك؟

ـ في هذا الشأن، لا يمكننا القيام بشيء. قال يوان الخدّ، وأردف: قصبة السكّر ليست حلوة المذاق من الطرفين.

ـ تبًّا إذًا، تلك المرأة تستحق أن تُضرب أكثر! أنهيتُ كأس الخمر، ترجّلتُ عن الكانغ وأضفت بنبرة حاقدة: «كل مصائبي سببها تلك المرأة».

ـ يا عزيزي، لا تقل ذلك خصوصًا، لقد حَسَبْتُ برجيكما الفلكيين من أجل الزواج، وانغ رينمي فألك الحسن، ويأتي نجاحك من مساعدتها.

ـ فألي الحسن؟ قلت ساخرًا، إنها بالأحرى طالعي النحس.

ـ في أسوأ الأحوال، أضاف يوان الخدّ، دعها تلد ابنكما، استقل، عُدْ فلاحًا بسيطًا، عُد إلى ديارك واستغلّ أرضك، ما السيّئ في ذلك؟ بعد عشرين عامًا، ينجح ابنك في مهنته، تصبح عجوزًا محترمًا يتمتع بسعادة البطالة، ما الفرق؟

ـ لو أخبرتني مسبقًا فحسب، لتركتها تفعل، قلت، ولكنْ يستحيل عليَّ تقبُّل الطريقة التي تصرفت بها.

ـ الخبب الوئيد، قال يوان الخدّ، يمكننا أن نقول كل ما نريد، سوى أنَّ الجنين الذي تحمل هو منك، أنْ تجهضه أو تُبقيه، فتلك مشكلتك.

ـ آه فعلًا، تلك مشكلتي، قلت، ولكنْ يا صديقي ألْفِتُك إلى أمر واحد: حتى الجدار لا يمنع مرور الهواء، فكن على حذر!

أخذتُ ابنتي التي تغط في نوم عميق من حضن المرقطة وتجاوزت المدخل الرئيس. وبينما استدرت ًلأشكر الأخيرة، قالت لي سرًّا: «يا عزيزي، اسمح لها بأن تحتفظ بالطفل، ليس عليها إلّا أن تختبئ، سأساعدك وأعرّفك إلى أشخاص لتجد مكانًا آمنًا».

توقّفت آنذاك سيّارة جيب أمام البوابة، نزل منها دركيان مهيبان وهجما على المنزل. مدت المرقطة ذراعيها محاوِلةً منعهما من الدخول، فدفعاها جانبًا واندفعا إلى الداخل. سمعنا ضجيجًا قويًا وصراخ يوان الخدّ. بعد دقائق، خرج الأخير من الغرفة، ينتعل حذاءه كبابوج، مقيّد اليدين، يطوّقه الشرطيان.

ـ لأيّ سبب تعتقلانني؟ هيا، قولا، لأي سبب؟، سألهما يوان الخدّ مرارًا وتكرارًا، ورأسه مائل.

ـ أوقِف تهريجك، قال أحد الشرطيين، لمَ نعتقلك؟ كأنك لا تدري!

صاح بي يوان الخدّ: «الخبب الوئيد، ستكفلني! لم أقم بما يُخالِف القانون».

قفزت حينذاك امرأة من المركبة.

العمة؟!

رفعت العمة القناع الذي غطى فمها وقالت هازئةً: «تعالَ غدًا لمقابلتي في المستوصف!».

٨

عمتي، يمكننا أن نتركها تحمله، قلت يائسًا، ما عدت أريد بطاقتي الحزبية، ولا وظيفتي...

خبطت العمة بشدة على الطاولة إلى حد أنَّ الماء في الكوب أمامي تطاير في كل صوب.

ـ الخبب الوئيد، أنت فعلًا غير نافع! الخبب الوئيد، قالت عمتي، هذه المسألة لا تخصّك وحدك! في كومونتنا الشعبية، طوال ثلاثة أعوام متتالية، لم تحدث حالة خرق واحدة للتخطيط الأُسري، هل تنوي عرضًا أن تخالف البرنامج؟

ـ لديها ميول انتحارية، قلت منزعجًا جدًّا، فإذا حصل أمرٌ مكدّر، فما العمل؟

قالت العمة بنبرة ساخرة: «هل تعرف كيف ثبتت السياسة الزراعية؟ من أراد أن يشرب السم، لم تُنزع القنينة من يديه، من رام أن يشنق نفسه، أُعطِيَ حَبْلًا ليفعل».

ـ يا للهمجية!

ـ هل تظن أننا فعلنا ذلك بسرور؟ في الجيش، الهمجيّة غير ضرورية، وفي المدن كذلك، وأقل من ذلك في الخارج... أولئك

الأجنبيات لا يفكّرن إلا باللهو والاستمتاع بالحياة، وعبثًا حاولت الدولة تشجيعهن، وتحفيزهن بعلاوات، لم ينجبن أكثر... ولكنْ في أريافنا، واجهنا الفلاحين، وعلى الرغم من حسن نوايانا لإقناعهم وشرح سياستنا، وبينما اهترأت نعالنا ونحن نركض ورقَّت شفاهنا من كثرة الكلام، من منهم يذعن للأمر؟ ما العمل إذًا، قل لي؟ لا يمكننا ألّا نضبط النموّ السكاني، ألّا ننفذ الأوامر الصادرة من الدولة، ألّا نسير وفق توجيهاتها. كيف نقوم بالأمر، قل لي؟ حصّتنا نحن، مسؤولو التخطيط الأُسري، أن نُشتم نهارًا ويُدلّ علينا بالأصابع، أما ليلًا... في الليل، فنُقذف في العتمة بالقرميد، حتى الأطفال الصغار بعمر الخمسة أعوام يقرصون قدمي بمخارز. رفعت العمة ساق سروالها لتظهر ندبة بنفسجية اللون على بطة رجلها.

ـ أرأيت جيدًا؟ سبَّب لي ذلك أخيرًا ابن حرام أحوَل صغير من قرية دونغفنغ! هل تتذكر قضية زوجة زانغ قبضة اليد؟

أومأت برأسي موافقًا، متذكرًا تلك القصة التي تعود إلى حوالى عشرة أعوام وجرت أحداثها على النهر المندفع.

ـ رمت المرأة نفسها بالماء، ونحن من أنجدها. لكنَّ زانغ قبضة اليد وأهل قريتها يقولون إننا دفعنا جنغ كسيوليان تلك في الماء وأغرقناها، كتبوا حتى عريضة وقَّعوها ببصماتهم المرسومة بدمائهم، لتصل القضية إلى الحكومة، حققت السلطات العليا بالأمر، وحين وصلنا إلى طريق مسدود، لم يبقَ أمامنا إلّا أن نختار هوانغ كيوا كبش محرقة.

أشعلت العمة لفافة، مجّتها بقوة، وغمر الدخان وجهها الحزين. شاخت العمة فعلًا، فالتجاعيد حول زوايا فمها امتدت إلى ذقنها، وبانت الجيوب تحت عينيها القلقتين.

«قمنا بجهود خارقة لإنقاذ حياة جنغ كسيوليان، وتبرّعت لها حتى بخمسمئة سنتيلتر من دمي. عانت من مرض قلبي خلقي. لم نستطع شيئًا، ونال زانغ قبضة اليد ألف يوان تعويضًا. لم يكن مبلغًا زهيدًا في تلك الحقبة. بعد أن حصَّل المال، لم يرضَ، واستمرّ في إزعاجنا، ذهب واعترض أمام محكمة لجنة الحزب في المقاطعة، وقد سجّى جثة زوجته على عربة ذات سقيفة، ترافقه بناته الثلاث اللواتي ارتدين القنّب حدادًا. قابل مسؤول المقاطعة الذي تولى مراقبة سير عمل فريق التخطيط الأُسري. وصل جيب عتيق من مكتب الأمن العام واقتادني وهوانغ كيوا والأسد الصغير إلى مركز الضيافة في المقاطعة. هنالك، وبخنا شرطيون متجهّمون، بلغة فظة ومهينة، وعاملونا كأننا فعلًا مجرمات. توجَّه إليَّ مدير القضاء بالحديث، فأدرت له ظهري وقلت: «لن أكلمك، أريد أن أجتمع مع قائد المقاطعة». دخلت فجأةً إلى مكتب الأخير، فوجدته جالسًا على كنبة يطالع الصحيفة. ولم يكن سوى وانغ لين! كان نائب حاكم المقاطعة، ومَنْ يرَ بشرته الناعمة وجسمه المكتنز، يدرك أنه يعتني جيدًا بشخصه. أصابني الجنون، وانطلقت كلماتي كطلقات رشاش، بوم، بوم، بوم، بوم. «أنتم أصحاب المناصب العليا تصدرون التوجيهات، وعلينا نحن أسفل الهرم، أن تضيق أنفاسنا ونركض. تريدوننا أن نتحدث عن العصرنة، والتدابير السياسية، وأن نشتغل على ذهنيات الجماهير... من السهل التكلم على المنابر، فالأمر لا يؤلم الظهر، ويشبه ذلك وجع الولادة العاهر ذاك: ما لم تلد شخصيًا، لا يمكنك أن تدرك ما يعني ذلك! يجب عليكم أن تنزلوا قليلًا من عليائكم وتحملوا أعباء مهماتنا. نبذل أنفسنا، نعاني الأمرّين، وكل ما نحصد في المقابل الضربات والشتائم والندوب، ويُفجّ رأسنا حتى،

وأمام أدنى عائق، نجد أنَّ المسؤولين لا يتركون مساندتنا فحسب، بل ينحازون كذلك إلى المواطنين السيّئين والنساء الشرّيرات! لقد أثبطتم عزيمتنا!» ـ قالت العمة ذلك بشيء من الفخر ـ لا يجرؤ الناس على الكلام أمام أصحاب المقامات الرفيعة، أمَّا أنا من تحدثك، فالأمر لا يربكني أبدًا! كلما رأيت مسؤولين أكثر، فاضت قريحتي، ليس لأنني أملك موهبة الفصاحة، بل لأن قلبي طافح بالعذابات المتراكمة... وفيما أتكلم، وأبكي، أشرت إلى الندبة في رأسي. «زانغ قبضة اليد ضربني بالعصا، ألا يُعد هذا فعلًا غير قانوني؟ غطسنا في النهر لإنقاذ زوجته، وهبتها خمسمئة سنتيلتر من دمي، إن لم يُعدّ ذلك القيام بكل ما هو ممكن إنسانيًّا، فما هو إذًا؟».

وتابعت العمة: «قلت وأنا أشهق بالبكاء: أرسلوني إلى مخيّم إعادة تأهيل بالعمل، زجّوني في السجن، في كل الأحوال، لا أنوي الاستمرار على هذا المنوال». كان يانغ لين المذكور متأثرًا بخطابي إلى حد أن اغرورقت عيناه بالدمع، وقف، قدّم لي كوب ماء، ذهب إلى الحمّام وجلب لي منشفة ساخنة واعترف: «العمل في القاعدة أمر شاق فعلًا، قال الرئيس ماو إن أكبر مشكلة هي تثقيف الفلاحين، الرفيقة وان، صغيرتي، كنت ضحيّة جورٍ، أفهم ما تعانين، ومسؤولو المقاطعة كذلك، وجميعًا نقدّرك كثيرًا». اقترب، وجلس قربي وسألني: «الرفيقة وان، صغيرتي، هل تقبلين بأن تأتي للعمل معي في قاعدة المقاطعة؟». طبعًا، أدركتُ ما يقصد، ولكن بمجرّد التفكير في ما قاله من سخافات أثناء جلسة النقد والكفاح تلك، برد دمي. أجبت بنبرة حازمة: لا، لن أذهب، العمل هنا يناديني. هزَّ رأسه متأسفًا وقال: «حسنًا، يمكنك أن تذهبي وتعملي في مستشفى القضاء!»، وأجبت: لن أذهب إلى أي مكانٍ آخر».

وأضافت العمة: «ربما كان عليّ أن أذهب معه؛ دفعة إلى الأمام، وهيا، كنت انطلقت، من دون أن أرى شيئًا، من دون أن أتوتر، لتركتُ جميعِ اللواتي يرغبن في الإنجاب يفتحن مؤخراتهن قدر ما يشأن، وصولًا إلى ملياري نسمة، ثلاثة مليارات؛ نهايةً، لو انهارت السماء، لوُجِد رجلٌ قوي يسندها برأسه. لِمَ عليَّ أن أقلق وأهتم؟». العمة عانت طوال حياتها، لأنها كانت مطيعة جدًّا، متمرّدة جدًّا، مستقيمة جدًّا، صادقة جدًّا.

ـ لعلَّ الأوان لم يَفُتْ لتثوبي إلى رشدك.

ـ صه! صاحت العمة ساخطةً، ماذا تقصد بقولك «لم يفت الأوان لأثوب إلى رشدي»؟ إن تلفّظت العمّة ببعض عبارات أمامك، أمام فردٍ من أُسرتها، فعلت بتأثير من الغضب، كي تطلق العنان لاستيائها. ستبقى العمة قلبًا وقالبًا مكرّسة للحزب الشيوعي، على الرغم من المصائب التي عانتها خلال الثورة الثقافية، لم تتغير قناعاتها، فما الذي يغيرها اليوم؟ لا يمكننا ألّا نهتم بالتخطيط الأُسري، إنْ غضضنا الطرف عن ضبط الولادات، فستصل إلى ثلاثين مليونًا في العام، أي ما مجموعه ثلاثمئة مليون في عشرة أعوام، وبعد خمسين عامًا، ستغدو الكرة الأرضية مسطحةً بسبب الصينيين. ولذلك، بغضّ النظر عن الثمن الذي ندفعه، يجب خفض معدل الولادات، وتلك أعظم مساهمة يقدمها الصينيون للبشرية جمعاء!

ـ عمتي، قلت، أدركُ حقًا ما هي الأهداف السامية، لكنَّ المشكلة الحالية هي أنَّ وانغ رينمي هربت...

ـ يفر الكاهن، يبقى المعبد! إلى أين يمكنها أن تذهب؟ إنَّها عند حميك!

ـ المشكلة أنَّها تتصرّف برعونة، أخشى إن طاردتها أن يصيبها مكروه...

ـ اطمئن، قالت العمة بثقة، عاشرت أولئك النساء عشرات الأعوام. صرت أفهم جيدًا تصرّفاتهن؛ اللواتي مثل زوجتك يثرثرن بفظاظة، ويغضبن بلا سبب وجيه، ويهدّدن بوضع حدّ لحياتهن، لا يحدث شيء، اطمئن، لن تنتحر! أمّا الهادئات إلى أقصى حدّ، اللواتي لا يتكلمن، فلا يمكننا أن نجزم أنهن لن يشنقن أنفسهن، أو يرتمين في البئر أو يشربن السم. منذ أعوام وأنا أهتم بالتخطيط الأُسري، والنساء اللواتي انتحرن فعلن ذلك لسبب آخر. من هذه الناحية، عليك ألّا تقلق.

ـ إذًا قولي لي، ما العمل؟ قلت منزعجًا، لا يمكننا نهايةً أن نربطها كالخنزير ونجرها بالقوة إلى المستشفى؟

ـ إذا انعدمت أمامنا الوسائل، فسنُضطّر للّجوء إلى تدابير قهرية. أخشى أنَّ الأمر ينطبق على زوجتك، ليتك لم تكن ابن شقيقي! إن تركتها بحالها، فكيف أقنع الأُخريات؟ إن تفوّهت بكلمة، فسيُحلنني إلى الصمت مع هذه السابقة.

ـ مع تطور الأمور إلى هذا الحد، لا يمكنني إلّا أن أطيعك. وأضفت: هل نطلب من قيادة الجيش أن تُرسل أحدًا لنعطي ثقلًا للأمر؟

ـ أرسلتُ برقيةً إلى وحدتكَ.

ـ وأنتِ مَنْ أرسلَ البرقية الأولى؟

ـ نعم، أجابت العمة.

ـ وإذْ عرفتِ أنَّها حامل، لِمَ لمْ تحلّي المسألة سابقًا؟

ـ مكثتُ في المقاطعة طوال شهرين لحضور اجتماعات، وعرفت

الخبر عند عودتي. وتابعت العمة بحنق: يوان الخدّ، ذلك الوغد، سبَّب لي المتاعب، ولحسن الحظ وشى به أحدهم، وإلّا لتضاعفت المشاكل.

ـ سيُحاكَم؟

ـ برأيي، يجب إعدامه رميًا بالرصاص! قالت العمة بغضب.

ـ مؤكد أن وانغ رينمي ليست الوحيدة التي نزع لولبها؟

ـ الأمر تحت سيطرتنا، المعنيّات زوجتك، وزوجة وانغ السابع من قرية عائلة وانغ، وامرأة كسياو جينْوي من قرية عائلة صَنْ، وكذلك وانغ المرَّة الصفراء، زوجة شين الأنف، والأخيرة أكثرهن تقدمًا في حملها. وهنالك عشرات النساء من مقاطعات أُخرى حيث لا يحق لنا التدخل. سنُجهض زوجتك أوَّلًا، لتليها الأُخريات، يجب ألّا تُفلت أي واحدة منهن من الإجهاض.

ـ وإن هربن إلى مقاطعة أخرى؟

ردّت العمة بنبرة ساخرة: «السعدان، على الرغم من كل قدراته، لم يستطع الإفلات من كف بوذا![1]».

فقلت: «عمتي، أنا ضابط، وعلى وانغ رانمي أن تجهض، ولكنْ وانغ المرة الصفراء وشين الأنف فلاحان، وعلى اعتبار أن بكرهما فتاة، ووفق السياسة المتبعة في هذا المجال، يمكنهما إنجاب ولد ثانٍ. ليس سهلًا لامرأة مثل وانغ المرة الصفراء أن تحمل...».

قاطعتني العمة هازئةً: «لم تُنهِ حلّ مشكلتك، وها أنت ذا تدافع عن

---

(١) طرفة مأخوذة من الرواية الكلاسيكية «رحلة إلى الغرب». السعدان، تلميذ الراهب، ظن بعد سقطة أنه أفلت من يد بوذا الذي احتجزه أسيرًا وبلغ إحدى دعائم السماء. فتبول عليها. في الواقع، فعل ذلك على إحدى أصابع بوذا.

الآخرين! صحيح، يمكنهما إنجاب طفل آخر، ولكن كان عليهما انتظار الثماني سنوات النظامية، ابنتهما شين الأذن لا تزال صغيرة جدًّا».

ـ الفرق أعوام قليلة، أليس كذلك؟ سألت.

ـ تتكلم على هواك! بضعة أعوام أقل، ماذا لو فعل الجميع الأمر نفسه؟ لن نسمح بالاستثناء، وإلّا عمت الفوضى، تابعت العمة بقسوة، لا تهتم بالآخرين، فكّر في مشكلتك.

٩

نشرت العمة في قريتنا فريق عمل مهيبًا رأسته بنفسها، فيما كان نائبها المسؤول المناوب عن دائرة العسكر في الكومونة الشعبية. كانت الأسد الصغير جزءًا منه، إضافة إلى ستة حراس وطنيين أشدّاء. وُضِعت في تصرف الفريق حافلة صغيرة مجهزة بمكبر للصوت، وجرار زاحف قوي جدًّا.

قبل وصولهم، قصدت مجددًا بيت حميّ. هذه المرَّة، صنع معروفًا وفتح لي الباب.

ـ كنتَ في الجيش، قلت لعمي الذي تشبه أوامره جبلًا يتداعى، مستحيل أن تعارضها.

كان الأخير يدخن غليونه، أطرق صامتًا دقائق ثم قال:

ـ ما دمت تعرف أن الأمر ممنوع، فلِمَ تركتها تحبل؟ حملها متقدّم، كيف السبيل لإجهاضها؟ إن خسِرَت حياتها، ماذا نفعل! إنَّها ابنتي الوحيدة!

ـ عليك ألّا تحمّلني مسؤولية هذه المسألة. برّرت لنفسي.

ـ ومن المسؤول؟

ـ إن أردت أن تتهجم على أحد، فليس عليك إلّا أن تحاسب يوان الخدّ، ذلك الوغد، وقد سبق أن قبض عليه مكتب الأمن العام.

ـ في كل الأحوال، إذا أصاب ابنتي أي مكروه، فسأخاطر بحياتي فداء حياتها.

ـ قالت عمتي إن الأمر لا ينطوي على مخاطر، وقد أجهضوا حوامل في الشهر السابع.

ـ عمتك ليست بشرًا، إنَّها مسخ، تدخلت حماتي وقد ظهرت فجأة، كم حياة أزهَقَت في الأعوام الأخيرة؟ يداها ملطختان بالدم، وعند مماتها، سيقطّعها ملك الجحيم إربًا!

ـ ما حاجتكِ إلى إخبارنا كل ذلك، قال عمي، إنَّها قضية يتداولها الرجال في ما بينهم.

ـ ما تعني بقولك هذا؟ صرخت حماتي بصوت حاد، يدفعون ابنتي نحو أبواب الجحيم، وتقول لي إنها مسألة يحلّها الرجال!

ـ أمّي، قلت، لن أتشاجر معكِ، اطلبي من وانغ رينمي أن تحضر، لدي ما أقوله لها.

ـ أتيت تبحث عنها هنا؟ إنَّها كنّة عائلتك، وتسكن عندكم. هل قتلتها؟ أنا من يطالبكَ بها!

ـ رينمي، اسمعيني جيدًا، صِحْتُ، البارحة ذهبت وتفاوضت مع عمتي، قلت لها إنني سأتخلى عن بطاقتي الحزبية، ووظيفتي في الجيش، وأعود إلى الديار أزرع الأرض وأترككِ تلدين الطفل. ولكنْ، بالنسبة لها، هذا الحل غير وارد أيضًا. مسألة يوان الخدّ استنفرت

الجميع وصولًا إلى مستوى المقاطعة؛ تلقت عمتي أوامر قاطعة من السلطات، على جميع اللواتي حملن بصورة غير قانونية أن يجهضن...

ـ لن يحصل ذلك! في أيّ عالم نعيش؟ ورمتني حماتي بالمياه الوسخة من الطست الذي كانت تحمله، وانهالت عليَّ بالشتائم: «دع عمتك العاهرة تأتي إليَّ، سأصارعها حتى الموت. لا يمكنها أن تلد، لذا تغار من رؤية الأخريات يحبلن!».

انسحبتُ آنذاك حزينًا، الماء الوسخ يقطر مني.

كانت سيّارة فريق العمل متوقفة أمام باب منزل حميَّ. جميع سكان القرية القادرين على التحرّك حضروا طبعًا. حتى كسياو الشفة العليا الذي التوى فمه وعيناه بعد إصابته بشلل نصفيّ كان حاضرًا، متكئًا على قضيب يستخدمه عصًا. انطلق عبر مكبر صوت متحمس: «التخطيط الأسري مسألة ذات أولوية بالنسبة لمستقبل البلد والشعب... لبناء بلد عظيم بفضل التحديثات الأربعة، يجب، مهما كلَّف الأمر، ضبط النمو السكاني وتحسين نوعية السكان... الحوامل بطريقة غير قانونية لا يمكنهن الاعتقاد بأنّ بإمكانهن الاعتماد على الحظ، ومحاولة النجاة بالغش... عين الجماهير الشعبية بصرها حاد كالوشق، ومهما حاولتن الاختباء في حفرة أو في قلب الغابة، فلن تُفْلِتْنَ... مَنْ يحاصر ويهاجم ويضرب موظفي التخطيط الأسري فسيحاكم باعتباره نصير تمرّد مضادّ ناشطًا... أما الذين سيعرقلون التخطيط الأُسري، بغضّ النظر عن الوسيلة أو الحيلة المستخدمة، فسيعاقبون بشدة وفق نظام الحزب وقانون الدولة...».

مشت العمة في الطليعة، ووراءها نائب المسؤول عن دائرة الميليشيا الشعبية المسلحة في الكومونة والأسد الصغير، وكأنهما

حارسان شخصيان. كانت بوابة منزل حميَّ مغلقة بإحكام، والقولان المأثوران المتوازيان من كل جهة يحملان العبارات التالية: «بهاء المنظر الطبيعي الخالد، الربيع الأزلي للأمَّة». استدارت العمة وقالت للجماهير المتحلقة في دائرة: «إن لم نهتم بالتخطيط الأُسري، فسيتغيّر لون المنظر الطبيعي، ويهلك البلد! أين نجد ذلك البهاء الخالد، ذلك الربيع الأزلي؟». دقت العمة بمطرقة الباب وصاحت بصوتها الأجش، الذي يمكن معرفته بين آلاف الأصوات: «وانغ رينمي، أنتِ تختبئين في أهراء البطاطا الحلوة قرب حظيرة الخنازير، أتظنينني لا أعرف؟ قضيتك أثارت ردود فعل مدوّية في لجنة المقاطعة والجيش، أنتِ مثال سيّئ. أمامك حلاّن: إمّا أن تخرجي بتأدّب وتتبعيني إلى المركز الطبّي لنجري الإجهاض ـ نظرًا إلى حملك المتقدم، ولسلامتك، يمكننا أن نرافقك إلى مستشفى المقاطعة لينفذه أفضل الأطباء؛ أمَّا الحل الثاني، فهو الآتي: إذا استمررت في المقاومة بعناد، فسنهدم بواسطة الجرار منازل جيرانك، ومن ثَمَّ منزل والدك. كل الخسائر التي سيتكبّدها الآخرون، ستقع على عاتق والدك. وعلى الرغم من كل ذلك، ستخضعين للإجهاض. إن كنت أتصرّف مع الآخرين بلياقة أكثر، فسأتعامل معك من دون لف ودوران! هل سمعتِني جيدًا وانغ رينمي؟ وانغ جينشان، وانغ كسيوزي، هل سمعتما أيضًا؟...». لفظت العمة اسمي حمويَّ عاليًا وبقوة.

في الجهة الأُخرى من البوابة، ساد صمت مطبق، ثمّ سُمع صياح ديك، تلاه عويل حماتي وسبابها: «وان القلب، أيتها المرأة الشرّيرة، الشيطانية، العديمة الرحمة... لن تموتي ميتة حسنة... في الحياة الأُخرى، سيكون عليكِ تسلُّق جبالٍ من السكاكين، ستُلْقَين

في قدر زيت مغليّ، سيُسلخ جلدك، ستُفقأ عيناك لإشعال القناديل العُلوية...».

ضحكت العمة بتهكم، وقالت لنائب المسؤول عن دائرة الميليشيا الشعبية المسلحة: «هيا بنا!».

أمر الأخير الحراس الوطنيين بسحب كابل صلب طويل وخشن، وتطويق شجرة الصفيراء العتيقة أمام بوابة الجار، شرقيّ منزل حمويّ. قفز كسياو الشفة العليا من بين الجموع مستندًا إلى عصاه، متذمّرًا: «تلك... تلك... شجرتنا...». حاول ضرب عمتي بعصاه، ففقد توازنه... قالت العمة ساخرةً: «آه، تلك شجرتك؟ آسفة جدًّا، كان عليك اختيار جيران أفضل!».

ـ أنتم قطاع طرق محليون... أعضاء من الكيومينداتغ تتبادلون المساعدة الجماعية والضمانة المشتركة...

ـ الإهانة التي كان يوجهها لنا الكيومينداتغ هي: «قطاع طرق شيوعيون»، ردّت العمة بهزء، إنْ عيَّرتنا بأننا «قطاع طرق محليّون»، فمعناها أنَّك لا تساوي الكيومينداتغ.

ـ حسنًا، سأبلّغ عنكم... ابني يعمل في الحكومة...

ـ أجل، هيا، اذهب وتقدّم بشكوى ضدنا، والأفضل أن ترفعها أمام أعلى السلطات!

رمى كسياو الشفة العليا عصاه، طوَّق الصفيراء، وقال باكيًا: «لا يمكنكم أن تقتلعوا شجرتي... وفق يوان الخدّ، هذه الشجرة جوهرية لعائلتنا... ما دامت هنا، غضيضةً، تزدهر عائلتنا...».

قالت العمة ضاحكةً: «ألم يحتسب يوان الخدّ موعد توقيفه من قِبَل مكتب الأمن العام؟».

ـ يجب أن تقتلوني قبل... ناح كسياو الشفة العليا.

ـ كسياو الشفة العليا! صاحت العمة بقسوة، أين اختفت تلك الروح المقاومة التي أظهرتها إبان الثورة الثقافية، يوم كنت تضرب الناس وتؤدّبهم؟ ألا تخجل من التباكي مثل قزمة؟

ـ أعرف... أنا... أنَّكِ تستغلين مركزك للدفاع عن مصالحك... تأخذين بثأرك منّي... ولكنّ كنَّة أخيك هي الحامل من دون علم التخطيط الأُسري... لِمَ تقتلعين شجرتي...

ـ لن أقتلعها فحسب، قالت العمة، سأدمّر بعد ذلك البرج الصغير فوق بوابتك، ليحين من ثمَّ دور منزلك الكبير المغطى بالقرميد، لن ينفعك شيئًا التباكي هنا، عليك أن تواجه وانغ جينشان بالأمر!...

تناولت العمة مكبر الصوت من يد الأسد الصغير ونادت بالجموع:

ـ يا جيران وانغ جينشان، اسمعوا جيّدًا: نظرًا إلى أنَّ وانغ جينشان يخبّئ ابنته الحامل بصورة غير قانونية، ويقاوم الحكومة بعناد، ويشتم الموظفين، قرّرنا حاليًا استنادًا إلى حكم خاص صادر عن لجنة التخطيط الأُسري في الكومونة الشعبية، دكَّ بيوت جيرانه، وكل خسائر الجيران المذكورين يتحمّلها وانغ جينشان نفسه. إن كنتم تريدون ألّا تُهدم منازلكم، ندعوكم إلى حضّ الأخير فورًا على تسليم ابنته.

عمَّت البلبلة بين جيران حميّ.

توجّهت العمة إلى نائب المسؤول عن دائرة الميليشيا الشعبية المسلحة: «نفّذ الأمر!».

هدر الجرار الزاحف، فاهتزت الأرض تحت أقدامنا.

تقدمت المركبة الحديد الضخمة مدوّيةً. امتدّ الكابل شيئًا فشيئًا بضجيج ثقيل. بدأت أوراق الصفيراء تحف وتهتز.

انقضّ كسياو الشفة العليا على بوابة بيت حميًّ، وراح يقرع عليها كالمجنون: «وانغ جينشان، سألعن أجدادك في قبورهم! تُلحِق الأذى بجيرانك، لن تموت إلّا ميتة شنيعة!».

بنحو مثير للعجب، وبتأثير من الانفعال، اختفت فجأةً تأتأته التي تجعل عادةً كلامه عصيًّا على الفهم.

ظلت البوابة موصدة، ولم يُسمع في الفناء إلا عويل حماتي المؤثر.

رفعت العمة يدها اليمنى قاصدة نائب المسؤول عن الميليشيا الشعبية المسلحة، وأنزلتها بغتةً.

«أسرِع!»، صاح الأخير بسائق الجرار.

أصدر الجرار هديرًا يثقب الآذان، تمدّد الكابل الحديديّ تمامًا، وبالضجيج الثقيل نفسه اشتد. اشتد أكثر، اخترقت العقدة لحاء الشجرة، سال النسغ منه، تقدّم الجرار ببطء، سنتيمترًا فسنتيمترًا، ونفثت مدخنته الحديديّة المصفّحة ذات الشكل الأنبوبي سحب الدخان، وتكدّست بعضها فوق بعض. وفي الوقت الذي قاد فيه السائق آلته، نظر وراءه، ارتدى بزة عمل زرقاء سميكة ونظيفة جدًّا، لفَّ على عنقه منشفة ناصعة البياض، وضع بالورب قبّعة على رأسه، عضَّ شفته السفلى، ووشّى شفته العليا زغب ناعم، كان شابًا فتيًّا نشيطًا... ترجّحت الشجرة الكبيرة وسط صرير مؤلم. اخترق الكابل بعمق جذعها، اقتطع بعض لحائها، وبانت ألياف الخشب البيضاء.

ـ وانغ جينشان، تبًّا لك، اخرج... خبّط كسياو الشفة العليا على البوابة، لبطها، نطحها، ولم يصدر صوت من بيت عمي، فيما توقف صراخ حماتي ونحيبها.

انحنت الشجرة الضخمة أكثر فأكثر، ولامس تاجها الغضّ الأرض مصدرة قعقعة مدوّية.

وصل كسياو الشفة العليا قرب الشجرة، متهالكًا: «شجرتي... شجرة بختنا...».

اهتزت جذور الشجرة، انشقت الأرض.

بجهد جهيد، عاد كسياو الشفة العليا إلى البوابة: «وانغ جينشان، يا ابن العاهرة! جيرتنا الطيبة تعود لأعوام، وكدنا نصبح أقارب، انظر أي أذًى تُلحق بي...».

بانت جذور الشجرة بلونها الأصفر الفاتح، وكأنها ثعابين بواء ضخمة... سُحِبت، أصدرت صريرًا، تكسَّر بعضها؛ وكلَّما سُحبت أكثر، ازداد طولها، كان عدد جذورها كبيرًا، مثل ثعابين بواء ضخمة... جُرَّ تاج الشجرة على الأرض في الاتجاه المعاكس، كمكنسة هائلة الحجم، وتكسّرت الأغصان الرقيقة واحدًا تلو آخر، وعلا الغبار.

تجهّمت وجوه الناس، وقد شمّوا رائحة التراب الرطب ورائحة النسغ...

ـ وانغ جينشان، تبًا لك ألف مرة، سأنتحر وأنا أطرق رأسي ببوابتك... ونفّذ كلامه، ولكنْ لم يُسْمَع أيّ صوت له إذ أخفى هدير الآلة أيّ ضجةٍ أُخرى.

قُطِرَت الشجرة الضخمة على بعد عشرات الأمتار من منزل آل

كسياو، مخلفةً على التراب آثارًا هائلة، وبانت في عمق التراب جذور كثيرة مُقتلعة، فتهافت الأطفال عليها بحثًا عن يرقات زيزان.

وأعلنت العمة في مكبر الصوت:

ـ الخطوة التالية: هدم البرج الصغير فوق بوابة آل كسياو!

حمل بعض الرجال كسياو الشفة العليا وأبعدوه عن المكان قليلًا، قرصوا شفتيه، مسّدوا صدره.

ـ يا جيران وانغ جينشان الآخرين، قالت العمة بهدوء، الأفضل لكم أن تدخلوا إلى منازلكم وتجمعوا كل شيء ذي قيمة، حين نهدم منزل كسياو الشفة العليا، سيأتي دور بيوتكم. أعلم أن الأمر يبدو غير منطقي، ولكنْ يجب أن تعلموا أن الموجبات الصغيرة ترتبط بالكبيرة، وما هي في هذا الظرف؟ التخطيط الأُسري. المبدأ الرئيس، ضبط نموّ السكان. لا أخاف أن أُعَدّ منغّصةً للأفراح، ووجود أشخاص مثلي ضروري. وأعرف تمامًا تمنياتكم بأن أذهب إلى الجحيم بعد موتي. لكننا نحن الشيوعيين، لا نؤمن بكل ذلك، والقائل بالنظرة المادية الصرف لا يهاب شيئًا! حتى وإن كان الجحيم موجودًا، فذلك لا يخيفني! إن لم أذهب أنا إلى الجحيم، فمَن يفعل!... فكوا الكابل واربطوه ببرج بوابة عائلة كسياو!».

واندفع كل جيران عمي، مثل قفير نحل، نحو بوابة منزله، قرعوا عليها، لبطوها، رموا أحجار قرميد وطوب في الفناء. جمع أحدهم حتى حزم قضبان الذرة اليابسة تحت إفريز البوابة وصاح: «وانغ جينشان، إن لم تخرج الآن، فسأحرق بيتك!».

فُتِحت البوابة أخيرًا، ولم يخرج منها عمي ولا حماتي، بل زوجتي. كان شعرها مشعّثًا، جسمها مغطى بالوحل، انتعلت حذاءً في رجل، والأُخرى حافية، بدا أنَّها كانت تختبئ فعلًا في الأهراء.

ـ عمتي، سأُجهض، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ قالت حين وصلت أمام العمة.

ـ كنت أعرف أنَّ زوجة ابن أخي شخصٌ يُدرك المصلحة العامّة! قال العمة مبتسمةً.

ـ عمتي، تدهشينني حقًّا! قالت زوجتي، لو كنتِ رجلًا، لاستطعتِ قيادة جيش جرّار!

ـ والأمر ينطبق عليكِ كذلك، أجابت العمة، فهمتُ أنَّك امرأة قوية مذ قطعتِ علاقتكِ بخطيبك ابن كسياو بصورة جازمة.

ـ رينمي، قلتُ بدوري، سبّبتُ لك ألمًا كبيرًا.

ـ الخبب الوئيد، أعطني يدك.

مددت يدي أمامها، متسائلًا عمّا يدور في خلدها.

التقطت يدي، وعضتني في رسغي بشراسة.

لم أُقاوم.

علَّمت على يدي آثار أسنانها عميقًا، وسال دم أسود منها.

بصقت بقوة وقالت لي بخبث: «سأخسر من دمي بسببك، لذا عليك أن تنزف بسببي».

مددت لها قبضة يدي الأخرى. أشاحتها قائلةً: «لا، رائحتها نتنة مثل رائحة كلب!».

استعاد كسياو الشفة العليا وعيه، ضرب الأرض وزعق كما تفعل النساء: «وانغ رينمي، وان الخبب الوئيد، عليكما أن تعوّضا عليّ ثمن الشجرة... هل فهمتما؟ يجب أن تعوّضا عليّ...».

ـ هه! اتّكل علينا! قالت زوجتي، ابنك لمس نهدي، وقبَّلني! لنقل إنَّ هذه الشجرة تعويض عن شبابي الضائع!

ـ آواه، آواه! صرخت شلَّة من المراهقين، مصفقين لجواب زوجتي المُحكم.

ـ رينمي! صحت وقد خرجتُ عن صوابي.

ـ ماذا، لا تعمل من الحبّة قبّة! قالت زوجتي وهي تصعد إلى سيارة عمتي، وأضافت: «داعبهما من فوق ثيابي!».

١٠

يانغ، مسؤولة لجنة التخطيط الأُسري في وحدتنا، وصلت. كانت ابنة مسؤول كبير في الجيش، قائد لواء. كنت أعرفها نظرًا لسمعتها، لكنها المرة الأولى التي ألتقيها فيها.

دعاها مسؤولو الكومونة إلى مأدبة، واقتَرَحَت أن أُدعى ورينمي كذلك.

أعطت عمتي لرينمي حذاءً جلديًا.

أُقيمت الوليمة في قاعة صغيرة وأنيقة في مقهى الكومونة الشعبية.

ـ الخبب الوئيد، الأفضل ألّا أذهب، يرعبني أن أكون برفقة أولئك الموظفين الكبار، قالت وانغ رينمي. ثمّ إنّه ليس في الأمر ما يدعو للفخر، فما الداعي لذهابي...

ضحكت العمة: «ممَّ تخافين؟ أكبر موظف ليس أكثر من إنسان مثل كل البشر، له أنف وعينان».

لحظة اتخاذنا مقاعدنا، أجلستني المسؤولة يانغ ووانغ رينمي كلًّا من جهة. قالت بمودّة لزوجتي، ممسكةً يدها: «الرفيقة العزيزة وانغ، أشكرك باسم قيادة الجيش».

أجابت زوجتي، متأثرةً: «حضرة القائدة، تصرفت على نحو سيّئ، وما زلت أسبّب لكم إزعاجًا».

وفيما كنت متوجّسًا من أن تتفوه بعبارات في غير مكانها، ارتحت من عبء ثقيل لرؤيتها تتصرف بهذا التهذيب.

ـ لزوجة ابن أخي قدر كبير من الوعي، حملت خطأً، وأتت إليّ بنفسها طالبةً أن تخضع للإجهاض، ولكنْ بما أن وضعها الصحيّ لم يسمح، استغرقنا الأمر إلى اليوم.

ـ العزيز وان، عليَّ أن أنتقدك، أنتم الرفاق الذكور مهملون، تتكلون دومًا على الحظ.

أومأت برأسي مرّات عدة موافقًا.

رفع سكرتير الكومونة الشعبية كأسه وأعلن: «جزيل الشكر للمسؤولة يانغ التي أتت في عملية تفتيش على الرغم من مهامها الكثيرة لتوجّه عملنا».

ـ أعرف المكان جيدًا، قالت المسؤولة، خدم والدي هنا في المقاومة الشعبية، وأثناء معركة نهر جياوى، قام هنا مقرّه الرئيس، لذا حين وصلت، لم أستغرب المكان.

ـ ذلك من دواعي سرورنا، أضاف السكرتير، أتمنى عليك المسؤولة

يانغ عند عودتك إلى ديارك، أن تنقلي شفويًّا للقائد الكبير رغبتنا في أن يشرفنا بزيارة تفتيش.

وقفت عمتي كذلك حاملةً كأسها بكلتا يديها، وقالت: «المسؤولة يانغ، أشرب نخبك بدوري!».

وأضاف السكرتير: «المسؤولة وان ابنة شهيد، وكانت لمّا تزل طفلة، وقد تبعت خطى والدها في الحركة الثورية».

وأردفت العمة: «المسؤولة يانغ، يبدو أن أوجه الشبه بيننا كثيرة وعلاقتنا مقدَّرة. كان والدي مدير مستشفى كسيهي لفرقة المشاة الثامنة، وطبّب كذلك إصابة في ساق القائد التابع يانغ!».

ـ آه فعلًا، قالت المسؤولة يانغ وقد وقفت متحمسة، بدأ والدي أخيرًا كتابة مذكراته، ويأتي على ذكر طبيب اسمه وان الملتقيات الستة.

ـ وهو والدي، قالت عمتي؛ بعد استشهاده البطولي، عشت عامين مع والدتي في المنطقة المحررة في جياودونغ ولعبت مع فتاة اسمها يانغ القلب...

قبضت فجأةً المسؤولة يانغ على يد عمتي، وقالت منفعلةً وعيناها مغرورقتان دمعًا: «وان القلب، أنتِ إذًا وان القلب؟».

ـ وان القلب، يانغ القلب، قلبان أحمران... وسألت العمة: تلك عبارات المسؤولة زونغ، أليس كذلك؟

ـ صحيح، ومسحت المسؤولة يانغ الدموع عن وجنتيها وأضافت: «حلمت بكِ أحيانًا كثيرة، مَنْ كان يظن أننا سنلتقي هنا؟».

قالت العمة: «مذ رأيتك، تكوَّن لديّ انطباع بأنني أعرفكِ!».

وتدخَّل سكرتير الكومونة الشعبية: «لنشرب إذًا نخب لقاء المسؤولتين وان ويانغ اللتين افترقتا طويلًا!».

غمزتني العمة، ففهمت قصدها، وقفت ووانغ رينمي أمام المسؤولة يانغ وقلت لها: «المسؤولة يانغ، أعتذر جدًّا، لقد أُجبرتِ على المجيء خصيصًا لحلّ المسألة المتعلقة بي».

ـ المسؤولة يانغ، أعتذر منك أنا أيضًا، قالت وانغ رينمي وهي تنحني؛ لا يمكن لوم الخبب الوئيد في هذه القضية، فالخطأ خطئي. قبل العلاقة الجنسية، ومن دون علمه، ثقبت اللولب بإبرة...

تردّدت المسؤولة يانغ مذهولةً للحظات قبل أن تنفجر ضحكًا.

التهب وجهي احمرارًا، فلمست كوع وانغ رينمي وقلت لها:

ـ توقفي عن قول السخافات.

شدَّت المسؤولة يانغ على يد زوجتي، قاستها بنظرها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها قبل أن تقول: «الرفيقة العزيزة وانغ، تُعجبني صراحتك. تُشبهين عمتكِ قليلًا من حيث الطبع!».

ـ وهل أجرؤ أن أتشبَّه بها؟ قالت وانغ رينمي، العمة «كلبة صيد» وفية للحزب الشيوعي، يكفي أن يُشار إليها بمَن يجب أن تعض لِتُنفذ ذلك...

ـ توقفي عن التفوّه بحماقات!

ـ لا أتفوّه بحماقات، أضافت زوجتي، أليست تلك حقيقة؟ لو طلب الحزب من العمة تسلق جبلٍ من السكاكين، لفعلت، لو طُلِب منها الغوص في محيطٍ من نار، لما تراجعت...

ـ حسنًا، حسنًا، قالت العمة، كفانا كلامًا عني، لم أقم بعد بما يكفي، عليَّ أن أواصل جهودي.

ـ الرفيقة العزيزة وانغ، قالت المسؤولة يانغ، نحن نساء، وأيّ امرأة لا تعشق الأطفال. واحد، اثنان، ثلاثة، وحتى لو رُزِقنا بعشرة، لن نتذمّر من عددهم. والدولة والحزب يحبان الأطفال كذلك، ألم يكن الرئيس ماو ورئيس الحكومة زو يفرحان عند رؤية الأطفال؟ ينبع هذا الحب من القلب. ولمَ قمنا بالثورة؟ في استنتاج أخير، لنسمح للأولاد بأن يحيوا حياةً سعيدة. هم مستقبل البلاد وكنوز الأمة! ولكنْ، حاليًّا، تواجهنا مشكلة، إن لم نطبّق التخطيط الأُسري، فقد لا يبقى للأطفال ما يأكلون ويلبسون، وقد نعجز عن تعليمهم، لذا يهدف التخطيط الأُسري، بخطوةٍ قد تبدو غير إنسانية، إلى تحقيق صلاح البشرية جمعاء. فالألم البسيط الذي ستعانين منه، تضحيتك تلك، مساهمة منكِ لخير البلاد!

ـ المسؤولة يانغ، أفوّض إليكِ أمري، أجابت وانغ رينمي، سأُجهض هذا المساء... التفتت نحو العمة وأضافت: عمتي، بالمناسبة، استأصلي رحمي كذلك، سنضع حدًّا للمشكلة نهائيًّا!

ترددت المسؤولة يانغ مذهولة، ثمّ بدأت بالضحك. وحذا الجميع حذوها.

ـ وان الخبب الوئيد، قالت المسؤولة مشيرةً نحوي بإصبعها، زوجتك فاتنة! يا لظرفها... ولكنْ يستحيل أن نستأصل الرحم، أليس كذلك أيتها المسؤولة وان؟

ـ زوجة ابن أخي قوية من مثل سيف غانجيانغ[1]، أجابت العمة، بعد العملية الجراحية، ومتى استعادت عافيتها، أنوي أن أضمّها إلى فريق عمل التخطيط الأُسري! السكرتير وو، ها أنا ذي أعلمك بالأمر مسبقًا.

ـ ليس في الأمر أيّ مشكلة، ردّ السكرتير، نريد أشخاصًا أكْفاءً في فريقنا. ستكون الرفيقة وانغ رينمي مثالًا يُحتذى وتخلف آثارًا إيجابية.

ـ وان الخبب الوئيد، سألتني المسؤولة يانغ، ما هي وظيفتك حاليًّا؟

ـ مسؤول الشؤون الثقافية والرياضية في الكتيبة.

ـ منذ متى؟

ـ ثلاثة أعوام ونصف العام.

ـ قريبًا إذًا ستترقى إلى منصب نائب رئيس الكتيبة، ويمكن للرفيقة الصغيرة وانغ أن توافيك آنذاك إلى العاصمة.

ـ وابنتي كذلك؟ سألت وانغ رينمي باحتراس.

ـ طبعًا! أجابت المسؤولة.

ـ لكنني سمعت أنَّه مسعى صعب، ويجب انتظار التبليغ الرسمي...

ـ عند عودتك، اشتغل بإخلاص، تابعت المسؤولة، واترك الباقي عليّ.

ـ آه، يسعدني ذلك! قالت وانغ رينمي تقفز فرحًا، يمكن لابنتي أن تتعلم في بكين. ستكون ابنتي بكينية!

(١) حدّاد من القرن الخامس قبل عصرنا، ساعدته زوجته على صنع سيفين أوصى عليهما الملك، فسُمّي سيف باسم صانعه، والآخر باسم زوجته.

قاست المسؤولة يانغ زوجتي مجددًا، وقالت للعمة: «قبل العملية الجراحية، يجب اتخاذ كل التدابير، يجب قطعًا ضمان سلامتها».

ـ لا تخشي شيئًا! أجابت العمة.

١١

قبل دخولها إلى غرفة العمليات، قبضت وانغ رينمي فجأةً على يدي، حدّقت بآثار عضّتها على رسغي، وقالت نادمةً:

ـ الخبب الوئيد، كان يجب ألّا أعضك...

ـ انسي الأمر.

ـ ما زالت تؤلمك؟

ـ تؤلمني؟ قلت، كانت أشبه بلدغة بعوضة!

ـ هل لك أن تعضّني بدورك؟

ـ حسنًا، قلت، لمَ تتصرفين دائمًا كالأطفال؟

ـ الخبب الوئيد، قالت ولا تزال ممسكةً يدي، ويانيان؟

ـ إنّها في المنزل، أبي وأمي يهتمان بها.

ـ لديها ما تأكل؟

ـ نعم، اطمئني، اشتريت علبتي حليب مجفف، وقالب حلوى بالحليب والبيض، وعلبة لحم مجفف كذلك، وأخرى من نشا جذور اللوتس.

ـ تشبهك يانيان، جفناها رقيقان، جفناي مكبّسان.

ـ آه أجل، كان الأجدى أن تُشبِهكِ، فأنتِ أجمل مني.

ـ يقال إن الفتيات عمومًا يُشبهن آباءهن، والفتيان يشبهون والداتهم.

ـ ربما.

ـ هذه المرّة، كان صبيًا، أعرف ذلك، لا أخترع قصصًا...

ـ تغيَّر الزمن، وما عاد هنالك فرق بين الصبيان والبنات، قلت بنبرة قصدتها لامبالية؛ بعد عامين، ستلحقينني ويانيان إلى بكين، سنجد لها أفضل مدرسة، سنعلّمها قدر ما أمكننا لتصبح شخصيةً بارزة. الابنة المتميزة توازي عشرة فتيان خمولين!

ـ الخبب الوئيد!...

ـ ماذا لديك بعد؟

ـ مداعبات كسياو الشفة السفلى كانت حقًا من فوق ثيابي!

ـ لمَ تهرّجين دومًا؟ قلت ضاحكًا. نسيت الأمر منذ زمن طويل.

ـ كنت أرتدي سترة سميكة محشوّة، وتحتها كنزة صوفية، وملابس داخلية، وتحتها كذلك...

ـ حمّالة صدر، أليس كذلك؟

ـ كلا، غسلتها في ذلك النهار، ارتديت بدلًا منها قميصًا رقيقًا.

ـ حسنًا، كفى مزاحًا.

ـ وتلك القبلة، انتزعها مني فجأة.

ـ آه، لا بأس، قبّلك، وماذا بعد! أراد أن يعبّر لكِ عن حبّه.

ـ آه، لكنني لم أدعه وشأنه ببساطة. بعد تلك القبلة، سدّدت إليه رفسة ملائمة، جلس القرفصاء، ويداه على أسفل بطنه.

ـ يا إلهي، كان حظه سيئًا كسياو الشفة السفلى البائس، قلت ضاحكًا. ولكنْ، حين قبّلتُكِ، لمَ لمْ تفعلي الأمر نفسه؟

ـ فمه نتن، فيما طعم شفتيك كان لذيذًا.

ـ ذلك يعني أنَّه كان مقدَّرًا لي منذ الأزل أن تكوني زوجتي.

ـ الخبب الوئيد، أشكرك من كل قلبي.

ـ ولكنْ، على ماذا؟

ـ لا أدري.

ـ كفاكما كلامًا في الحب، أجّلا ذلك إلى وقت لاحق. مدت العمة رأسها من غرفة العمليات، وأومأت لوانغ رينمي قائلةً: هيا بنا، ادخلي!

ـ الخبب الوئيد... وأمسكت بيدي مجدّدًا.

ـ لا تخافي، قالت عمتي إن العملية بسيطة.

ـ حين أعود إلى المنزل، عليك أن تطهو لي دجاجة مكمورة.

ـ اتفقنا، سأطهو حتى دجاجتين!

قبل أن تدخل غرفة العمليات، التفتت ونظرت إليَّ. لبست سترتي الرمادية القديمة نفسها التي ينقصها زر، ومكانه معلَّم بخيط يتدلى منها. كان بنطالها الأزرق ملطخًا بتراب أصفر، والحذاء العتيق الجلديّ ذو اللون البني يعود إلى عمتي.

وخزني أنفي، وشعرت بفراغ داخلي. سمعت بينما جلست على المقعد المغبر في البهو قرقعة الأدوات المعدنية تتصاعد من غرفة العمليات. تخيلت شكل تلك الأدوات، تراءى لي لمعانها الذي يبهر البصر، أحسست الحدَّ الذي يمكن أن تبلغه برودتها. علت ضحكات

أطفال في الفناء وراء مركز العناية. نهضت، نظرت عبر النافذه؛ حمل صبي صغير يرواح عمره بين أربعة أعوام وخمسة واقيين ذكريين منفوخين كبالونين. ركض، ولاحقته فتاتان من سنه تقريبًا...

قفزت عمتي من غرفة العمليات وسألتني مذعورة:

ـ ما فئة دمك؟

ـ «ألف» (A).

ـ وهي؟

ـ مَنْ تقصدين؟

ـ مَنْ أقصد برأيك؟ سألت عمتي متوترةً، زوجتك طبعًا!

ـ لا بد «أو» (O)؛ ربما لا، لا أعلم...

ـ أيُّها الأبله!

ـ ما الذي يحصل لها؟ وبرأس فارغ، لحظت الدماء على رداء عمتي الأبيض.

عادت الأخيرة إلى غرفة العمليات وأوصدت الباب وراءها. ألصقت وجهي بشق الباب، فلم أستطع رؤية شيء. لم أسمع صوت وانغ رينمي، لكنني سمعت الأسد الصغير تصرخ. اتصلت بمستشفى المقاطعة طلبًا لسيارة إسعاف.

دفعت الباب بكل قواي، فانفتح، ورأيت وانغ رينمي...

شاهدت العمة وقد رفعت كمها، والأسد الصغير، بواسطة إبرة ضخمة، تسحب الدم من أحد عروق العمة... شاهدت وجه وانغ رينمي مثل ورقة بيضاء... رينمي، عليكِ أن تصمدي... دفعتني ممرضة خارج

الغرفة. دعيني أدخل، صحت بها، تبًّا لكِ، دعيني أدخل... وصل بعض الأشخاص بأردية بيضاء يركضون في البهو... جرّني طبيب متقدّم في السن تفوح منه بقوة رائحة الدخان والمطهر على السواء، وأجلسني على المقعد. ناولني سيجارة، وساعدني على إشعالها. حاول طمأنتي: «لا تخف، لن تتأخر سيارة إسعاف المقاطعة... سحبت عمتك ستمئة سنتيلتر من دمها نُقلت إلى زوجتك... يجب ألّا يحصل ما لا تُحمد عقباه...».

وصلت سيارة الإسعاف تزعق بكامل صفارتها. تغلغلت فيَّ كل الأصوات وكأنها ثعابين. أشخاص بأردية بيضاء يحملون حقيبة إسعافات. أشخاص بأردية بيضاء يرتدون نظارات وسمّاعات على أعناقهم. رجال بأردية بيضاء. نساء بأردية بيضاء. رجال بأردية بيضاء يحملون محملًا قابلًا للطيّ. بعضهم يدخل إلى غرفة العمليات، والبعض الآخر يبقى في البهو. حركاتهم سريعة، فيما تعابير وجوههم هادئة. لا أحد يعيرني اهتمامًا، لا أحد يرمقني بنظرة. شعرت بطعم دمٍ فاسدٍ في فمي...

... خرجت الأردية البيضاء بفتور من الغرفة. واحدًا تلو الآخر، تسللت إلى سيارة الأسعاف، ليوضع فيها المحمل.

ضربتُ باب غرفة العمليات بقوة ودخلت. غطى شرشف أبيض وانغ رينمي، جسدها، وجهها. جلست العمة منهوكة القوى على كرسيّ يُطوى وجسمها ملطخ بالدم. كانت الأسد الصغير والآخرون في حال صدمة. لم أعد أسمع أيّ ضجيج، ثمّ خيّل لي أن نحلتين صغيرتين تطنّان في أذنيّ.

ـ عمتي، قُلْت... ألم تؤكدي أن العملية بسيطة؟

رفعت العمة رأسها، قطبت جبينها، أغمضت عينيها، وجهها قبيح، مخيف، وعطست فجأةً بقوة.

١٢

ـ زوجة شقيقي العزيزة، أخي الكبير، قالت العمة همسًا واقفةً في الفناء، جئت أَطلب منكما السماح.

وُضعت جرّة رماد جثمان وانغ رينمي على طاولة مربعة وسط الغرفة الرئيسة، وإلى جانبه آنية بيضاء مملوءة قمحًا غُرِزت فيها ثلاثة قضبان بخور، تصاعد دخانها في دوائر. ارتديت بزتي العسكرية مع شارة سوداء على ساعدي، جلست قرب الطاولة وابنتي في حضني. أُلبست الصغيرة لباس الحداد، ولم تنفك ترفع رأسها نحوي وتسأل:

ـ أبي، ماذا في الصندوق؟

لم أجد العبارات لأجيبها، وسالت الدموع على لحيتي الكثة.

ـ أبي، إلى أين ذهبت أمي؟

ـ ذهبت إلى بكين... أجبت، بعد أيام سنوافيها إلى هناك.

ـ سيأتي جدي وجدتي معنا؟

ـ أجل، سنذهب جميعًا.

كان والداي في الفناء يقطعان الحطب، وينشران لوح صفصاف. ثُبّت اللوح مواربةً على مقعد، وقف والدي، فيما جلست أمي، والمنشار يروح ويجيء من أعلى إلى أسفل مُصدرًا صريرًا، وتناثرت النشارة حوله في الجو.

فهمت أنهما يزمعان صنع تابوت لوانغ رينمي. على الرغم من سريان ممارسة حرق الجثث، لم تحدد الهيئة المحلية موقعًا لإيداع الجرار، لذا يجب نهايةً طمرها وبناء قبر. المقتدرون ماديًا، يصنعون نعشًا يفرغون فيه الرماد بعد كسر الجرّة؛ الآخرون يدفنون الجرّة مباشرةً.

شاهدت العمة تقف محنية الرأس. شاهدت وجهي والديَّ الحزينين، حركاتهما الآلية، المكررة. شاهدت، مع العمة، سكرتير الكومونة الشعبية، والأسد الصغير، وثلاثة موظفين آخرين من الكومونة، يكدّسون علب الحلويات الملونة على حلقة البئر. قرب العلب، وُضِعت حقيبة من القش مبللة تنبعث منها رائحة مياه مالحة قوية، فأدركت أنها حقيبة سمكٍ مملح.

ـ من كان يظن أن أمرًا مماثلًا قد يحدث، قال سكرتير الكومونة، أتى فريق عمل الاختصاصيّين من مستشفى المقاطعة لتقويم الوضع، فالمسؤولة وان وفريقها عملوا وفق الإجراء المعتمد، لم يحصل أي خطأ، والطبيبة وان تبرّعت حتى بستمئة سنتيلتر من دمها، نشعر بلوعة شديدة، نحن متأسفون حقًّا...

ـ هل أنتِ بلهاء أم ماذا؟ انفجر والدي غضبًا فجأةً، وأنّب أمّي: هناك خط أسود، أليس كذلك؟ انحرف المنشار عنه أكثر من سنتيمتر ولم تري شيئًا، فما نفعكِ؟

نهضت والدتي بعناء ودخلت إلى المنزل تجهش بالبكاء.

رمى أبي المنشار، وتوجّه محني الظهر نحو جرة الماء، تناول القرعة

الطويلة، ردَّ رأسه إلى الوراء وشرب. سالت المياه على ذقنه، ورقبته، وصولًا إلى صدره حيث اختلطت بالنشارة الذهبية. بعد أن ارتوى، عاد إلى مكانه، وراح بغضب ينشر اللوح وحيدًا.

دخل سكرتير الكومونة الشعبية مع بعض الموظفين إلى الغرفة الرئيسة حيث انحنوا ثلاث مرات أمام الجرّة المملوءة برماد وانغ رينمي. وضع أحد الموظفين مغلفًا ورقيًّا على حافة الموقد.

قال السكرتير: «الرفيق وان القدم، ندرك أن أيّ مبلغ لن يعوّض الخسارة التي مُنِيَت بها عائلتك بسبب هذا الحادث المؤلم، والخمسة آلاف يوان تلك لا تفي بالتعبير إلّا قليلًا عمّا نشعر به».

أضاف أحد الموظفين، وكان مظهره يوحي بأنَّه سكرتير عادي: «قدَّمت الدولة ثلاثة آلاف، والألفان الباقيان من السكرتير وو وبعض مسؤولي الكومونة الشعبية.

ـ عودوا بالمال، أرجوكم أن تستعيدوه، لا حاجة لنا به.

ـ نفهم تمامًا ما تشعر به، ردَّ سكرتير الكومونة الشعبية بصوتٍ مخنوق من الألم، لا يمكن للأموات أن يعودوا إلى الحياة، وعلى الأحياء إكمال مسيرة الثورة. وأضاف: اتَصلت المسؤولة يانغ من بكين لتعبّر أولًا عن ألمها لفقدان وانغ رينمي وتقدّمت بأحرّ تعازيها للعائلة؛ وطلبت منّي تبليغك أنَّ مأذونيتك مُدّدت خمسة عشر يومًا ريثما تُنهي مراسم الجنازة ومختلف المسائل العائلية.

ـ شكرًا، أجبت، يمكنكم الانصراف.

انحنى السكرتير والأشخاص الآخرون مجددًا أمام الجرّة، وأحنوا رؤوسهم لعبور الباب.

شاهدت أرجلهم، شاهدت مؤخراتهم الكبيرة والصغيرة، وانهمرت دموعي من جديد.

سُمِع في الزقاق عويل امرأة وبكاؤها، وشتائم يطلقها بالفم الملآن صوت ذكوري، ففهمت أنهما حمواي.

حمل عمي مذراة خشب تُستخدم لذر الحبوب على البيدر ورَفْع القش، موجّهًا السباب: «يا أبناء الزنى، ستدفعون ثمن خسارتي ابنتي!».

لوّحت حماتي بيديها، تنقلت من مكانٍ إلى آخر بخطوات صغيرة، وبدا أنَّها تقصد الهجوم على عمتي، لكنَّها تعثرت ووقعت. خبطت الأرض بيديها تبكي وتنوح: «يا صغيرتي المسكينة... كيف أمكنكِ الرحيل هكذا... رحلتِ، غادرتنا، كيف نحيا من دونِك...».

دنا السكرتير منهما وقال: «عمي، عمتي، كنا نستعد لزيارتكما، إنه لحدث مؤسف، نشعر بالأسى نحن أيضًا...».

طرق عمي الأرض بمذراته وصاح حانقًا: «وان الخبب الوئيد، أيّها الوغد، إذا سمحت تفضَّل إلى هنا!».

تقدمتُ منه، طفلتي بين ذراعيّ. عانقتني ابنتي بقوة، وأخفت وجهها تحت عنقي.

ـ أبي... قلت واقفًا أمامه، اضربني...

رفع عمي المذراة عاليًا، لكنَّ يده تسمّرت فجأةً. رأيت الدموع تقطر على لحيته الرمادية، فاجتاحني تعب شديد وجثوت على ركبتي.

«تلك الإنسانة التي تضج حياةً...»، رمى عمي المذراة، أجهش بالبكاء، جلس القرفصاء وتابع: «إنسانة طاقاتها لا تنضب، سبّبتم لها كل هذا الألم... تلك جريمة... ألا تخشون عقاب السماء؟...».

اقتربت العمة من حمويَّ، أحنت رأسها وقالت: «أخي وأختي العزيزين آل وانغ، يجب ألّا تتهجّما على الخبب الوئيد، فأنا الوحيدة الملومة هنا». رفعت رأسها وأضافت: «يجب أن تأخذوا عليَّ قلة مسؤوليتي لأنني لم أجرِ في الوقت المناسب فحصًا عامًا لجميع النساء اللواتي في سن الإنجاب ليضعن لولبًا، ولأنني لم أدرك أنَّ السافل يوان الخدّ يتقن تلك التقنية. أخفقت في مسؤولياتي كذلك لأنني لم أُرسل وانغ رينمي إلى مستشفى المقاطعة لتخضع للعملية هناك. وحاليًا... ـ ونظرت العمة إلى سكرتير الكومونة الشعبية ـ أنتظر الإجراءات التي سيتخذها المسؤولون بحقي».

ـ لقد توصلنا إلى نتيجة في هذه القضية، قال السكرتير، عمي، عمتي، سنبحث مسألة تعويضكما فور عودتنا إلى المركز، لكن الطبيبة وان لم ترتكب خطأً، وما حصل حادث سببه بنية ابنتكما البدنية الخاصة جدًّا؛ حتى لو نُقلت آنذاك إلى مستشفى المقاطعة، لما اختلف الوضع. وعلى الرغم من ذلك... أعلن السكرتير بأعلى صوته ليسمع الوافدون إلى الفناء ومَن كانوا في الزقاق، يبقى ضبط الولادات سياسة البلد الجوهرية، ولن تتغير جراء حادث. يجب على الحوامل خلافًا لسياسة التخطيط الأسري الخضوع فورًا لعملية الإجهاض؛ واللواتي سيحذون حذوهن وكل من سيحاول عرقلة عمل التخطيط الأُسري، سيخضع لأشد عقاب!

ـ وأنا سأقتلكِ بدوري... وفيما أطلقت حماتي تلك الصرخة المدوية، سحبت مقصًا من صدرها وسدّدت ضربة لعمتي في فخذها.

وضعت الأخيرة يدها على الجرح، لكنَّ الدم تدفق بغزارة من بين أصابعها.

هجم بعض موظفي الكومونة، طرحوا حماتي أرضًا وانتزعوا المقص من يدها.

ركعت الأسد الصغير قرب عمتي، فتحت حقيبة الإسعافات، أخرجت منها ضمادةً وضغطت على الجرح.

صاح سكرتير الكومونة: بسرعة، اطلبوا الإسعاف!

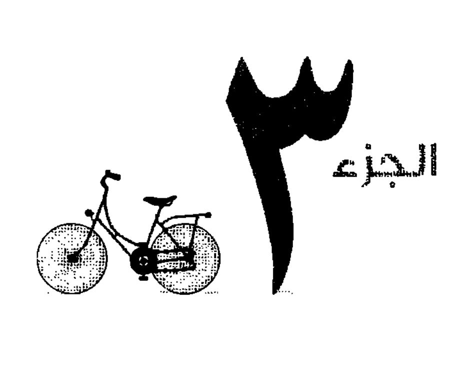
ـ لا ضرورة لذلك! قالت العمة. يا قريبتي العزيزة، لقد أعطيت ستمئة سنتيلتر من دمي لابنتك، وها أنت قد سددت لي هذه الضربة الآن، فدين الدم ذاك دُفع بالدم.

وإذ تحركت، امتلأت الضمادة دمًا.ـ أيتها العجوز، وضعك عسير! إذا حصل شيء للمسؤولة وان، فستُحاسبين أمام القضاء!

وانتاب الذعر حماتي على ما يبدو عند رؤيتها الدم المتدفق من فخذ عمتي إذ عادت تبكي وتلطم الأرض بكفيها.

ـ لا تخشي شيئًا قريبتي، قالت العمة، حتى لو متُّ بسبب الكزاز، فلن أدعك تتحمّلين أيّ مسؤولية. وأضافت: «أريد في الواقع أن أشكرك على فعلتك لأنها أزاحت عبئًا ثقيلًا عن كاهلي وعززت قناعاتي». وتوجهت العمة آنذاك إلى الفضوليّين الذين تجمعوا: «أتمنى عليكم نقل هذا الخبر إلى شين الأنف وانغ المرّة الصفراء: فليوافياني إلى المركز الطبّي، وإلّا... ـ أومأت العمة بيدها الملطخة دمًا ـ لو اختبأت وانغ في قبر حتى، فسأقبض عليها!».

الجزء ٣



عزيزي السيّد سوجيتاني يوشيهيتو،

يُحْتَفَل اليوم بعيد رأس السنة. أمس، أثلجت الدنيا مذ حلَّ المساء، وما زال الثلج يتساقط إلى اليوم. أمام نافذتي، يمتد غطاء أبيض ناصع. وتتصاعد من الشارع ضحكات مبتهجة لأولاد يلعبون بالثلج. على الصفصاف أمام منزلي يُغرّد عقعقان، وتشبه عقعقتهما تهاليل فرح.

بعد قراءة ردكم على رسالتي، شعرت بحزن عميق، لم أتصور أبدًا أن يسبب لـ م ذلك التراسل أرقًا ثقيلًا وينعكس على صحتكم. مواساتكم لي في رسالتكم تركت فيَّ بالغ الأثر. تقولون حين وصلتم إلى المقطع حيث تموت وانغ رينمي، ذرفتم الدمع. كان ذلك رد فعلي وأنا أخطُّ تلك السطور. لا أحقد على العمة، وبالنسبة لي لم ترتكب خطأً، على الرغم من أنَّها تشعر في الأعوام الأخيرة، مع تقدمها بالسن، بتأنيب الضمير وتعلن أنَّ يديها ملطختان بالدم. لكنَّ كل ذلك أصبح من الماضي، والتاريخ لا ينظر إلّا في النتائج وقلَّما تهمّه الوسائل، كما هي الحال عند تأملنا سور الصين العظيم، وأهرام مصر، وغيرهما من الصروح المجيدة، قلَّما نرى على أقدامها ما زهق من أرواح.

لقد شهد مسقط رأسي في العامين الأخيرين تقدمًا ملحوظًا، ترافق مع تغييرات مهمة. فالسكرتير الجديد شاب لم يبلغ بعد الأربعين، درس في الولايات المتحدة وعاد منها بلقب دكتور، وهو ديناميكي وطموح. يُقال إنَّه يريد تطوير ضفتي نهر جياو في كانتون دونغبي. وقد باشرت بالعمل آلات ورش ضخمة. سيعرف المكان في المستقبل القريب تحولًا كبيرًا، وقد لا يبقى شيء من المنظر الطبيعي الذي عرفتم

في زيارتكم الأخيرة. هل تُعدّ تلك التغييرات الوشيكة صوابًا أم خطأ؟ لا يمكنني الجزم في الموضوع.

أستغِلُ هذه الرسالة - صرتُ أشكُّ في قولي إنَّها رسالة - لأرسل لكم الجزء الثالث من المعطيات عن عمتي. سأستمر طبعًا في الكتابة، فتشجيعكم حافز رئيس يدفعني إلى ذلك.

أكرر دعوتي الصادقة برؤيتكم تعودون إلى هنا متى استطعتم - يجب علينا ربما أن نستقبلكم كما نفعل مع صديق قديم، من دون تكلُّف.

علاوةً على ذلك، اقتربتُ وزوجتي من سن التقاعد، ومتى حصل ذلك، نفكر بالعودة إلى ديارنا. ما زلنا نشعر في بكين بأننا في أرضٍ غريبة. أخيراً، وقرب «مسرح الشعب»، تهجمت علينا طوال ساعتين ومن دون سبب امرأتان «ترعرعتا منذ نعومة أظفارهما في أزقة بكين». هذا الحادث شدد عزمنا على الرجوع إلى بلدنا. هناك، قد لا يشاكسك الناس كما يفعل سكان المدن الكبيرة، هناك، قد تكون أقرب إلى الأدب.

تيتار

بكين، اليوم الأوَّل من العام ٢٠٠٤

١

بعد إتمام مراسم دفن وانغ رينمي واتخاذ كافة الإجراءات المتعلقة بأفراد العائلة، التحقت بكتيبتي فورًا. بعد شهر على ذلك، وصلتني برقية جديدة: «تُوفيت الوالدة، عُد في أسرع ما يمكن». ذهبت والرسالة في يدي لطلب مأذونية من مسؤوليَّ، وفي الآن نفسه، سلمتهم تقريرًا أطلب فيه تسريحي من الجيش والعودة إلى الحياة المدنية.

ليلة مواراة والدتي الثرى، تلألأ ضوء القمر، وأحاط الفناء نور فضّي. نامت ابنتي على حصيرة تحت شجرة الإجاص، وهز والدي فوقها مروحةً لطرد الناموس عنها. علا صرير الجنادب على العيدان التي تسند اللوبياء الخضراء، وسُمِعَ خرير النهر.

ـ عليك أن تتزوج على الرغم من كل شيء، قال والدي، متنهدًا بعمق، فالأسرة من دون امرأة لا تستحق هذا الاسم.

ـ قدمت لرؤسائي تقريرًا أطلب فيه تسريحي من الجيش، قلت، سنتكلم في الأمر حين أعود.

ـ كنّا نعيش بهناء، وبطرفة عين، أصبحنا على ما نحن عليه، قال والدي يزفر حسرة، ولا أدري على مَنْ يجب إلقاء اللوم.

ـ في الواقع، لا يمكننا الحقد على العمة، قلت بدوري، لم ترتكب أي خطأ.

ـ ولا أنا أحمّلها المسؤولية، قال أبي، إنَّه القدر.

ـ لولا أشخاص مثلها يتفانون قلبًا وقالبًا، لما تحقق شيء من توجيهات البلد السياسية.

ـ الحجّة مقنعة، ولكنْ لِمَ كان يجب أن تكون هي بالذات؟ حين رأيت كل تلك الدماء أرضًا بعد تلقيها الضربة بالمقص، تألمت، فهي في النهاية ابنة عمي، وتحمل اسم عائلتنا.

ـ هذا ما حصل، ولا يمكننا شيئًا، قلت.

٢

لقد علمت من والدي أنّه بعد الإصابة التي سببتها حماتي لعمتي، التهب جرح الأخيرة، ولم تفارقها الحمى. وعلى الرغم من ذلك، أتت على رأس فِرَقها لتطارد وانغ المرّة الصفراء. قد تبدو عبارة «تطارد» مبالغًا فيها، ولكن ذلك ما حصل في الواقع.

ـ كانت بوابة عائلة وانغ موصدة، ولا تؤتي الكلاب والدجاج حراكاً. أمرت العمة أتباعها بكسر القفل ومهاجمة الفناء. بالتأكيد، تلقت العمة مسبقًا معلومات سرية، كما روى والدي. دخلت غرفة منزل وانغ الرئيسة عارجةً، رفعت غطاء القدر، ولاحظت أن نصفها مملوء عصيدة، جسّتها، وكانت لا تزال ساخنة. ضحكت هازئةً وصاحت: «شين الأنف، وانغ المرّة الصفراء، هل تخرجان طوعًا من مخبئكما أم عليَّ سحبكما منه كما نفعل بالجرذان؟». ساد صمت مطبق في الغرفة حتى كاد يُسمع طنين ذبابة. أشارت العمة إلى خزانة في زاوية حوت بعض الثياب العتيقة. أمرت بإفراغها إلى أن بان قعرها. تناولت شوبكًا

وطرقت اللوح بقوة، «دونغ، دونغ»، فبان ثقب. وقالت عمتك: «هيا، يا أبطال العصابة، اخرجوا. أيجب غمر ملجئكم بالماء؟».

ـ أوَّل مَنْ خرج وانغ الأذن، ابنة وانغ المرّة الصفراء، كان وجهها ملطخًا بخطوطٍ رمادية، بدت مثل أولئك العفاريت الذين نراهم في المعابد. لم تبكِ قط، ضحكت حتى بالفم الملآن. ثمّ خرج شين الأنف، غطت لحيةٌ وجهه، وتجعّد شعره، لبس قميصًا قطنيًا ممزقًا بانت منه شعيرات صدره الشقراء، كان مظهره مثيرًا للشفقة. بعد أن تمكن من الخروج كيفما كان، جثا ذلك الشاب القوي أمام عمتك، «فلوك!»، ودقَّ جبهته مرات عدة بالأرض التي ردّدت صدى الطَرَقات.

وحكى والدي أن صراخ شين الأنف وبكاءه هزا القرية كاملةً.

«عمتي، عمتي العزيزة، بما أنني أوَّل طفل ساعدتِ على وضعه، ونظرًا إلى أن وانغ المرّة الصفراء بالكاد تبلغ حجم إنسان طبيعي، ارحمينا، دعينا نرحل... عمتي، ستحفظ عائلتي لأجيال وأجيال صنيعك ذلك...».

وتابع والدي حكايته:

«وفق الحاضرين، ردَّت عمتك وعيناها تغرورقان دمعًا: «شين الأنف، آه يا شين الأنف، لا يتعلق الأمر بي، وإلاَّ لكان كل شيء أسهل... مستعدة لأن أقطع يدي لو طَلَبْتَ ذلك!»».

ـ عمتي، رحماك!...

شن الأذن، ابنة شين الأنف، ذكية جدًّا، جثت مقلدةً والدها، دقت الأرض بجبهتها مرّات مرددةً: رحماكِ... رحماكِ..

في تلك اللحظة، أضاف والدي، بدأ الحواس الخمس، وكان

ضمن الفضوليين الذين تجمّعوا في الفناء، يغنّي بنبرةٍ ماكرة مقدمة فِلم «حرب السراديب السرية»: «حرب السراديب السرية، هاي، حرب السراديب السرية، ملايين الجنود الأبطال يكمنون فيها... انتشرت حرب السراديب السرية في السهل الوسيع، اليابانيون يقاومون بعناد، سنهزمهم بعنادٍ أكبر...».

امتقع لون عمتك، وتغيَّرت تعابيرها تمامًا: «حسنًا شين الأنف، أَخرِج وانغ المرَّة الصفراء، وسريعًا!».

حبا شين الأنف على ركبتيه وأمسك عمتك بساقٍ. فعلت شين الأذن الأمر نفسه، وتكمشت بالساق الأخرى.

وعاود الحواس الخمس الغناء في الفناء: «اندلعت حرب السراديب السرية في السهل الوسيع... فليتجرّأ العدو ويظهر... سنطيح الرجال ونقضي على الجياد... وسيخضع الشعب لعملية قطع القناة، ويحمي نفسه من الحَمل...».

شاءت عمتك أن تتحرك، لكنَّ شين الأنف وابنته أمسكاها بقوة.

فجأة، أتاها إلهام، فأمرت من يعملون معها: انزلوا إلى الحفرة!

حمل أحد الحراس مصباح جيب في فمه ونزل.

تَبِعَهُ آخر.

علا صوتٌ من الحفرة: «لا أحد هنا!»

كانت الضربة قاسية على العمة، فانهارت، وفقدت وعيها.

كان فعلًا ماكرًا شين الأنف، تابع والدي، ألا يوجد خلف منزله بستان؟ في ذلك البستان هنالك بئر، وفوقها مرفاع. تلك الورشة، أتساءل كيف استطاع إتمامها، وأين وضع كل تلك التربة؟ استغلت وانغ

المرة الصفراء قبض زوجها وابنتها على عمتك لتزحف نحو المخرج، هناك، تسلقت الحبل لتخرج. لا شك في أنها واجهت صعوبةً لصغر حجمها وبطنها الكبير، ولكنْ خلافًا لأي توقع، نجحت في أن تخرج من تلك البئر.

أسند البعض عمتك لتصل إلى البئر، حيث هاجت غضبًا وطرقت الأرض: «كيف أمكنني أن أكون ساذجةً إلى هذا الحد؟ كيف؟ في ما مضى، حين كان والدي في مستشفى كسيهي، أشرف على بناء سرداب كهذا!».

فقدت العمة وعيها مجددًا، ونُقلت إلى المستشفى للمعالجة. لقد أصيبت بالفيروس نفسه الذي أصيب به نورمان بيتون في الماضي، وكاد يُقضى عليها. بذلت نفسها في سبيل الحزب، ولم يبخل الحزب عليها. يقال إنَّها عولِجت بأغلى العقاقير لتُشفى!

ظلت عمتك في المستشفى خمسة عشر يومًا. وقبل أن يبرأ جرحها تمامًا، هربت من المستشفى، قضَّ مضجعها حمل وانغ المُرّة الصفراء، وقالت إنَّه ما لم تجهض الأخيرة الطفل الذي تحمل في أحشائها، فلن تعرف الراحة والنوم. أيمكننا بعد أن بلغ حسّها بالمسؤولية هذا الحد، أن نَصِفَها بالآدمي؟ ارتقت إلى مصاف آخر برأيي، مصاف الآلهة والشياطين!» قال والدي بانفعال.

لقد اعتقلت الكومونة الشعبية شين الأنف وابنته، وقيل أنهما أُخضِعا للتعذيب، وكانت تلك شائعات فحسب. قال موظفو القرية الإداريون الذين زاروهما إن الأمر اقتصر على احتجازهما في غرفة، جُهّزت بسريرين وأمتعة النوم، وترمس وأكواب، وأكلا وشربا شبعتهما. وذكروا أنهما تناولا الطعام نفسه الذي يأكله موظفو الكومونة: خبز

أبيض، وعصيدة الذرة، وأطباق متنوعة عند كل وجبة. ازداد وزن الأب وابنته، وصفا ماء وجهيهما. طبعًا، لم يحصلا على كل ذلك مجانًا. لقد أثرى شين الأنف من أعماله التجارية، وامتلك المال. لقد اتفقت الكومونة مع المصرف وكُشِفَت إيداعاته، وتبيَّن أنَّه يملك ثمانية وثلاثين ألف يوان!

وفيما كانت عمتك في المستشفى، أرسلت الكومونة الشعبية إلى القرية فريق عملٍ نظَّم اجتماعًا عامًا لأعضاء الكومونة، أُعلن خلاله ما يلي: «يجب على كل القرويين القادرين على التنقل البحث عن وانغ المرّة الصفراء». وخُصّص لكل فردٍ خمسة يوانات يوميًّا، ستُدفع طبعًا من حساب شين الأنف. رفض بعض السكان المشاركة في العملية، معتبرين أنَّه مال حرام. ولكن، استحال عليهم عدم تنفيذ الأمر، وإلّا أُجبروا على دفع غرامةٍ توازي البدل اليومي؛ ولذلك، شارك الجميع.

بلغ عدد سكان القرية سبعمئة نسمة، خرج منهم في اليوم الأوَّل أكثر من ثلاثمئة، ومساءً، وُزّعَت «الأجور» التي وصلت إلى أكثر من ألف وثمانمئة يوان. وأصدرت الكومونة الشعبية كذلك القرار التالي: الشخص الذي يعثر على وانغ المرّة الصفراء ويسلمها ينال مئتي يوان مكافأة؛ كل من يكشف خيوطًا مهمّة لاقتفاء أثرها، يحظى بمئة يوان. في لحظةٍ، أُصيبت القرية بالجنون، صفق البعض وهللوا فرحًا، فيما شعر آخرون، سرًّا، بالخيبة. وأضاف والدي: كنت أعرف أنَّ بعض الأشخاص أملوا فعلًا قبض المئة يوان أو المئتين تلك، لكن معظم السكان لم يبحثوا حقًّا عن وانغ المرّة الصفراء، بل جالوا في البساتين حول القرية، ونادوا: «وانغ المرّة الصفراء، هيا، اخرجي وسلّمي نفسك، وإلّا وُزّعت كل أموال عائلتك!». بعد ذلك، تسللوا

إلى منازلهم، وانصرفوا إلى أعمالهم. ومساءً، كان عليهم طبعًا أن يقبضوا البدل وإلّا دفعوا غرامةً.

ـ ولم يجدوها؟ سألت.

ـ أين يجدونها؟ أجاب والدي، يعتقدون أنَّها صارت في مكانٍ بعيد.

ـ امرأة بهذا الحجم الصغير، لا تجتاز بخطوةٍ أكثر من شبرين، مع بطنها الكبير علاوةً على ذلك، أين يمكنها أن تذهب؟ برأيي، ما زالت تختبئ في القرية... وأضفتُ بصوت منخفض: من يقول إنها لا تختبئ عند أهلها.

ـ وكأنَّك اكتشفت شيئًا جديدًا! قال والدي. يريد مسؤولو الكومونة الشعبية الفاسدون الحفر على عمق متر تحت منزل آل وانغ، وفكّ الكانغ حتى، ليروا إن كانت وانغ المرة الصفراء تختبئ في حفرته. في رأيي لا يجرؤ أحد في القرية على تحمّل مسؤولية إخفائها، أو عدم الوشاية بمكانها، وإلّا خاطر بدفع غرامة مقدارها ثلاثة آلاف يوان.

ـ ألم تنفد منها الحيل؟ لعلها تختبئ... في النهر، أو في بئر لم يبحث فيها أحد عنها.

ـ أنت لا تقدّر تمامًا تلك القزمة! قال والدي، لو جمعت كل دهاء أهل القرية، لما وازى مكر تلك المرأة؛ قدرتها على إيجاد الحلول تفوق قدرة أشدّ الرجال.

وكان أبي محقًّا، استرجعت وجه وانغ المرة الصفراء البهيّ الصغير، الذي يضج حياة، والتعابير التي تتجلى عليه، الماكرة حينًا، العنيدة أحايين، وسألت قلِقًا: «هي حامل في الشهر السابع على الأقلّ، أليس كذلك؟».

ـ لذا عمتك مستعجلة! ردَّ والدي، لقد قالت عمتك بوضوح: ما لم يتخطَّ الجنين «عنق الزجاجة»، فهو ليس أكثر من كتلة لحم، وإذا دعا الأمر، يمكن اللجوء إلى عملية كحت الرحم أو الإجهاض؛ ولكنْ إذا وِلد الطفل، يُعَدّ كائنًا بشريًّا، ولو كانت تنقصه يد أو رجل، وفي هذه الحال، تحميه قوانين البلاد.

وعادت صورة وانغ المرّة الصفراء مجددًا إلى ذهني: مع طولٍ لا يتعدّى سبعين سنتيمترًا، وبطن الحامل الناتئ، تخيّلتها ترفع رأسها الصغير، تتنقل على ساقيها النحيلتين، تحمل صرّة ضخمة، تركض متعثرةً على طريق الجبل الضيق المغطى بالعوسج، تلتفت لتنظر وراءها، فتعلق قدمها بالعوسج، تقع، تنهض من جديد، تعاود جريها المنهك... أو جالسة في علبة خشب كبيرة تجذف، مقطوعة الأنفاس، تستخدم لوحًا يستعمله الفلاحون لخض عجينة الصويا المخمرة، وتيّار النهر المضطرب يسير بها على غير هدى...

٣

في اليوم الثالث على مواراة أمّي الثرى، ووفق عادة قديمة، تحلّقنا حول قبرها. حضر جميع الأقارب والأصحاب. أحرقنا أمام القبر دمى ورقية، وتلفازًا، من ورق كذلك. على بعد أمتار، قام قبر وانغ رينمي، وقد غطاه العشب البرّي الشديد الإخضرار. وبناءً على أوامر أحد الأقرباء من الجيل القديم، حملت في يدي اليمنى حفنة أرز طازج، وفي اليسرى أُخرى من الذرة البيضاء، وجلت حول قبر والدتي، ثلاث دورات إلى اليسار، وثلاثًا إلى اليمين، وفيما نثرت على القبر الحبوب

التي أحمل، ردّدت في قلبي: «حفنة أرز جديد، حفنة ذرة بيضاء، آمر الميتة بالرحيل، كي تنعم بالهناء...». تبعتني ابنتي، ورمت بيديها الصغيرتين الحبوب على القبر.

وصلت العمة؛ على الرغم من مهامها المختلفة. حملت الأسد الصغير حقيبة الإسعافات على ظهرها، وتبعتها كظلها. كانت العمة تعرج قليلًا. بدا لي أنَّها شاخت أكثر خلال الأشهر التي غبت فيها. رَكَعَت أمام قبر والدتي وانفجرت بالبكاء. هزنا الأمر إذ لم نرها يومًا تنتحب بهذه الطريقة. وقفت الأسد الصغير إلى جانبها حزينةً، دامعة. اقتربت بعض النسوة من عمتي، واسينها، وساعدنها على الوقوف. ولكنْ، ما إن تركنها، حتى جثت من جديد واشتدّ بكاؤها. أصابت العدوى النساء اللواتي توقفن عن النحيب، فجثَوْن مجددًا أمام القبر يولولن ويندبن، مشتكيات إلى السماء والأرض.

انحنيتُ لأُنهض العمة، فهمست الأسد الصغير في أذني: «دعها تبكي، لقد كبتت مشاعرها طويلًا».

نظرت إلى الأسد الصغير، لمحت عناية المُحِب الغيور على محيّاها، فسرى بعض الدفء في عروقي.

عندما أفرغت العمة كل ما في جعبتها من دموع، وقفت بنفسها، مسحت وجهها وقالت لي: «الخبب الوئيد، اتصلت بي المسؤولة يانغ، وأخبرتني أن في نيّتك العودة إلى الحياة المدنية؟».

ـ ذلك صحيح، قدمت طلبًا بهذا الشأن.

طَلَبَتْ مني أن أقول لك ألّا تتابع هذه القضية، لقد سبق أن نسّقت الأمر مع دائرة الموظفين في كتيبتك ونقلتك إلى برنامج التخطيط

الأُسري لتعمل تحت إمرتها، ورقّتك مقدَّمًا إلى منصب قائد كتيبة مناوب... فهي تقدّرك كثيرًا.

ـ ما عاد لذلك أهمّية، أُفضّلُ تنظيف الزبل على العمل في التخطيط الأُسري.

ـ أنت مخطئ في ذلك، التخطيط الأُسري قضية كبرى في الحزب، ومهمّة ذات أولوية.

ـ اتصلي بالمسؤولة يانغ وبلغيها شكري لاهتمامها، لكنني أفضّل العودة إلى الديار. كيف يعيش والدي المسنّ وابنتي الصغيرة إن تركتهما وحيدين في المنزل؟

ـ لا تكن قاطعًا إلى هذا الحد، فكّر بالأمر مليًّا. وأضافت: الأفضل ألّا تترك الجيش. يصعب العمل على الصعيد المحلي. قارن ما بيني وبين المسؤولة يانغ القلب، كلانا يعمل في التخطيط الأُسري، تعيش هي حياة رغدٍ خالية من الهموم، أمّا أنا، فأركض في كل اتجاه، أبذل الدم والدمع، ألا ترى ما أصبحتُ عليه؟

٤

أعترف بأنّني لست عديم الشعور حيال الجاه والغنى. فيما تحدثنا عن عودتي إلى الحياة المدنية، وعند ذكر ترقيتي مقدمًا والاحترام الذي تكنّه لي المسؤولة يانغ، اهتزت كل قناعاتي الأولى.

عند عودتنا إلى المنزل، تناولت المسألة ووالدي، فتبيَّن أنَّه يعارض كذلك استقالتي من الجيش، وقال: «في الماضي، شمل أخو جدّك القائد يانغ برعايته وطبّب ساقه، وعالج كذلك مرض زوجته. اليوم، يانغ شخصية ذات شأن، ألن يتحسّن مستقبلك إذا أقمت علاقات معه؟».

وفيما دحضت أقواله شفويًا، فكرت في الواقع بالطريقة نفسها. نحن أشخاص عاديون، سواد الشعب، وإذا امتلكنا تلك الذهنية التي تدفعنا إلى الاعتماد على القادرين لننجح، يمكن عذرنا. ولذلك، حين عادت عمتي لتكلمني، كنت قد غيّرت موقفي. وكذلك، حين اقترحت عليّ أن أتزوج الأسد الصغير، وعلى الرغم من تمسكي بحجتي القديمة بأن وانغ الكبد مغرم بها منذ عشرات الأعوام، بدأت خطوط دفاعي الداخلية بالانهيار.

قالت العمة: «لا طفل لي، وفي أعماقي، لطالما اعتبرت الأسد الصغير بمثابة ابنتي؛ فهي تتمتع بمزايا أخلاقية عالية، قلبها من ذهب، ومتفانية في سبيلي، كيف أزوجها بوانغ الكبد؟».

ـ عمتي، أجبت، تعلمين طبعًا أن اثني عشر عامًا انقضت مذ كتب وانغ الكبد رسالة الحب الأولى إلى الأسد الصغير، حصل ذلك العام ١٩٧٠. وخلال كل تلك الأعوام، كتب لها أكثر من خمسمئة رسالة، وقد قال لي ذلك بنفسه. إضافةً إلى ذلك، ليثبت حبه للأسد الصغير، لم يتوانَ عن خيانة شقيقته الصغرى. وبالطبع، فعل الأمر نفسه مع يوان الخدّ، ووانغ رينمي، وإلّا فكيف عرفتِ أن رفيقنا نزع لولبيهما بطريقة غير شرعية؟ كيف عرفت أن وانغ المُرّة الصفراء ووانغ رينمي حملتا خارج التخطيط الأُسري؟

ـ سأقول لك الحقيقة، لم تقرأ الأسد الصغير أي رسالة من تلك الرسائل المقيتة، وكلُّها في حوزتي: اتفقت وما، مسؤول البريد، على تسليمي باليد كل ما يرسله وانغ الكبد.

ـ لكنَّه أدّى لكِ خدمات جديرة بالملاحظة، عاودت. بدأ ذلك

مع عملية والده لقطع القناة الدافقة، ومنذئذٍ يساعدك، وقدَّم مجددًا الواجب على روابط الدم ووشى بأخته.

ـ وذلك سبب وجيه كي لا أُزوّجها رجلًا مثله، قالت العمة حانقةً، من أجل حبّ امرأة، يبيع أصدقاءه وأُخته! قل لي، مَنْ يمكنه الاتكال على رجلٍ كهذا؟

ـ لكنَّه ساعدكم في النهاية!

ـ تلك قضية أُخرى! الخبب الوئيد، قالت بنبرة رزينة ولكن تنم عن عناية الغيور، تذكّرْ دومًا: يمكن للإنسان أن يقوم بما يشاء من أفعال، ولكنْ، يجب ألّا يتصرّف كخائن، حتى لسبب نبيل. على مرّ الأزمان، كانت نهاية الخونة وخيمة، إن في الصين أو في الخارج. والأمر ينطبق على وانغ كسياوتي، على الرغم من مكافأته بخمسة آلاف أونصة ذهب، أراهن أنَّه لن يموت نهايةً ميتة طيبة. إن كنت مستعدًا اليوم لأن تنضم إلى الكيوميندانغ من أجل مبلغ كهذا، وعرض عليك في اليوم التالي حزب آخر مبلغًا مضاعفًا، أفلن تخون مجددًا؟ لذا، كلَّما قدم لي وانغ الكبد معلومات إضافية، احتقرته أكثر، لأنه، بنظري، لا يساوي أكثر من براز كلب.

ـ ولكنْ، يا عمتي، لو لم تحتجزي الرسائل، لربما كانت الأسد الصغير تأثرت بمضمونها وتزوجته منذ زمن طويل.

ـ مستحيل، ذلك مستحيل تمامًا. للأسد الصغير مقاصد رفيعة. وفي الأعوام الأخيرة، لم يكن وانغ الكبد الوحيد الذي أغرِم بها، عشرات حاولوا التقرب منها، موظفون، عمّال، لكنها لم تختر أيًّا منهم.

هززت رأسي لأشير إلى أنَّني غير مقتنع، وقلت: «في الواقع، شكلها الخارجي لا يعجبني تمامًا...».

ـ هه! كيف تنظر إلى الأمور! قالت العمة. تبدو نساءٌ كثيرات ساحرات للوهلة الأولى، ولكنْ متى دققت في تفاصيلهن، ستجد شوائب جمّة. الأسد الصغير ليست جذابة، هذا صحيح، ولكنْ من ينعم النظر فيها، يكتشف مزاياها. لعلَّك لم تتفحصها جيدًا؟ طوال حياتها، كانت عمتك على صلة يومية بالنساء، وتعرف أكثر من أي شخص آخر أيّ نوع منهن يستحق التقدير. ألا تتذكر؟ يوم ترقيتك، أردتُ أن أقدمها لك، لكنك ارتبطت بوانغ رينمي. لم أكن راضية بتاتًا عن خيارك، ولكنْ في مجتمعنا الحديث، حرّية الزواج قاعدة رئيسة؛ وباعتباري عمتك، لم يكن باستطاعتي شفويًّا، نظرًا إلى الظروف، إلّا أن أتفوّه بالكلام المعسول. اليوم، باتت وانغ رينمي خارج السباق ـ طبعًا، في عمق أعماقي، لم أتمنَّ موتها، وأملت أن تعمّر طويلًا، لكنَّ تلك إرادة السماء، ومقدَّر لك أن تعيش والأسد الصغير زوجين لفترة.

ـ عمتي، يمكننا قول ما نشاء، لكنَّ وانغ الكبد صديق طفولتي، والجميع يعرفون، الصغير والكبير، قصة حبّه للأسد الصغير، إنْ تزوجتها، فسأموت غرقًا تحت البصاق!

ـ وفي هذه النقطة أيضًا، تُظهر أنَّك مغفل، هو يحب الأسد الصغير، لكنَّه حبٌّ من طرف واحد، ولم تبدِ يومًا الأسد الصغير استعدادًا للخروج معه. إذا تزوجتك فسيُقال: «الطير اليقظ يختار الغصن الذي يجب أن يحطّ عليه». ثمَّ لا علاقة للحب بميثاق الشرف بين الأصدقاء، إنَّها مسألة خاصة جدًّا. لو كانت الأسد الصغير جوادًا أعجبَ وانغ الكبد، يمكنك بالطبع أن تتركه له، لكنَّها كائن بشري، وإن كنتَ تُحبُّها، فستحظى بها، حتّى بالقوة. تحدّيتَ العالم الخارجي عدَّة أعوام، شاهدتَ عشرات الأفلام الأجنبية، وما زلت محدودًا بفكرك إلى هذا الحدّ؟

ـ لنفترض أنني موافق، قلت، ولكنْ، الأسد الصغير...

قاطعتني العمة: «اطمئن من هذه الناحية، عاشت إلى جانبي طويلًا، وأفقه أدنى أفكارها. سأقول لك الحقيقة على ما هي: تحبُّكَ أَنت، ولولا رحيل وانغ رينمي، لبقيت عزباء طوال حياتها».

ـ عمتي، أمهليني بضعة أيّام لأفكّر، لم يجفّ التراب بعد على قبر وانغ رينمي.

ـ وكأنَّك بحاجة إلى التفكير! كلّما طال الليل حلمنا أكثر، وكلَّما مرَّ الوقت تعقدت الأمور. لو ملكت وانغ رينمي من عليائها القدرة، لصفقت لك. لِمَ؟ لأنَّ الأسد الصغير طيبة القلب، وأن تحظى ابنتها بخالة من هذا النوع، تلك فرصة لا تعوَّض! علاوةً على ذلك، ووفق تنظيم ضبط الولادات، يمكنك والأسد الصغير أن تنجبا طفلًا، وأرغب في أن تُرزقا بتوأمين. الخبب الوئيد، ربَّ ضارةٍ نافعة!

٥

تقرر زواجي فعلًا بالأسد الصغير.

دار كل شيء برعاية العمة. أحسست كأنني خشب مهترئ يعوم على سطح الماء، عند كل دفعة، أتقدَّم قفزةً إلى الأمام.

حين ذهبنا لنسجل زواجنا في الكومونة الشعبية، كانت المرة الثانية التي نكون فيها وحدنا، أنا والأسد الصغير.

اجتمعنا المرة الأولى في بيت المنامة حيث تقيمان، هي وعمتي. كان صباح يوم سبت. دفعتنا العمة إلى الغرفة وخرجت، مغلقة الباب وراءها. كان في الغرفة سريران، بينهما طاولة بثلاثة أدراج، تكدست

عليها الصحف وبعض كتب علم أمراض النساء التي غطاها الغبار. من النافذة، أمكن رؤية عشرات شتلات دوار الشمس وقد تفتحت أزهارها، وحام عليها النحل. سكبت لي كوب ماء، وجلست على حافة سريرها. جلست قبالتها على سرير العمة. فاحت رائحة صابون في الغرفة، حيث عُلّق على ركيزتها صحن كبير من ماركة «الفانوس الأحمر»[1] امتلأ نصفه ماءً، وعلت على وجهه رغوة بيضاء. كان سرير العمة في فوضى عارمة، والأغطية غير مطويّة.

ـ تصرف العمة كل طاقتها في العمل.

ـ هذا صحيح.

ـ يراودني شعور بأنني أعيش حلمًا.

ـ وأنا أيضًا.

ـ هل أنتِ على علم بما حصل مع وانغ الكبد؟ كتب لكِ أكثر من خمسمئة رسالة.

ـ سمعت العمّة تتحدث في الأمر.

ـ وما رأيك في الموضوع؟

ـ لا شيء.

ـ في ما يتعلق بي، هذا زواجي الثاني، ولديّ ابنة أيضًا، ألا يزعجكِ الأمر؟

ـ كلا.

ـ ألا يُفترض أن أتحدث بالأمر مع عائلتك؟

---

(١) اسم ماركة تجارية يتضمن من دون شك تلميحًا إلى الأوبرا الثورية الرائجة خلال الثورة الثقافية.

ـ لا عائلة لي.

... ركبنا دراجتي الهوائية للذهاب إلى دوائر الكومونة الشعبية. رُصِفَت الطريق حديثًا بقطع الآجر والقرميد، فنطت الدراجة، وعجزتُ عن السيطرة عليها. جَلَسَت على مشبك الأمتعة، وأَسندت كتفيها إلى ظهري، فشعرت بوزنها. بعض الأشخاص يسهل نقلهم، والبعض الآخر أقل. انتمت وانغ رينمي إلى الفئة الأولى، فيما كانت الأسد الصغير من الفئة الثانية. دوَّستُ بكامل قوتي. انقطعت السلسلة. طرق قلبي: «بوم!»: ذلك نذير شؤم! أيُعقل ألّا أشيخ معها أيضًا؟

وقعت السلسلة على الأرض، أشبه بثعبان ميت. حملتها ونظرت حولي، من دون أن أعلم ما يجب أن أفعل. امتدّت على جانبي الطريق حقول الذرة، وكانت بعض النسوة يرششن مبيدات الحشرات. ذكّرني صوت البخاخات بصفارة الإنذار من هجوم جوي. غطت النساء أكتافهن بأردية بلاستيكية، وضعن أقنعة على أفواههن، ولففن شعرهن بمناديل. كان عملًا غير إنساني، وعلى الرغم من ذلك، أعطت طبقات الضباب المتصاعدة من بساتين الذرة ذات الأخضر اليشمي نفحة شعرية لمشهد العناء العسير ذلك، وخُيِّل إليَّ كأننا نسير في السماء، وسط الغيوم.

تذكرتُ وانغ رينمي. كانت شجاعةً، لم تخف من التقاط الثعابين بيديها. كانت تمسكها من ذنبها، كما أفعل بالسلسلة. رشَّت هي أيضًا المبيدات؛ بعد فسخ خطوبتها من كسياو الشفة السُفلى، طُرِدت من المدرسة. كانت تفوح من شعرها رائحة المبيدات القوية. كانت تمزح وتقول لا ضرورة لغسله، إذ يمنع ذلك القمل والذباب والبعوض من الاقتراب منها. حين كانت تغسله، كنت أحملُ إناءً أسكب به الماء على

شعرها من الخلف وهي حانية الرأس، فتضحك، وإن سألتُ لمَ تضحك، كانت تقهقه إلى أن ينقلب الطست. وفيما تذكرت وانغ رينمي، شعرت بالندم.

نظرتُ بطرف عيني إلى الأسد الصغير. ارتدت للمناسبة قميصًا جديدًا بمربّعات حمر وكمّين قصيرين وياقة مقلوبة. زيّنت معصمها ساعة يد إلكترونية تلمع. صحيح أنَّها مكتنزة! دهنت وجهها بمرهم تجميل ذي عطرٍ يسبب الدوار، وبدا أنَّه يخفف من ظهور البثور على وجهها.

كنَّا على بعد كيلومتر ونصف الكيلومتر من دوائر الكومونة الشعبية، فلم يبقَ علينا إلّا السير، ودفع الدراجة.

التقينا خارج بوابة مسالخ الكومونة بشين الأنف، يحمل ابنته على ظهره.

حين رآنا، امتقع وجهه. نظرته جعلتني أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني. استدار وابنته على ظهره. بدا غير راغب نهائيًّا في إيلائي أدنى اهتمام.

«شين الأنف!»، ناديت، على الرغم من ذلك.

«آه! ذلك أنت، ظننت أنَّك شخصية مهمة!»، قال بنبرةٍ لاذعة. رمق الأسد الصغير بنظرة شريرة.

ـ أطلقوا سراحك؟

ـ الصغيرة مريضة، لديها حمى، قال شين الأنف. في الواقع، لم أطلب الخروج، توافر ما لذ وطاب من الأكل والشرب، كان يمكنني البقاء طوال حياتي.

تقدمت الأسد الصغير بكل عطف ومدّت يدها لجس جبهة شين الأذن.

تراجع شين الأنف، محاولًا تجنبها.

ـ يجب نقلها بسرعة إلى المستشفى لتأخذ حقنة، قالت الأسد الصغير، حرارتها ٣٩ على الأقل.

ـ آه، لأنَّ ما تتحدثين عنه مستشفى؟، وأضاف بغضب شديد: «ذلك مسلخ، نعم!».

ـ أعرف أنَّك تكرهنا، أجابت الأسد الصغير، ولكنْ نحن لا يمكننا شيء.

ـ كيف ذلك، لا يمكنكم شيء؟ قال شين الأنف، مع أنَّ الوسائل لا تنقصكم!

ـ شين الأنف، قلت، لا تتصرّف كالأطفال. هيا معي، سأرافقك.

ـ شكرًا يا صديقي، ردَّ متهكّمًا، لا أريدك أن تتأخر عن الحدث السعيد.

ـ شين الأنف... كيف يمكنني أن أشرح لك؟

ـ لا تشرح شيئًا. كنت أظن أنك بشري، حاليًا، أعرف أنك لست كذلك.

ـ لك الحرية في قول ما تريد! دسست بضع أوراق مالية في جيبه، وأضفت: «خذ الطفلة سريعًا إلى المستشفى».

حرر شين الأنف إحدى يديه، سحب المال من جيبه ورماه أرضًا قائلًا: «تنبعث من مالك رائحة دم كريهة».

ابنته على ظهره، انصرف مرفوع الرأس.

بقيت في مكاني، مصدومًا، أرقبه يبتعد شيئًا فشيئًا. انحنيت، لممت المال، ووضعته في جيبي.

«لديه أحكام مسبقة كثيرة ضدكم»، قلت، ناظرًا إلى الأسد الصغير.

ـ عليه أن يحاسب نفسه أوَّلًا، ردت الأسد الصغير بحدة، هل لدينا أحد نُسرّ إليه كل تلك المرارة التي تسكننا؟

عادةً، لإتمام إجراءات تسجيل الزواج، يجب تقديم رسالة توصية من الجيش، لكن لو المجدور، الملحق في القضايا المدنية، قال لي مبتسمًا إن ذلك غير ضروري: «أعلمتني عمتك بالأمر. وان الخبب الوئيد، ابني في كتيبتك منذ عامين، إنَّه ولد ذكي، يتعلَّم درسه بسرعة، عليك أن تساعده قليلًا!».

لحظة خَتْم القيد ببصمتي، ترددت قليلًا. تذكرت مشهد تسجيل زواجي مع وانغ رينمي. كان السجل نفسه، والمكتب نفسه، ولو المجدور نفسه. ختمت آنذاك بالحبر الأحمر بسبابتي، فقالت وانغ رينمي مدهوشةً فرحةً: «آه! إنَّها دوائر!...». نظر إليَّ لو المجدور، ثمّ حدق بحنان بالأسد الصغير وقال: «وان القدم، بُنَيّ، أنت محظوظ جدًّا، تتزوج أجمل شابة في الكومونة الشعبية!...». أشار إلى السجل وقال: «هيا، ابصم! ما بالك تتردد؟».

بدت عبارات لو المجدور تهكّمية ـ كانت فعلًا كذلك، تبًّا إذًا، كما يشاء. حسنًا، سأبصم، من دون تردد! قلتُ في نفسي إن أمورًا كثيرة في الحياة يخطها لنا القدر. فبدلًا من السير في القارب عكس التيار، الأجدى أن نتركه ينساب مع مجرى المياه، ومن ثَمَّ، عند الحد الذي بلغته الأمور، إن لم أبصم، أفلن يكون ذلك خداعًا بحق الأسد الصغير؟ سبق أن آذيت امرأةً، ولا يمكنني أن أعاود الكرة.

٦

اعتقدت في تلك الفترة أن العمة منهمكة في تحضير زواجنا وأنَّها نسيت وانغ المرّة الصفراء. وظننت كذلك أن العطف والرحمة مسّا قلب العمة، وبحجة الاهتمام بزواجنا، تدع الزمن يمر لتسمح بولادة الطفل الذي تحمله وانغ الصفراء. لكنّني أدركت لاحقًا أن تفاني العمة للقضية التي تناضل من أجلها بلغ حد الجنون. لم تنقصها الشجاعة ولا الخطط، وقد سيطرت على الوضع تمامًا. يجب عدم الشك في حسن نية العمة في دور الوساطة الذي أدّته في زواجي بالأسد الصغير، وَجَدَت فعلًا أننا خلقنا لنكونَ معًا. لكنَّ ذلك لا ينفي حقيقة أنَّ أبهة الاحتفال بذلك الزواج، وإطلاق سراح شين الأنف وابنته، ودعوتها الملزمة جميع أهل القرية إلى عدم البحث عن وانغ المرّة الصفراء، كل ذلك لم يكن إلّا غطاءً دخانيًّا لتخفيف احتراس الأخيرة ومَنْ يخبّئها. أرادت أن تصيب عصفورين بحجر واحد، وكانت الخاتمة التي أمَلَت: تزويج تلميذتها المفضلة التي تعدُّها بمثابة ابنتها بابن أخيها ليكون لها ملاذًا، و«اعتقال ومحاكمة» وانغ المرّة الصفراء وإجهاض الطفل الذي تحمل قبل أن «يخرج من عنق الزجاجة» ـ وصف عمل العمة بهذه العبارات غير لائق ربما، لكنني لم أجد كلمات مناسبة أكثر لأفعل.

صباح اليوم الذي سبق الاحتفال بالزواج، ووفقًا لعادة قديمة، زرت قبر والدتي لإحراق «مال السعادة»، وتلك على الأرجح وسيلة لإعلام روح المرحومة بزواجي ودعوتها للمشاركة في الاحتفالات. حين احترقت ورقة المال تمامًا، تشكّلت زوبعة صغيرة، حملت الرماد ودارت فوق القبر. كنت أعلم طبعًا أن تلك ظاهرة طبيعية يمكن تفسيرها، لكنَّ

ذلك لم يمنعني من الشعور بخوف لا مثيل له. تراءت لي مرتجّةً صورة والدتي، طنّت في أذني عباراتها التي تفيض ذكاءً وصدقًا، العميقة المعنى، فسالت دموعي على رغمي. لو استطاعت أمي الكلام، فأيّ رأيٍ تُبدي بذلك الزواج؟

بعد أن حامت الزوبعة قليلًا فوق القبر، غيَّرت مسارها فجأةً واتجهت نحو قبر وانغ رينمي حيث اخضوضر العشب البري. في تلك اللحظة، أطلقت صفارية على غصن شجرة دراق زقزقة حزينة، حادةً، تدمي القلب. في بستان الدراق الممتد نحو الأفق، نضجت الفاكهة. كان قبرا والدتي ووانغ رينمي يقعان في قطعة أرضنا. قطفت دراقتين كبيرتين حمراوين، وضعت إحداهما قربانًا أمام قبر والدتي، وحملت الأخرى، متجاوزًا بضع أشجار، ثم وقفت أمام قبر وانغ رينمي. قبل أن آتي، قال لي والدي: «حين تحرق المال، لا تنسَ أن تُشعل القليل أمام قبرها، هي...». «لم يتسنَّ لي الوقت، قلتُ سرًّا في قلبي، وانغ رينمي، لو تعلمين كم أشعر بأنني مذنب، لكنني لن أنساكِ أبدًا، لن أنسى حسناتك. مقتنع أنا بأنّ الأسد الصغير امرأة عطوفة، ستتصرف بلطفٍ مع يانيان، وإذا بدا لاحقًا أنَّها عكس ذلك، فلن أبقى معها...». أحرقت المال أمام قبرها، وصعدت من ثمَّ على الركام الذي يعلوه لأضع مالًا تحت إحدى الأحجار. قدَّمت أخيرًا الدراقة. «وانغ رينمي، أضفت، أعلم أن الأمر لن يعجبك، لكنني أدعوك بكل صدق لتأتي برفقة والدتي إلى المنزل للاحتفاء بزفافي؛ سأضع قرابين على الطاولة في الغرفة، أربعة أرغفة طازجة، وعدّة أطباق، والشوكولاتة المحشوّة بالخمور العذبة التي حسبتِ في المرة الأولى التي ذقتها فيها أنها دواء، وأولعت بها لاحقًا. ما أعظم الأموات، لو تذوقتِ تلك التقدمات!».

في طريق العودة بعد زيارة القبرين تلك، وصلت الأعشاب على حافتي الدرب إلى أعلى من ركبتي، وامتلأت قنوات الريّ بمياه الأمطار. امتدّت بساتين الدراق على جانبي الطريق، جنوبًا حتى ضفة نهر مو، وشمالًا وصولًا إلى نهر جياو. بين الأشجار، قطف المزارعون الفاكهة، وعلى الطريق العريض إلى البعيد، سارت الجرارات بسرعة الريح.

وقف وانغ الكبد هنالك، أمامي، وكأنه ظهر من باطن الأرض، وقطع عليّ طريقي. ارتدى بزة عسكرية لا تبدو جديدة، تذكرت أنني أعطيته إيّاها العام الماضي، خرج من عند الحلاق، فَرَق شعره على جانبٍ، وحلق ذقنه. ما زال نحيلًا على عادته، لكنَّه يبدو أكثر انفتاحًا من ذي قبل، انتهينا من ذلك المظهر المهمل والوَهَن اللذين تميز بهما. واساني قليلًا أن أراه في وضع نفسي أفضل، لكنَّ ذلك لم يمنعني من الشعور بالحرج.

ـ وانغ الكبد، بدأت، في الواقع...

أومأ بيده وضحك، مظهرًا أسنانًا صفراء، وقال: «الخبب الوئيد، لا عليك، لا تشرح شيئًا، أفهمك تمامًا. أتمنى لك كل السعادة الممكنة».

«صديقي العزيز...»، عصفت بي آلاف الأحاسيس، مددت يدي لأسلّم عليه.

ارتدّ خطوة وقال: «أشعر كأنني خارج من حلم. ما يسمّونه «حبًا»، هو في الواقع مرض عضال، وقد شُفيت منه شفاءً شبه تام».

ـ عظيم، أجبت، الأسد الصغير ليست المرأة التي تناسبك، حين تتمالك نفسك، ستقوم بأعمال مهمة كما في الماضي، وآنذاك، ستختار شابة مميزة.

ـ لستُ إلّا حطامًا، ردَّ وانغ الكبد، جئت أقدّم لك اعتذاري. ألم تلحظ الرماد أمام قبر وانغ رينمي؟ أحرقت أوراقًا مالية هناك. لقد خنت يوان الخدّ الذي ألقي في السجن مكبّلًا، ولذا لقيت وانغ رينمي والطفل حتفهما. أنا قاتل.

ـ لا يمكننا أبدًا تحميلك مسؤولية كل ذلك! قلت.

ـ حاولت أن أواسي نفسي وأبرر فعلتي بحجج سامية مثل: «الوشاية بالنساء اللواتي يحبلن خارج التخطيط الأسري واجب كل مواطن»، أو: «من أجل الوطن، يمكننا أن نقدّم الواجب على روابط الدم»، ولكن كل تلك العلل الموجبة لم تكن لتعيد السلام إلى روحي، فضميري ليس على هذا المستوى الرفيع، تصرفت بدافع من رغباتي الأنانيّة، أردت أن أنال حظوة في عين الأسد الصغير. عانيت الأرق، لم أكن أكاد أغمض عينيّ حتى أرى وانغ رينمي ترفع يديها المضرّجتين بالدماء لتقتلع قلبي... أخشى أن الأيام المهمّة التي سأعيشها في حياتي باتت محدودة...

ـ وانغ الكبد، أنتَ تفكر كثيرًا، قلت، لم ترتكب سوءًا، ويجب ألّا تستسلم للتطيّر، ليس الإنسان إلّا رمادًا يطير ودخانًا يتبدّد... وحتى إن بقيت رينمي حاضرةً روحيًا، فهي لن تزعجك بهذه الطريقة، كانت بريئةً وطيبة القلب.

ـ أجل، ملكت فعلًا قلبًا من ذهب، قال وانغ الكبد، ولهذا السبب ضميري يؤنبني أكثر. الخبب الوئيد، يجب ألّا تتعاطف معي، وألّا تسامحني. أتيتُ اليوم أنتظرك لأطلب منك أمرًا فحسب...

ـ اطلب ما تشاء يا صديقي.

ـ أريدك أن تقول للأسد الصغير، لتُعلِمَ عمتك، إنّه في ذلك النهار، حين خرجت وانغ المرّة الصفراء من البئر، أتت إليَّ. نهايةً، إنَّها أختي، تلك المرأة المنمنمة، مع بطنها الضخم، التي رجتني أن أنقذ حياتها وحياة الطفل الذي في أحشائها؛ ولو كان قلبي من حجر، كان يستحيل ألّا أتأثر. خبّأتها في سلة للسماد، وضعت قشًّا على الغطاء، وكيس قنب فوقه. ثبتُّ السلة على مشبك دراجتي الهوائية وخرجت من القرية. صادفت آنذاك كين هي يقوم بدورية، وهو جاسوس عمتك ـ لم تولد عمتك في الحقبة المناسبة، لقد أخطأت اختيار مهنتها، كان عليها أن تقود جيوشًا جرارة، تعلن الحرب على العدو! كان أكثر شخص تمنّيت ألّا أواجهه، لأنَّه كلب صيد عمتك، وكما كان بمقدوري أن أبيع أيّ شخص من أجل الأسد الصغير، باستطاعته أن يفعل الأمر نفسه إرضاءً لعمتك. اعترض طريقي. التقينا في كثير من الأحيان أمام باب مركز العناية، لم نتبادل الكلام يومًا، لكنني عرفت أنَّه يعتبرني سرًّا بمثابة صديق؛ عانينا الألم نفسه، فشعرنا بالمودّة أحدنا تجاه الآخر. عندما هاجمه غاو مين ولو هواهوا أمام مطعم التعاونية، هببت لمساعدته. تقاتل مجانين مقاطعة دونغبي الأربعة، غاو، لو، كين، ووانغ ـ كين يعني كين هي، ووانغ، أي وانغ الكبد ـ في الشارع وسط دائرة من البلهاء الذين تجمعوا وكأنهم يشاهدون عرض سعادين مدربين. يا صديقي، ما لا تعلمه، أنَّ الشخص الذي يُنعت بالجنون وهو ليس كذلك، يكسب في الواقع حرّيةً مطلقة!

... وثبت عن دراجتي وحدقت في عيني كين هي مباشرة.

ـ لا بدّ من أنك ذاهب إلى السوق لبيع خنزير.

ـ نعم، تلك هي الحقيقة، سأبيع خنزيرًا.

ـ في الواقع، لم أرَ شيئًا.

تركني أمُرّ. تفاهم المجنونان من دون كثرة كلام.

ـ أرجوكَ أن تُعْلِم الأسد الصغير أنني أخذت أختي إلى جياوزهو، هنالك، جعلتها تستقل باصًا متجهًا إلى يانتي، وأشرت عليها متى وصلت إلى هناك، أن تذهب بسفينة إلى داليان، ومن هناك أيضًا، أن تركب القطار إلى هربين. كما تعلم، والدة شين الأنف أصلها من تلك المنطقة، ولديهم أقارب هناك. حملت وانغ المرة الصفراء ما يكفي من المال، تعلمون جميعًا مستوى دهائها، وكم شين الأنف قدير، لقد تحضرا للأمر طويلًا. حصل ذلك قبل ثلاثة عشر يومًا، ووصلت وانغ المرة الصفراء من أمد طويل إلى حيث يجب أن تكون. مهما طال ذراع عمتك، فلن تلمس السماء. نفوذها كبير ضمن نطاق كومونتنا الشعبية، ولكن ذلك لا ينطبق في مكانٍ آخر. وانغ المرة الصفراء في شهرها السابع، وإلى أن تجدها عمتك، تكون قد ولدت الطفل. لذا، قل لعمتك أن تتخلى عن فكرتها.

ـ ما دامت الأمور على هذه الحال، فلمَ عليَّ أن أعلمهما؟ سألت.

ـ هي وسيلة لأنقذ نفسي، أجاب وانغ الكبد، وتلك الخدمة الوحيدة التي أطلبها منك.

ـ اتفقنا، قلت.

٧

لا أملك ذرّة إرادة.

عاهدت نفسي أن أبقى جالسًا طوال ليل زواجي بالأسد الصغير إلى طلوع الفجر أمام الشموع الحمر، لأثبت أنَّني أحفظ ذكرى وانغ

رينمي وأتحسَّر عليها، ولكنْ قبل أن ينقضي منتصف الليل، كنت في أحضان زوجتي الجديدة.

يوم زواجي بوانغ رينمي، جاد الغيث. أمّا في يوم زواجي بالأسد الصغير، فقد هبّت العاصفة: أبرقت تكرارًا وميضًا خاطفًا يُعمي البصر، تلاه هزيم رعد يصمّ الآذان وسيول من الأمطار. تصاعد من كل صوب خرير المياه، وهبّ هواء رطب، تسلل من شعرية النافذة، فعبقت غرفتنا برائحة التراب والفواكه العفنة. كانت الشموع الحمر شبه مستنفدة، تراقصت شعلتها إلى أن انطفأت. شعرت بالخوف. طالت رجّة أحد البروق بضع ثوانٍ، وفي تلك اللحظة، رأيت عيني الأسد الصغير اللامعتين. بدا وجهها على ضوء البرق من ذهب. قصف الرعد آنذاك، كان الصوت قريبًا جدًّا وكأنه صادر من الفناء، تبعته رائحة حريق خانقة. صرخت الأسد الصغير ذعرًا، وتعانقنا.

بدايةً، ظننت أنَّها يقطينة قاسية، مَنْ كان يظن أنَّها مثل الببايا. ببايا مكتنزة، مدرارة، تطلق عصيرها عند أي لمسة. كل ما فيها يشبه الببايا: بنيتها، بشرتها، عطرها المسكر. مقارنة الزوجة الجديدة بالقديمة ليست أمرًا لطيفًا، حاولت أن ألجم الأفكار العديمة الفائدة تلك، فما استطعت. حين اتّحد جسدانا، تلاحم قلبانا.

وتفوّهت بتلك الجُملة الشائنة: «الأسد، أجد أننا نشكل زوجين، انطباع لم يراودني بهذه القوة مع وانغ رينمي».

كممت فمي بيدها قائلةً: «يجب عدم لفظ بعض العبارات».

ـ طلب مني وانغ الكبد أن أبلغك أنَّه رافق وانغ المرة الصفراء قبل ثلاثة عشر يومًا إلى جياوزو، حيث استقلت باصًا إلى يانتي، وتوجهت من هناك إلى شمال شرق البلاد.

استدارت الأسد الصغير على نفسها، جلست، وأضاء برق آخر سحنتها. انقبض وجهها الطافح حبًّا، وقست تقاسيمها. عانقتني، تمددت بقربي مجددًا، وهمست في أذني: «إنَّه يكذب، مستبعد أن تكون وانغ المرة الصفراء ابتعدت إلى هذا الحد».

ـ حسنًا...، قلت، هل تنوون تركها وشأنها؟

ـ آه، ما يمكن أن أقوله لا وزن له، يجب أن نرى ما تريد العمة أن تفعل.

ـ هل تتركها بحالها؟

ـ أستبعد ذلك، وإلّا لما كانت العمة.

ـ إذًا، لِمَ لمْ تباشر فرقكم التحرك؟ وكأنكم لا تعلمون أنَّها حامل بشهرها السابع؟

ـ ليست العمة في حالة انتظار أو توقع، لديها عدة جواسيس يحققون في الظل.

ـ ووجدتم شيئًا؟

ـ امممممم... تردّدت قليلًا، ألصقت وجهها بصدري، وتابعت: «لن أخفيك أمرًا، إنَّها عند جدَّة يانيان لأمّها، في الحفرة نفسها التي اختبأت فيها وانغ رينمي».

ـ وعلامَ عزمتم؟

ـ سأقوم بما تمليه عليّ العمة.

ـ وما الذي ستقوم به؟ هل تستخدم الأسلوب القديم نفسه؟

ـ ليست مغفلة إلى هذا الحد.

ـ إذًا؟

ـ أرسلت من يبلغ شان الأنف بأننا نعلم أنَّ وانغ المرة الصفراء تختبئ عند آل وانغ ليُعلِمهم أننا سنقصدهم غدًا مع الجرار الزاحف لندكَّ منزلهم وبيوت جيرانهم إن لم يسلموها.

ـ جدُّ يانيان عنيد، إذا تشبث برأيه، فهل تهدمون منزله فعلًا؟

ـ لا تقصد العمة أن يسلّم آل وانغ، وانغ المرَّة الصفراء، بل أن يصطحبها شين الأنف بنفسه، ووعدته إن رافق زوجته لتجهض، أن تُعاد إليه كل أمواله. نتكلم عن ثمانية وثلاثين ألف يوان، والعمّة مقتنعة بأنَّ الأمر لن يتركه غير مبالٍ.

قلت متحسرًا: «لم تلك الرغبة في الإبادة؟ لقد دفعتم وانغ رينمي إلى الموت، ألا يكفي ذلك؟».

ـ وانغ رينمي جلبت المصيبة لنفسها، قالت بنبرة باردة.

ووجدت فجأةً أن جسدها غدا باردًا قدر عباراتها.

٨

استمر الطقس عاصفًا، قُطعت الطرق، ارتفع منسوب مياه الأنهار فجأةً، ولم تأتِ أيّ سيارة من الأقضية المجاورة لشراء دراق كانتون دونغبي السكري اللذيذ.

قطفت كل عائلة فاكهتها، بعضها عُبئ في سلال مشكلًا مثل تلال صغيرة مغطاة بخيم من البلاستيك لحمايتها، والبعض الآخر تكدّس في الأفنية معرَّضًا للأمطار التي تضربه وتبلله.

تلك الدراقات السكرية الغنية بالعصير يصعب حفظها. في الأعوام السابقة، أتت شاحنات الزبائن مباشرةً إلى البساتين ونُقِلت الفاكهة إليها توًّا بعد قطفها ووزنها؛ ولم يوفّر السائقون جهدًا في القيادة حتى ليلًا لتصل فجرًا إلى القرى البعيدة التي تقع على مسافة خمسمئة كيلومتر.

ولكنْ يبدو أن السماء هذا العام أرادت معاقبة حسن الحظ الذي عرفه مزارعو الأشجار لسنوات متتالية: مذ نضجت الثمار، لم يصحُ الطقس يومًا واحدًا كاملًا، وتوالى المطر، خفيفًا حينًا، قويًّا أحيانًا، غزيرًا أحايين. إن لم تُقطَف الداراقات، فستفسد على الشجر. بقطفها، قد يتوافر أمل ضئيل: إذا صفا الطقس، فلن يبقى على المزارعين إلّا تحميلها بالشاحنات وإرسالها سريعًا. لكنَّ السماء لم تبشّر بأيّ تحسّن قريب.

لم تزرع عائلتي إلا ثلاثين شجرة ـ وبما أنَّ والدي تقدَّم في السن، لم يعتنِ بها قط ـ أثمرت قليلًا، وعلى الرغم من ذلك، بلغ المحصول حوالى ستة آلاف ليبرة. لم نملك سلالًا كثيرة، ملأنا ست عشرة منها فقط، وضعناها في الغرفة الجانبية، وكدّسنا ما بقي من الثمار في الفناء وغطّيناه بخيمة بلاستيكية. خرج والدي أحيانًا كثيرة، متحدّيًا المطر، رفع الغطاء، تناول درّاقة وتفحّصها. كلّما فعل ذلك، فاحت رائحة العفونة.

بما أنني والأسد الصغير عروسان جديدان، اهتم والدي بابنتي. حين كان يخرج إلى الفناء تحت المطر، كانت تتبعه بسرعة، تحمل مظلة صغيرة طُبعت عليها صور حيوانات كثيرة.

كانت ابنتي باردة جدًّا تجاهنا، لكنَّها تصرّفت معنا بتهذيب. حين كانت الأسد الصغير تقدّم لها السكاكر، كانت ترفض أن تأخذها، مخبّئةً يديها الصغيرتين وراء ظهرها، ومع ذلك تقول: «شكرًا خالتي».

قلتُ لها يومًا: «ناديها أمي».

جحظت عينا الصغيرة ونظرت إليَّ بتعجب.

تدخلت الأسد الصغير: «لا يجب عليك قول «خالتي» أو «أمّي» أو أيّ شيء آخر. يناديني الجميع بالأسد الصغير ـ وأشارت إلى الصورة على المظلة، يمكنك تسميتي الأسد الكبير».

ـ هل تأكلين الأطفال الصغار؟ سألت ابنتي.

ـ كلا، أجابت الأسد الصغير، أهتمّ خصوصًا بحمايتهم.

جلب والدي في قبّعة من الخيزران بعض الدراقات التي تعفن أحد جوانبها، تنهّد بحسرة، وقطع الجزء الفاسد منها بسكين صدئ.

ـ الأفضل أكل الجيدة منها، قلت.

ـ لكنَّ ذلك يمثّل مالًا! قال أبي، ما عادت السماء حتى تشفق على الشعب.

ـ أبي... ـ وقد آثرت الأسد الصغير أخيرًا مناداته بهذه الطريقة، وبدا الأمر متكلفًا بشكلٍ مثير للإزعاج ـ لا يمكن أن تبقى السلطات غير مبالية، لا بدّ من أنها تنشط لإيجاد حلول.

ـ لا تعرف السلطات إلّا أمرًا واحدًا: التخطيط الأُسري، وكأنها تهتم بالباقي! قال والدي، بشيء من الضغينة.

في تلك اللحظة بالذات، طنّ مكبر صوت لجنة الحزب في القرية. والدي الذي خشي ألّا يسمع جيدًا، ركض إلى الفناء وأصغى.

بث مكبر الصوت معلومةً تشير إلى أن الكومونة الشعبية أجرت اتصالات مع كينغداو ويانتي ومدن أُخرى. وقد أرسلت تلك قوافل تجمعت على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من القرية، وتنتظر على

رصيف جسر عائلة وو لشراء دراق كانتون دونغبي. أطلقت الكومونة الشعبية نداءً إلى السكان لنقل الدراق برًّا أو عن طريق النهر إلى ذلك الرصيف حيث سيباع بسعرٍ أدنى من العام السابق، ولكنَّ ذلك أفضل من ترك الثمار تنتن لتغدو وَحْلًا.

ما إن انتهى الإعلان، حتى بدأ الغليان. كنت أعرف أن ذلك الهيجان ليس حكرًا على قريتنا فحسب، بل يطال الكانتون بأسره.

لدينا نهر بالطبع، لكنَّ السفن قليلة. أصلًا، كانت كل وحدة إنتاج تملك بعض القوارب الخشبية، ومنذ إنشاء نظام حصص الإنتاج الزراعي لكل أُسرة، لم نعرف أين اختفت.

والقول إن الكتل الشعبية تملك قدرة خلاقة لامتناهية كلامٌ محق. ركض والدي إلى الغرفة الجانبية، أخذ عن الدعائم أربع يقطينات، حمل على كتفه أربعة ألواح خشبيّة للبناء، جلب حبلًا، وفي الفناء صنع من كل ما تقدّم عوّامة.

خلعت ملابسي، محتفظًا بثيابي الداخلية، وساعدته في مهمته. حمتني الأسد الصغير بمظلة. فتحت ابنتي مظلتها وركضت في كل اتجاه. أشرت على الأسد الصغير بأن تقي والدي من المطر، فرفض مؤكدًا أن لا ضرورة لذلك. غطى كتفيه بقماش بلاستيكي، وكان مكشوف الرأس، فانساب العرق الممزوج بمياه المطر على وجهه. الفلّاح المسنّ مثله يمكنه أن ينصرف تمامًا إلى عمله، أدّت يداه المهمّة بقوة ودقة، من دون أن تأتيا بأيّ حركة زائدة. جهز الطوف سريعًا.

حين خرجنا من الفناء، لاحظنا أن حماسة غير عادية تسود على السد. ظهرت فجأة القوارب الخشبية التي كانت مختفية. وفي الوقت

نفسه، أُنزِلت إلى المياه عشرات الأطواف المصنوعة من اليقطين، والأطر الداخلية لعربات الخيل المنفوخة جيدًا، وكذلك من أغطية بلاستيكية بيضاء مربوطة معًا. لم أعرف مَن امتلك حوضًا خشبيًّا كبيرًا لغسل الثياب. رُبِطت القوارب والعوامات إلى صفصافات السد بحبال. تهافت من كل الأزقة أشخاص يحملون سلال الدراق على أكتافهم.

الذين يملكون حميرًا وبغالًا حملوا على ظهور الحيوانات سلالًا مليئة بالثمار. واصطفت بذلك عشرات الدواب على السد.

أحد موظفي الكومونة الذي وصل سباحةً، تقطعت أنفاسه، ووقف على السد؛ ارتدى مشمعًا، رفع ساقي سرواله، وحمل خُفَّيْه تحت إبطه.

رأيت أمام زورق الإنقاذ طوفًا آخر مصنوعًا بأناقة ودقة. جُمعت أربع خشبات بناء سميكة بواسطة قدد من جلد الثور مشكّلة الكلمة التي تعني بئرًا. المساحة الفارغة في الوسط سدَّتها قطع حطب مستديرة صُفَّت بعناية، توازي بحجمها مقبض مشذب صغير، وعُلّقت تحت الطوف أربعة أطر داخلية حمراء، منفوخة تمامًا، تُستخدم لعربات الخيل. وعلى الرغم من أن القارب حُمّل بعشرات سلال الفاكهة، لم يغطس في الماء إلّا قليلًا، ومن الواضح أنَّ قوة الدفع التي تمارسها تلك الأطر المنفوخة جيدًا كبيرة. على جوانب الطوف الأربعة وفي وسطه، ثُبتت عموديًّا خمس قطع خشب مُدَّ عليها شادر أزرق اللون للاتقاء من الشمس، والمطر طبعًا. عوامةٌ كتلك، لا يمكن صنعها في وقت قصير.

جلس وانغ القدم القرفصاء في مقدمة المركب، مرتديًا شالًا من نبات الأسل وقبّعة من الخيزران المجدول، وكأنه صياد يصطاد الأسماك.

لم يحمل طوفنا إلّا ست سلال، وعلى الرغم من ذلك، غطس عميقًا في الماء. أصرَّ والدي على تحميل سلتين إضافيتين، فقلت له: «يمكننا فعل ذلك، شرط ألّا ترافقني، سأقود الطوف بنفسي».

ولا بدّ لأنني عريس جديد، أصرّ والدي على أن يذهب وحيدًا. قلت له: «أبي، لا تعاند. انظر إلى الجمع حولك على السد، هل هنالك من في سنك يستعد لقيادة طوف؟».

قال والدي: «حسنًا، ولكنْ كن حذرًا».

فأجبت: «لا تخشَ شيئًا، لا أملك مواهب كثيرة، لكنني أعرف على الأقلّ أن أسبح.

ـ إذا اشتدّت الريح وعلا الموج، يجب تخفيف حمولة المركب.

ـ لا تخشَ شيئًا، كرّرت.

أومأت بيدي للأسد الصغير الواقفة على الضفة، تُمسك ابنتي.

ردّت بالمثل.

فكَّ والدي الحبل المربوط إلى الشجرة وقذفه نحوي.

التقطته، لففته، تناولت القضيب الطويل، سندته إلى السد، ودفعت الطوف بكل قواي، فتحرّك المركب ببطء.

ـ كن حذرًا!

ـ انتبه جيدًا!

وجّهت القارب، محاذيًا السد، فسار بطيئًا مع التيار.

تقدّمت الحمير والبغال على السد بالسرعة نفسها. جعلت أحمالها الثقيلة سيرها صعبًا.

حلا لبعض الملاكين أن يعلقوا في أعناق دوابّهم أجراسًا صغيرة، فراحت ترنّ من دون انقطاع. تبع المسنون والأطفال الموكب لمسافة قصيرة، وحين اجتاز القرية، توقفوا.

كان النهر، عند تلك النقطة، ينعطف فجأة، فدخلت القوارب والأطواف في المجرى السريع. وانغ القدم الذي سار أمامي بمركبه، لم يتبع التيار، بل توجّه نحو المياه الهادئة عند منعطف النهر. نبتت على السد هناك شجيرات شديدة الخصب، علت على أغصانها صرصرات الزيزان الكثيرة. مذ رأيت طوف وانغ القدم الفخم، أنبأني حدسي بحدث وشيك. في الواقع، رمى والد صديقي سلال الفاكهة الخالية من الدراق، فعامت على سطح الماء، وتسلل بمركبه بين العوسجات حيث شاهدت شين الأنف الضخم يقفز إلى الطوف، حاملًا وانغ المرة الصفراء وبطنها الكبير. قفز وراءه وانغ الكبد حاملًا شين الأذن.

توًّا، أغلقوا الشادر البلاستيكي ليشكل خيمة. بدا وانغ القدم، مع القضيب الطويل بيده، كأنه استعاد سلوكه القتالي القديم، يوم كان يقف على عريش عربة الخيل، السياط بيده، ينهر الجواد ليسير. كان مظهره مهيبًا. استقام كحرف «الألف»، شمخ بوقفته، وهذا يثبت قول العمة: ظهره المنحني مجرد خدعة. ثم، وراء الزعم عن «قطع العلاقات بين الأب والابن»، لم يكن ذلك سوى رد فعل ناجم عن الغضب، إذ في ذلك الظرف الحاسم الذي يتطلب مواجهةً، لا بد من اتحاد قوة الأب والابن. ومهما قيل، دعوتُ من أعماق قلبي أن تشملهم السماء برعايتها، وأملت أن يسمح لهم الفرار بإيصال وانغ المرّة الصفراء إلى برّ الأمان. وحين تذكرت طبعًا كل الخطط التي وضعتها العمة، شعرت بشيء من الحسرة.

كانت قوة توازن طوف وانغ القدم كبيرة، وحمله خفيفًا، فتجاوزنا فورًا.

في القرى على ضفتي النهر، أُنزلت إلى المياه القوارب والعوّامات. حين وصلنا إلى قرية دونغفنغ، حيث ضُرِبت العمة على رأسها، تجمّعت مئات الأطواف وعشرات المراكب لتشكّل تنينًا طويلًا ينزل مجرى النهر.

لم أنفك ألاحق بنظري طوف آل وانغ. على الرغم من ابتعاده عنّا، لم يغِب عن مرآي.

من دون أدنى شك، كان الطوف الأكثر غطرسةً في الأسطول الصغير ذاك النهار، كان أشبه بـ «طاغية مفترس»[1] يحاصره موكب سيارات عادية.

لم يكن متغطرسًا فحسب، بل كان غامضًا كذلك. الذين رأوا ما حدث عند منعطف النهر، عرفوا السر الذي تخفيه الخيمة البلاستيكية، الآخرون لم يستطيعوا الامتناع عنِ النظر خلسةً، وقد غزتهم الحيرة. من أيّ زاوية نُظِر إلى المسألة، لم يشكّل الدراق حمولة الطوف.

وإذ أعيد التفكير بالأمر اليوم، حين وصل مركب العمة المخصص للتخطيط الأُسري وتجاوزنا بأقصى سرعة، شعرت بإثارة فوق نطاق العقل.

لم يكن المركب هو ذلك القارب ذا المحرك، المبنيّ ممّا تيسّر، الذي عهدناه في السبعينيات، بل هو سفينة سريعة، حديثة الطراز، قشدية اللون. على مقدمة المقصورة نصف المفتوحة، ارتفع زجاج عضوي

---

(١) المقصود هنا «٠٧ بريداتور ج. ٦٠»، سيارة الدفع الرباعي التي صنعتها شركة هامر واستُخدمت في تصوير الأفلام السينمائية.

شفّاف، وكان قبطان السفينة الجديدة الخالد كين هي، والفارق الوحيد في ما يتعلق به، هو شعره الأشيب. وقفت العمة وزوجتي الجديدة الأسد الصغير خلف المقصورة، استندتا إلى درابزون السفينة، وردَّ الهواء ملابسهما إلى الوراء. رأيت ثديي الأسد الصغير، أشبه ببالونين، فانتابتني في تلك اللحظة مشاعر مختلفة. جلس خلفهما أربعة رجال، وجهًا لوجه، على صفي المقاعد الموضوعة على جانبي حاجز السفينة. الزبد الذي أحدثه مرور مركبهم رشّ أطوافنا، وارتداد الأمواج جعلنا نترجح. كنت متأكدًا من أن الأسد الصغير رأتني، وقد لامست سفينتهم عوامتي، مع ذلك لم تومئ لي ولو بإشارة، وبدت مَن تزوّجتها إنسانة أُخرى. انتابني إحساس مجنون بأن كل ما حصل لم يكن إلّا حلمًا. برودة الأسد الصغير جعلتني أميل إلى الهاربين: وانغ المرّة الصفراء، أسرعي بالفرار! وانغ القدم، استخدم عصاك بسرعة!

شقّت سفينة العمة طريقها بين موكب الأطواف لتنقض على مركب آل وانغ الذي انحرف عنا إلى اليمين، وسار مع التيار أمامنا، وحيدًا. لم تتجاوز السفينة الطوف، بل تقدمت لتحاذيه، خففت سرعتها، ولم يعد يُسمع صوت محركها. كانت على مسافة مترين أو ثلاثة أمتار من الطوف. استمرت تدنو منه، وبدا جليًا أنّها الوسيلة لإجباره على الاقتراب من السد. أسند وانغ القدم العصا على حاجز السفينة، ظنًا منه أنه سيُبعد الخطر بهذه الطريقة، لكنَّ الطوف، بفعل انعدام توازن القوى، دُفع شيئًا فشيئًا إلى الخروج من مجرى التيار المركزي.

أخذ أحد رجال السفينة شنكلًا، صوَّب نحو شادر الطوف البلاستيكي، وشدَّ بقوة. تمزق الشادر دفعةً واحدة. كرر حركته مرات عدة، فصار الطوف مكشوفًا.

ضرب وانغ القدم رجال السفينة بالعصا التي يحملها. ردَّ هؤلاء الضربات بعصيّهم. في تلك الأثناء، جلس وانغ الكبد وشين الأنف على جانبي الطوف، وبواسطة مجذافين خشبين، جذّفا بكل ما أوتيا من قوة. بينهما، جلست وانغ المرّة الصفراء، تلك المرأة المنمنمة؛ بذراعها اليسرى، غمرت شين الأذن التي خبّأت وجهها تحت إبط أمّها، ووضعت يدها اليمنى على بطنها الكبير الأشبه بكرة ضخمة. بين أصوات العصي المتضاربة، وصفق الموج، سُمع أحيانًا صراخها الحاد: «يا عمة، أسدي لنا خدمةً، أفسحي لنا طريقًا للنجاة!».

وفيما ابتعد الطواف تدريجًا عن السفينة، عبّأت الأسد الصغير كامل طاقاتها وقفزت باتجاهه، و«بلوف!»، وقعت في النهر. لم تكن تجيد السباحة، فغرقت. صرخت العمة طلبًا للنجدة. في الوقت نفسه، انكب شين الأنف ووانغ الكبد على مجذافيهما، وعاد الطواف إلى السير في التيار.

استغرق إنقاذ الأسد الصغير بعض الوقت. مدّ لها أحد الرجال عصا، وبينما حاول رفعها على المتن، تشبثت بقدمه وسحبته إلى المياه. وهو ليس سباحًا ماهرًا كذلك. قفزوا لإنقاذه، لكنَّ كين هي، قبطان السفينة، بدا كأنه نسي تقنية القيادة فجأةً. أطلقت العمة الشتائم وضربت الأرض بقدميها غضبًا. لم يتحرك أحد من أسطول القوارب الخشبية والأطواف لمساعدتهم. لكنَّ الأسد الصغير زوجتي نهايةً، فحاولتُ الاقتراب منها بعوامتي، فقطع عليَّ الطريق مواربةً مركب كان ورائي ونجوت بفارقٍ ضئيل من الارتطام به وانقلاب الطوف. وحين بدأ رأس الأسد الصغير يغوص رويدًا رويدًا تحت الماء، لم أتردد، تركت الدراق والطوف، وَثَبْتُ وغطست في التيار المندفع وسبحت بكل طاقتي متقدّمًا لنجدة زوجتي.

حين قَفَزَت إلى الماء، ارتسمت في ذهني علامة استفهام كبيرة. قالت لي الأسد الصغير لاحقًا، وكأنها تريد أن تؤكد لي مهاراتها، أنَّها شمَّت رائحة الدم، رائحة الدم تلك الخاصة بالمواخض، وأنَّها رأت فعلًا الدماء بين فخذي وانغ المرّة الصفراء. قفزت عمدًا إلى الماء ـ طبعًا، يمكن إعطاء تفسير آخر لفعلها ـ لكسبِ الوقت، مجازِفةً بالقضاء غرقًا. قالت لي إنَّها صلَّت لآلهة النهر: «وانغ المرَّة الصفراء، استفيدي من هذه اللحظة، هيّا، ضعي الطفل سريعًا! يكفي أن يخرج من «عنق الزجاجة» ليُعدَّ إنسانًا، ليكون مواطنًا في جمهورية الصين الشعبية، سيكسب الحماية آنذاك، سيكون زهرة الأمَّة، ومستقبلها!». وأضافت الأسد الصغير: «طبعًا، لم تنطلِ حيلتي الصغيرة على العمة، وكانت جليّة بالنسبة لها».

حين أنقذنا الأسد الصغير وموظف التخطيط الأُسري، كان طوف آل وانغ تجاوزنا بمسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر على الأقل. علاوةً على ذلك، تعطل المحرك، وتصبب كين هي عرقًا محاولًا إصلاحه. استشاطت العمة غضبًا، فيما تقيّأت الأسد الصغير والموظف منحنيَين فوق الماء.

ضربت العمة الأرض بقدميها لحظة، ثمَّ هدأت فجأةً. ارتسمت على ملامحها ابتسامة حزينة. شقَّ الغيمَ آنذاك شعاعُ الشمس، وأنار ذلك الوجه، وسطح الماء حيث تدفقت أمواج معكرة؛ وسط ذلك المشهد، بدت العمة مثل بطلٍ أمام حائط مسدود. جلست على حافة السفينة، وقالت بصوت خافتٍ لكين هي: «كُفَّ عن التظاهر، وذلك ينسحب عليكم جميعًا».

تردّد كين هي لحظات، أدار بعدها فورًا محرّك السفينة. واتجه المركب مثل سهم نحو طوف آل وانغ.

وفيما رَبَتُّ ظهر الأسد الصغير، رَمَقْتُ العمة بنظرات خاطفة، خفضت عينيها حينًا، وابتسمت أحيانًا. بمَ كانت تفكر؟ قلت في نفسي إن العمة في السابعة والأربعين، لم تعد في مقتبل العمر منذ زمن طويل، سلكت حاليًا درب النضج، لكنَّ وجهها الذي أنهكته صروف الدهر، بانت عليه علامات أحزان الشيخوخة. وتذكرت ما كررته أمّي في حياتها: «لمَ تولَد النساء على هذه الأرض؟ في الواقع، كي يلدن. تحظى المرأة بمركز اجتماعي بفضل أولادها، وهم من يمنحونها كرامتها حتى؛ بولادتهم، يهبونها الفرح والفخر. ألّا تُرزق المرأة أطفالًا، تلك ذروة الألم بالنسبة إليها، ولا تكون كاملةً من دونهم، إضافةً إلى ذلك، قلب المرأة التي لا تلد يقسو، المرأة التي لا تحظى بولدٍ تشيخ سريعًا». قصدت أمّي بعباراتها تلك العمة، لكنَّها لم تتفوّه بها يومًا أمامها. هرمت عمتي جدًّا، فهل يعود سبب ذلك حقيقةً إلى أنّها من دون أولاد؟ بلغت السابعة والأربعين، هل بمقدورها أن تلد إن تزوجت؟ ولكنْ أين هو ذلك الرجل الذي في مقدوره أن يصبح زوجها؟

أدركت سفينة العمة فورًا طوف آل وانغ. حين دنت منه، خفف كين هي السرعة واقترب بحذر.

وقف وانغ القدم في المؤخرة رافعًا عصاه، وكان مخيفًا أكثر من التماثيل الأربعة التي تحرس المعابد البوذية. بدا كأنه يتأهّب للقتال.

كان شين الأنف في وسط الطوف، يحضن زوجته، يبكي، يضحك، ويصرخ: «وانغ المرّة الصفراء، هيا، ضعي الطفل! هيا! متى خرج إلى النور، ستُكتب له الحياة! متى وُلِد، لن تجرؤوا على خنقه! وان القلب، الأسد الصغير، لقد خسرتما! ها ها، خسرتما!».

سالت الدموع مدرارةً على وجه ذلك الملتحي.

وبدأت آنذاك وانغ المرّة الصفراء تبكي وتصرخ، صراخ تقشعرّ له الأبدان، يدمي القلب.

حين التصقت السفينة بالطوف، انحنت العمة، ومدّت يدها.

سحب شين الأنف سكينًا وكأنه عفريت شرير: «اسحبي أظفارك أيتها الجنية!».

قالت العمة بهدوء: «ليست تلك أظفار جنية، إنها يد طبيبة نسائية».

تبصّرتُ الأمر فجأة، وفهمت ما يحصل، فصرخت: «شين الأنف، دع العمة تنزل إلى المركب، تُريدُ أن تساعد زوجتك على الوضع!».

بواسطة خطاف، حشرتُ جانب مركبه، فَحَرّكت العمة جسمها الثقيل، وصعدت إلى الطوف.

التقطت الأسد الصغير حقيبة الإسعافات، استعدّت ووثبت وراءها.

حين قصّتا سروال وانغ المرّة الصفراء الملطخ بالدماء، أشحت بوجهي، فيما يدي خلف ظهري شدت بقوة على العمود الطويل إلى أن التصق الطوف بالسفينة تمامًا.

ارتسمت في ذهني للحظة صورة وانغ المرّة الصفراء على ما لمحتها: ممددة وسط الطواف، الجزء الأسفل من جسمها يغرق في الدماء. حجمها الصغير أبان أكثر بطنها الضخم، وكأنها دلفين غاضب، مذعور.

تدفقت مياه النهر بقوة، وشقت حجاب الغيم أشعّة الشمس. تقدم الأسطول الصغير بوقار، وتأرجحت الأطواف المحمّلة بالدراق؛ حتى مركبي الذي لم يعد يوجهه أحد، تبع المجرى، من كان يصدق.

انتظرت والأمل يغمرني. انتظرت بين صراخ وانغ المرّة الصفراء،

وصوت تلاطم الأمواج، ونهيق البغال والحمير المتصاعد عن الضفة.

علا من الطواف بكاء أجش لطفل.

التفتُّ سريعًا ورأيت العمة تحمل المولود ممددًا على راحتيها، والأسد الصغير تقمط بطنه بالشاش.

«فتاة أُخرى»، قالت العمة.

خفض شين الأنف رأسه محبطًا، وكأنه عجلة سيارة فارغة من الهواء. لَكَم رأسه بقبضتيه وقال مستسلمًا لألم حادّ: «تركتني السماء من دون وريث... خلَّد عائلة شين العريقة طوال خمسة أجيال أبناء وحيدون، لم أتصوَّر يومًا أن أكون سبب انقراضها...».

شتمته عمتي: «أيُّها الحيوان!».

وعلى الرغم من السرعة الفائقة التي سارت بها سفينة العمة، وعلى متنها وانغ المرّة الصفراء والمولودة الجديدة، لقطع المسافة إيابًا، لم تنجُ الماخض.

ووفق أقوال الأسد الصغير، صحت وانغ المرّة الصفراء صحوة الموت الأخيرة واستعادت كامل طاقتها للحظات، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. فقدت الكثير من دمائها وكان وجهها مثل ورقة من ذهب. ابتسمت للعمة وتمتمت شيئًا. دنت منها العمة، وأصغت. لم تسمع الأسد الصغير ما قالت وانغ المرة الصفراء، لكنَّ العمّة فهمت كل شيء، كما يبدو جليًّا. غاب اللون الذهبي عن وجه وانغ المرة الصفراء ليحلَّ محله لون رمادي أقهب. اتسعت عيناها وفقدتا لمعانهما. تقوقع جسدها وكأنه كيس مفلطح أُفرِغَ من حبوبه، أو غشاء شرنقة خَلَت من فراشتها. جلست العمة قرب جثمان وانغ المرّة الصفراء، خفضت رأسها، خفضته

جدًا. ظلت على هذه الحال طويلًا، ثمّ نهضت، تنهّدت وقالت كأنها تطرح سؤالًا على الأسد الصغير أو تُكَلّم نفسها:

«كيف وصلنا إلى ما نحن عليه؟».

شين الحاجب، ابنة وانغ المرة الصفراء المولودة قبل الأوان، استطاعت أن تنجو من ذلك المأزق الصعب بفضل ما أولتها العمة والأسد الصغير من عناية فائقة.


الجزء ٤

عزيزي السيّد سوجيتاني يوشيهيتو

مضت ثلاثة أعوام، من دون أن نشعر، مذ تقاعدنا وعدنا للسكن في غاومي. وإن واجهتنا بعض الخيبات الصغيرة، فقد عرفنا، نهايةً، سعادة غامرة وغير متوقعة. الاهتمام العظيم الذي تولونه للمادة التي أرسلتها إليكم والمتعلقة بعمتي، يثير فيَّ شعورًا بالرهبة ممزوجًا بالاحترام. تؤكدون أن تلك المواد، إن أعيد ترتيبها قليلًا، قد تصلح للنشر على شكل رواية، ولكنْ لديَّ، من جهتي، بعض التحفظات. بدايةً، أخشى أنَّ دور النشر ليست مستعدة لقبول رواية تتناول هذا الموضوع، ثمَّ إنْ نُشِرَت، أخاف أن تثير غضب العمة. وعلى الرغم من أنني، على بعض الصعد، «أغفلتُ عددًا من الوقائع احترامًا لسنها المتقدمة»، كشفت الكثير من الحقائق التي ما زالت تؤلمها. في ما يتعلق بي، إن خطر لي أن أستخدم معكم وسيلة التواصل هذه، فلأنني بهذه الطريقة أستطيع أن أقرَّ بأخطائي وأعبّر عن ندامتي، وأملت بذلك أن أخفف من شعوري بالذنب. اهتمامكم ونصائحكم فتحا بصيرتي تمامًا. وبما أن الكتابة تسمح بالتكفير عن الذنوب، لن أتوقف عن الكتابة. وبما أن ذلك لا يكون صحيحًا إلّا إن كتبنا بكل صدق، سألتزم بتلك الأصالة.

قلت قبل أعوام إنَّه أثناء فعل الكتابة، يجب التمادي في الألم إلى الأخير، إيراد أكثر الذكريات صعوبة في الحياة. اليوم، أعتقد أنه يجب كذلك ذكر الوقائع المربكة، وأكثر الأوضاع بؤسًا. يجب أن يضع الفرد نفسه على طاولة التشريح، تحت الأضواء.

قبل ذلك بعشرين عامًا، أعلنت من دون حياء أنني أكتب لنفسي. يمكن

للكتابة تكفيراً عن الذنوب أن تُعَدّ تطبيقًا لهذا المبدأ، لكنَّ ذلك لا يكفي. أعتقد أنه يجب عليّ أن أكتب أيضًا للذين آذيتهم، وأكثر، للذين أضرّوا بي. أشكر الأخيرين لأنني في كل مرّة يُساء إليّ، أفكر في مَنْ آذيت.

سيدي العزيز، أرسل لكم اليوم ما كتبتُ بتواتر طوال العام الماضي. أفكّر في أن أضع حدًّا لقصة العمة هنا، ثمّ سأنهي بأقصى سرعة المسرحية التي ترتكز شخصيتها الرئيسة على العمّة كنموذج.

كلَّما التقيتها، تحدثني عنكم، وتأمل من صميم قلبها أن تعاودوا زيارتنا. وبلغ بها الأمر أن تقول حتى: «هل يُعقل ألّا يملك السيد سوجيتاني ثمن تذكرة سفر؟ قل له إنني سأشتري له واحدة». وأضافت أنَّ كل تلك الأشياء التي تحتفظ بها لنفسها، لا يمكن أن تقال إلّا لكم، وستبوح لكم بها كلها عند مجيئكم. وقالت كذلك إنها تعرف سرًّا مهمًا عن والدكم لم تفشه لأحد. حين تعلمون به، ستُفاجأون إلى أقصى حدّ. سيدي العزيز، اكتشفت أساسًا محتواه، لكنني أُفَضّلُ انتظار زيارتكم لتكشفه لكم بنفسها، مشافهة.

من جهة أُخرى، وعلى الرغم من أنني في المادة التي أرسلها إليكم هذه المرة أتيت على ذكر الحدث، أُفضّل أن أبلغكم به في المقدمة هذه: مع أنني بلغت الستين تقريبًا، فقد رُزِقت بطفل! سيدي العزيز، قلَّما يهم كيف أتاني ذلك الطفل، ومهما بلغت المصاعب التي قد تنجم عن ذلك الولد، أتمنى من شخصكم الكريم أن تدعوا السماء لأن تشمله برعايتها، وآمل، إذا أمكنكم، أن تختاروا اسمًا له!

الشرغوف،

تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨، غاومي

١

تركت العمة فيَّ انطباعًا بأنها امرأة جريئة كأسد، بدت لا تخشى شيئًا ولا أحد في العالم. على الرغم من ذلك، رأيتها والأسد الصغير تصاب بالذعر من ضفدع إلى حدّ فقدانها الوعي وبصق رغوة بيضاء.

حدث ذلك صباح يوم من نيسان/أبريل، وقد لبَّينا دعوة يوان الخدّ وابن خالي جين كسيو، اللذين افتتحا مزرعة لتربية الضفادع الثيران. خلال أعوام قليلة، تغيَّر بالكامل كانتون دونغبي الذي كان أصلًا منطقة نائية ومتخلفة. بُني حول النهر رصيفٌ أبيض، لمنع الانهيار، جميل ومتين. وفي المنطقة الخضراء حيث الجرف نبتت مزروعات نادرة. وعلى الضفتين، ازدهرت عشرات الأحياء السكنية ذات الأبنية المسوّرة والمقسمة إلى شقق على الطراز الغربي. شكَّل المكان وحدةً مع مركز المقاطعة ولم يبعد أكثر من أربعين دقيقة بالسيارة عن مطار كينغداو. أتى الكثير من رجال الأعمال الكوريّين واليابانيّين للاستثمار فيه وبناء المصانع، وتحولت معظم أراضي قريتنا إلى ملاعب غولف/فسحات خضر للحاضرة. وإن أُطلِق على المكان أخيرًا اسم «منطقة شاوينغ»، ما زلنا نسمّيه، وفق عادتنا، «كانتون دونغبي».

فصلت حيّنا السكني عن مزرعة تربية الضفادع الثيران ثلاثة كيلومترات تقريبًا، وأراد ابن خالي الصغير أن يأتي ويصطحبنا بالسيارة،

فرفضنا بتهذيب. مشينا باتجاه المصب على الرصيف المحاذي للنهر، حيث صادفنا غالبًا نساءً شابات يجررن عربات أطفال. كانت وجوههن ناعمة، نظراتهن حائرة، وعبقت من أجسادهن روائح العطور الثمينة. وضع معظم الأطفال لهّايات في أفواههم، بعضهم نام ملء جفنه، والبعض الآخر فتح عينيه، سوداوين، لامعتين، وفاحت من العربات رائحة عذبة. كلَّما التقينا عربة طفل، أوقفت الأسد الصغير الأم، أحنت جسدها المكتنز، ومدت يدها لتداعب يد الطفل السمينة، ووجهه الصغير الزهري والناعم. التعابير التي ارتسمت على سحنتها عبَّرت عن الحب الذي تكنّه في أعماقها للأطفال. وفي عربة لتوأمين، تدفعها أجنبية شابة ذات شعر أشقر وعينين خضراوين، نامت خلاسيتان صغيرتان ترتديان قبعتين قطنيتين، جذابتان مثل دمية «باربي»، وراحت الأسد الصغير تداعبهما متمتمة همسًا، وعيناها مغرورقتان بالدموع. نظرت إلى المرأة التي ابتسمت بأدب، وشدّت الأسد الصغير من ثيابها:

«لا ترذذي وجهيهما بلعابك!».

قالت متنهدةً: «كيف يحصل أنني لم أكن أجِد الأطفال ظرفاء؟ ذلك يعني ببساطة أننا نتقدم في السن».

ـ آه، ليس ذلك فقط، ارتفع حاليًّا مستوى المعيشة، وتحسنت طبيعة الأطفال، لذا نجدهم اليوم فاتنين.

صادفنا كذلك معارف قدماء، تبادلنا السلام مصافحةً، والمجاملات، والشعور نفسه «بأننا شخنا»، وبأن الزمن يمضي، «وبأن عشرات الأعوام مرت بطرفة عين».

رأينا سفينة نزهة ذات ألوان صاخبة، أشبه بإيوان زخرفي، تتنقل

بهدوء على الماء. علت منها أنغام شجية، عزفتها في المقصورة على القيثارة أو الناي نساءٌ يرتدين زيًّا تقليديًّا، يذكرن بالشخصيات المجسدة في لوحات الرسم، ومرت أحيانًا مراكب سريعة، شقت الزبد وأرعبت طيور الزمج البيض.

سرنا يدًا بيد، وأعطينا انطباعًا بأننا متّحدان جدًّا، ومع ذلك، كان كل واحد منا مشغولًا بأفكاره. جميع أولئك الأطفال فاتنون، هذا على الأرجح ما تفكر فيه الأسد الصغير، ولكنْ لمع كالبرق في ذهني تسلسل تلك المطاردة المؤثرة في النفس التي جرت، قبل عشرين عامًا، على النهر ذاته.

قطعنا مجرى الماء على رصيف الجسر المرسخ بحبال الصلب الذي أُنجِز أخيرًا. بين السيارات المتنقلة هنالك، شاهدنا الكثير من ماركة بي. أم. دبليو ومرسيدس ـ بنز. صُمّم الجسر الكبير بإتقان وأوحى شكله بنورسٍ يفرد جناحيه. بعد الجسر إلى اليمين، قام ملعب غولف الحاضرة العظيمة، وإلى اليسار معبد الإلهة التي تهب الأطفال، المعروف في الجوار.

كنَّا في اليوم الثامن من الشهر الرابع في التقويم القمري، وكان ذلك تحديدًا يوم السوق التجارية في المعبد. رُكنت حول الصرح عشرات السيارات، وعرفنا من لوحات تسجيلها أنَّ معظمها آتٍ من مراكز الأقضية المجاورة، وبعضها حتى من مقاطعات أُخرى.

قامت في ما مضى في ذلك المكان قريةٌ اسمها «معبد الإلهة»، ووسطها المعبد الذي حملت اسمه. يوم كنت صغيرًا، زرته غالبًا مع والدتي لإشعال البخور، وعلى الرغم من مرور الأعوام، ترك فيَّ انطباعًا لا يزول. بداية الثورة الثقافية، دُكّت معالم المعبد كليًّا.

كان الصرح المشيّد حديثًا لافتًا بجدرانه الحمر وقرميده الأصفر. على جانبي الطريق أمام المعبد تجاورت معروضات بائعي البخور والشمع، وتماثيل الأطفال الفخارية، وسوَّق التجار لبضائعهم بصوتٍ عالٍ، منادين السيّاح:

«علقوا خيطًا بأحد التماثيل! علقوا خيطًا لأحد الأطفال!»(١).

وقف بينهم رجل يرتدي ثوبًا أصفر، حليق الرأس، وكأنه راهب بوذي. قرع على سمكة خشبية وصاح على الإيقاع:

«خُذ طفلًا، ليبتسم الجميع فرحًا في المنزل،
الطفل يولد بعد عام، ليناديكما «بابا» «ماما» بعد عامين،
أطفالي ذوو جودة عالية، صنعتهم يد معلّم، سحناتهم بيضاء، خدودهم من لون الدراق، ثغورهم كرزيّة، أطفالي جميلون،
أطفالي نافعون، صيتهم ذائع في كل أنحاء البلد،
مقابل كل طفل، تحظى بتنّين،
مقابل طفلين، تُرزق بالتأكيد بتنّين وفينيق(٢)،
ثلاثة أطفال، هم السعادة والفخر والعمر المديد،
أربعة أطفال يساوون أربعة وزراء،
خمسة أطفال، في امتحان دخول الحاكمية، خمستهم أوائل،
ستة، أتوقف هنا عن العد، خوفًا من ردّ فعل نصفِكَ...».

كان الصوت مألوفًا، فدنوت لأتأكد من الرجل، وكان فعلًا هو.

---

(١) عادة قديمة تقضي بتعليق خيط على عنق تمثال صغير يمثل طفلًا على أمل الحصول على طفل.

(٢) أي فتى وفتاة.

وانغ الكبد. وإذ تردّدت في الاقتراب أكثر مع الأسد الصغير تحاشيًا لأي إزعاج أو حزن قد أسبّبه لأي منهما نتيجة اللقاء مع العاشق السابق ذلك، أَفْلَتَت يدي واتَّجهت نحو وانغ الكبد.

فهمتُ فورًا أنَّها لا تقصده مباشرةً، بل تتجه نحو تماثيله الصلصالية. ولم يبالغ وانغ الكبد، فتماثيله اختلفت كليًّا عن بضائع زملائه. تشابهت تلك كلها ولُوّنت بإفراط، سواء الفتيات أو الفتيان منها. كانت ألوان تماثيل وانغ الكبد طبيعية، متحفظة. لكلّ طفل وجهه الخاص وتعابيره المميزة. بعضها يضج صخبًا وحياة، بعضها الآخر يتّسم بالهدوء والرصانة، ومنها ما ينمّ عن ملامح شقيّة ومضحكة، أو ساذجة وحتّى قريبة من الغباء، وبعض الوجوه برطمت شفاهها حردًا، فيما ضحكت أُخرى ملء حلقها. أدركتُ من النظرة الأولى أنَّها تشبه إبداعات الفنان الكبير في المجال، هاو اليدين الكبيرتين، من كانتون دونغبي ـ الذي تزوجته عمتي في العام ١٩٩٧. باع الأخير تماثيله منذ عشرات الأعوام وظل وفيًّا لطقوس خاصة به، كيف يحصل أن يودعها لدى وانغ الكبد الذي ينادي المشترين عليها؟

فيما قلّب شفتيه ازدراءً لتماثيل جيرانه، شرح بالتفصيل للزبونات المحتملات بصوت خافت: «تلك، هناك، سعرها أرخص صحيح، لكنَّها مصنوعة في قوالب، وإن كانت تماثيلي أغلى ثمنًا، فلأنَّ مَنْ شكّلها، مغمض العينين، سيّد الفنانين العظيم، ملك أطفال الصلصال، كين هي من كانتون دونغبي. ما المقصود بـ«كائنات تضج حياةً»، و«رقيقة إلى الحدّ الذي يمكّن أيّ نسمة من كسرها»»؟ وتناول وانغ الكبد تمثالًا مقطب الجبين، وكأنه غاضب، وتابع: «إنَّ تمثال الشمع الذي يمثل السيّدة توسو في فرنسا، مقارنةً بأعمال فناننا الكبير كين،

ليس إلّا كتلة بلاستيك مبتذلة. تولَدُ جميع الكائنات من الأرض، أتدركن معنى ذلك؟ أخذت نووا[1] طينًا وصنعت كرةً لتشكّل كائنًا بشريًّا، أتفهمن ذلك؟ الأرض لها التأثير الذي يسمو فوق كل شيء. فالصلصال الذي يستخدمه المعلم كين يجلبه من مجرى نهر جياو، بعد أن يحفر على عمق مترين، حيث يجمع طميًا تكوّن طوال ألفيات ثلاث من الرواسب، رواسب محملة ثقافةً وتقاليد وتاريخًا. يُجفف الطمي تحت أشعة الشمس، ويُعرض تحت ضوء القمر ليتشبَّع من جوهرهما، ثمّ يُطحن بحجر الرحى، تُضاف إليه مياهٌ تُحصَّل من وسط النهر حين تسطع الشمس بألوانها الحمراء، ومياه مغروفة من البئر حين يطلع القمر، تُعجن كرة الطين تلك لساعةٍ أو ساعتين، وتُدق بالمدقة وقتًا مماثلًا لتصير مثل كرة العجين، عندها فقط يمكن بدء العمل بها وتشكيلها تماثيل. إضافةً إلى ذلك، يجب أن أقول لكُنَّ ما يلي: حين ينتهي المعلم كين من تشكيل تمثال، يثقب ثقبًا صغيرًا في الرأس بقضيب خيزران رفيع، ويلكز إصبعه الوسطى به وينقّط نقطة دم في فتحة الثقب المذكور. بعد ذلك، يسدّه ويضع التمثال في مكان رطًب لسبعة أسابيع. عند انقضاء تلك الفترة، يأخذ التمثال ويلونه، ويصنع عينيه وحاجبيه. لذا، تلك التماثيل الصلصالية، بطبيعتها، كيانات روحية صغيرة. لا أقصّ عليكن مجرد حكايات، ويجب ألّا تخفن مما أقول: يمكن لتماثيل المعلم كين، كلَّما اكتمل القمر، أن ترقص على ألحان ناي، وتصفق وتضحك، وضجيجها

(١) شخصية نسائية أسطورية، يتألف اسمها من مقطعين صوتيين، يعني الأول «امرأة»، فيما المقطع الثاني متجانس صوتيًّا مع «ضفدع»، و«طفل»، وحرف الهتاف «وا!» الذي يصف بكاء الطفل ونقيق الضفدع. وتحفل الرواية بلعب كبير على تماثل الأصوات تلك، يفقهها القارئ الصيني من العنوان، ولا يمكن التعبير عنها في اللغة العربية أو لغات أُخرى.

يشبه تلك الأصوات التي نسمعها في الجوال، وإن لم تكن قوية، يمكن على الرغم من ذلك تمييزها بوضوح. إن لم تصدقنني، خذن بعضها إلى منازلكن، سترَيْن؛ وإن لم تؤتِ فعالية، أعدنها واطرحنها أرضًا أمامي ـ متأكدٌ من أنكن لن تفعلن ذلك، وإلّا فقدت دمها وسمعتن بكاءها».

فعل كلامه المنمّق فعله، واشترت كل سائحة تمثالين. أخذ وانغ الكبد علبة ووضّب أطفال الصلصال بعناية. انصرفت السيدات راضيات، فأتى لإلقاء التحيّة علينا.

قلت في نفسي إنه لا بدّ لمحنا من وقت ليس بقصير، وإن لم يتعرف إليّ، لا يمكن ألّا يكون عرف الأسد الصغير التي لاحقها بمثابرة لأكثر من عشرة أعوام. على الرغم من ذلك، صاح كأنه رآنا للتو:

ـ آه، أنتما هنا!

ـ كيف حالك، صديقي! قلت. مضت أعوام لم نلتقِ فيها.

بالكاد ابتسمت له الأسد الصغير، وتمتمت شيئًا لم أفهمه.

تصافحنا بقوة، وقدم كل منا للآخر سيجارة، فدخنت من سجائره «وي بونور»، فيما تناول إحدى سجائري من ماركة «جنراليسيم».

انصرفت الأسد الصغير إلى تأمل التماثيل الصغيرة بإعجاب.

ـ سمعتُ من فترةٍ عن عودتكما، وأرى أن القول المأثور محق: «حتى إذا وصلنا إلى أطراف السماء، لا نشعر بالراحة إلّا في الديار!».

ـ آه، صحيح، الثعلب الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة يدير رأسه نحو التلة حيث وُلِد، كما تعود إلى الجذور كل ورقة ذابلة، أجبت، ولكنْ لحسن الحظ، نحيا في حقبة مزدهرة، وحين نفكر بما كنّا عليه قبل حوالى عشرة أعوام، لا نتصوّر أن يحدث ذلك.

ـ في ما مضى، عاش الجميع في أقفاص، ومَن لم يكونوا على هذه الحال، سُيّروا بحبلٍ يشدّهم من أعناقهم، قال. اليوم، صرنا أحرارًا، يمكننا القيام بما نشاء إن ملكنا مالًا، شرط أن يكون شرعيًّا.

ـ يا رجل، تابعت، ما قيل عنك ليس كذبًا، تنمّق الكلام وتخدع! وسألت مشيرًا إلى التماثيل: هل تصنع المعجزات حقًّا؟

ـ هل ظننت أنني أتفوّه بترّهات؟ سأل، بكل جدية؛ ليست تلك إلا الحقيقة، وحيث بالغت قليلًا، بقي الأمر مقبولًا، ونهايةً، حتى في وسائل الإعلام الرسمية، ألا يسمحون بالقليل من المبالغة شرط البقاء في حدود المنطق؟

ـ في كل الأحوال، لست على المستوى الذي يسمح لي بمجادلتك. قل لي، هل حقًّا صديقنا كين هي هو مَنْ شكّلها؟

ـ وكأنني أكذب! صاح وانغ الكبد. حين قلت إن التماثيل ترقص على أنغام الناي عند اكتمال القمر، هنا بالغت قليلًا، ولكنْ حين قلت إن كين هي صنعها مغمض العينين، فتلك الحقيقة المطلقة، وإن لم تصدقني، فحين يسنح لنا الوقت، سأصطحبك لزيارته.

ـ هل يملك كين هي كذلك بطاقة إقامة ليقطن هنا؟

ـ من يتكلم بعد في أيامنا عن بطاقة إقامة؟ كأننا، حاليًّا، لا نسكن حيث يناسبنا، أضاف. يكون كين هي حيث تقيم عمتك، لن تجد في السماء أو تحت الأرض فارسًا في خدمة سيدة أكثر إخلاصًا منه!

حملت الأسد الصغير تمثالًا صلصاليًّا لفتاة جميلة تشبه أوراسية بعينيها الواسعتين وأنفها البارز، وأعلنت: «سآخذ هذه».

تفحّصت التمثال، وانتابني شعور غريب، نعم، أشعر بأنني رأيت

الفتاة سابقًا. أين التقيتها؟ مَنْ هي؟ يا إلهي، كانت شين الحاجب، ابنة وانغ المرّة الصفراء، التي ربتها عمتي والأسد الصغير طوال ستة أشهر وأُجبرتا على إعادتها إلى والدها، شين الأنف.

أتذكر بوضوح تلك الليلة حين أتى الأخير إلى منزلنا وطالبنا بها. كنّا قد اقتربنا من عيد الربيع، مساءَ وداع جنّي المنزل[1]، فيما كانت الألعاب النارية تنطلق باتساق من كل حدب وصوب، ودخانها ينتشر في كل مكان.

كانت الأسد الصغير قد اتخذت كافة الإجراءات للالتحاق بي في الجيش، وتركت مركز العناية في الكومونة الشعبية. كان عليّ أن أصطحبها ويانيان في القطار إلى بكين بعد انقضاء عيد الربيع. توافرت في فناء إحدى الحاميات شقة شاغرة من غرفتين لتكون منزلنا الجديد. لم يشأ والدي مرافقتنا، ورفض كذلك السكن مع شقيقي البكر الذي يعمل في قاعدة القضاء، ظل متعلقًا بأرضه الصغيرة. لحسن الحظ، كان شقيقي الثاني يعمل في القرية، وبإمكانه في أيّ لحظة الاهتمام به.

بعد وفاة وانغ المرّة الصفراء، أمضى شين الأنف وقته في السكر، ومتى ثمل، تسكع في الطرقات يبكي ويغني. بدايةً، تعاطف معه الناس كثيرًا، لكنهم، على مرّ الوقت، انزعجوا منه. أوان مطاردة وانغ المرة الصفراء، صادرت الكومونة أموال شين الأنف من المصرف ووزعتها على سكان القرية بمثابة مرتب؛ بعد موت وانغ المرة الصفراء، أعاد له معظم السكان تلك المبالغ.

علاوةً على ذلك، لم تلزمه الكومونة بدفع تكاليف إقامته في

---

(١) كما ورد سابقًا، يصعد إله المنزل في ذلك النهار إلى السماء ليقدم تقريره.

الاحتجاز؛ فقُدّر أن يملك أقله ثلاثين ألف يوان، مما يتيح له أن يثمل لبضعة أعوام. وبدا أنه نسي حتى أمر تلك الطفلة التي نقلتها عمتي والأسد الصغير إلى المركز الطبّي لإنعاشها. حين أجبر وانغ المرّة الصفراء على المخاطرة بحياتها والحمل ثانية، كان هدفه في الواقع أن يُرزق بصبي يحافظ على ذرية عائلة شين. عندما وجد بعد كل ما تكبّده من آلام ومخاطر أن الطفل في نهاية المطاف ابنة ثانية، بكى بمرارة وخبط على رأسه: «تركتني السماء من دون وريث!».

وعمتي هي التي أعطت الصغيرة اسمًا. بما أنَّ تقاسيم الصغيرة كانت ناعمة ودقيقة، وشقيقتها تدعى شين الأذن، قالت العمة: «ماذا لو سمّيناها شين الحاجب؟». صفقت الأسد الصغير مبديةً موافقتها: «اسم جميل حقًّا».

فكّرت كلتاهما بتبنّيها، لكنهما واجهتا صعوبات جمّة، مثل بطاقة الإقامة وإجراءات التبني. إضافةً إلى ذلك، حين أخذ شين الأنف شين الحاجب من حضن الأسد الصغير، لم تملك الطفلة بيان قيد إفراديًا. في إطار السكان الشرعيين لجمهورية الصين الشعبية، لم يكن للطفلة وجود، وعُدَّت مِنْ أولئك «الأطفال غير الشرعيين»، الذين لم تُسجّل ولادتهم في دائرة الأحوال الشخصية.

كم بلغ عددهم، لم يجرِ أحد إحصاءات بهذا الشأن، ولكنْ بدا الرقم هائلًا. حُلَّت مشكلة وضعهم القانوني المدني إبان التعداد العام الرابع للسكان في العام ١٩٩٠؛ أمَّا في ما يتعلق بالغرامات المَجْبيّة لتجاوز كوتا الإنجاب، فقد وصلت إلى مبلغ خيالي، ولكنْ أيّ نسبة منها دخلت إلى خزانة الدولة في النهاية، لم تكن تلك إلّا أرقامًا غامضة لا يمكن تحديدها بدقة. كم «طفلًا غير مسجل» فبركت الجماهير

الصينية في الأعوام العشرة الأخيرة؟ هنا أيضًا، يمكننا توقع رقم لافت. ونسبة الغرامة أكثر ما تضاعف مقارنةً بما كانت عليه قبل عشرين عامًا. فلنفترض إذًا، أوان إحصاء السكان المقبل، أن يكون أهل أولئك «الأطفال غير المسجلين» قادرين على الدفع على مستوى غراماتهم...

خلال تلك الفترة، تطوّرت غريزة الأمومة عند الأسد الصغير كثيرًا، حملت الطفلة دومًا، ولم تكل عن تقبيلها، والتحديق بها، وشككت حتى في أنها حاولت إرضاعها لأنَّني لحظت تغيّرًا في حلمتيها، ولكنني لا أستطيع أن أجزم إن درَّ ثدياها حليبًا. يُروى مع ذلك أنَّ معجزة من هذا النوع حدثت.

لقد شاهدت مسرحيةً في طفولتي تتحدث عن عائلة حلَّت عليها المصائب فجأةً، تُوفي الوالدان مخلفين ابنة في الثامنة عشرة وشقيقًا لها لا يزال في القماط؛ حين تقطعت بها السبل، دسّت الشقيقة العذراء الكبيرة ثديها في فم الطفل، وبعد أيام، من كان يصدّق، درَّت حليبًا. حدث كهذا لا يمكن أن يحصل في الحياة الواقعية. الابنة البكر في الثامنة عشرة والابن الأخير رضيع؟ في ما مضى، قالت لي والدتي، حملت الحموات والكنّات غالبًا في الوقت نفسه. وفي أيامنا هذه؟ يمكن تصوّر الأمر. أصبح لصديقة ابنتي في الجامعة أخت صغيرة. والدها صاحب منجم فحم، يملك مالًا لا يحصى ولا يُعد. يزهق عمّال المناجم الريفيون أنفسهم بالعمل لهم في المناجم، فيما أصحابها يسكنون فيلات فخمة في بكين، وشنغهاي، وسان فرنسيسكو، وملبورن، وتورنتو، حيث ينجبون من زوجتهم «الثانية»، وحتى «الثالثة».

أحاول أن ألجم أفكاري كما نفعل مع جواد جامح لأتذكر ليلة وداع جنّي المنزل تلك. كنت بدأت أطهو طبق رافيولي، وصفقت ابنتي

يانيان وغنت أغنية للأطفال لها علاقة بالرافيولي تقول: «من الجنوب أتت الوزات تتمايل، كوان، كوان، وإلى الماء نزلت»[1]، فيما حملت الأسد الصغير شين الحاجب في حضنها وثاغت لها. آنذاك دخل علينا شين الأنف مترنحًا، يرتدي سترة جلد الخنزير الشهيرة التي بليت، وقبّعة ذات طيّة لبسها بالورب. تبعته شين الأنف، تتشبّث بأطراف ثيابه. ارتدت سترة محشوّة بانت من كمّيها القصيرين يداها الصغيرتان المتجمّدتان من البرد. كان شعرها مشعثًا كالعشب اليابس، ولم تكف عن النخير، والأرجح أنها كانت مصابة بالزكام.

ـ وصلتَ في الوقت المناسب، قلت له، وأنا أحرّك الرافيولي في القدر. اجلس، ستأكل معنا.

جلس على العتبة، وتراقص على وجهه ضوء النار المشتعلة في الموقد، فبدا منخاره الضخم مثل لفتة مجلدة، نُحتت فوق تقاسيمه. وقفت شين الأذن قربه، متكئة على كتفه، والتمعت في عينيها الكبيرتين ومضات جلية من الخوف والفضولية، وتطلعت مرةً بعد مرة إلى الرافيولي في القدر، والأسد الصغير والطفلة في يديها، أو تبادلت النظرات مع يانيان. ناولتها ابنتي قطعة شوكولاتة تحملها في يدها. أحنت رأسها محدقةً بأبيها، ثمّ تطلعت نحونا.

ـ خذيها، قلت لها، بما أن أختك الصغرى تقدمها لكِ.

قرّبت يدها مترددةً.

صاح بها شين الأنف بقسوة: «شن الأذن!».

سارعت الصغيرة وردت يدها إلى الوراء.

---

(١) تُطهى الرافيولي في مياه مغلية.

ـ قل لي، ماذا دهاك، صحت بدوري، إنَّها مجرد طفلة!

«واع!»، وبدأت شين الأذن بالبكاء.

ذهبت إلى الغرفة الأخرى لأجلب حفنة شوكولاتة ودسستها في جيب سترة الفتاة.

وقف شين الأنف وقال للأسد الصغير:

ـ أعيدي لي الطفلة.

تعجبت الأسد الصغير وأجابت: «علمًا أنَّك لم تردها؟».

ـ من قال ذلك؟ صرخ شين الأنف، إنَّها من لحمي ودمي، ولا أُريدها؟

ـ لا تستحقها! ردت الأسد الصغير. حين وُلِدَت، كانت أشبه بهر صغير مريض، أنا مَنْ ربّاها.

ـ أنتم مَنْ لاحق وانغ المرّة الصفراء من دون توقف، إلى أن ولدت قبل الأوان! لولا ذلك لما ماتت! تدينون لي بحياة!

ـ تفاهات! أجابت الأسد الصغير. نظرًا إلى وضعِ وانغ المرّة الصفراء، كان يجب ألّا تنجب، لم تُفكّر أنتَ إلّا في ذرّيتكَ من دون أن تأخذ في الاعتبار الخطر الذي تتعرض له زوجتك! قتلتها بيدك!

ـ وتجرئين على قول ذلك! صرخ شين الأنف بغضب، حسنًا، سأمنعكم من الاحتفال بالعام الجديد كما يجب[1]!.

تناول جرن ثوم موضوعًا فوق الموقد وصوّب نحو القدر.

ـ شين الأنف، قلت، أنت مجنون، نحن صديقان منذ الطفولة!

---

(١) يُعَدُّ ذلك نذير شؤم للسنة المقبلة.

ـ وكأنَّنا نعير الصداقة اهتمامًا في أيامنا هذه! أجاب هازئًا، اختبأت وانغ المرّة الصفراء عند حميك، وأنتَ، من دون شك، أبلغتَ عمّتك بالأمر، أليس كذلك؟

ـ لا شأن له بالموضوع! تدخلت الأسد الصغير، أتت المعلومة من كسياو الشفة العليا.

ـ قلَّما يهمّني مَنْ كان الواشي، تابع شين الأنف، في كل الأحوال عليكِ أن تعيدي لي الطفلة اليوم.

ـ لا، أنت تحلم بالتأكيد! قالت الأسد الصغير، لن أسمح بأن تموت الطفلة بين يديك، لا تستحق أن تكون والدها!

ـ أيتها النساء الشرِّيرات، أنتن «مسترجلات»، عاجزات عن الإنجاب، لذا تمنعن الأُخريات من الحمل، لأنكن عواقر، تستولين على أطفال الآخرين لتجعلنهم أولادكن!

ـ شين الأنف، أغلق فمك، صرخت وقد استشطت غيظًا، تأتي إليّ يوم وداع جن المنزل وتتصرّف بهذه الطريقة الشائنة! هيا، كسّر، إن كنت قادرًا، ارمِ الجرن في القدر!

ـ أتظن أنَني لن أُقدِم على ذلك؟

ـ حسنًا، تفضَّل!

ـ إن لم تعيدوا لي الطفلة اليوم، فأنا قادر على ارتكاب أيّ فعل! القتل، الحرق، نعم، كل شيء!

أبي الذي ظل في الغرفة الأخرى من دون أن يتفوه بكلمة، خرج وتدخل:

ـ يا قريبي، احترامًا لسنّي والصداقة التي تجمعني بأبيك، ضع الجرن جانبًا!

ـ إذًا، قل لها أن تعيد لي الطفلة.

ـ تلك ابنتك، ولا يستطيع أحد أخذها منك، أضاف والدي، ولكن عليك أن تتحدّث بأدب مع الأسد الصغير، إذ في نهاية المطاف، لولاها ولولا العمة، لرحلت تلك الطفلة مع أمها.

رمى شين الأنف الجرن من يده، عاد إلى عتبة الغرفة، ارتمى أرضًا، وبدأ بالبكاء والنحيب.

قالت له شين الأذن، وهي تربّت كتفه وتبكي: «أبي... لا تبكِ...».

عند رؤية هذا المشهد، تأثرت، فقلت للأسد الصغير: «برأيي... يجب أن نعيدها له، على الرغم من كل شيء...».

ـ لا، لا تعوّل على ذلك! قالت الأسد الصغير. أنا من آوى هذه الطفلة!

ـ تعرفون خداع الناس، أنتم... لا ترضخون للحق...، تابع شين الأنف.

ـ فلنأتِ بعمتك، قال أبي.

ـ لا ضرورة لذلك، أنا هنا منذ بعض الوقت! صاحت العمة من الخارج.

وكأنني أرى نجم الخلاص، توجّهت نحوها ووقفت أمامها.

ـ شين الأنف، يسرّني أن تنهض! قالت العمة. ما زلت أنتظر أن ترمي جرن الثوم في القدر!

قام المعني بوداعة.

ـ شين الأنف، هل تعترف بخطئك؟ سألت العمة بنبرةٍ صارمة.

ـ أيّ خطأ؟

ـ التخلي عن شخص، أجابت العمة، نحن آوينا الصغيرة وأطعمناها لأكثر من ستة أشهر عصيدة الذرة البيضاء والحليب المجفف، ولم يكن ذلك سهلًا، وطوال تلك الفترة لم تُظهر أنتَ طرف أنفك، صحيح أن الفتاة الصغيرة من ذرّيتك، ولكنْ هل قمت بواجباتك تجاهها كأب؟

وتمتم شين الأنف: «مهما يكن، تظل ابنتي...».

ـ آه، صحيح؟ صرخت الأسد الصغير، كلمها لنرى إن كانت ستتفاعل معك. إذا حصل ذلك، فخذها!

ـ ما تقولين لا ينفع ولا يرتكز على منطق، لن أتكلم معك! ردّ شين الأنف. عمتي، لقد أسأت التصرف، أعترف بأخطائي، وبما أنني أقررت بالذنب، أعيدوا لي الطفلة!

ـ يمكننا ذلك، ولكنْ عليك أوَّلًا أن تذهب إلى الكومونة الشعبية لدفع الغرامة، ومن ثمَّ الاهتمام ببطاقة هويّة الطفلة.

ـ وكم تبلغ قيمة الغرامة؟ سأل شين الأنف.

ـ خمسة آلاف وثمانمئة يوان! أجابت العمة.

ـ كل هذا؟! قال شين الأنف، لا أملك هذا المبلغ!

ـ لا تملك المال، ردّت العمة، إذًا، ما لم يتوافر معك المال، فلن تحظى بالطفلة!

ـ خمسة آلاف وثمانمئة! خمسة آلاف وثمانمئة! ردّد شين الأنف، وإن لم أملك المال، تبقَ لي حياتي.

ـ احتفظ بحياتك لنفسك، أجابت العمة، يمكنك أن تحتفظ بالمال كذلك لتسكر، وتأكل اللحم، وتمارس الفسق في الفنادق الرخيصة!

ـ أنا، أفعل ذلك؟ صاح شين الأنف، وقد مُسَّت كرامته، سأرفع

شكوى ضدكِ! وإن لم أستطع على مستوى الكومونة الشعبية، فسأفعل على صعيد القضاء، سأتقدّم بالشكوى في مركز المقاطعة، ونهايةً أمام اللجنة المركزية!

ـ وإن لم تستطع فعل ذلك؟ سخرت العمة، فهل ترفع شكواك إلى منظمة الأمم المتحدة؟

ـ منظمة الأمم المتحدة؟ أجاب شين الأنف، عظيم، يمكنني ذلك.

ـ أيها الجهبذ! قالت العمة، ولكنْ حاليًّا، يسعدني أن تنصرف من هنا! حين تربح الدعوى، عُدْ وخُذْ ابنتك. لكنني أحذرك، على الرغم من ذلك عليك أن تكتب لي شهادة تؤكد فيها أنّك قادر على أن تربّي الطفلة تربية صالحة، وفي الآن نفسه، تعطيني والأسد الصغير خمسة آلاف يوان لكل منا تعويضًا عن الجهود التي بذلنا!

تلك الليلة، لم يستطع شين الأنف أخذ شين الحاجب، ولكنْ بعد عيد الربيع، في اليوم السادس عشر من الشهر القمري الأول، عاد ليستردّ الصغيرة، مزوّدًا بوصل الغرامة. وفي ما خص «تعويضات الأتعاب»، لم تكن تلك إلّا عبارات تفوهت بها عمتي تحت سطوة الغضب، ولم يجب عليه دفع شيء. بكت الأسد الصغير بشدة، وارتجفت بكامل أطرافها، وكأنها تخلّت عن ابنتها. فلامتها العمة: «لِمَ تبكين؟ إن كنت تحبين الأطفال إلى هذا الحد، أنجبي واحدًا!».

بينما استمرّت الأسد الصغير في البكاء، لاطفتها العمة ومسّدت كتفيها وقالت لها بصوت حزين لم أشهده لها سابقًا: «بالنسبة للعمة، فات أوان هذا الموضوع في هذه الحياة، ولكنْ في ما يتعلق بكِ، انفتحت للتوّ أبواب السعادة أمامكِ، دعكِ من العمل، أنجبي طفلًا أوّلًا لأراه عند عودتكِ...».

بعد وصولنا إلى بكين، أردنا طفلًا، ولكنْ لسوء الحظ، أدركتنا لعنة شين الأنف: لم تستطع الأسد الصغير الإنجاب. عاملَت ابنتي بلطف، لكنني عرفت أنَّها تهجس بذكرى شين الحاجب. ولذا، يمكن فهم سبب انفعالها وهي تحمل التمثال الصلصالي، فأنفه وعيناه نسخة طبق الأصل عن تقاسيم شين الحاجب. تَوَجَّهَت بالكلام إلى وانغ الكبد، لكنَّها قصدتني بعباراتها:

ـ أريدُ هذا الطفل!

ـ ما ثمنه، سألت وانغ الكبد.

ـ ماذا تقصد بذلك، الخبب الوئيد، ردّ وانغ الكبد غاضبًا، هل تحتقرني عَرَضًا؟

ـ إيّاك أن تتوهّم خصوصًا، تابعت، من أجل «ربط الطفل»، عليك أن تكون صادقًا في نواياك، وإن لم ندفع ثمنه، فكيف نثبت خلوص النيّة؟

ـ العكس هو الصحيح تمامًا، أجاب وانغ الكبد همسًا، ما يشتريه المال ليس إلّا قطعة صلصال، أمّا الطفل، فلا يمكن شراؤه.

ـ حسنًا، قلت، نسكنُ في مجمَّع بينهي، المبنى ٩، الشقة الرقم ٩٠٢، أنتَ على الرحب والسعة.

ـ سآتي من دون أدنى شك، ردَّ وانغ الكبد، وأتمنى أن تُرزقا سريعًا بوريث كريم الحسب والنسب.

أومأتُ برأسي مع ضحكة مصطنعة، ودّعتُهُ مستأذنًا، وجذبت الأسد الصغير مقاومًا دفق البشر، لأدخل إلى القاعة الكبيرة في معبد الإلهة.

ارتفعت من مباخر عيدان البخور سحب الدخان، ليفوح عطرها

السخي. في الشمعدان قربها، رُصّت صفوف الشموع الحمر، تراقصت شعلاتها، وسالت دموعها. تجمّعت النسوة بأعداد كبيرة، بعضهن عجائز مثل خشب مهترئ، وأُخريات يافعات أشبه بزهورِ اللوتس، منهن مَنْ لبسن ثيابًا رثة، ومنهن مَنْ تأنّقن بكامل أناقتهن، شكّلن مزيجًا غريبًا من الأشكال والألوان لتتمايز كل واحدةٍ منهن عن الأُخرى، ولكنْ على كل وجه، ارتسم الورع نفسه، وامتلأت جميعهن أملًا ورجاءً وهنّ يضممن الطفل الصلصالي إلى صدورهن، فيما يشعلن الشموع والبخور.

كان سقف القاعة الكبيرة عاليًا، نصِلُ إلى بابها بعد ارتقاء تسع وأربعين درجة من الحجر الأبيض. رفعت رأسي لأنظر إلى اللوحة المعلقة تحت الطنف ذي الزوايا المثنية. دُوّنت عليها ثلاثة رموز ضخمة مذهبة: «تربية الأطفال الأخلاقية»؛ تدلت على جوانب السقف أجراس نحاسية، ترنّ حين هبوب الهواء.

مِن أعلى الأدراج إلى أسفلها، كان معظم الزوار من النساء، وقد ضممن إلى صدورهن تماثيل فخاريّة؛ بانضمامي إلى المجموعة، تمكنت إلى حدٍّ ما مِنَ التنعّم بشعور التجرّد الذي يحسّه مَنْ يبقى مجرد مشاهد. تناسُل الجنس البشري أمر جليل وعادي، خطير ومتطرف في آن واحد. بديهيًا، رحت أتذكر طفولتي. لقد شهدتُ بأمّ العين كيف أتت خصيصًا كتيبة مكافحة «الأقوال المبتذلة الأربعة»[1] من المدرسة الثانوية العالية الرقم ١ في المقاطعة لتحطّم تمثال المعبد. حمله الفتيان والفتيات إلى الخارج، رموه في النهر، وأطلقوا هتافاتهم: «يسير التخطيط الأُسري في المسار الصحيح، إلى النهر أيتها الإلهة لتستحمّي سريعًا!». على السد،

(١) حملة العام ١٩٦٨، أثناء الثورة الثقافية، ضد الأفكار القديمة، والعادات، والتقاليد، وضد الحضارة القديمة.

ركعت المسنّات ذوات الشعر الأبيض بهدوء، وهنَّ يهمهمن التعويذات. هل تضرّعن إلى الإلهة لتظهر قدرتها وتعاقب أولئك الرعاع؟ أم توسّلن إليها لتتغلب على الجرائم التي ترتكبها البشرية؟ يصعب الحكم.

«نهرٌ جرى ثلاثين عامًا شرقًا، نهر جرى ثلاثين عامًا شرقًا».

وكأنَّ في ذلك تجسيدًا لذلك القول المأثور، أُعيد تشييد معبد فخم، في موقع القديم؛ وفي القاعة الكبيرة، رُفِع تمثال جديد مطليّ بالذهب. وهكذا، تمت المحافظة على التقاليد الثقافية مع خلق ذهنية جديدة؛ فيما استُجيب لتطلّعات الجماهير الدينية، استُقطِب السيّاح من كافة الأصقاع. وظهرت أخيرًا النتائج الاقتصادية لذلك القطاع المزدهر. أمكن القول إنّ بناء مصنع لا يوازي بشيء تشييد معبد. عمل أبناء بلدي وأصدقائي القدامى هناك، وعاشوا حياة كريمة.

رفعت رأسي لأنظر إلى تمثال الإلهة. كان وجهها مستديرًا كالقمر، وسواد شعرها كالأبنوس. حاجباها الدقيقان امتدا إلى صدغيها، وامتلأت نظرتها حنوًا. ارتدت الأبيض، وقلادةً من الأحجار الكريمة. حملت في يدها اليمنى مروحة مدورة، مقبضها طويل، وُضعت بشكل مائل على كتفها؛ داعبت يدها اليسرى رأس طفل يمتطي سمكة. على جانبيها، تزاحم اثنا عشر طفلًا، اختلفت وقفة كل واحد منهم. ضجَّت وجوههم حيوية، وحملت سحرًا طفوليًا، كانوا فاتنين فعلًا. قلت في نفسي، وحدهما في كانتون دونغبي، هاو اليدان الكبيرتان وكين هي، بمقدورهما تشكيل أطفال كهؤلاء. وإن صحّت أقوال وانغ الكبد، فلا بد من أن مجموعة التماثيل تلك من صنع كين هي. فوفق ترابط الأفكار، وجدت، ظلمًا وعدوانًا، أن وجه تمثال الإلهة وهيئته بالأبيض، شبيه بعمّتي يوم كانت شابة.

ركعت تسع نساء على المساند التسعة الموضوعة أمام التمثال. استحوذن عليها طويلًا، إمّا ضربن جباههنّ بالأرض مرات عدة، أو صلّين بخشوع، أيديهنّ مضمومة ونظرهن مرفوع نحو الإلهة. امتلأ البلاط الرخام وراءهن بنسوة جاثيات. وضعن جميعهن أمامهن، قبالة الإلهة، طفلًا صلصاليًّا. ركعت الأسد الصغير وطرقت جبينها بالأرض بصدق خالص، فسمعنا في كل مرة ذلك الصوت الخافت: «دونغ، دونغ». كانت عيناها مغرورقتين بالدمع، فحبها للأطفال فاق كل حد. لكنني كنت أعلم أنها لن تستطيع تحقيق حلمها بالإنجاب. وِلدت في العام ١٩٥٠، وبلغت الخامسة والخمسين، وعلى الرغم من أن صدرها مكتنز، انقطع حيضها. فيما حدَّقتُ بالآخرين، فعلوا الأمر نفسه بالتأكيد. ركعت خلف الأسد الصغير أمام الإلهة. لا بدّ من أن الذين راقبونا قالوا في أنفسهم إنَّ الزوجين العجوزين جاءا إلى هنا «لربط طفل» من أجل أولادهما.

ومتى انتهت النسوة من السجود، أخرجن مالًا ووضعنه في علبة خشبية مطليّة بالأحمر أمام قاعدة التمثال. من وضعن القليل، سارعن إلى دسّ المال في العلبة، فيما لم تتوانَ الكريمات أكثر عن التبرّع به بتبجّح. بعد التقدمة، رَبَطَت راهبةٌ تقف قرب العلبة عنقَ التمثال الصلصالي بحبل صغير أحمر. ووقفت على الجانبين راهبتان ترتديان ثوبين طويلين رماديين، خفضتا عيونهما، وطرقتا على سمكة من خشب وهما تتلوان الصلوات، وبدا لي مع ذلك أن نظرهما لا يخيب، إذ كلما تبرّع أحدهم بأكثر من مئة يوان، علا صوت الطرق على السمكة التي تحملان، وكأنهما تلفتان الإلهة إلى الأمر.

بدايةً، لم نفكر في المجيء إلى هنا، فلم نكن نحمل مالًا. ونظرًا

إلى الظروف، نزعت الأسد الصغير الخاتم الذهبي الذي تلبسه في إصبعها ورمته في صندوق التقديمات. «طق، طق، طق»، دوت السمكة في يدي الراهبتين ثلاث مرات متتالية، كما فعل المسدّس، قبل أعوام طويلة، معلنًا إشارة الانطلاق في سباق الركض الذي شاركت فيه.

في الأجنحة الجانبية خلف القاعة الكبيرة، تُكَرَّم على التوالي الخالدة واهبة الأطفال، وإلهة النظر، وإلهة الذرّية، وإلهة الأمراض الجلدية، وإلهة المرضعات، وتلك التي تؤمّن التعليم الابتدائي للأطفال، والإلهة التي ترعى تعليم الفتيات، والإلهة التي تسرّع الولادة، والإلهة التي تجلب الطفل. وفي كل القاعات، سجد الناس أو قدموا العطاءات. وحرست كل قاعة راهبات يقرعن على السمكات الخشبية. نظرت إلى الشمس لأتبيّن الوقت، وحاولت إقناع الأسد الصغير بالعودة في يوم آخر. أومأت برأسها موافقةً، ولكنْ على مضض. وفيما سلكنا الممر الخارجي للمغادرة، أطلَّت من الغرف الصغيرة من كل جانب وفي كل لحظة، رؤوس الراهبات:

«أيُّها المُحسن، أرجوك، ضع لطفلك قُفْل طول العمر!»

«أيُّها المانح، دع طفلك يرتدِ ثيابًا مطرزةً من سُحُبِ الفجر!»

«أيُّها المُحسن، دع طفلك يرتدِ قبقابًا من الغيوم الملونة بالأزرق السماوي!»[1]

لم نحمل مالًا، وكان علينا، في كل مرة، أن نعتذر، إلى أن نجونا بأسرع ما أمكننا.

حين خرجنا من معبد الإلهة، وكان الوقت ظهرًا، اتصل بي ابن خالي

(١) وكلها قطع تُعَدُّ تعويذات خير.

على هاتفي الخلوي يستعجلني. كانت الحركة في الحي التجاري ناشطة، وعجّ فيه الناس كالنمل، تنوعت البضائع، وكثر المتسكعون البليدون. أمّا نحن، فلم يعد باستطاعتنا التنزه، شققنا طريقنا وسط الجموع، وتقدمنا سريعًا، وقد قال ابن خالي إن سيارته تنتظرنا أمام مستشفى «الكنز العائلي للأمهات والأطفال»، الواقع غربيّ المعبد، وهو مستشفى ذو رؤوس أموال مشتركة صينية أميركية افتُتح بأبهة في ذلك النهار.

وصلنا إلى المكان وقد انتهى الاحتفال. افترشت بقايا الألعاب النارية الأرض، وعلى جانبي البوابة، مثل فينيق فرد جناحيه، اصطفت عشرات سلال الأزهار، فيما رفرف عاليًا بالونان ضخمان رفعا بيارق تحمل شعارات كبيرة. وبُنيت العمارة على شكل قوس، باللونين الأبيض والأزرق، يخيّل لناظرها وكأنها حضن هادئ وكريم، تطوقه ذراعان ممدودتان؛ شكّل تناقضًا صارخًا مع معبد الإلهة إلى الشرق، المتلألئ أنوارًا وعظمة.

وفي اللحظة التي لمحنا فيه ابن خالي مرتديًا بزة رسمية وحذاءً جلديًّا، رأينا العمة. كان الكثير من الناس لا يزالون في المكان، ينتزعون الزهور من السلال والأكاليل. اختلطت العمة بالجموع، وقد جمعت غمرًا من الورود، البيض والحمر والصفر، كلها أزرار ستتفتح قريبًا. عرفناها من ظهرها. حتى لو وُجدت بين عشرة آلاف شخص، وحتى لو ارتدى جميعهم ثيابًا من اللون نفسه، كان بإمكاننا التعرّف إليها بسهولة.

شاهدنا فتى لا يتجاوز العاشرة يدنو من العمة ويناولها كيسًا ورقيًا أبيض. ثمّ استدار هاربًا. فتحت العمة الكيس، تقززت، صرخت صرخةً غريبة، ترنّح جسمها الثقيل مرات عدة، ووقعت على ظهرها.

رأينا آنذاك ضفدعًا هزيلًا أدكن اللون يقفز على جسد العمة.

٢

خارج بوابة مزرعة الضفادع، أدّى حارس متباهٍ تحية عسكرية مضحكة عند وصول سيارة قريبي. انفتح الباب الأوتوماتيكي ببطء، وعبرت الـ «باسات» ببطء كذلك. يوان الخدّ، قارئ البخت والطبيب غير الشرعي سابقًا، الذي غدا المدير العام للشركة الأم لتربية الضفادع الثيران، انتظرَنا أمام تمثال أدكن اللون.

كان مجسمًا لضفدع ثور.

من بعيد، ظننته ناقلة جنود مدرعة.

على القاعدة الملبّسة رخامًا حُفِر النص التالي: «الضفدع ـ الثور (رانا كاتسبيانا)، نوع من البرمائيات، من فصيلة الضفادع الحقيقية، من رتبة اللاذنبيات، نقيقه القوي يشبه خوار الثور، من هنا جاء اسمه».

«هيا، لنتصور! لنتصور»، استقبلنا يوان الخدّ بهذه الكلمات، وأضاف: «نتصور أوّلًا، ثمّ نزور المزرعة، وأخيرًا نتناول الطعام».

تفحصت ذلك الضفدع الضخم، وقد انتابني شعور بالرهبة والاحترام. رأيت ظهره الأسود، وفمه الأخضر، ومحجري عينيه المذهبين؛ غطت جسمه رسومٌ تذكر بالطحالب، كما غطته نتوءات غريبة؛ بدت نظرة عينيه الجاحظتين الكئيبة وكأنها تريد أن تنقل لي شيئًا يعود إلى الأزمان السحيقة.

ـ بي الصغيرة، أحضري آلة التصوير! صاح ابن خالي.

هرعت صبية ممشوقة القد، تضع نظارة حمراء وترتدي ثوبًا طويلًا من النسيج الاسكتلندي الملوّن، تحمل آلة تصوير ثقيلة.

ـ بي الصغيرة طالبة بارعة في قسم الفنون في جامعة كيدونغ، ومسؤولة حاليًا عن الشؤون الإدارية في شركتنا، قال ابن خالي بمثابة تعريف.

ـ وليست شابة صغيرة وجميلة فحسب، أضاف يوان الخدّ، بل هي متعدّدة المواهب كذلك، تجيد الرقص، والغناء، والتقاط الصور، وتمارس النحت، وتتحمّل الكحول إلى أقصى حد!

ـ الرئيس يوان يبالغ في إطرائي، قالت الفتاة، وقد احمرّت خجلًا.

ـ رفيقي القديم هذا شخصية خارقة كذلك، بي الصغيرة، تميَّز بداية بسباق الركض، وظننا أنَّه سيصبح عدّاءً من أبطال العالم، مَنْ كان يتصوّر أن ينتهي به الأمر مؤلفًا مسرحيًّا! وتابع يوان الخدّ تعريفه عني إلى بي الصغيرة: «في الأصل، اسمه وان القدم، ولقبه الخبب الوئيد، وحاليًّا يُدعى تيتار».

باختصار، تيتار اسمي ككاتب، قلت.

ـ وتلك الأسد الصغير، زوجة البروفسور تيتار، قال ابن خالي مشيرًا إلى زوجتي، إنَّها اختصاصيّة في الأمراض النسائية والتوليد.

الأسد الصغير، الطفل الصلصالي بين يديها، وذهنها شارد، هزت رأسها.

ـ سمعت الرئيس يوان والرئيس جين يتحدثان عنك، قالت بي الصغيرة.

ـ الضفدع الأوَّل تحت السماء! قال يوان الخدّ.

ـ هذا التمثال من صنع بي الصغيرة، أوضح ابن خالي.

زفرة إعجاب مبالغًا فيها.

ـ أودّ، برفسور تيتار، ألّا تجاملني بنقدك.

جلنا حول التمثال، وشعرت، كلّما توقفت أمام أيّ جزء من جسم الضفدع، أنَّ عينيه الكئيبتين تلاحقانني، وتريانني.

بعد جلسة التصوير، رافقنا يوان الخدّ، وابن خالي وبي الصغيرة، في جولة على مختلف الأحواض: من حوض التخصيب، إلى الشراغيف، فالتحوُّل، وصولًا إلى الضفادع الصغيرة، وزرنا بعد ذلك مصانع إعداد الطعام، وتجهيز المنتج.

تبعًا لذلك، غالبًا ما تراءى لي في الحلم مشهد حوض التخصيب. بلغت مساحته حوالى أربعين مترًا مكعبًا، وامتلأ ماءً عكرًا على علو يقارب خمسين سنتيمترًا؛ على سطح الماء، تعبّئ الذكور رغوة حناجرها البيضاء، وتصدر نقيقًا أشبه بالخوار لجذب الإناث؛ تعوم الأخيرة، أطرافها الأربع مبسوطة، وتقترب ببطء من الذكور. تكون معظم الضفادع قد صُنّفت أزواجًا متماثلة. يحمل الذكر الأنثى على ظهره، يطوف بها على وجه الماء، يعانقها بأطرافه الأمامية، فيما لا تكفّ أطرافه الخلفية عن ضربها على بطنها. يقذف فرج الأنثى كميات من البويضات الشفافة، وفي الآن نفسه، يفرز الذكر سائله المنوي، الشفاف أيضًا، ليتوزع في الماء ـ تخصيب البرمائيات خارجي ـ (يبدو لي أن ابن خالي أبدى تلك الملاحظة، أو ربّما أتت من يوان الخدّ) ويمكن للأنثى في كل حضنة أن تقذف ما بين ثمانية آلاف بويضة إلى عشرة آلاف، وهذا يفوق بكثير ما يقوم به الجنس البشري في هذا المضمار. دوّى في كافة أنحاء الحوض نقيق الذكور، وفترت مياهه بفعل شمس نيسان، وتصاعدت منه روائح كريهة تبعث على الغثيان والتقيؤ. إنه فصل الحب حيث يتشكل الأزواج، وفصل التكاثر للإبقاء على الذرّية.

ولكي تضع الإناث المزيد من البيض، نضيف إلى طعامها منشطات تفعّل الإباضة. نق، نق، نق...

وفيما ضجّت آذاننا من النقيق ذلك الذي يذكّر ببكاء الأطفال، وانطبعت في أذهاننا صورة الضفادع، اقتُدنا إلى غرفة طعام ذات تصميم فخم. قدَّمت خادمتان ترتديان اللون الوردي الشاي، صفتا الأطباق، وسكبتا النبيذ.

ـ سنتناول اليوم وليمةً قوامها الضفادع، لا غير، أعلن يوان الخدّ.

أخذت لائحة الطعام الموضوعة على الطاولة، وقرأت، بالترتيب، اسماء الأطباق التالية: أفخاذ ضفادع بالبهار والملح، جلد ضفادع مقلي، لحم ضفادع مفروم محمّر بالفلفل الحلو الأخضر، شرائح ضفادع مع هريسة الخيزران المجفف، شراغيف بالخل مطهوّة على البخار، عصيدة بيض الضفادع بالساغو...

ـ أعتذر، قلت، لا آكل الضفادع.

ـ ولا أنا، قالت الأسد الصغير.

ـ لمَ لا؟ سأل يوان الخدّ مذهولًا، إنَّها لذيذة، لمَ لا تأكلان منها؟

حاولت أن أنسى عيونها الجاحظة، جلدها اللزج، وذلك الصقيع المغثي الصادر من جسمها، فما استطعت. بعناء، أومأت برأسي نفيًا.

ـ استخرج علماء كوريون أخيرًا من جلد الضفادع الثيران حمضًا أمينيًا قيّمًا للغاية لمنافعه المضادة للأكسدة. يمكنه القضاء على الجزيئات الضارة في الجسم البشري، إنه مادة طبيعية ضد الشيخوخة، أسرّ لي خلسة ابن خالي، جين كسيو. «بالطبع، لذلك الجلد منافع غريبة أُخرى، خصوصًا قدرته على رفع نسبة الحبل التوأمي والمضاعف».

ـ ألا تريدان تذوّق القليل؟ سأل يوان الخدّ، هيا، تذوقا بعض الأطباق، تفضلا! لا نخشى أكل العقارب والعلق والدود والثعابين السامة، ونخاف تناول الضفدع الثور؟

ـ هل نسيت أن لقبي ككاتب هو الشرغوف؟

ـ آه، صحيح! وأمر يوان الخدّ الخادمتين: ارفعا كل الأطباق الموجودة على الطاولة واطلبا من الطباخين تحضير مأدبة أُخرى، ولتكن كل الأطعمة خالية من أي أثر للضفادع!

أُحضِرَت أصناف طعام جديدة، وصُبَّ النبيذ ثلاث مرات.

سألتُ يوان الخدّ:

ـ قُلْ لي، كيف خطر لك أن تربّي الضفادع؟

ـ لتحقيق ثروةٍ، يجدر بالمرء التفكير في أمور لم يتطرق إليها الآخرون! أجاب، سعيدًا بنفسه، ينفث دخان سيجارته.

ـ أنتَ قوي جدًّا، قلت بشيء من السخرية، مقلدًا نبرة ممثل من الدرجة الثانية، منذ طفولتك كنت مختلفًا عن الآخرين. تربية الضفادع أمر جيد، ولكنّ سحب مسمار من كرش ثور، أو توقع المستقبل في السوق بواسطة الأرقام، أو ممارسة التفرّس، شؤون خارقة، أليس مؤسفًا أن تتخلى عن ذلك كله؟

ـ أيّها الشرغوف، صديقي العزيز، عندما نضرب أحدًا، لا نلمس وجهه، عندما نشتمه، لا نكشف سيئاته!

وقالت الأسد الصغير بلهجة قاسية: «من دون أن ننسى الكلّاب الصغير لسحب لوالب النساء!».

ـ آه يا نسيبتي، يجب عدم ذكر هذه القضية. في تلك الفترة، لم

أدرك فعلًا ما كنت أقوم به، إضافة إلى ذلك، قلبي رقيق، فجميع أولئك النساء أردن طفلًا وتصرفن كمجنونات وضايقنني، أضيفوا إلى ذلك الفقر...

وسألت: «هل تجرؤ حاليًا على القيام بالأمر؟».

ـ أيّ أمر؟ سألني يوان الخدّ متعجبًا.

ـ ولكنْ، سحب اللولب!

ـ لا تدرك ما تقول، أتظن أن ذاكرتي ضعيفة؟ بعد كل تلك الأعوام التي أمضيتها في الاعتقال، صرت إنسانًا جديدًا منذ أمد طويل، قال يوان الخدّ. اليوم، صرت أتبع القانون إلى أقصى حد، أكسب مالي بشفافية، ولا أتعاطى بأمور غير شرعية، ولن أفعل حتى لو صُوّب مسدس إلى رأسي.

ثم أضاف ابن خالي: «شركتنا، على الصعيد البلدي، مثالية، نراعي الشأن العام، نسير وفق الضوابط والقوانين، وندفع ضرائبنا بموجب الأنظمة».

طوال الغداء، حملت الأسد الصغير الطفل الصلصالي في حضنها.

واستأنف يوان الخدّ الحديث:

ـ كين هي، ذلك الوغد، عبقري فعلًا! لم يظهر مواهبه يومًا ولم يؤتِ أحد على ذكره، ولكن ما إن فعل، حتى سحق الفنان الكبير، هاو اليدين الكبيرتين.

بي الصغيرة، التي جلست مبتسمةً طوال الوقت من دون أن تقول شيئًا، تدخلت:

ـ كل عمل للمعلم كين مفعم بالانفعالات التي أحسّها.

ـ آه، حقًا؟ لتشكيل تماثيل صلصالية يجب الانفعال كذلك؟ سأل يوان الخدّ.

ـ نعم، بالتأكيد، أجابت بي الصغيرة، كل عمل ناجح هو ابن الفنان.

ـ إذًا ذلك الضفدع الثور الضخم، تابع يوان الخدّ مشيرًا إلى التمثال في الباحة، ابنكِ!

خجلت بي الصغيرة وصمتت عن الكلام.

ـ أإلى هذا الحد تحب قريبتي التماثيل الصلصالية؟ سأل ابن خالي.

ـ ليست التماثيل هي ما تحبّ نسيبتكَ، بل الأطفال الحقيقيون، صوَّب يوان الخدّ.

ـ إذًا سنعمل معًا جميعنا! قال ابن خالي بحماسة، يمكن لابن عمتي أن ينضم إلينا.

ـ أنضمّ إليكما لتربية الضفادع؟ أجبت، بمجرد رؤيتها، يقشعرّ بدني.

ـ ابن عمتي، نحن لا نربّي الضفادع فحسب، نحن...

ـ هيا، لا تُخِف ابن عمتكَ، قاطعه يوان الخدّ، دعونا نشرب! يا صديقي العزيز، هل تتذكر الطريقة التي اعتمدها الرئيس ماو لتعليم «المثقفين من الشباب»[1] في ما مضى؟ «فالأرياف ميدان عمل شاسع، هناك، يبذل المرء كامل طاقاته ويبدع!».

---

(١) أُرسِل طلاب المدارس والجامعات إلى الأرياف أثناء الثورة الثقافية ليتعلموا عيش الحياة الحقيقية قرب الفلاحين.

٣

في ما مضى، أصاب وانغ الكبد، بعد أن أخضع نفسه لمراجعة ذاتية، بقوله إن: الحب مرض. إذا استذكرنا تعبيره عن ذلك الشغف الذي كنه للأسد الصغير، لما تصورنا أن يبقى على قيد الحياة بعد زواجنا. وإذا اتبعنا التحليل المنطقي نفسه، فباستطاعتنا القول إن عشق كين هي للعمة كان شكلًا من أشكال المرض كذلك. حين تزوجت العمة هاو اليدين الكبيرتين، لم يلقِ كين هي نفسه بالنهر، ولم ينتحر شنقًا، لا، بل عبَّر عن ألمه في أعمال فنّية، ووُلِد بذلك فنان شعبي فذ، كرضيع نجا بحياته من الطين.

لم يتجنبنا وانغ الكبد، وكان حتى أوَّل من أتى على ذكر حبه المجنون للأسد الصغير، وتكلم بالموضوع وهو يضحك، كأنه يروي قصة شخص آخر. تصرفه أراحني كثيرًا، مبدّدًا الشعور بالذنب الذي تآكلني طوال أعوام، وشعرت بأنّني أقرب إليه، وكننت له الكثير من الاحترام.

ـ قد لا تصدّقني، قال لي، ولكنْ حين مشت الأسد الصغير حافية على رمال ضفة النهر، انبطحت ورحت أشمّ آثار قدميها كجروٍ صغير، فيما سالت دموعي، سالت...

ـ تلك مبالغة من ابتكارك، قالت الأسد الصغير، وقد احمرّت خجلًا.

ـ أُقسم إنها الحقيقة، أضاف وانغ الكبد بكل جدية، وإن كنت أكذب، فلتنبت الدمامل على أطراف شعري!

ـ اسمع هذا، قالت لي الأسد الصغير همسًا، وما زلت تبحث عن صور خيالية! الأجدى القول مثلًا: «فليصب ظلي بالرشح!»

ـ ذلك تفصيل مهم، قلتُ يجب عليَّ أن آتي على ذكرك في مسرحيتي!

ـ شكرًا، قال وانغ الكبد، يجب فعلًا أن تذكر في مسرحيتك كل الأمور السخيفة التي قام بها الأبله المسمّى وانغ الكبد، لن تنقصك المادة.

ـ إن تجرّأت وتحدثت عني، فسأحرق مخطوطتك، قالت الأسد الصغير.

ـ يمكنكِ أن تحرقي الكلام على الورق، ولكنْ ليس القصيدة الموجودة في قلبي.

ـ ها أنتَ ذا تلعب مجددًا دور المتكلّف، ردّت الأسد الصغير. وانغ الكبد، أعتقد اليوم أنه كان يجدر بي أن أتزوجك بدلًا من الخبب الوئيد، أنت على الأقلّ، بكيت من أجلي، نائمًا على آثار قدمي على الرمل.

ـ قريبتي، إيّاكِ وهذه المزحة النابية، تشكلين والخبب الوئيد زوجين لا مثيل لهما.

ـ آه، هذا صحيح، قالت الأسد الصغير، لأننا لم نفلح حتى في إنجاب طفل، ومع ذلك، إن لم نكن زوجين فريدين، فما نحن إذًا!

ـ حسنًا، كفانا كلامًا عنا، أخبرنا عن أحوالكَ، طوال تلك الأعوام، ألم تبحث عمن ترتبط بك؟

ـ حين شُفيت، اكتشفتُ أنني لا أحبُّ النساء.

ـ إذًا أنت مثلي؟ قالت الأسد الصغير ممازحةً.

ـ لست مثليًا، ولا متباين الجنس، قال وانغ الكبد، لا أُحِبّ إلا

نفسي. أعشق ذراعي، وقدمي، ويدي، ورأسي، ووجهي، وأعضاء حواسّي، وأعضائي الأساسية، وأعضائي الثانوية[1]. أحبُّ حتى ظلي، وإضافةً إلى ذلك، أحدّثُهُ أحيانًا كثيرة.

ـ لا شك في أنَّك أصبتَ بمرضٍ آخر، قالت الأسد الصغير.

ـ حين نحبُّ شخصًا، علينا أن ندفع ثمنًا، ولكنْ أن يحب المرء نفسه، لا يكلّفه ذلك شيئًا. أحبُّ نفسي كما يحلو لي. أنا سيّد نفسي...

اصطحبني وانغ الكبد والأسد الصغير إلى مكان سكنه وكين هي. على الجدار فوق المدخل الرئيس، علقت لافتة كُتِب عليها: «محترف المعلّم».

أقاما في الواقع في الإسطبل الذي كانت تربى فيه الماشية أيّام الكومونة الشعبية، مكان كنت أقصده غالبًا لألعب. ما زلت أذكر رائحة روث البقر والزبل التي انبعثت منه نهارًا وليلًا؛ في الفناء، توجد بئر، وقربها، حوض كبير. كل صباح، كان فانغ العجوز، المسؤول هناك، يخرج الحيوانات بالدور لتشرب من الحوض. وكان مساعده، دو الصغير، يقف قرب البئر ويغرف منها الماء بدون توقّف ليملأ الحوض. كان الإسطبل فسيحًا ومنيرًا، اصطفّ فيه حوالى عشرين معلفًا. الأوَّلان، وكانا عاليين وعريضين، خُصّصا للبغال والأحصنة. أمّا البقية، وكانت منخفضة، فللأبقار.

لحظة ولجنا الفناء، لحظت أن عشرات الأوتاد الخشبية التي كانت تُربط إليها الماشية ما زالت موجودة، وعلى الجدران، يمكن إلى حد

---

(١) أعضاء الحواس: العينان، الأذنان، الأنف، الفم، القلب؛ الأعضاء الأساسية: القلب، الكبد، الرئتان، الطحال، الكليتان؛ الأعضاء الثانوية: المعدة، المعي الغليظ، المعي الدقيق، الحويصلة الصفراوية، الأحشاء، المثانة.

ما رؤية شعارات تلك الحقبة، وحتى الروائح التي انطبعت فيها تلك الأمكنة، لم تختفِ نهائيًا.

ـ بداية، حُكِي عن هدم المكان، قال وانغ الكبد، لكنَّ السلطات التي أتت للتحقق ميدانيًا قررت الحفاظ على القرية كما كانت أيام الكومونة الشعبية لتحيلها معلمًا سياحيًا، ولذلك أُبقي المكان على حاله.

ـ ستُربى فيه الماشية مجددًا؟ سألت الأسد الصغير.

ـ أستبعد الفكرة، لا؟ قال وانغ الكبد، ونادى: كين العجوز، أيها المعلم كين، لديك زائران مميزان!

لم يُسمع صوت في المبنى. تبعنا صديقي إلى الداخل.

في الواقع، المعالف الحجريّة، الدعائم التي كانت تُربط إليها الحيوانات، ما زالت في مكانها، وكذلك الحفر التي سببتها حوافر البغال والأحصنة، وعلى الجدران بقايا روث يابس؛ المرجل الضخم الذي كان يطهى عليه الطعام، هنا، وكذلك الكانغ الكبير الذي تلاصق عليه أبناء فانغ الستة. قضيت ليالي كثيرة على هذا الكانغ، وكان ذلك في عز الشتاء، والمياه التي تدلف تتحول جليدًا. عاشت عائلة فانغ في فقر مدقع، لم تملك بطانيات، فكان فانغ العجوز يضيف باستمرار حشيشًا يابسًا إلى الموقد تحت الكانغ لتخفيف حدة الصقيع. كان الكانغ حارقًا أكثر من صفيحة لتحميص الكعك. اعتاد أبناء فانغ الأمر، فناموا ملء جفونهم، أمّا أنا، فكنت أدور وأدور، من دون أن يأتيني النوم.

وُضِعَ عليه اليوم فراشان لسريرين مع مستلزماتهما، وأُلصِقت على الجدار فوقه صور لـ «رأس السنة»، تمثل ليكرنة واهبة للأبناء، ونخبوي فائز بمسابقة الحاكمية يتبختر في الطرقات. رأينا على معلفين لوح

خشب سميكًا، وُضِع عليه صلصال وأدوات، ووراء اللوح مقعد جلس عليه كين هي، صديقنا القديم.

ارتدى ثوب العمل القطني الأزرق من دون بطانة، وقد تلوّن كمّاه والجهة الأمامية منه بشتى الألوان. كان شعره أبيض ناصعًا، مع الفِرق نفسه في الوسط، وفي وجهه الفروسي، بدت عيناه الواسعتان موسومتين بحزن عميق. عند دخولنا، رفع رأسه، رمقنا بنظرة خاطفة، تحركت شفتاه وكأنه يرحّب بنا. ثمّ عاد إلى الوضعية نفسها، خدّاه مُسندان إلى يديه، نظره مركز على الجدار وكأنه يفكر.

على رُغمنا، قطعنا أنفاسنا، تكلمنا همسًا، وتقدمنا بحذر، خوفًا من أن نؤتي حراكاً يُزعج المعلم في تأمّله.

جلنا بدلالة وانغ الكبد على مختلف التماثيل. وُضِعت الأعمال غير المنتهية في المعالف لتجف. تلك التي جفت وتنتظر التلوين صُفَّت على رفوف طويلة على الجدار الشمالي. أولئك الأطفال ذوو الأشكال المختلفة، حيّونا من عمق المعالف حيث يرقدون، وعلى الرغم من أن المعلم لم يلوّنها بعد، لم تبدُ أقلَّ حيوية.

وأسَرَّ لنا وانغ الكبد أن المعلم يبقى طوال الأيام جالسًا بهذه الطريقة، كأنه مسمّر، وأحيانًا لا ينام ليلًا. ولكنْ يحدث له، في ساعة معينة، وكأن آلية تحركه، أن يعجن الصلصال الموضوع على لوح العمل ليحافظ على طراوته وتجانسه. بإمكان المعلم أن يبقى جالسًا طوال النهار لا يفعل شيئًا، لا يشكّل أي تمثال، ولكنْ متى بدأ العمل، أتت حركته سريعة للغاية.

ـ حاليًّا، أنا موزع أعماله وكبير خدمه كذلك، قال وانغ الكبد، لقد وجدت أخيرًا العمل الذي يناسبني، كما وجد المعلم عمله.

وأضاف:

ـ متطلبات المعلم قليلة، يأكل ما أقدمه له. طبعًا، أشتري له الأطعمة المغذية التي تعود بالفائدة على صحته. فالمعلم ليس فخر كانتون دونغبي وحده، بل المقاطعة كاملةً.

وتابع:

ـ في أحد الأيام، لحظت عند منتصف الليل أن المعلم غير موجود على الكانغ؛ مذعورًا، أشعلت النور بحثًا عنه، فلم أجده إلى طاولة العمل، ولا أثر له في الفناء كذلك. إلى أين يمكنه أن يذهب؟ تعرقتُ من شدة الخوف، إذا أصاب المعلم مكروه، فتلك خسارة كبيرة لكانتون دونغبي. وذلك لأنَّ رئيس المقاطعة أتى ثلاث مرات إلى هذه الباحة برفقة مدير مكتب الشؤون الثقافية ومدير مكتب السياحة. أتعلمان من يكون رئيس المقاطعة؟ إنَّه أصغر أبناء السكرتير الأسبق للجنة الحزب في المقاطعة، يانغ لين، الذي شهد عذابات كثيرة، وكانت له علاقات لا أعرف عنها الكثير بعمتنا العزيزة. اسم الشاب يانغ كسيونغ، وهو موهوب، نظرته ثاقبة، أسنانه بيضاء للغاية، تنبعث منه رائحة تبغ فاخر، ويقال إنَّه درس في ألمانيا. في المرة الأولى التي زار فيها المكان، قرر بحزم عدم هدم الإسطبل، في المرة الثانية، دعا المعلم إلى مأدبة في مركز المقاطعة، والأخير، متشبثًا بدعامة كانت تُربط إليها الخيول، أبى الذهاب، كما كان يفعل أولئك الرجال الذين كانوا يرفضون الخضوع لعملية قطع القناة. في المرة الثالثة، قدم رئيس المقاطعة للمعلم لوحةً وشهادةً كذلك يعترف فيهما بمنحه لقب المعلم في مادة الحرف اليدوية للفنون الشعبية.

أخرج وانغ الكبد اللوحَةَ النحاسية الذهبية، والشهادة المغلفة

بتلبيسة من المخمل الأزرق، الموضوعتين في أحد المعالف. وقال:

ـ بالطبع، حاز هاو اليدان الكبيرتان التكريم نفسه، وهو أيضًا لم يلبِّ الدعوة إلى المأدبة التي أُقيمت على شرفه، ولو فعل، لما كان هاو اليدين الكبيرتين الذي نعرفه. وكلَّما تطورت الأمور، نظر رئيس المقاطعة الشاب بعين الاستحسان إلى الرجلين الكبيرين في كانتوننا.

تناول وانغ الكبد من جيبه حزمة بطاقات زيارة، أخذ ثلاثًا منها وقال:

انظرا، كلَّما أتى، ترك لي واحدةً قائلًا: «عزيزي وانغ، يحفل كانتون دونغبي بالنسور وطيور الفينيق، فأنت كذلك، وانغ العزيز، شخصية بارزة!»، فأجبت على ذلك: «أمضيتُ نصف عمري في الفاقة، وخلفتُ ورائي سمعة سيئة، باستثناء حبّ فاشلٍ ذاع صيته، لا أملك شيئًا في رصيدي، واليوم أعيش من بيع التماثيل بفضل كلامي المعسول». أوتعلمان بما ردَّ عليّ؟ قال: «إنّ مَنْ يستطيع أن يَصرف كامل طاقاته طوال نصف عمره على الحبّ، شخصية أسطورية بحد ذاتها. لطالما أعطى كانتون دونغبي مواهب فذة، خارجة عن المألوف، وبرأيي، أنتَ إحداها». ممّا لا شك فيه أن ذلك الرجل موظف كبير من الطراز الجديد، يختلف تمامًا عمّن عرفناهم سابقًا. سأعرّفكما إليه في أقرب مناسبة. أوكل إليّ مهمّة الاهتمام بالمعلم في الحياة اليومية، والسهر على سلامته. لذلك، حين استيقظت ليلًا ولحظت اختفاء الأخير، كدَّني العرق، وقلت في نفسي: إن حصل أي شيء للمعلم، فكيف أفسّر لرئيس المقاطعة إخلالي بمهمتي؟ جلست أمام الموقد، أتأمل ضوء القمر المتلالئ في الغرفة. في الظل وراء الموقد، أطلق جدجدان صريرهما الحاد، مضيفين نوتة كئيبة على المشهد. سمعت

آنذك ضحكةً تصعد من أحد المذاود. وَثَبْتُ كالمجنون، ونظرت: في الواقع، كان المعلم هناك، مستلقيًا على ظهره. وبما أنَّ المزود صغير، طوى رجليه على ما يفعل ممارسو اليوغا ذوو الإنجازات الخارقة، يداه مكتوفتان على صدره، وبدا هادئًا، الابتسامة تعلو وجهه، دنوت وأنعمت فيه النظر، فتأكدت أنَّه ينام ملء جفنيه؛ في الواقع، تلك الضحكة أطلقها في الحلم. أوتعلمان أن الأشخاص الموهوبين في كانتون دونغبي يعانون الأرق الحاد، ومع أنَّ وانغ الكبد ليس إلّا نصف عبقري، يعاني منه كذلك. لا أعرف إن كانت تلك حالكما؟

تبادلت والأسد الصغير النظر، ثمّ أومأنا برأسينا نفيًا.

ـ لا نشكو أرقًا، ما إن نضع رأسينا على الوسادة، حتى يُسمع شخيرنا، إذًا لسنا عبقريين.

ـ ليس جميع الأَرِقين عباقرة، ولكن معظم العباقرة يعانون أرقًا، أوضح وانغ الكبد. سهاد العمة مشهور في الكانتون، في عز الليل، عندما يسود الصمت في الريف المقفر، يعلو أحيانًا صدى غناءٍ أجش، إنَّه صوت العمة. فيما تجوب الطرقات على هذه الحال ليلًا، تؤدّي دور المروبص، ينصرف هاو اليدان الكبيرتان إلى تشكيل تماثيله الفخارية. أرقهما دوْري، يختلف باختلاف دورة القمر. يبلغ ذروته حين يسطع القمر بدرًا، وعندما يأفل، يستطيعان النوم أخيرًا. لهذا السبب، رئيس المقاطعة الشاب، الموهوب بالصور المجازية، سمّى تماثيل هاو اليدين الكبيرتين الفخارية، «أطفال ضوء القمر». وقد أَوْكَلَ يومًا إلى قناة تلفزيون المقاطعة تصويره مشكّلًا تماثيله الصلصالية تحت ضوء القمر. ألم تشاهدا هذا البرنامج؟ لا؟ لا تأسفا على ذلك. إنهَّا سلسلة تلفزيونية أولاها رئيس المقاطعة شخصيًّا اهتمامًا كبيرًا، وعنوانها: شخصيات فريدة من كانتون

دونغبي. خُصّصت الافتتاحية لـ «أطفال ضوء القمر» للمعلم هاو، عُنوِن الجزء الثاني «المعلم في المذود»، حكى الثالث عن «شخصية نادرة تتكلَّم بفصاحة»، وحمل الرابع عنوان «المغنية وسط نقيق الضفادع». إذا أردتما مشاهدتها، فبإمكاني الاتصال بالمحطة لتسليمكما قرصًا مدمجًا ـ نُسَخ المشاهد ـ وقد أقترح أن تجري القناة حلقةً عنكما، وفكَّرت بالعنوان حتى: «المسافر التائه يعود إلى طريق الصواب».

ضحكتُ والأسد الصغير، نتبادل النظر، وقد عرفنا أنَّه بدأ يبالغ في الابتكار، ولا يمكن معارضة ما يقول، فما النفع؟ إذًا، لنستمع إلى المزيد:

ـ المعلم الذي قاسى من الأرق منذ أعوام طويلة، نام أخيرًا في المذود ملء جفنيه، مطمئن البال كطفل، مثل ذلك المولود الجديد الذي، في غابر الأزمان، وُجِد يطوف في مجرى النهر، ممددًا في مذوده الخشبي. تأثرتُ للغاية إلى حدّ نفور الدمع من عيني. وحدهم الأرقون يدركون الآلام المتكبَّدة والفرح المتأتي من القدرة على النوم. سهرت عليه، يقظًا، قرب المعلف، وحبستُ أنفاسي خشية إحداث أي ضجيج قد يوقظه مرتجفًا. شيئًا فشيًا، غشت الدموع نظري، وبدا لي أن طريقًا ضيقًا يظهر أمامي، تحدّه من الجانبين الأعشاب المخضوضرة، والزهور البرية الملونة، يفوح منها أريج رائع، مُسْكِر، حامت الفراشات، وطنَّ النحل. إلى الأمام، ناداني صوت، صوت امرأةٍ أخَنّ للغاية، خلته يترجرج، لكنَّه بدا لي مألوفًا. سِرْتُ، أهتدي بالصوت، لم أرَ الجزء العلوي من المرأة، ظهر لي الجزء السفلي، فحسب: ردفان ممتلئان، مستديران ككرتين، فخذ نحيلة، عقبٌ أحمر كالدم؛ ذلك العقب، وهو يطأ الوحل الرطب، ترك آثارًا قليلة العمق، جليةً بشكلٍ لا مثيل له، تُظهر

خطوط كعب الرجل. وكنتُ أتبعها، أتبعها، كأن الطريق لا نهاية له... رويدًا رويدًا، انتابني شعور بأنني أمشي برفقة المعلم، أجهل في أيّ لحظة وفي أيّ مكان انضم إليَّ. تبعنا العقبين الأحمرين، إلى أن وصلنا إلى منطقة كثيرة المستنقعات، حيث حمل الهواء الذي هبّ من الوسط رائحة الطمي والأعشاب العفِنة؛ تحت أقدامنا، كانت هنالك باقات من نبات السُعْد، إلى البعيد، شاهدنا حلقات من القصب والأكور، ونباتات نادرة أُخرى أجهل أسماءها. من عمق المستنقع، علا صراخ أطفال وضحكاتهم المرحة، والمرأة التي لم يظهر منها إلا جزؤها السفلي، صاحت بصوتها المغناطيسي باتجاه المستنقعات: «أيتها المسوخ الكبيرة والصغيرة، أيتها الأثواب الموشّاة بالذهب، والأحزمة المرصّعة باليشم، مَنْ نال حظوةً فليكن شاكرًا، ومَنْ وجبت عليه ديون، فليدفعها...». ما إن أنهت كلامها حتى رأيت جمهرة من الأطفال، أردافهم ظاهرة، لا يرتدون إلّا مئزرًا أحمر يغطي بطونهم، يصعدون مهرولين بأقصى سرعة من أعماق المستنقع. كان لبعضهم ضفيرة مرفوعة نحو السماء، البعض الآخر حليق الرأس تمامًا، وآخرون لهم ثلاث شرّابات من الشَعر صغيرة، وأطلقوا معًا هتافات سرور. بدت أجسامهم ذات وزن، وسطح المستنقع غشاه غطاء بلاستيكي بحيث، أثناء هرولتهم، اكتسبت كل دعسة من أقدامهم قوة ارتداد قوية؛ خلتهم كناغر تقفز وتنط. فتيان وفتيات أيضًا أحاطوني والمعلم طبعًا؛ فتيان وفتيات أيضًا تشبثوا بأقدامنا أو قفزوا على أكتافنا، وإن لم يقرصوا آذاننا، أو يشدّوا شعرنا، نفخ بعضهم على عنقينا، وبصق البعض الآخر في عيوننا؛ فتيان وفتيات أيضًا طرحونا أرضًا؛ فتيان وفتيات أيضًا غرفوا وحلًا وغطوا به جسدينا، ولطخوا كذلك أنفسهم... ولا أدري كم مضى من الوقت قبل أن يهدأوا جميعًا، فتيانًا

وفتيات، ليتحلقوا أمامنا في نصف دائرة؛ بعضهم انبطح على بطنه، البعض الآخر جلس أو ركع، منهم من أسند خديه إلى يديه، البعض عضّ أصابعه، وآخرون فتحوا أفواههم... باختصار، ضجّوا حياةً، كل منهم في وضع مختلف. يا للسماء، أليست تلك نماذج تُعرض على المعلم؟ رأيتً الأخير يباشر العمل، حدّق بأوّل طفل، غرف الوحل، عجنه، شكّله، وأتت النسخة طبق الأصل عنه. وكلَّما أنهى تشكيل تمثال على شكل أحدهم، تفرَّس بآخر، غرف الوحل، عجن، وعجن، وها هو ذا التمثال يظهر، مشابهًا تمامًا...

«صاح ديك، استيقظت متفاجئًا، وأدركت أنني غفوت، متهاويًا على حافة المذود. اللعاب الذي سال من فمي لطخ ثياب المعلم أعلى الصدر. يعرف الأرِق أنَّه نام إذا استطاع تذكر أحلامه. كان المشهد ذاك حاضرًا أمام عيني، وذلك يثبت أنني نمت حقًّا». وانغ الكبد الذي عانى الأرق منذ أعوام، غفا، من كان يصدق، على حافة المعلف، يا للحدث السعيد الذي يجب الاحتفال به بطبلٍ وزمر! «ما أسعدني أكثر، طبعًا، أن المعلم نام.عطس، فتح عينيه ببطءٍ، ثمَّ، كأنَّه تذكَّر شيئًا مهمًّا، وثب من المذود. كان الفجر قد بدأ ينبلج، ووميض الشفق ينساب من النافذة، ركض المعلم إلى طاولة العمل، أزال الغطاء البلاستيكي الذي يلف الصلصال بعناية، اقتطع منه جزءًا، وراح يعجن، ويشكّل، يعجن، ويشكّل، أيضًا وأيضًا، إلى أن ظهر على اللوح أمامه طفل عفريت، يرتدي مئزرًا صغيرًا، وله جديلة منتصبة على رأسه. شعرتُ بتأثر عميق، وخُيّل إليَّ أنَّني أسمع مجددًا صوت المرأة المغناطيسي، من تكون؟ ليست بالطبع إلّا إلهة الرحمة التي تهب الأبناء!».

عند هذه النقطة من روايته، امتلأت عينا وانغ الكبد دمعًا، ولحظتُ

من جهة أُخرى أنَّ عيني الأسد الصغير تلمعان ببريق غريب، أَسَرَتْها القصة.

وتابع وانغ الكبد سرده:

«ذهبتُ على رؤوس أصابعي وجلبتُ آلة التصوير، لم أجرؤ على استخدام الومّاض، وأخذت سرًّا عدة صور للمعلم وهو يبتكر تحت وطأة الإلهام. في الواقع، لو أُطْلِقَت رصاصة قربه، لما أَخرَجَتْهُ من وضعه على الأرجح. تبدلت تعابير وجهه من دون انقطاع، بدا مرّةً حزينًا، ومرّةً فرِحًا، بدا أحيانًا وكأنه يحضّرُ مكيدة، وظلَّ أحيانًا أخرى صامتًا، حزينًا. أدركتُ سريعًا أن الانطباعات على محيّا المعلم ترتبط بانفعالات التماثيل، بمعنى أنَّ المعلم، كلَّما شكَّل طفلًا، غدا ذلك الطفل، ارتبط قلبًا وقالبًا بالطفل الذي يبتكره.

راح عدد الأطفال على اللوح يزيد، واحدًا بعد واحد، ليليهما آخر. فتيان، وفتيات طبعًا، اصطفوا في نصف دائرة أمام المعلم، على ما تراءى لي في الحلم! فوجئت وفرحتُ إلى أقصى حد. لم أتوقف عن التنهد من شدّة التأثر. يُمكِنُ إذًا لشخصين أن يحلُما الحلم نفسه! «اتحاد روحين»[1]، تلك العبارة التي استخدمها الأقدمون لوصف حالة العشق بين الرجل والمرأة، تنطبق تمامًا على ما حصل بيني وبين المعلم. طبعًا، ليس شعورًا بالحب، بل توافق بين رفيقين جمعهما البؤس.

«بعد كل ما ذكرت، يمكنكما أن تفهما لِمَ يختلف كل تمثال يشكّله المعلم عن التماثيل الأُخرى، سرُّه أنَّه لا يستوحي أشكال أولئك الأطفال من الحياة فحسب، بل من الحلم أيضًا. وإن كنتُ لا أملكُ

(١) عبارة وردت في قصيدة الشاعر لي شانغيين (٨١٣- ٨٥٨).

موهبته، لكنَّ ذهني يتوقَّد خيالًا، عيني كآلة تصوير، بمقدوري أن أحوّل طفلًا واحدًا إلى عشرة أطفال، مئة طفل، ألف طفلٍ آخر، وفي الوقت نفسه، يمكنني أن أجمعهم في واحد. بواسطة الحلم، أنقُلُ للمعلم صور الأطفال المختزنة في عقلي لتتحوَّل بفضله إلى أعمال فنية. لذا أقول إنني والمعلم زميلا عمل رائعان، ومن هنا نستطيع القول كذلك إنَّ تلك الابتكارات عملُنا الجماعي المشترك. لا يعني ذلك أنني أبخس المعلم حقه، لكنني مذ عرفت تجربة الحب تلك، فهمتُ سير الأمور وأحوال البشر، وعليه، فالأمجاد والألقاب والثروة والمناصب ليست بالنسبة لي أكثر من غيم عابر. أخبرتكما ذلك لألقي الضوء على تلك المعجزة، لأظهر الروابطَ القائمة بين الحلم والابتكار الفني، كي تُدرِكا أنَّ الحبَّ الفاشل غنيّ، خصوصًا بالنسبة للفنان، ومَنْ لم يخضع لذلك الامتحان الصعب، فلن يُدرِك قمم الفن».

طوال ذلك الوقت الذي استغرقه وانغ الكبد ليروي لنا قصته، لم يغير المعلم قعدته، أسند خدّيه إلى يديه، من دون أن يتحرك، وكأنَّه هو أيضًا، تحوَّل تمثالًا من فخار.

٤

أرسل لنا وانغ الكبد مجموعة الأقراص المدمجة عن السلسلة المتلفزة «شخصيات فريدة من كانتون دونغبي». سلَّمنا إيّاها فتى صغير، ارتدى سروالًا قصيرًا مع حمالات، مظهرًا ساقين طويلتين ذكّرتاني ببينوكيو، وحذاءين جلديين عاليين يبدوان ثقيلين. كان شعره بلون الكتّان، حاجباه ورموشه شبه بيض، بؤبؤاه أزرقان رماديان، يدرك

الناظر إليه توًّا أنَّه من عرق أجنبي. سارعت الأسد الصغير وقدمت له الحلويات، لكنَّ الفتى وضع يديه خلف ظهره وقال بلهجة محلية صرف: «قال إنكما ستعطياني عشرة يوانات على الأقل».

أعطيناه عشرين. شكرنا الفتى باحترام قبل أن ينصرف مهرولًا على السلالم وهو يصفر. انحنينا إلى النافذة وشاهدناه، مثل شخصية من الرسوم المتحركة، يسير بخطوات كبيرة نحو مدينة الألعاب الواقعة مقابل المنطقة السكنية، وقد أنشئت فيها لعبة «الجبال الروسية» التي كنا نلمح أحيانًا آلاتها تصعد وتنزل.

وفيما كنا نتنزه بعد بضعة أيام على ضفة النهر، التقينا الصبي. رافقته امرأة بيضاء، فارعة الطول، تجرّ عربة أطفال. لبس الفتى وفتاة صغيرة معه ـ بدا أنَّها أخته ـ مزالج ذات بكرات في أقدامهما، على رأسيهما خوذتين بلاستيكيتين ملوّنتين، وحاميات على مرفقيهما وركبتيهما، وتزلجا حذرين. سار وراء المرأة رجل متوسط السن، تكلَّم على هاتفه الجوال بالصينية، مع لكنةٍ جنوبية عذبة. تبِعه كلب ذهبي الوبر. عرفت الرجل فورًا: إنَّه بروفسور مشهور يعلّم في جامعة بكين، وشخصية اجتماعية مرموقة نشاهدها أحيانًا كثيرة على التلفاز. كالعادة، أحنت الأسد الصغير رأسها الكبير فوق الطفل الأجنبي ذي العينين الزرقاوين الموجود في العربة. ابتسمت المرأة، بدت دمثة الأخلاق، فيما علت وجه البروفسور علامات الازدراء. سارعتُ وجذبتُ الأسد الصغير من يدها لتبتعد عن العربة. صَبّت تركيزها على الطفل، ولم تنتبه أبدًا إلى تعابير البروفسور. أومأت برأسي للأخير بمثابة اعتذار، فهزَّ رأسه قليلًا. لفتُّ الأسد الصغير إلى الموضوع وطلبتُ منها ألّا ترتمي كذئب الحكاية على جميع الأطفال الظرفاء الذين تلتقيهم. «حاليًّا،

جميع الأولاد أثيرون لدى ذويهم، وأنتِ تنظرين إليهم نظرة اشتهاء، من دون أن تبالي بالتعابير على وجه الأهل». شَعَرَت بالغبن، وبدأت تتهجّم على المحظوظين الذين يتخطون كما يحلو لهم الكوتا التي حدّدها التخطيط الأُسري، وعلى الصينيين، نساءً ورجالًا، الذين يتزوجون من أجانب ويُنجبون ساعة يشاؤون. ثمّ لامت نفسها لأنها امتثلت للعمة في تطبيق سياسة تحديد النسل القاسية، فسبّبت إجهاض عشرات الأجنّة. أضرَّت بذلك بقوانين الطبيعة، وجرَّت على نفسها عقوبة إله السماء، لذا لم تُنجِب. وقالت لي بعد ذلك إنَّها تأمل أن أتزوج أنا أيضًا أجنبيةً لأُرزق بعدد كبير من الخلاسيين:

«الخبب الوئيد، تلك هي الحقيقة، لست غيورة مطلقًا، تزوج أجنبية، أنجبا بكلّ حرّية، قدر ما تستطيعان، وامنحاني أطفالًا، سأساعدكما على تربيتهم...». اغرورقت عيناها بالدموع، تقطعت أنفاسها، علا قليلًا صدرها المكتنز، غير أن غريزة الأمومة التي تسكنها لم تجد سبيلًا لتفيض على سجيّتها. أُراهن أنَّها لو أُعْطِيت طفلًا في تلك اللحظة لدَرَّت حليبًا.

كان الوضع على هذه الحال عندما أدخلت في الجهاز القرص المدمج الذي أرسله وانغ الكبد. وعلى أنغام أوبرا «شا»[1](*) التي قد يجدها الأشخاص الغريبون عن كانتوننا غير متسقة، ولكن نحن، أبناء المنطقة، تبكينا بكاءً مرًّا، دارت أمام أعيننا قصّة حياة العمّة والفنّان نحّات الصلصال، هاو اليدين الكبيرتين.

يجب أن أعترف صراحةً بأنني، في أعماقي، عارضت زواج العمة

(١) مسرحية مغنّاة تقليدية وشعبية في منطقة شاندونغ.

(*) الهر.

هذا، وإن لم أعبّر يومًا عن ذلك علنًا. شاركني الرأي والدي، وإخوتي وزوجاتهم. وجدنا أنَّهما غير متلائمين. كنا ننتظر منذ نعومة أظفارنا، زواج العمة، وحملت إلينا قصتها مع وانغ كسياوتي مجدًا هائلًا، لكنَّ نهايتها كانت فاجعة لا مثيل لها. وإن لم تكن علاقتها بيانغ لين على مستوى آمالنا، فإنّها أرضتنا على اعتبار أن يانغ أحد كبار الموظفين. حتى لو تزوجت كين هي الذي أُغرم بها حدَّ الجنون، مقارنةً بهاو اليدين الكبيرتين ذلك... في الحقيقة، توقعنا أن تظل العمة عزباء، وتناقشنا في ما بيننا حول مَنْ سيهتم بها عندما تشيخ ويقيم جنازتها عند موتها. وها هي العمة فجأةً تتزوج هاو اليدين الكبيرتين. كنت والأسد الصغير في تلك الحقبة في بكين، فوجئنا بدايةً، وجدنا الأمر غير معقول بالتالي، لنستسلم للحزن أخيرًا.

عُنوِنت الحلقة التي كنا نشاهدها: «أطفال ضوء القمر»، ووفق العنوان، كان يُفترض أن تتحدث عن نحّات الصلصال، ولكنْ، في الواقع، أدّت العمة الدور الرئيس. منذ دخول الصحافيين إلى الفناء، مرورًا بالأقسام التي تكشف محترف هاو اليدين الكبيرتين، وصولًا إلى المستودع الذي يخزن فيه تماثيل الفخار، احتلت العمة صدارة الصور. فيما كانت تتحدث وتشرح مشيرةً بيديها بطريقة مؤثرة، كان هو يجلس صامتًا إلى طاولة العمل، ينظر في الفراغ، وجهه خالٍ من أيّ تعبير، مثل حصانٍ مسنّ تراءى في الحلم. هل يتصرف جميع الفنانين نحّاتي الصلصال بهذه الطريقة حين يبلغون ذروة عطائهم؟ على الرغم من أنَّ شهرة المعلم هاو فاقت بقوتها قصف الرعد، وعلى الرغم من جهودي الحثيثة للتذكر، بدا لي في الحقيقة أنني لم أره إلّا مرات قليلة في حياتي. في الليلة التي أُقيمت فيها مأدبة على شرف ابن

أخي كسيانغكون للاحتفال بـ «تجنيده في القوات البحرية»، لمحته في الظلام، ومذ ذاك، ما عدنا التقينا. وعلى ذلك كنت أشاهده للمرّة الأولى منذ أعوام، وعلاوةً على ذلك، على الشاشة الصغيرة. كانت لحيته وشعره أشيبين، ولكن وجهه كان مشرقًا، وبدا هادئًا، لطيفًا، وتميَّز حتى بأناقته. تلك الحلقة جعلتنا نفهم، على عكس ما توقعنا، الأسباب التي دفعت عمتي إلى الزواج به.

أشعلت العمة سيجارة، مجَّت منها مجّة طويلة، وقالت بنبرة تميل إلى الحزن:

«الزواج تقرره السماء. إن كنت أقول ذلك لكم، أنتم الشباب، فليس لأعظكم بمثالية معيّنة ـ كنتُ في ما مضى مادّية متشددة ـ ولكنْ في ما خصَّ الزواج، لا يمكننا ألّا نؤمن بالقدر. هيّا، اسألوه هو، وأشارت العمة إلى هاو اليدين الكبيرتين الجالس بوقار، أشبه بتمثال إله. هل كان يتصوّر، حتى في أحلامه، أن يتزوجني؟

«في العام ١٩٩٧ بلغت الستين، تابعت العمة، وطلب مني مرؤوسيَّ أن أتقاعد. لم أرغب في ذلك طبعًا، لكنني كنت قد ظللت في الخدمة خمسة أعوام أكثر من الآخرين، وما عدت أملك حجة لأبقى. ورئيس المركز الطبي، تعرفونه جميعكم، هو ذلك الفظ الناكر للجميل، ابن هوانغ البشرة من قرية هكسي، ذلك السخيف الذي يحمل اسمًا رسميًّا هو هوانغ جون، ولقب «خيارة»[1]؛ تصوروا أنني أنا من سحبت ابن العاهرة ذاك من بطن أمّه. تابع بضعة صفوف أوليّة في مدرسة

---

(١) تلاعب بالألفاظ (جناس) على أسماء الشخصيات: الاسم هوانغ يعني أصفر، وهوانغ البشرة، اسم الأب، يعني إذًا «البشرة الصفراء»، الاسم المُعطى لمَنْ تعاملوا مع اليابانيين؛ لقب الابن «خيارة»، يُلفظ هوانغغوا، أي «اليقطينة الصفراء».

للممرضين، وذلك الأبله لا يعرف حتى موضع القلب والرئتين حين يفحص مريضًا، والأمر ينطبق على العروق حين يريد أن يحقن أحدهم، ولا يعرف المواضع[١] الدقيقة لجسّ النبض، وعلى الرغم من ذلك، مَنْ كان يتخيّل، غدا مدير المركز! يوم كان في مرحلة التدريب المهني، أنا مَنْ قصد شين، رئيس مكتب الصحة العامة والنظافة، ليتوسّط له، والآخر، «ما إن وطَّد نفوذه، حتّى تنكَّر لمعارفه القديمة». ذلك الرجل لا يعرف شيئًا، لكنه يتمتع بخاصّتين: أوَّلًا إقامة الولائم وتقديم الهدايا ومدح الناس، وثانيًا الإيقاع بالشابات البسيطات لمصلحة الأوّل».

عند هذه النقطة من روايتها، لطمت العمة صدرها بقبضتيها، وخبطت الأرض بقدميها.

«كنتُ بلهاء تمامًا، أدخلتُ الذئب إلى الحظيرة، ساعدتُ الطاغية زو ليمارس قسوته[٢]! استغل سلطته ونال من جميع الشابّات في المستشفى. لنأخذ مثالًا على ذلك وانغ كسياومي، من قرية عائلة وانغ. بالكاد بلغت السابعة عشرة، لها ضفيرة طويلة، وجهها بيضوي، بشرتها بيضاء، أهدابها الطويلة تشبه بحركتها جناحي فراشة، وعيناها الواسعتان معبرتان للغاية. جميع الذين رأوا تلك الفتاة، أجمعوا على القول إنَّ زانغ ييمو[*]، لو رآها، لفضَّلها على غونغ لي أو زانغ زييي[**]. ولكنْ

---

(١) مواضع جس النبض المركزي في الطب الصيني التقليدي: الإبهام (كون) الموضع البعيد، المعصم (غوان) الموضع الوسطي، والقدم (شي) الموضع الأدنى.

(٢) طاغية من سلالة يين الحاكمة، في الحقبة الأخيرة من سلالة شانغ الحاكمة (-١٧٦٥ إلى -١١٢٢).

(*) مخرج سينمائي.

(**) ممثلتان.

قبل أن يكتشفها زانغ ييمو، لم تنجُ من براثن الـ «خيارة»، زير النساء ذاك الطماع. أسرع إلى قرية عائلة وانغ، وبفضل كلامه المعسول الذي يقيم الأموات من قبورهم، خدع أهل الشابة وأقنعهم بأن يسمحوا لها بالمجيء إلى المركز الطبي لتتعلم معي علم أمراض النساء. هذا ما قاله لهم، لكنها لم تأتِ يومًا إلى قسمي، ولو ليوم واحد. فـ «الخيارة»، زير النساء القاسي القلب، احتكرها. رافقته دومًا، ودعونا نمرّ عمّا قاما به ليلًا، لكنَّهما فعلا الأمر كذلك نهارًا، ولم يخفَ الأمر عن كثيرين. ومتى ملَّ الشيء، ذهب إلى مركز المقاطعة وأقام مأدبةً، على حساب المال العام، دعا إليها المأمورين، متصرفًا خفيةً ليُنقَل إلى مركز المقاطعة. ألم تلحظوا مظهره الغبي؟ له رأس حمار بطولٍ لا ينتهي، شفتاه زرقاوان تـ يلان إلى الأسود، يسيل الدم بين أسنانه، ورائحة فمه الكريهة تخنق حصانًا. وعلى الرغم من ذلك، يأمل أن يعيَّن نائب مدير الصحة العامة والنظافة في مركز المقاطعة! اصطحب وانغ كسياومي معه باعتبارها ساقية ذات وظائف ثلاث[1]، وأنا متأكدة من أنَّه قدّمها لأولئك البشر ليتسلوا قليلًا معها. تلك جريمة، جريمة شنعاء!».

وتابعت العمة:

«في أحد الأيّام، طلبني النذل إلى مكتبه. كانت جميع النسوة في المستشفى يخشين الدخول إليه، باستثنائي طبعًا. حملتُ في جيبي مدية صغيرة، مستعدّة في أي لحظة لأن أشبع ذلك الوغد طعنًا. قدَّم لي الشاي بابتسامةٍ عريضة، وأغرقني للحظات بعبارات معسولة، تافهة. قلت له: «مديرنا المحترم هوانغ، إن كان لديك ما تفاتحني به، فلا حاجة بك إلى كل هذا اللف والدوران، تكلَّم بالموضوع مباشرةً».

---

(١) الشراب والتدليك وممارسة الجنس.

ضحك ضحكة مصطنعة وقال: «يا عمتي!» ـ تبًّا، يجرؤ على تسميتي «عمتي» ـ «عمتي، أضاف، أَنْتِ مَنْ ولدني، وشاهدتني أكبر، أنا بمثابة ابنٍ لك. ها ها...».

أجبته: لا أستحق كل هذا الشرف، أنتَ مدير هذا المركز، ولست إلا طبيبة نسائية عادية، أن تكون ابني شرف عظيم، لكنَّ الكثير منه يضرّ[1]! قل لي ما تريد بصراحة، ومن دون مواربة.

«ها ها ها»، ضحك بتكلفٍ مجددًا، ثمّ قال بقلّة حياء: «ارتكبت خطأً مألوفًا لدى الموظفين الإداريين... لم أُسيطر على الوضع، وانغ كسياومي حامل».

ـ تهانينا!

وأكملت العمة حكايتها:

قلت: وانغ كسياومي تحمل بذرة التنين، سيؤمن ذلك فريقًا بديلًا للمستشفى!

ـ عمتي، لا تمزحي بهذا الشأن، لشدة ما قلقت في الأيّام الأخيرة، عجزت عن الأكل والنوم ـ عجبًا، عجبًا، يحدث ألّا يغمض جفن لهذا الحيوان، وأن تسد شهوته إلى الطعام! ـ تلحُّ علي أن أطلّق، وإن لم أُوافق، فسترفع شكوى ضدي إلى لجنة التفتيش التأديبي في المقاطعة.

قُلتُ: ولِمَ؟ أليس شائعًا بينكم، أنتم الموظفين الإداريين، أن تكون لكم امرأة ثانية؟ اشترِ لها منزلًا وأمّن لها احتياجاتها، وستحسن تدبير الأمر، أليس كذلك؟

ـ عمتي، استأنف قائلًا، لا تهزئي من وضعي، أن تكونَ لنا امرأة

---

(١) أن تشارك أحدًا بسعادتك، تسرّع موتَه. انظر الملاحظة، صفحة ٧٠.

ثانية، وثالثة، شأنٌ لا يمكن الإفصاح عنه، ثمَّ، مِنْ أين سآتي بالمال لأشتري لها بيتًا؟

ـ حسنًا إذًا، طلّق، هذا هو الحل، أجبت.

خفض رأسه الأشبه برأس حمار وقال: «عمتي، مَنْ مثلك يعلم أنَّ عمّي العجوز وإخوة زوجتي الشبان، مربّي الخنازير، قطّاع طرق موصوفون، إن عرفوا بالقضية، فسيقتلونني.

ـ نعم، لكنك مدير المركز الطبي، أحد كبار الموظفين!

ـ حسنًا عمتي، قال، مدير صغير لمركز طبي في قرية نائية، في نظرك لا أساوي ضِراطًا. كفّي عن الاستهزاء بي، وساعديني بدلًا من ذلك على إيجاد حل!

ـ كيف أجدُ حلاًّ؟

ـ وانغ كسياومي تجلُّك، أجاب، ردَّدَت لي ذلك عشرات المرات، إن رفضت أن تستمع للآخرين، فستأخذ بنصيحتك.

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أن تكلميها، أن تقنعيها بأن تُجهض.

ـ خيارة، أجبت بغضب، هذا الفعل المشين بحق السماء والمنطق، لن أرتكبه بعد اليوم! يصل عدد الأجنة الذين أجهضتهم في حياتي إلى ألفين! لن أفعل ذلك أبدًا مجدّدًا. ليس عليك إلّا أن تنتظر أن تصبح أبًا!، وأضفتُ: «وانغ كسياومي رائعة الجمال، والطفل الذي ستلده سيكون كذلك، الأمر مؤكد، وسيكون حدثًا سعيدًا! قُلْ لوانغ كسياومي إنني سأساعدها في الولادة متى آن الأوان!».

وواصلت العمة حكايتها:

«صفقت الباب ورائي وأنا أخرج، كنتُ مسرورة، ولكنْ، بعد أن جلست في مكتبي وشربتُ كوب ماء، شعرت بالكآبة. في ما خصّ بذرة الخيارة الحقير، فالأفضل ألّا يحظى بذرّية، ولكنْ أن تكون شابة مثل وانغ كسياومي، بقامتها الممشوقة تلك، حاملًا من ذلك الوغد، أمر مؤسف فعلًا. ساعدتُ في توليد أطفال كثر، وإن كان عليَّ أن أقوّم تجربتي، تكون النتيجة كالتالي: الفارق بين الأخيار والأشرار يعود في جزء منه إلى التربية، لكنَّ الوراثة تحتلُّ الجزء الأكبر وتقرر ما سنكون عليه. يمكنكم ما شئتم انتقاد «نظرية القرابة»[1]. لكنني أدركتُ ذلك من ممارستي لمهنتي. فذرّية ذلك الحقير، الخيارة، ولو تربت منذ الولادة في معبد، لن تنجب متى بلغت سن الرشد إلّا رهبانًا بوذيين فاسقين. طبعًا، شعرتُ بالحزن على وانغ كسياومي، لكنني قررت ألّا أُملي عليها دروسًا إيديولوجية وألّا أتدخل، وليخلّص الخيارة الحقير نفسه بنفسه، لن يتأثر الكون نهايةً إذا أتاه راهب بوذي فاجر إضافي. لكنني نفذت عملية إجهاض وانغ كسياومي في نهاية المطاف.

قصدتني بنفسها ورجتني، أضافت العمة، جثت على ركبتيها أمامي، طوقت رجلي بذراعيها، ولطخت حتى بنطالي بمخاطها ودموعها. قالت لي، نائحةً: «آه أيتها العمة، وقعت في الفخ الذي نصبه لي، لقد خدعني، ولو أرسل لي هودجًا يرفعه ثمانية حمّالين لأتزوجه، فلن أقترن بحيوانٍ من صنفه. عمتي، ساعديني، لا أريد أن ألِد طفل ذاك الوغد...»».

وبناءً على ذلك ـ وأشعلت العمة سيجارةً أُخرى مجّتها بقوة، فحجب الدخان وجهها ـ نفذت الأمر، مِنْ أجلها. كانت وانغ كسياومي

(١) نظرية تقول بأنّ طبقة الشخص الاجتماعية تحدد دومًا إيديولوجيته.

برعم وردة على أهبة التفتح، فداسها بقدميه، دمّرها، قادها إلى الانحطاط». رفعت العمة يدها، ومسحت دموعها. «كنتُ قد أقسمت بألّا أقوم بنوع العمليات الجراحية تلك، ما عدتُ قادرةً على تنفيذها، حتى لو حملت في حشاها قردًا أزغب، أقسمت إنني لن أجهضها. وحين سمعتُ ضجيج الشفط الصادر عن قمقم خفض الضغط، أحسستُ كأنَّ يدًا هائلة تقبض على قلبي، أكثر فأكثر، تراءت لي النجوم ظهرًا، وحين انتهت العملية، وقعتُ مغشيًّا عليَّ...

آه نعم، بدأت أشيخ، أميل لأن أنحرف عن الموضوع، أتكلم، أتكلم، ولم أَقُلْ بعد لِمَ أردتُ أن أتزوج هاو اليدين الكبيرتين. يوم الإعلان عن تقاعدي، أردفت العمة، كنّا في الخامس عشر من الشهر السابع حسب التقويم القمري. ابن الزنى الخيارة أراد أن يبقيني، أراد أن أبقى في منصبي على الرغم من تقاعدي. قال إنه سيعطيني ثمانمئة يوان في الشهر. تفوه! بصقتُ في وجهه.

«يا ابن الحرام الفاسد، أنا من تُكلّمكَ، جهدت كفايةً من أجلكم، وفي الأعوام الأخيرة، كان لي الفضل في تأمين ثمانين في المئة من مداخيل المركز الطبي. إليَّ أتى المرضى، نساءً وأطفالًا، من مختلف الكانتونات والأقضية. أنا مَنْ تكلمكَ، لو شئتُ كسبَ المال، لحصَّلْتُ ألف يوان يوميًّا! وأنتَ، الخيارة، تفكر بأن تشتريني بثمانمئة يوان في الشهر؟ ليس ذلك أجر عامل زراعي حتى! أنا مَن تكلمكَ، عملتُ من دون انقطاع طوال حياتي، هذه المرة، سأتوقف، أريدُ أن أرتاح، سأعود إلى كانتون دونغبي لأمضي فيه أيام شيخوختي». بهذه الطريقة، أهنت الخيارة الحقير، ولذلك، قامَ بما استطاع في العامين المنصرمين لمضايقتي. مضايقتي أنا؟ «ولكنْ، أنا من تكلمكَ، ما الذي لم أواجهه

في حياتي؟ لم أَخَفْ في طفولتي من الأبالسة اليابانيين، وتريدني، في السبعين من العمر، أن أخشى ابن زنا مثلك؟» ـ حسنًا، حسنًا، لِنَعُد إلى موضوعنا.

لأُجيبَكُم لِمَ تزوجتُ هاو العجوز، عليَّ فعلًا أن أبدأ بالحديث عن الضفادع.

في الليلة التي أُحِلْتُ فيها إلى التقاعد، دعاني بعض الزملاء القدامى إلى مأدبة في مطعم. ثملتُ ذلك المساء ـ في الواقع، لم أشرب كثيرًا، لكنَّ الكحول لم يكن ذا جودة ـ فمالك المطعم، جي العصفور الصغير، ابن جي المخالب الألْف، أحد أبناء «البطاطا الحلوة» في عام ١٩٦٣، أراد تكريمي، ففتح قنينة «خمور عذبة»، ولكنْ تبًّا!، كان الكحول مزغولًا. بالكاد شربت نصف كوب، فغُشي نظري وأصبتُ بالدوار. مَنْ جلسوا إلى مائدتي، تساقطوا كالذباب، حتى جي العصفور الصغير، تقيّأ رغوةً بيضاء وانقلبت عيناه».

وروت العمة أنَّها غادرت المطعم تترنح. بدايةً، خطر لها أن تعود إلى بيت المنامة في المستشفى، ولكنْ، من دون انتباه، وجَدَت نفسها في قطعة أرض واطئة ورطبة، تعرَّج وسطها درب ضيّق، وارتفع على جانبيه قصب أطول منها. التمعت تحت أشعّة القمر، مثل زجاج، مياه مستنقعات شاسعة. نقّت الضفادع. ما إن يهدأ النقيق بالقرب منها، حتى يعلو من مكان بعيد، موجات متلاحقة، مثل محادثة مغنّاة لا تنتهي. في إحدى اللحظات، علا الزعيق من كلّ جانب «وان، وان، وا...»، وتحوَّل إلى جلبةٍ بلغَت حدود السماء. ثمّ فجأةً، توقف كل شيء، وساد الهدوء. ما عاد يُسمع إلّا صوت الحشرات. أكّدت العمة أنَّها طوال عشرات الأعوام لممارستها مهنتها، سلكت ما لا يُحصى ولا يُعدّ من

الطرقات، ولم تَخَف يومًا، لكنها في تلك الليلة، أَحَسَّت بتوجس. يقول المثل: «نقيق الضفادع، طبلٌ يدق»، وتلك الليلة، غدا القول المأثور بالنسبة لها: «نقيق الضفادع، بكاءٌ يَرِنُّ»[1]، ولم يكن ذلك البكاء سوى صراخ آلاف وآلاف المولودين الجدد. وأكّدت كذلك أنَّها تعشق سماع ذلك الصراخ، وبالنسبة لطبيبة نسائية مُولّدة، تلك أجمل موسيقى آسِرَة في الكون ككل. ولكنْ تلك الليلة، كان في نقيق الضفادع ما يشبه الحقد، شعور بالظلم، يمكن القول صرخات اتهام من الأرواح المعذبة لمولودين جدد كثر. وشرحت العمة أن الكحول الذي شربته تحوَّل، في لحظةٍ، إلى عَرَقٍ بارد ـ إيَّاكم أن تظنوا أن تلك هلوسات بسبب بخار الكحول المتصاعد إلى عقلي، إذ حين تعرقت، تخلصت من مفعول الكحول، آلمني رأسي قليلًا، لكنَّ ذهني كان صافيًا تمامًا ـ وسلكتِ العمة الدرب الضيّق ظنًّا منها أنَّها ستتخلص من النقيق الذي يحاصرها. وهل الأمر معقول؟ عبثًا ركضت بأسرع ما يمكنها، «وان وان وا»، تلك الصرخات الشبيهة بالبكاء، الحزينة، المليئة بالغيظ، علت من كل صوب، طاردتها، ضايقتها. وحَكَت العمة أنَّها فكَّرت فعلًا في الهرولة، ولكنْ كان ذلك مستحيلًا، إذ مثل علكةٍ، التصق وحل الدرب بنعلي حذائها، وكان عليها أن توظف كامل طاقاتها لترفع رِجْلًا. لَحَظَت أنّه بين نعليها وسطح الدرب تمتد خيوط فضية، توصلت بجهدٍ إلى قطعها، ولكنْ ما إن تطأ قدمها مكانًا آخر، حتى تتشكَّل خيوط جديدة. تخلّت آنذاك عن حذائها ومشت حافيةً على الطريق الموحل، ولكن بذلك شعرت أكثر بقوة جاذبية الوحل، وكأنَّ تلك الخيوط الفضية تملك

---

(١) لعب على الكلام في تماثل الأصوات ـ الطبل في الصينية يُلفظ «غو» والبكاء «كو» ـ ما يصعب نقله في الترجمة.

حجامات تلتصق بكعبيها، تمزّق لحمها. وأخبرت العمة أنَّها جثت على ركبتيها، ودبَّت مثل ضفدعة. التصق الوحل بركبتيها، وساقيها، وكفيها، لكنَّها تقدمت رغمًا عن الجميع. وآنذاك، أضافت العمة، قفزت من عمق القصب الغض وأوراق ياقوبيات الماء التي بثّت أحيانًا أشعّة فضّية، ضفادع لا تحصى. كان بعضها أخضر اللون بالكامل، بعضها ذهبي، كبيرة مثل مكواة، أو صغيرة بحجم نواة العنّاب، وتشبه عيونها نجومًا ذهبية أو حبوب البازلاء الحمراء. تدفقت أمواجًا، تنقنق بغضب، وحاصرتها من كل جانب. وروت العمة أنها أحست أفواهها القاسية تعضّ جلدها، أطرافها التي بدا أنَّها تملك مخالب مسننة تتشبّث بها، قفزت الضفادع على ظهرها، وعنقها، ورأسها، غدا حملها على جسمها ثقيلًا، فانطرحت أرضًا. وأشارت العمة إلى أن الخوف الشديد الذي انتابها لم تسببه عضاتها أو خدوشها، بل أتى من ملمس جلد بطنها البارد واللزج الذي أثار غثيانها إلى حدٍ لا يطاق. «تبولت عليَّ من دون انقطاع، إنْ لم يكن ذلك سائلًا مَنَويًا». ورَوَت العمة كيف تذكرت فجأة تلك الأسطورة التي أخبرتها إياها جدتها حيث تستهزئ الضفادع بالبشر. تروي الحكاية عن شابةٍ خرجت تتنشق الهواء العليل على ضفة النهر، غفت من دون انتباه وحلمت أنَّها تمارس الجنس مع شاب يرتدي ثيابًا باللون الأزرق الضارب إلى الأخضر. حين استيقظت، تبين أنَّها حامل؛ وعند الولادة، فوجئت بأنّها ولدت كميةً كبيرة من الضفادع الصغيرة. وأضافت العمة أنَّها حين استعادت تلك الأسطورة نهضت بوثبة واحدة، وقد أمدَّها الذعر الهائل الذي يسكنها بقوة خارقة. رأت الضفادع تتهاوى عن جسدها على الأرض كيفما كان مثل الوحل. ولكنْ ظلت أُخرى معلقة بشدة بثيابها، وشعرها، فيما قضمت ضفدعتان فلقتي

أذنيها، وكأنهما زوجا حلق مرعبان. ركضت العمة كالمجنونة، وفجأةً، بسحر ساحر، اختفت جاذبية الأرض. وحكت العمة أنَّها تنفّضت وهي تركض، وفي الوقت نفسه، حاولت أن تتخلّص بيديها من الضفادع عن جسمها. كلَّما التقطت إحداها، صرخت صرخةً حادة، ورمتها بقوّة. وحين شدَّت الاثنتين المعلقتين بأذنيها، كادت تقتلع الفلقتين. ظلت الضفدعتان متشبّثتين بهما، كطفلين يرضعان من ثديي أمهما.

واصلت العمة جريها الشديد وهي تصرخ، لكنَّها عجزت عن التخلص من الضفادع التي لحقتها. تلفتت وراءها، والمشهد الذي رأته أفقدها رشدها هلعًا: آلاف وآلاف الضفادع، وقد شكَّلت جيشًا جرارًا، نقّت، وثبت، ارتطم بعضها ببعض، كتلة متراصّة، قُلْ تيّار جارف يجري بأقصى سرعة. علاوةً على ذلك، ظهرت أُخرى أحيانًا عن جانبي الطريق، وتوزَّع بعضها متهيّئًا للقتال، قاطعًا عليها الطريق، بينما قفزت ضفادع من الحشائش من كل صوب، لتشنَّ عليها هجومًا مفاجئًا. قالت العمة إنها ارتدت في ذلك المساء فستانًا طويلًا أسود، وقد مزقته إربًا إربًا الضفادع التي هاجمتها؛ فالحشرات التي استطاعت اقتطاع شريط طويل من القماش ابتلعته، قضمةً بعد قضمة، إلى حدّ الاختناق، فرفعت أطرافها الأمامية، حكَّت وجوهها، تدحرجت على الأرض، بطونها البيضاء إلى أعلى.

وأخبرت العمة أنها استمرّت في العدْو المجنون نحو النهر، وعندما أدركت الجسر الصغير الحجر الملتمع بشعاع فضّي تحت ضوء القمر، كانت الضفادع قد هتكت تمامًا الفستان الذي لبسته. كانت شبه عارية عندما وصلت مهرولةً إلى الجسر حيث التقت هاو اليدين الكبيرتين.

«في تلك اللحظة، لم أُعِر اهتمامًا لمسألة الحشمة، لم أشعر حتى

بأنَّ ردفي شبه عاريين. رأيتُ شخصًا يرتدي شالًا من نبات الأسَل وقبّعةً عريضةً من الخيزران، يجلس وسط الجسر ويعجن على شكل كرةٍ شيئًا يلمع أنوارًا فضّية ـ فهمت لاحقًا أنَّها تلعة طين. لتشكيل «أطفال ضوء القمر»، يجب استخدام فخار ضوء القمر. إلى ذلك الحين، لم أكن قد ميزت بعد الشخص المعني، وقلَّما همني ذلك، ما دام كائنًا بشريًا، إنَّه مخلصي».

وروت العمة أنَّها ارتمت عليه، واندست بكل قواها تحت المشلح، وأحست في صدرها حرارة الآخر، بينما ظَلَّ ظهرها رطبًا وباردًا من ملمس الضفادع، وفاحت منه رائحة نتنة تخنق. وقالت العمة إنَّها صاحت: «أيُّها الأخ الكبير، النجدة! أنقذني!»، قبل أن تفقد وعيها.

بعد سماع سرد العمة الطويل، شاطرناها شعورها، ماجت في أذهاننا أفواج تلك الضفادع، وانتابتنا القشعريرة من شدة الخوف.

ويتابعُ البرنامج عرض مشهد عن هاو اليدين الكبيرتين جالسًا على حاله، جامدًا كتمثال فخار، ثمّ تركزّ الكاميرا على بعض التماثيل الصلصالية، فمنظر عام عنِ الجسر الحجر الصغير، لتعودَ وتستقر على وجه العمة، على فمها. وحَكت:

«حين استفقت، وجدتني ممدّدة على سرير هاو اليدين الكبيرتين. لبست ثيابًا رجالية. قدَّم لي عصيدة بقلة الماش، فأعادتني رائحتها إلى رشدي. ما إن شربتها، حتى تعرّقت مِنْ كل مسامّي، حرقتني أجزاء كثيرة من جسمي، تألمت؛ لكنَّ ذلك الإحساس باللزوجة الباردة الذي يدفعك إلى الصراخِ مرغمًا، خفَّ رويدًا رويدًا. غطَّت جسدي حويصلات مؤلمة، لسعتني، حكّتْني؛ أُصِبتُ آنذاك بالحمّى والهذيان. انتصرتُ على المرض بفضل عصيدة بقلة الماش التي حضَّرها هاو اليدان الكبيرتان، بدأ جلدي

يتقشر، أحسست بألم حاد في عظامي. سمعتُ حكايات عن أشخاص «يتبدَّل جلدهم تماماً وتتغيَّر عظامهم»، وذلك ما حصل لي، أُدْرِكُ ذلك، كان تحوُّلًا جذريًا. حين شُفيت، قلت لهاو اليدين الكبيرتين: 'يا صديقي، دعنا نتزوج'».

عند هذه النقطة من سردها، سالت الدموع على وجه العمة.

وأظهرت الحلقة عقب ذلك العمة وهاو اليدين الكبيرتين يصنعان التماثيل معًا. العمة، مغمضة العينين، تُملي عليه التوجيهات، فيما أغمض عينيه هو أيضًا وحمل كتلة صلصال: «اسم شهرة هذا الطفل غوان، واسمه كسياوكسيونغ، طول والده متر وتسعة وسبعون سنتيمترًا، وجهه مصقول بدقة، ذقنه عريض، جفناه منبسطان، أذناه كبيرتان، أنفه مفلطح،ثخين؛ يبلغ طول والدته مترًا وثلاثة وسبعين سنتيمترًا، جيدها طويل، ذقنها مستدق، وجنتاها ناتئتان، جفنها مبطن، عيناها واسعتان، أنفها محدَّد الرأس. يشبه الطفل بنسبة ثلاثين بالمئة والده، والبقيّة من والدته...». وفيما تكلمتِ العمة، وُلد طفل الصلصال المسمّى غوان كسياوكسيونغ من تشكيل هاو اليدين الكبيرتين. تركّزت الكاميرا على التمثال. شاهَدْتُ أنَّ تقاسيم الطفل خارجة عن المألوف، لكنَّها حملت حزنًا فائق الوصف؛ ومن دون أن أشعر، بدأتُ بالبكاء كنبع...

٥

رافقتُ الأسد الصغير في زيارة لمستشفى الكنز العائلي. رَغِبَتِ الأسد الصغير طويلًا في أن تعمل فيه، لكنَّها لم تجد الوساطة المطلوبة.

حين دخلنا إلى البهو، أحسست أنَّ المكان لا يشبه في شيء

مستشفى، بل خيّل إليَّ أنَّه نادٍ لأصحاب المقام الرفيع. وعلى الرغم من أنَّنا في عز الصيف، نفخ في المكان هواء عليل. سُمِعَ صوت موسيقى هادئة ومريحة، وعبق الجو بأريج زهور نضرة. حمل الحائط المواجه للمدخل إشارة المستشفى الزرقاء، وأحرف زهرية تقول ما مفاده: «ملتزمون معكم طوال العمر، بكل ثقة». في الزاوية هناك، وقفت سيدتان جميلتان تلبسان رداءين أبيضين وقبعة صغيرة، بيضاء كذلك، تستقبلان الزبائن. كانتا مبتسمتين، لطيفتين، تتحدثان بصوت ناعم.

دنت منّا امرأة متوسّطة العمر برداء أبيض أيضًا ونظارتين بيضاوين، وسألتنا بودّ: «سيدتي، سيدي، بمَ أستطيع مساعدتكما؟»

وأجبت: «آه، لا شيء، نُلقي نظرةً على المكان، فحسب».

رافقتنا المرأة آنذاك إلى مساحة للاستراحة على يمين البهو، فيها مقاعد كبيرة من الخيزران، وتكدّست على الرفوف البسيطة القريبة مجلاّت فاخرة تتعلَّق بالنساء والرُضَّع؛ ووضِعَت على الطاولات الصغيرة، المستديرة، كراريس ملونة، مطبوعة بعناية، تعرض المستشفى بإيجاز.

قدَّمت لنا المرأة كوبي ماء بارد، وغادرت المكان مبتسمةً.

تصفّحتُ الكراريس، ووقعتُ على صورة طبيبة متوسطة السن، تبتسم ابتسامةً رقيقة تُظهِرُ أسنانًا بيضاء، متسقة. كان جبينها لامعًا، وحاجباها طويلين ورفيعين، نظرتها ثاقبة، وتحمل على أنفها نظارة بلا مسكتين. علقت على صدرها شارةً، وصورتها. على كتفها اليسرى، طُبِع النصُّ التالي:

«مستشفى الكنز العائلي للنساء والأطفال، مؤسسة ذات رؤوس أموال مشتركة صينية ـ أميركية، هو مستشفى من نوع جديد، كما كنتم

تحلمون. لا يسود هنا إحساس بالبرودة، بل جوّ عائلي، يتميز بالدفء، والتناغم، والأصالة، ما تحظَوْنَ به هنا، خدمةٌ فاخرة فعلًا...».

وعلى كتفها اليمنى، طُبع ما يلي:

«نَحْنُ نلتزم تمامًا الإعلان الذي أصدرته منظمة الصحّة العالمية في جنيف في العام ١٩٤٨. نمارس الطب بكل ضمير، بكرامة، ما يهمنا بدايةً صحّة المريض، نحافظ على السرية الطبية، نبذل كافة جهودنا للدفاع عمّا يُعلي الشأن الطبي وسمعته الحسنة، وتقاليده...».

نظرتُ خلسةً إلى الأسد الصغير، فوجدتها تتصفح الكراريس، وتقطّب جبينها بقوة.

قَلَبْتُ الصفحة وشاهدتُ طبيبة نسائية توحي بالجدّية والثقة، تقيسُ بمترٍ مرنٍ البطن الناتئ، الذي يبدو ناعم الملمس، لحاملٍ. كانت رموش الأخيرة طويلة، والحد الفاصل بين منخاريها بارزًا، شفتاها لحيمتان، فاتنان، ماء وجهها نضر، لا أثر على سحنتها لأيّ شحوبٍ أو تعبٍ كما نرى عمومًا عند الحوامل. وخُطّت أسطرٌ بين يد الطبيبةِ وبطن المرأة كُتِب فيها: «نحترمُ إلى أقصى حدٍّ الحياة البشرية، وذلك منذ تكوُّنها».

دخل بخفة إلى البهو في تلك الأثناء رجلٌ متوسط القامة، خفيف الشعر، يرتدي بزةً رياضيةً أنيقة. من وجهه الذي يحمل علامات الثقة بالنفس وكرشه البارز قليلًا، فهمت أنَّه شخصية مهمة. إن لم يكن من كبار الموظفين، فلا بدّ من أنه ثريّ كبير، أو الاثنان معًا. بيده اليسرى، عانق شابةً طويلة القامة، قدّها النحيل يتمايل في الفستان الحريري الأصفر الذي رفرف حولها. ارتجف قلبي، تعرفت إلى بي الصغيرة، المسؤولة الإدارية الموهوبة في الشركة التي يملكها يوان الخدّ وابن خالي لتربية الضفادع الثيران. سارعت وأخفيت وجهي خلف الكرّاس.

على الصفحة التالية، في جزء فارغ إلى الزاوية اليمنى وتحت بطن ناتئ جذاب، أمكن رؤية خمسة أطفال عراة، أُجْلِسوا جنبًا إلى جنب. أحنوا رؤوسهم جميعهم ناحية الشمال، وكأن أحدًا في تلك الجهة يلفتهم. شكّلت جباههم المقبّبة وخدودهم النافرة قوسًا مضحكًا. وإن لم تظهر تعابيرهم واضحةً، بدا ذلك المرسوم ابتسامةً بريئة. كان ثلاثة منهم، بعكس الآخرَين، قليلي الشعر. اثنان منهم شعرهما أسود، والثالث أشقر ذهبي، والأخيران أشدّ شُقرةً. كانت آذان جميعهم كبيرة، علامة الفأل الحسن. كان أولئك الأعزاء الصغار الذين نُشرت صورتهم في ذلك الكتيّب محظيين من القدر. بلغوا على الأرجح خمسة أشهر، بدأوا للتو بالجلوس، لكنَّهم غير متوازنين تمامًا، أحنوا ظهورهم قليلًا، وكانوا مكتنزين مثل خنازير صغيرة، مدوّرين؛ تحت طيات أذرعهم، نفرت بطونهم الصغيرة. كانت مؤخراتهم مسطحة، الشق بين الردفين فتان. في الفسحة البيضاء، إلى شمالهم، أمكن قراءة السطور التالية:

«يولي قسم الجراحة النسائية، الذي تمثّل العائلة محوره، أهمّية كبرى للتواصل بين الحامل أو المولّدة والفريق الطبي؛ ويشدّد كذلك على تثقيف الحوامل والمولّدات طبيًّا».

تحدَّث الرجل المتوسط العمر وبي الصغيرة مع موظفات الاستقبال، ثمّ توجّها برفقة سيدة أنيقة وجلسا إلى جهة الشمال في البهو. كان المكان المخصص للزبائن للانتظار. كانت هنالك كنبة حمراء قرميدية عالية الظهر، وأمامها طاولة صغيرة عليها مزهرية فيها ورود جورية. عطس الرجل، ما جعلني أنتفض. تلك العطسة الغريبة، الفريدة، الشبيهة بانفجار صاعق نشَّطت ذاكرتي. أيُعقل أن يكون هُوَ؟

«يوفّر الفريق الطبي المعلومات بالتفصيل للحامل وعائلتها عن

صحة الأمّ ووضع الجنين، وغذاء الحامل ورياضتها البدنية اللازمة وذلك عن كل مرحلة من مراحل الحمل».

وددتُ أن أشاطِر الأسد الصغير اكتشافي، لكنها كانت تُطالع سريعًا الكراس وتتمتم: «لا يشبه هذا بشيء المستشفى... من يملك القدرة على المجيء إلى هنا؟...». أدارت ظهرها للرجل وبي الصغيرة، لم تلحظ دخولهما.

وكأنَّ ذلك المكان يعرّضه لمرأى الجميع، نهض الرجل وجرَّ رفيقته نحو مقهى المستشفى في آخِرِ البهو، وكان معزولًا بفاصلٍ بدائي: بضعة أحواض من شجر الحبّ ذي الورق الأخضر الداكن وشجرة تين غضة، لامست السقف تقريبًا. هناك، غطى الجدران ورق أحمر قرميدي عليه رسوم، وشُيّد موقد في إحدى الزوايا. وراء المشرب، عُلّقت على الجدار خزائن ذات عيون فيها أنواع كحولٍ فاخرة. حضَّر القهوة شاب أنيق المظهر، مع عقدة رقبة بشكل فراشة. وصلت إلينا رائحة البنّ اللذيذة الممزوجة بعبير الزهور، دغدغت أنفينا.

«علاوةً على كل ذلك، وضع المستشفى إجراءات خاصّة في نهاية الحمل، للتحضير للولادة. فالفريق المعالج، وفقًا لوضعكم، يحدد معكم خطة للولادة، وصفوفًا تدريبية تحضّر للولادة، إلخ...، كل الأمور التي تسمح بتعزيز التواصل لتُعطى الحوامل والمولدات فرصة للتعبير عن احتياجاتهن، ومخاوفهن، وتساؤلاتهنّ...».

جلس هناك، فنجان قهوةٍ في يده، يتحدّث بودّ مع بي الصغيرة. نعم، ذاك هو. يمكن للمرء أن يغيّر صوته، لكن ليس تلك العطسة النابعة من اللاوعي. يمكن إجراء عملية جراحية للجفنين، ولكن أهم تقنية طبّية لا يمكنها أن تغيّر نظرة المرء. كان هناك، يتكلم لامباليًا،

مبتسمًا، براحة تامة، على بعد عشرين مترًا منّي، من دون أن يشكَّ لحظةً في أنَّ رفيق طفولته يراقبه. رويدًا رويدًا، انفصل كسياو الشفة السفلى ذو الجفن البسيط والقلب القاسي واليد التي لا ترحم، عن الشخصية المهمة الجالسة أمامي.

«فقدتُ الأمل»، قالت الأسد الصغير محبطةً، رمت الكراس على الطاولة، وارتدَّت إلى الوراء. «لا يوجد إلّا أطباء عائدون من الولايات المتحدة، حملة شهادات عليا من فرنسا، كبار أساتذة جامعات الطب... أكثر فريق طبي تقدُّمًا في البلاد... إذا أتيتُ إلى هنا، فلن أصلُح إلا لرمي دلاء المطهّرات في الحمامات...».

كنَّا مع ذلك من الكانتون نفسه، سكن كلانا بكين، لكنني لم ألتقه يومًا. أتذكَّر والده كيف صاح في الطرقات يوم حاز شهادته الجامعية: «عُيّن ابني في الحكومة الصينية!». سمعت في ما بعد أنَّه أمضى أعوامًا في إحدى الإدارات العامة، قبل أن يغدو سكرتير أحد الوزراء، ليعود من ثمَّ إلى الأساس ويحظى بمنصب نائب سكرتير لا أدري أين. في آخر أخبار عنه، قيل إنه انطلق في قطاع الأعمال وأصبح رجل أعمال مهمًّا، بفضل العقارات والأصول الثابتة، وصار مليارديرًا...

المرأة الأنيقة التي قادتهما إلى مكانهما، عادت واصطحبتهما إلى نهاية البهو. أغلقتُ النشرة ورأيت على الغلاف الرابع يد طبيب وأُخرى لحامل إحداهما موضوعة فوق الأخرى على البطن البارز. كُتِبَ في التعليق فوق الصورة:

«نَعُدَّ الحامل وجنينها فردين من أُسرتنا. نضع أنفسنا في خدمتهما حتى النهاية، نرعاهما، ونعنى بأدق التفاصيل. هنا، عندنا، تنعمون

برفاهية جوٍّ ودّي، تشعرون بالحماية، تكونون محط اهتمام ورعاية لا مثيل لهما».

عندما خرجنا من المستشفى، بلغ اليأس بالأسد الصغير حدًّا دفعها إلى التهجم على الأمور المتطوّرة بأفكار سياسة عفا عليها الزمن. كنت قلقًا، رغبتُ ألّا أصغي إلى كلامها. ولكن حين أَصْبحَت لازماتها المتكررة المسئمة التي لا تطاق، قلتُ لها:

ـ حسنًا سيدتي، يكفي ضغينةً، إياكِ والغيرة!

ولمرَّةٍ، لم تعارضني، فقالت بابتسامة مصطنعة:

ـ طبيبة ريف عادية مثلي لا يمكنها إلّا أن تربّي الضفادع الثيران في شركة يوان الخدّ.

وأجبت:

ـ رجعنا لنستمتع بتقاعدنا، لا لنعمل.

وردَّت:

ـ ولكنْ يجب أن نشغل أنفسنا بأمر ما، ما رأيُكَ أنْ أعملَ مربّيةً على أساسٍ شهري؟

ـ حسنًا، خمّني من رأيتُ للتو؟

ـ مَنْ؟

ـ كسياو الشفة السفلى. على الرغم من أنَّه خضع لجراحةٍ تجميلية، عرفتُه.

ـ هل يُعقل ذلك؟ ثريّ مثله، ما الذي سيدفعه للعودة إلى هنا؟ لعلك أخطأت؟

ـ يمكن لعينيَّ أن تخطئا، ولكنْ أذناي، لا. لا يمكن لأحد في العالم أن يعطس كما يفعل، وإضافةً إلى ذلك، نظرته، ضحكته، من جملة أمور أخرى، لا يمكن تغييرها.

ـ لعله أتى ليستثمر هنا؟ يقال إن المنطقة ستتبع قريبًا إدارة كينغداو، إذا حصل ذلك، ألن ترتفع أسعار الممتلكات والعقارات؟

وقلتُ لها:

ـ ألن تحزري من كان يرافقه؟

ـ وكيف تريدني أن أحزر؟

ـ كان مع بي الصغيرة.

ـ مَنْ تكون تلك؟

ـ بي الصغيرة، التي تعمل في مؤسسة الضفادع الثيران عند يوان الخدّ.

ـ آه، عبَّرت الأسد الصغير، مِنَ النظرة الأولى، قدَّرتُ أن تكون ساقطة! من يتعامل مع أشخاص من مثل يوان الخدّ وابن خالِكَ لا يمكن أن يكونَ نزيهًا.

٦

لقد كنّت الأسد الصغير كرهًا شديدًا لمؤسسة الضفادع الثيران، ولم تستلطف يومًا يوان الخدّ، ولا ابن خالي، وعلى الرغم من ذلك، بعد زيارتنا بزمنٍ قصير لمستشفى الكنز العائلي، قالت لي فجأةً:

ـ الخبب الوئيد، أريد أن أعمل في مؤسسة الضفادع الثيران.

متعجبًا، نظرت إلى وجهها الكبير المبتسم.

ـ أتكلم جديًّا، لا أمزح، قالت بحزم، مخفيةً ابتسامتها.

ـ تلك الأشياء ـ حاولتُ أن أستبعد صورة الضفادع الثيران التي تقافزت بعناد إلى ذهني، خصوصًا بعد أن شاهدت الحلقة المتلفزة عن العمة، أُصبت أنا كذلك بِرُهاب الضفدعيات ـ هل تريدين حقًّا تربية تلك الأشياء؟

ـ في الواقع، أجابت، ليس في الضفدعيّات ما يُرعب، ينحدر الإنسان والضفدع من السلف نفسه. وأضافت: شكل الشرغوف والمني الذكري هو نفسه تقريبًا، ولا فرق بين البويضة البشرية وبويضة الضفدعة. ثمّ ألم ترَ نموذج الجنين في شهره الثالث؟ له زائدة ذيلية تشبه الضفدعيات أثناء تحوُّلها.

نظرت إليها، مذهولًا أكثر فأكثر.

تابَعت كمَنْ يُسَمّع درسه: «لِمَ تُلفظ كلمتا «طفل» و«ضفدع» بالطريقة نفسها؟ لِمَ تُشبه تمامًا صيحة الطفل عند خروجه من بطن أمّه نقيق الضفدع؟ لِم معظم التماثيل الصلصالية في كانتون دونغبي تُمَثّل أطفالًا يحملون ضفدعًا؟ لِمَ أوّل جَدٍّ للبشرية اسمه نووا؟ ذلك التماثل في الأصوات يُثبتُ أن الجدّ الأوّل كان ضفدعًا هائلًا، أنَّ الإنسان ينحدر إذًا من الضفدع، والنظرية القائلة بأنه ينحدر من القرد مخطئة بالكامل...».

من أسلوبها في عرض الموضوع، أدركت رويدًا رويدًا أنَّها تتكلم بالطريقة نفسها مثل يوان الخدّ وابن خالي. فهمت أنَّ هذين المخادعين أثّرا فيها بكلامهما المعسول!

ـ حسنًا، قلت، إن كنت تسأمين كثيرًا في المنزل، يمكنك بالطبع

أن تذهبي إلى هناك لتتسلي، لكنَّني، أضفت ضاحكًا، أُراهن أنَّك لن تصمدي برفقتهما أكثر من أسبوع.

٧

سيدي العزيز، إن أبديتُ، شفويًّا، معارضتي لأن تذهب الأسد الصغير وتعمل في مصنع الضفادع الثيران، كنتُ، في قرارة نفسي، سعيدًا جدًّا. في الحقيقة، أحبُّ حريتي، أعشق التسكّع في الطرقات، وبينما أتنزه، أسترجع الماضي؛ وإن لم تحضرني أي ذكرى، أُطلق العنان لمخيّلتي. كانت مرافقة الأسد الصغير في نزهة واجبًا، والواجب أمر مكلف، ويجب مع ذلك أن أُبدي حماسة. اليوم، تسير الأمور على أفضل حال، تذهب إلى العمل باكرًا؛ تذهب على الدرّاجة الكهربائية التي اشتراها لها، كما قيل، ابن خالي. من النافذة، أراها تجلس مستقيمة على الدراجة، تقود بهدوء على طول الطريق المحاذي للنهر. وما إن تغيب قامتها عن ناظري، حتى أنزل بدوري السلالم مهرولًا.

خلال الأشهر القليلة الماضية، تنزهت، زرت كل الأحياء من أولها إلى آخرها على ضفة النهر شمالًا. الأحراج الصغيرة، الحدائق، المتاجر المتوسطة الحجم، المتاجر الكبرى، مراكز التدليك التي يديرها عميان، المراكز العامة للرياضة البدنية، مراكز التجميل، الصيدليات، نقاط بيع بطاقات اليانصيب، البازارات، معارض المفروشات، أسواق المنتجات الزراعية على طول النهر، في كل تلك الأماكن، طبعتُ آثار قدميّ. كلَّما وصلتُ إلى مكانٍ جديدٍ، أخذتُ صورًا بآلة التصوير الرقمية، كما يفعل كلبٌ يرفعُ قائمته ليبول في مكانٍ ما. قطعتُ كذلك حقولًا

لم يطَلْها الإصلاح بعد، زرتُ ورش البناء الواسعة النطاق. في بعض تلك الورش، بُنِيَ الجزء الرئيسي، وبدا جليًّا الابتكار الهندسي فيها؛ وكان البعض الآخر في مرحلة الحفر ووضع الأسس، ولا يمكن التكهن بالشكل الذي سيُشيَّد لاحقًا.

بعد أن اكتشفت عمليًّا كل الضفة شمالًا، نقلتُ نزهاتي إلى الضفة الجنوبية. يمكن الوصول إليها عبر الجسر المعلق الذي يرتفع شكله في الأجواء مثل جناحين مُفْرَدَيْن. كانت الوسيلة البديلة طوفًا من الخيزران يتبع المجرى وصولًا إلى رصيف «عائلة إي»، الذي يقع على بعد عشرات الفراسخ. فضَّلت دومًا أن أقطع الجسر مشيًا للوصول إليها، إذ لم يوحِ لي المركب بالثقة. في أحد الأيّام، وقع حادث على الجسر وقُطع السير، فقرّرت أن أستقلّ الطوف، لأعيش مجدّدًا المغامرة التي شهدتها في الماضي.

كان صاحب الزورق الصغير شابًا فتيًّا ارتدى سترة من الطراز الصيني تُزرَّر من الأمام بأزرار من قماش، تكلَّم بلكنة البلد الصرف، ولكن لفظ كل الكلمات الشائعة وفق الموضة. تألَّف طوفه من عشرين خيزرانة بحجم قِدْر، وقف إلى الأمام حيث وُضِع رأس تنّين من الخشب المنحوت المتعدّد الألوان. ثُبّت في وسط الطوف مقعدان صغيران بلاستيكيان أحمران. ناولني كيسين، من البلاستيك كذلك، لأضعهما في قدميّ كي لا يتبلّل حذائي وجوربي. قال ضاحكًا إن الكثيرين من سكّان المدن يفضلون خلع أحذيتهم وجواربهم، وأقدام نسوة المدينة بيضاء مثل سمكٍ فضّي، يضعنها في الماء ويصفقنها، والأمر ممتع للنظر. خلعت حذائي وجوربي وناولته إيّاهما. وضعهما في صندوق حديديّ مصفَّح، وقال شبه ممازحٍ:

ـ عليكَ أن تدفع يوانًا مقابل الحفظ!

فأجبته:

ـ كما تشاء.

أعطاني سترة إنقاذ لونها أحمر قرميدي، وقال:

ـ يا عمّ، عليكَ أن ترتديها، وإلّا حسم ربُّ عملي مالًا من راتبي!

حين دفع الشاب الطوف بالعصا الطويلة لإبعاده عن الرصيف، صاح به أصحاب الزوارق الصغيرة الأخرى الجالسين القرفصاء على الضفة: «الجمجمة ـ المسطحة، حظًا سعيدًا، اسْقُط في الماء واقضِ غرقًا!».

فأجاب الشاب، مستعملًا الخطاف بكفاية:

ـ آه، الأفضل ألّا يحصل ذلك، وإلّا غدت شقيقتك أرملة، أليس كذلك؟

دخل الطوف في المجرى ونزل سريعًا مع التيّار. أخرجت آلة التصوير وصوّرت الجسر الضخم والمناظر الطبيعية على الضفتين.

ـ مِنْ أين يأتي العمّ؟

ـ لنرَ قليلًا إن كنتَ ستحزر، قلتُ بلكنةٍ محلية صرف.

ـ أنتَ مِنَ الجوار؟

ـ لعلَّ والدك حتى كان زميلي في المدرسة! تأمّلت جمجمته الطويلة ذات القبّة المسطحة، وتذكرت رفيقًا في القرية من عائلة تان، حمل لقب «الجمجمة ـ المسطحة».

ـ لكنني لا أعرفُكَ، مِنْ أي قرية أنتَ سيدي؟

ـ انصرف إلى قيادة طوفك، قلت، قلّما يهم إنْ كنتَ تعرفني أم لا، يكفي أنني أعرف والدك ووالدتك.

قاد الشاب الزورق ببراعة. رمقني أحيانًا بنظرة مُلِحّة، محاولًا، بشكل جلي، أنْ يتذكّرني أو يتعرّف إليّ. تناولت سيجارة، أشعلتها. قال، مقطبًا أنفه: «يا عم، إن شممتُ جيدًا، فما تدخنه سجائر «الصين» ذات الغلاف الطري؟».

كان ذلك صحيحًا. جلبتها لي الأسد الصغير. قالت إن يوان الخدّ أرسلها. وأضافت أنَّه وفق يوان الخدّ، هي هدية من شخصية مرموقة، لكنَّ الشخص نفسه لا يدخن إلّا سجائر «وي بونور»، ولا يود أن يغيّر العلامة.

تناولت سيجارة أُخرى وانحنيت إلى الأمام لأعطيه إيّاها. دنا قليلًا ليلتقطها، وقف جانبيًّا ليحتمي من هواء النهر وأشعلها. دخنها، وبدت على محيّاه علامات الرضى، وارتسم على وجهه جمال غريب ومنفّر في آن واحد. قال:

ـ يا عم، الذي يشتري سجائر من هذا النوع ليس شخصًا عاديًّا.

ـ أهداها لي صديق، قلت.

ـ أدركت ذلك، هذا النوع من السجائر، هل نشتريه بأنفسنا؟ قال بضحكةٍ ماكرة، أنتم، سيدي، تشكلون جزءًا مِنَ «الأربعة عمومًا».

ـ «الأربعة عمومًا»، وما يعني ذلك؟

ـ عمومًا، النبيذ والسجائر تتلقاهما هديةً، عمومًا، لا تمسّ راتبك، هذا ما تمليه زوجتي، لا نستخدم الأجر أبدًا، قال، وهنالك «عمومًا» رابع نسيتُ ما هو.

ـ في الليل، عمومًا، تراودنا الكوابيس، قلت.

ـ أنت تخطئ هنا، أضاف، لكنني فعلًا نسيت الرابع.

ـ حسنًا، دعنا من الأمر.

ـ إذا عُدْتَ غدًا وركبت طوفي، أكون تذكرتُ الرابع، تابع. يا عم، أعرِفُ مَنْ أنت.

ـ ومَنْ أنا؟

ـ لا بدّ أنَّك كسياو الصيف ـ الربيع[1]، العم كسياو، قال بضحكةٍ غريبة. يقول والدي إنَّك كنتَ الأكفأ بين جميع رفاق صفّه. أنتَ فخرهم، وكذلك فخر كانتون دونغبي كاملًا.

وقلتُ بدوري: «ذلك صحيح، إنه الأكفأ، لكنني لستُ هو».

ـ يا عم، لِمَ كلّ هذا التواضع، تابع، منذ اللحظة التي صعدتَ فيها إلى الطوف، عرفتُ أنَّك لستَ شخصًا عاديًّا.

ـ حقًّا، قلتُ ضاحكًا.

ـ ذلك جليّ، قال، جبينُك يلمع، لديك ما يُشبه الهالة فوق رأسِكَ، ما إن يراك المرء حتّى يعلم أنَّك رجل موعود بالثراء والشهرة!

ـ هل تعلَّمْتَ الفراسة مع يوان الخدّ؟

ـ آه، يبدو أنَّك تعرفه أيضًا؟ لَطَمَ جبهته، ما أسخفني، جميعكم رفاق صفّ واحد، طبيعي أن تَعْرِفُه. على الرغم من أنَّ العم يوان لا يوازيكَ، هو رجل كفء أيضًا.

---

(١) أي كسياو الشفة السفلى، الذي غيَّر لقبه في تلك الأثناء، راجع الملاحظة صفحة ٥٤.

ـ ووالدك كذلك، قلت، أتذكرً أنَّه كان قادرًا على لفّ ملعب كرة السلة مشيًّا على يديه.

ـ لا يُعدُّ ذلك شيئًا، قال بازدراء، حين يكون العقل بسيطًا، تكون الأطراف قوية! بينما أنتَ والعم يوان تستخدمان عقليكما، تحرّكان دماغيكما؛ «من يستخدم دماغه يَحْكُم، من يتّكل على قواه البدنية يُحْكَم»، الأمر معروف.

ـ بطلاقة لسانِك، تُشكّل ثنائيًّا مع وانغ الكبد! قلتُ ضاحكًا.

ـ العم وانغ رجل موهوب كذلك، لكنَّ الدرب الذي سلكه يختلف عن سبيلكم، تابع مثنيًا عينيه الصغيرتين المثلثتين، ذواتَيْ النظرة الحادة الثاقبة. العم وانغ يزرع جنونه الذي لا حدّ له، ويحصد المال باعتدال.

ـ كم يجني المرء من بيع تماثيل صلصالية؟

ـ ما يبيع لا يُعدّ تماثيل عادية، بل تحف فنية. وأضاف: أيها العم، إن كان للذهب سعر، فالفنّ لا يُقدَّر بثمن! طبعًا، مقارنةُ بضعة فلوس يجنيها العم وانغ الكبد مع ما تكسبان أنت والعم كسياو، كمن يُشبّه بركة ماء بالبحر. والعم يوان أذكى منه، لكنَّه لا يستطيع أن يعوّل فقط على تربية الضفادع الثيران لربح المال.

ـ وإن لم يتَّكِل يوان الخدّ على تربية الضفادع الثيران، فإلامَ يستند إذًا؟

ـ يا عم، ألا تعرف بالأمر، أم تدّعي أنَّك لا تعرف شيئًا؟

ـ لا أعرف شيئًا، تلك الحقيقة.

ـ أنتَ تسخر منّي يا عم، قال، وكأنَّ شخصًا بمستواك ليس على

علم بكل الأمور؟ ألستَ على اطلاع على الوقائع التي يعرفها شخص عاديّ مثلي؟ أيُعقل ذلك؟

ـ عُدْتُ إلى هنا قبل بضعة أيّام، وتلك الحقيقة، لا أعرف عمّا تتكلم.

وقال: «حسنًا، لنفترض ذلك صحيحًا، لكنَّك يا عم لست غريبًا عن البلد، لذا، أنا قريبك البسيط، سأُخبرُك كل الحكاية لأسلّيك.

ـ عظيم، أخبرني.

ـ العم يوان يستخدم تربية الضفادع الثيران غطاءً، تجارته الحقيقية هي مساعدة الأشخاص على الإنجاب.

فوجِئت إلى أقصى حدٍّ، لكنَّني لم أنبس ببنت شفة، علاوةً عن الحفاظ على رباطة جأشي كي لا يظهر أيّ انفعال على وجهي.

ـ لأقُلْ ذلك بأناقة أكثر، يديرُ «مركزًا يقوم مقام الحَبَل»، وللتعبير عن ذلك بفظاظةٍ أكثر: يجد أمّهات حوامل لنسوة عاجزات عن الحمل.

ـ وهل هناك أشخاص يقومون بهذه التجارة؟ سألت، ألا يُعدُّ ذلك خرقًا للتخطيط الأُسري؟

ـ آه، يا عمٍ كسياو، لكنّنا تخطينا تلك الحقبة! وما زلت تتحدث عن التخطيط الأُسري! صرخ متعجبًا. حاليًّا، «الذين يملكون المال، يُنجبون الأطفال ويدفعون الغرامة». خُذ مثلًا هي العجوز، «ملك جامعي الخرق والأسمال وبائعيها»، ولدت زوجته طفلها الرابع، فدفع ستمئة ألف يوان غرامةً. مساءً، تلقّى البلاغ، فقصد لجنة التخطيط الأسري يحمل جرابًا من جلد الحيّة يحوي المبلغ. «الذين لا يملكون المال، يُنجِبون سرًّا». أيّام الكومونة الشعبية، خضع الفلاحون لرقابة

شديدة: إذا أرادوا الذهاب إلى المعرض التجاري، طلبوا إذنًا، ليخرجوا من منطقة سكنهم، كان عليهم الحصول على ترخيص. اليوم، المرء حرٌّ في الذهاب بعيدًا، أنّى شاء، من دون أن يُسأل. يمكنك أن تذهب إلى مكان آخر غير مكان سكنك لندف القطن، تصليح المظلات، الأحذية، بيع الخضار، استئجار قبو، بناء ملجإٍ تحت جسر وإنجاب ما استطعت. أصحاب المقامات الرفيعة يحظون بأطفالٍ من «امرأة ثانية». لستَ بحاجةٍ إلى إيضاحات إضافية، وحدهم الموظفون الصغار الذين لا يملكون المال والمتخوفون لا يجرؤون على الإنجاب.

ـ تبعًا لما تقول، لم يعد لسياسة الرقابة على المواليد وجود إلا بالاسم؟

ـ أبدًا، ما زالت قائمة، وإلّا فعلى أيّ أسس تُحتسبُ الغرامات؟

ـ إن كان الأمر كذلك، فليس على الناس إلّا الإنجاب، فما حاجتهم إلى مؤسّسة تؤمن لهم الأطفال؟

ـ يا عم، يبدو أنَّك تُناصر قضيّتك إلى أقصى الحدود، ولا تفقه شيئًا من شؤون الدنيا، قال ضاحكًا، حتى وإن ملك الأثرياء المال، فقليلون منهم يتمتعون بسخاء هي العجوز، ملك جامعي الخرق والأسمال وبائعيها، معظمهم يصبح أكثر بخلًا كلما ازداد ثراءً، ويرغبون حقًّا في ابن يرث ثروتهم، لكنَّهم يشمئزون من دفع الغرامة. إيجاد أمّ حامل يسمح لهم باختلاق الحجج والتخلص من دفع الغرامة. ثمَّ غالبية الأغنياء والشخصيات المرموقة الذين يبلغون سنّكم، يتحرّقون رغبةً لمحاولة إنجاب وريث، لكنَّ نساءهم ما عُدْنَ ينفعنَ.

ـ يلجأون إلى «ثانية»، أليس كذلك؟

ـ نعم، ومعظمهم لديه امرأة ثانية، و«ثالثة» و«رابعة» حتى، لكنَّ الكثيرين ما زالوا يخافون من زوجاتهم، ويخشون المشاكل، وهؤلاء هم زبائن العم يوان.

انتقل نظري إلى الضفة الأُخرى من السد، وحطَّ بعيدًا على البناء الصغير الزهري حيث تُربى الضفادع الثيران، وعلى منظر معبد الإلهة الذهبي، فيما تفاعل فيَّ إحساس لا ينبئ بالخير. تذكّرت ما حدث لي مع الأسد الصغير في أحد الأيام، باكرًا في الصباح، بعد أن تبولتُ وعدتُ من الحمام...

ـ يا عم، على ما يبدو جليًا، لا ابن لك؟ سألني ابن الجمجمة ـ المسطحة.

لم أُجِبْ.

ـ يا عم، من غير المقبول ألّا يكون لشخص مهم مثلك ابن. تعرف ذلك، أليس كذلك؟ ترتكب جرمًا، فكونفوشيوس قال: «هنالك ثلاثة أوجه قصور في البرّ البنوي، عدم إنجاب خلفٍ أكبرها...».

بعد أن دخلت إلى المرحاض، وكنت قد حصرت بولي فترةً طويلة، شعرت بالارتياح، وقرّرت أن أنام قليلًا. لكنَّ الأسد الصغير راودتني بشدّة، ولم يحصل ذلك منذ زمنٍ طويل...

«يا عم، في كل الأحوال، عليك أن تُرزق بابن، إنَّه أمر لا يتعلق بك وحدك، بل بكانتون دونغبي عمومًا. يقدّم لك العم يوان عدَّة إمكانات. أفضل ما يمكن أن يحدث، الأم الحامل مع علاقة جنسية، جميع الفتيات جميلات، صحتهن جيدة، جيناتهن رائعة، غير متزوجات، ومستواهن العلمي يفوق تخرّجهن من الجامعات. يمكنكَ أن تُساكن إحداهن إلى

أن تحبل. في هذه الحال، التكاليف... الكلفة مرتفعة نسبيًّا، تصل إلى مئتي ألف يوان في الحدّ الأدنى. طبعًا، إذا أردت أفضلَ الأفضل لابنك، تدفعُ للفتاة نفقة الأكل، إضافةً إلى علاوة. يكمن الخطر في هذا الخيار الأوَّل أن تقعا في الحبّ خلال فترة المساكنة، وما كان علاقة عابرة سيتحوّل إلى حقيقة، مع كلّ ما سيجرّ ذلك على ارتباطك الأوَّل. ولا أظنّ أن زوجتك ستوافق...».

... بدت مهتاجة جدًّا، لكنَّ جسدها ظلَّ باردًا، إضافةً إلى ذلك، وخلافًا لعاداتها، لم تمارس الشيء بالطريقة نفسها، أي كما فعلت طوال الأعوام الماضية. ما الذي تنوين القيام به؟ عند بزوغ الفجر، رأيتُ عينيها اللامعتين. قالت بابتسامة غامضة:

ـ سأُسيء معاملتَكَ لمرَّةٍ.

عَصَبَت عيني بقماشٍ أسود.

ـ ماذا تحاولين أن تفعلي؟

ـ إيّاك أن ترفعه عن عينيك ـ لقد خدعتني وسرقت غشًا نصف عمري، سأنتقمُ هذه المرة.

ـ ستقطعين قناتي المدرّة؟

فقالت بضحكة ماجنة:

ـ كأنَّ باستطاعتي أن أقوم بشيء مماثل! أريدُ أن أوصلك إلى النشوة لمرةٍ...

«منذ زمنٍ ليس ببعيد، أتت امرأة وافتعلت مشاجرةً، حَطَّمَت سيّارة العم يوان، قال الجمجمة ـ المسطحة الصغير. أثناء مساكنة زوجها للأم

الحامل وقع في غرامها، وبعد ولادة الابن، طلَّق زوجته. لذا، أظن أن زوجتَكَ لن توافق...»

... استمرّت في إثارتي، شعرت بالغليان، بالجنون. أحسستُ أنَّها تُلْبِسُني شيئًا.

ـ ما الذين تنوين القيام به؟ هل ذلك ضروري؟

لَمْ تُجِب.

«يا عمْ، إذا وددْت فقط أن تُرزق بطفل، من دون أن تستغلّ الفرصة لِتَذَوُّقِ عطر زهرةٍ بريَّة، فسأدُلّك على أكثر السبل توفيرًا للوصول إلى ذلك. لكنَّه سرّ. عند العم يوان، يمكنك أن تجد الأمّهات الحوامل الأرخص. منظرهنّ بشع، لكن تلك البشاعة ليست فطرية. كُنَّ فتيات جميلات، ما يعني أن جيناتهن في غاية الجودة. يا عم، لا بد أنَّكَ سمعت عن ذلك الحريق الذي طال مصنع دونغلي للدُمى. خمسُ شابات من كانتوننا لقين حتفهن بسببه، ونجت ثلاث، لكنهن أُصِبْنَ إصابات بالغة، وتشوّهن، وغدت ظروف حيواتهن صعبة جدًا. العم يوان، صاحب القلب الكبير، آواهُنَّ وأطعمهنّ، ووجد لهنّ في الآن نفسه سبيلًا ليكسبن رزقهنّ، ويدّخرن بعض المال لشيخوختهن. بالطبع، في هذه الحالة، يكون الحمل من دون علاقات جنسية، أي تؤخذ عينة من شراغيفك الصغيرة وتُلقَّح صناعيًّا في رحم إحداهنّ. عند الولادة، تأتي وتأخذ الطفل، ويتوقف الأمر عند هذا الحد. هنَّ لا يطلبن الكثير: خمسين ألف يوان لصبي، وثلاثين ألفًا لفتاة...».

... حملتني على الصراخ. شعرت بأنَّني أقع في لجَّة عميقة. غطَّتني ورحلت بهدوء...

ـ يا عم، أقترِحُ عليك أن...

ـ هل تؤدّي دور الوسيط لحساب يوان الخدّ؟

ـ يا عم، كيف يطاوعك قلبك على استخدام ألفاظ عفا عليها الزمن، قال الجمجمة ـ المسطحة ضاحكًا، أنا موظف عند يوان الخدّ، وأشكرك عمي كسياو لأنَّك أَتَحْتَ لي الفرصة لأكسب بعض المال، سأتّصل توًّا بالعم يوان».

ثبَّت الطوف، وأخرج هاتفه الجوال. قلتُ له: «أعتذر منك، أوَّلًا، لستُ عمَّك كسياو، وثانيًا، لا أحتاجُ إلى خدماتكَ».

٨

سيدي العزيز، أوَّل من أمس، تشاجرتُ مع الأسد الصغير، كنتُ مستاءً، جرحتُ أنفي، نزفتُ كثيرًا، حتى إنني لطَّختُ بالدم ورق رسائلي. ما زلتُ أشعر إلى اليوم بصداع خفيف، لكنَّ ذلك لا يمنعني عن مراسلتك. لكتابة مسرحية، يجب وزن كل كلمة، بينما الرسالة لا تتطلب كل ذلك الجهد. تكفي مئات الكلمات إن كان لدينا ما نقوله. حين كانت زوجتي الراحلة وانغ رينمي تراسلني في ما مضى، كانت تغيب عنها بعض الكلمات، فتستبدلها برسم. اعتَذَرَت مرارًا عن الأمر: «الخبب الوئيد، كانت تقول، مستواي الثقافي محدود، لا يمكنني إلّا أن أرسم». وكنتُ أجيبُها: «إيّاكِ أن تتوقفي، حين ترسمين لتعبّري عمّا يخطر لكِ، في الواقع، تصنعين كلمات!»، ما كان يجرّ ذلك الرد في المقابل: «سأصنعُ لك ابنًا، فلنتشارك معًا لننجب واحدًا...».

سيدي العزيز، بعد أن سمعتُ كلام البحّار الجمجمة ـ المسطحة

الصغير، ارتعدت فرائصي، وتكوّنت لديّ فكرة أقلقتني: الأسد الصغير، تلك المرأة المغرمة بالأطفال حدّ الجنون، أخذت عيّنة من شراغيفي «الصغيرة» لتلقح إحدى الفتيات المشوّهات. وطافت في ذهني صورة أفواج من «الشراغيف» تحيط ببويضة، صورة ذكّرتني بمشهد من طفولتي على حافة المستنقع شبه الجاف وراء القرية، هنالك، تهافتت الشراغيف وتصارعت على رغيف خبزٍ مبللٍ بالماء. من جهةٍ أُخرى، لم تكن بالنسبة لي تلك الفتاة المشوّهة التي تؤدّي دور الأم الحامل إلّا شين الأذن، ابنة رفيق طفولتي شين الأنف. في أحشائها، حَمَلَت طفلي.

توجّهتُ مهرولًا نحو مركز تربية الضفادع الثيران، وبدا لي أن عدّة أشخاص سلَّموا عليّ في الطريق، لكنني عاجز عن تذكر أيّ منهم. عبر فُتحة البوابة الكهربائية المشعّة بالأنوار، رأيتُ للمرة الثانية تمثال الضفدع الضخم. انتابتني القشعريرة، وكأنني أشعر مجددًا، فيما في الواقع كنت أتذكر، نظرته الخبيثة، المليئة ببرودة شبه لزجة. في المساحة الفارغة أمام المبنى الأبيض، قفزت ست نساء يرتدين ثيابًا ملونة، ولوَّحْن بأكاليل من الزهر؛ إلى جانبهن، جلس على كرسي رجلٌ يحملُ أكورديونًا، عزف ألحانًا تشبه الأنّات. بَدَوْنَ يتمرَّن لاستعراضٍ ما. في زمن السلم هذا، وفي هذا النهار البهيّ، لم يحدث شيء. لعلَّ كل ذلك كان ثمرة مخيلتي. عليَّ أن أجد مكانًا أجلس فيه لأفكر جديًّا بمسرحيتي.

«مَنْ لَمْ يُعانِ من المشاكل، فَزِعٌ مثل فأر، مَنْ يواجه الصعوبات، شجاعٌ مثل نمر»، «السعادة ليست الشقاء، لا مجال للنجاة من الشقاء»، تلك كانت التعاليم التي لقنني إيّاها والدي. غالبًا ما تصدر تلك الحكم عن أفواه القدماء. وفيما فكّرتُ بما يقوله والدي، شعرتُ فجأةً بالجوع.

بلغتُ الخامسة والخمسين، وما دام والدي وأشقائي الأكبر سنًّا على قيد الحياة، لا أجرؤ على أن أتحدّث عن الشيخوخة، ولكنْ، في الحقيقة، لقد تخطت الشمس السمت وبدأت تميلُ سريعًا نحو جبال الغرب. فالرجل الذي بلغ منتصف الحياة المائل إلى الزوال، مَنْ نال تقاعده قبل الأوان، مَنْ اشترى منزلًا في الديار لينصرف إلى الشيخوخة عاطلًا من العمل، ذلك الرجل ما عاد يخشى شيئًا. عند وصولي بأفكاري إلى تلك النقطة، شعرت بالجوع أكثر.

دخلتُ إلى مطعم «دون كيشوت» الصغير الذي يقع إلى يمين المحلة، أمام معبد الإلهة. قصدتُ المكان غالبًا مذ بدأت الأسد الصغير تعملُ في تربية الضفادع الثيران. جلستُ إلى الطاولة قرب النافذة. بعض الشؤون الخاصة لا تتغير، أصبح من عادتي الجلوس إلى تلك الطاولة. النادل، شاب مربوع القامة، قام لاستقبالي.

سيّدي العزيز، كلَّما جلستُ هنا ونظرتُ إلى الكرسي الفارغ قبالتي، يأخذني الحلم بأنكم، في يوم من الأيام، ستجلسون أمامي وتناقشونني في تلك المسرحيّة التي يبدو مخاضها صعبًا. وجه النادل الدهني باسمٌ وودود، لكنَّني أشعر دومًا بأمرٍ غامض خلف تلك الابتسامة. لعلَّها التعابير نفسها التي تظهر على وجه الخادم سانشو في كتاب سرفانتس، فيها شيء من الشيطنة الشرّيرة، إنَّها تعابير الخبيث الصغير، الذي يستهزئ بالجميع والجميع يسخرون منه في المقابل، ولا يمكن للمرء الحكم إن كان يجدها جذابةً أم كريهة. الطاولة مصنوعة من خشب الزيزفون السميك، ولا يغطيها أي طلاء. على سطحها، عروق الخشب واضحة تمامًا، كما آثار حروق سببتها السجائر. غالبًا ما أكتب على هذه الطاولة. ربما لاحقًا، حين تشتهر مسرحيتي، ستصبح تحفةً فنية. آنذاك،

للجلوس إليها وشرب الكحول، يجب دفع كلفة إضافية، ولكنْ لو أتيتم وجلستم معي، لكان الأمر أكثر إدهاشًا! اعذروني، يطيبُ للكُتّاب دومًا تحفيز حماستهم للكتابة بتبجّحات وهلوسات من هذا النوع...

«سيدي»، اصطنع النادل الانحناء، لكنَّ ظهره ظلَّ جالسًا تمامًا. وأضاف: «أُسعدتم صباحًا، تشرفوننا بحضوركم، أهلًا وسهلًا بكم، الخادم الأمين للفارس النبيل سيخدمكم بتفانٍ». وفيما تفوّه بتلك العبارات، ناولني لائحة طعام مكتوبة بعشرات اللغات.

«شكرًا جزيلًا، قلتُ، سأطلب المعتاد: سلطة 'مارغريت'، لحم عجل مكمور مع صلصلة الصويا على طريقة 'الأرملة أنطونيا'، وجعة 'العم ماليكس' السمراء».

انصرف يهز قفاه كمثل بطة كبيرة. بانتظار وصول الأطباق، رُحتُ أُحدّق بديكور القاعة والتحف واللوحات المعروضة: عُلّق على الجدار درع ورمح صَدِئان، وكفان ممزّقتان استُخدمتا في مبارزة مع خصمٍ، وشهادات وأوسمة هي عبارة عن إشارات إلى معارك وانتصارات مهمة، وكان هنالك أيضًا رأس أيّل يُخيَّل لناظره أنّه حيّ، وديكان بريّان مصبّران ريشهما ملوَّن، وبعض صور قديمة مصفرة. وعلى الرغم من التقليد الواضح للذوق الكلاسيكي الغربي، نمَّ المجموع عن طابع مميز. إلى يمين الباب عُرِض تمثال برونزي، بقياس طبيعي، لامرأة يلمع ثدياها لمعانًا ذهبيًا لفرط ما لُمسا إذ يا سيدي، لحظتُ بانتباه أنَّ جميع الذين يدخلون إلى المطعم، رجالًا ونساءً، وهم يمرّون، يلمسون ثديي التمثال. عجّت الساحة أمام معبد الإلهة بالزوار كما العادة، وحملت صيحات وانغ الكبد مناديًا المشترين الحيوية والإثارة نفسها. أطلق منذ فترة قصيرة سلسلة الـ «ليكرنات التي تهب الأبناء»، مدّعيًا أنّها إعادة

إحياء للتقاليد، لكنَّها في الحقيقة ابتكار دبّره بعض العاملين في المجال الثقافي في «قصر الثقافة» في البلدة. وعلى الرغم من أن العمل لا يشبه بشيء التراث الصيني، ولا حتّى الغربي، سمحت العملية بتوظيف عشرات الأشخاص، وهذا يُعدّ إنجازًا مهمًا. علاوةً على ذلك، سيدي العزيز، وكما قلتم أنتم، ما يُشار إليه بالتقليد الموروث، ليس إلّا ريادةً للفن المعاصر. شاهدت على التلفاز برامج كثيرة مماثلة: جوهريًّا، إنَّها نوع من خليط حيث يمتزج التقليد بالحداثة، والأسفار بالثقافة، كل ذلك يزخر بالحماسة، ينطلق في كل اتجاه، يوزّع فرحًا معديًا، بسذاجةٍ مولدةٍ للثروات. وكما قلتم، في بعض بقاع الأرض، تهز المدافع أبواب السماء، تملأ الجثث القرى، فيما يغنّي البشر، ويرقصون، وينعمون بالرفاهية في بقاع أُخرى. تلك حال الكون الذي نعيش فيه جميعًا. لو وُجِدَ حقًا «عملاق»، جسمه بالنسبة إلى الكرة الأرضية يوازي حجم إنسانٍ بالنسبة إلى كرة، جالسًا هناك، ينظر إلى الأرض التي لا تنفك تدور حوله، حينًا يسودها السلام، وحينًا آخر تعصف بها الحروب، تمرُّ من طور الغنى إلى زمن الفقر، تشهد تباعًا الجفاف والطوفان... لشئت أن أعرف ما رأيه في كل ذلك. اعذرني، سيدي العزيز، استطردت في الحديث مجددًا.

حمل إليَّ سانشو المزيَّف كوب ماء بارد، وصحنًا صغيرًا فيه خبز، وقطعة زبدة، ومزيجًا من زيت الزيون الصافي وصلصة الصويا والثوم المدقوق. في هذا المطعم، يُقدّم الخبز طازجًا، لذيذًا. ذلك ما أجمع على قوله جميع مَنْ سبق لهم أن تذوّقوا الخبز الغربي. ونكهته مع المزيج المذكور شهيّة، وكذلك الأطباق التالية، والعصيدة، كل شيء هنا ممتاز. سيدي العزيز، يجب بأيّ ثمن أن تزوروا هذا المكان وتتناولوا فيه وجبة،

أضمن لكم أنكم ستحبّون كل ما يُحَضَّر. من جهة أُخرى، يتَّبع هذا المطعم عادةً ـ بالحريّ هي قاعدة أكثر منها عادة: كلَّ مساء، قبل الإغلاق، يوضع في سلة من القش على طاولة في المدخل كل الخبز الذي حُضّر خلال النهار، الطويل، والمستدير، والمصنوع من الطحين الأسمر أو الأبيض، المطحون خشنًا أو ناعمًا، وتُترك الحرية للزبائن بأخذ ما يشاؤون منه. وعلى الرغم من أنّه لا شيء يشير إلى الكمية التي يمكن أخذها، كل شخص، من تلقاء نفسه، لا يتناول إلّا رغيفًا واحدًا، طويلًا أو مربعًا، طريًّا أو محمّصًا، يضعه تحت إبطه أو يضمّه بيديه. وتراهم يتنشقون رائحة الخبز الطيبة، رائحة القمح، وحبوب الكتان، واللوز، والخميرة. سيدي العزيز، كلما مشيتُ مساءً ببطء في الساحة أمام معبد الإلهة، ورغيف الخبز الطازج بيدي، ينتابني انفعال غريب. أُدركُ تمامًا أن تلك رفاهية، لأن العالم يفيض بأناس لا يملكون ما يأكلون، أو ما يلبسون، وكثر آخرين يصارعون الموت.

تحوي سلطة «مارغريت» خسًا، وطماطم، وهندباء، إنَّها شهيّة. مَنْ أعطاها ذلك الاسم الذي يجعلك تحلم بأوروبا الغربية؟ إنَّه طبعًا لي اليد، رفيقي في المدرسة الابتدائية، ابن معلمتي التي فتحت لي آفاقًا كثيرة. كما قلت لكم في رسالة سابقة، لي اليد أكثر الرفاق موهبةً، وهو من كان يجب أن ينصرف إلى الأدب، ولكنْ، في النهاية، توليتُ أنا المهمّة. درس الطبّ، وغدا محترفًا ماهرًا في مهنته، ذا مستقبل واعد. لكنَّه استقال من منصبه، وعاد إلى الديار ليفتح هذا المطعم نصف الصينيّ، نصف الغربيّ، أو بالأحرى الذي يجمع الثقافتين على أفضل وجه. من اسم المؤسسة والأطباق، يمكن الحكم على الأثر الذي تركته الثقافة على صديقنا. افتتاح مطعم باسم «دون كيشوت» في مكان مثل

منطقتنا حيث تمتزج الثقافتان المحلية والأجنبية كان بحد ذاته عملًا «دونكيشوتيًّا». ازداد وزنًا، وهو من كان أساسًا صغير الحجم، يبدو أقصر بسبب البدانة. غالبًا، يجلس في زواية من القاعة، قبالتي، لكننا لا نتبادل السلام. وفيما أكون أحيانًا منحنيًا على الطاولة أدوّن كيفما كان انطباعاتي، يتخذ وضعية غريبة، ولكن يبدو مسترخيًا جدًّا، يده اليسرى تتدلى خلف ظهر كرسيّه، ويده اليمنى تسند خده، ويدع الوقت يمرّ على هذا النحو.

قدَّم لي سانشو المزيَّف طبق لحم العجل المطهوّ على طريقة «الأرملة أنطونيا» والبيرة السمراء «العم ماليكس». شربت جرعة من الجعة، تناولت لقمة لحمة، لكت الطعام ببطء، لأتلذذ بالطعم طويلًا، فيما راقبتُ عبر النافذة تلك القصة الأسطورية التي تدور فصولها بأبّهة في وضح النهار. افتتح ضجيج الطبول المصمّ للآذان المسيرة، لتلي الرايات والمظلات، والثياب المبهرجة والشخصيات الخارجة عن المألوف. كان وجه المرأة الممتطية الليكارنة مستديرًا مثل قرص القمر، وقد حملت بين ذراعيها طفلًا زهري اللون. كلَّما رأيتُ تلك الإلهة التي تهب الأبناء، أميلُ إلى ربطها بصورة العمة. لكنَّ صورة العمة بشحمها ولحمها، تلك العمة المرتدية ثوبًا صينيًا طويلًا أسود، شعرها مشعّث مثل عش عصافير، تُطلقُ ضحكةً أشبه بنعيب البوم، العمة بنظرتها الفارغة وهلوستها الشفوية، تلك الصورة، قلتُ في نفسي، تقفز إلى ذهني وتكسر أوهامي الجميلة.

طاف الموكب حول الساحة قبل أن يتوقف في وسطها ويتوزع المشاركون في صفوف. صمتت الطبول، وتقدّم حاكم يلبس ثوبًا أحمر

وقبّعة عالية، مع لوحة[1] على وسطه ـ ذكرني منظره بأولئك الخصيان الذين نراهم في المسرحيات عن الأباطرة ـ حمل بيده مؤلفًا بوذيًا، وصاح بأعلى صوت: «أغسطس السماء والأرض الخصبة يجعلان الحبوب الخمس[2] تتضاعف؛ الشمس والقمر والنجوم تثقف الشعب. بأمر من الأمبراطور العظيم أغسطس اليشم، تنزل جلالة الإلهة التي تهب الأبناء، حاملةً طفلًا جميلًا، إلى كانتون دونغبي وتدعو خصيصًا ذلك الرجل الصالح وتلك المرأة المؤمنة اللذين هما الزوجان وانغ ليان، للمجيء وأخذه»، ـ وذانك اللذان يؤدّيان دور الزوجين لا يصلان أبدًا في الوقت المناسب لتلقي الابن، ذلك الابن الجميل ـ وكانت تأخذ الطفلَ المصنوع من الطين نساءُ المحلة اللواتي يفتقرن إلى ذرّية.

سيدي العزيز، على الرغم من أنني أستخدم تحليلات منطقية لأشجّع نفسي، أظلّ في قرارة نفسي شخصًا تعيسًا، خائفًا أكثر من فأر، وقلقًا. مُذ اقتنعتُ بأن طفلي ينمو في رحم الشابة المسمّاة شين الحاجب، يُقيّدني الشعور بالذنب وكأنه حَبْل. فشين الحاجب ابنة رفيق صفي شين الأنف، وقد ربّتها العمة والأسد الصغير؛ آنذاك، أعطيتها الرضّاعة بنفسي أحيانًا كثيرة. وهي أصغر من ابنتي. وإن عرف شين الأنف، ولي اليد، ووانغ الكبد، أصدقاء طفولتي، حقيقة الأمر، أخشى أنني، ولو ارتديتُ جلد كلب، لن أملك الشجاعة لأقف أمامهم.

ما زلت أذكر، في أيّ ظروف التقيت مرتين شين الأنف بعد عودتنا إلى الديار.

---

(١) لوحةٌ كانت تُحمل على الوسط لتدوين الملاحظات أثناء الجلسات مع الإمبراطور.

(٢) الأرُز، والذرة البيضاء، والذرة، والقمح، والفاصولياء.

كانت المرّة الأولى نهاية العام الماضي، مساءَ يوم تساقط فيه الثلج. آنذاك، لم تكن الأسد الصغير تعمل بعد في شركةً الضفادع الثيران. مشينا ببطء تحت الثلج، نُراقب ندف الثلج ترقص تحت أضواء المصابيح الذهبية حول الساحة. كانت تصلنا أحيانًا من البعيد أصوات المفرقعات، مبشّرةً بدنوّ العام الجديد. اتَّصلَت بي ابنتي الموجودة في إسبانيا لتُخبرني أنَّها وزوجها في بلاد سرفانتس ويتنزهان في البلدة مسقط رأس الكاتب. كنت والأسد الصغير في تلك اللحظة ندخل يدًا بيد إلى مطعم دون كيشوت. حَكَيْتُ لابنتي عن تلك المصادفة، فرنّت ضحكتها الصافية في الهاتف الجوال.

«العالم صغيرٌ جدًا يا أبي».

الثقافة عظيمةٌ جدًّا، سيّدي العزيز.

في تلك الفترة، لم نكن نعلم أن مالك المطعم هو لي اليد، ولكنْ خُيّل إلينا أنَّه لا بدّ شخص خارجٍ عن المألوف. ما إن وطئنا المكان، حتّى أسرنا سحره. من جهتي، أُعجبت كثيرًا بالطاولات والكراسي البسيطة، ولو غُطيت الموائد بشراشف بيضاء، لبدا جو المطعم غربيًّا، لكنني أنحاز إلى التفسير الذي أعطاه لي اليد. لقد تحقق من أنّه في أيام دون كيشوت، لَمْ تُستخدم شراشف الطاولات في الفنادق الريفية في إسبانيا، وأخبرني بالنبرة التي يستعملها عالمو الغيب أن غياب الشراشف يرتبط بحقيقة أن النساء في أوروبا، في الحقبة نفسها، لم يكنّ يرتدين حمّالات الصدر.

سيدي العزيز، سأكون صريحًا معكم، لحظة دخولنا إلى المطعم، حين رأيت ثديي تلك المرأة التمثال يلمعان لفرط ما لُمِسا، امتدّت يدي بحركة لاإرادية نحوهما. ذلك ينمّ عن تصرّف مخلٍّ بالآداب،

ولكنْ، على الأقلّ، لا غموض فيه. وَضَعَت الأسد الصغير حدًّا لحركتي بـ «كفى». فقلت لها:

ـ ماذا تعنين بـ «كفى»، إنَّه تقدير للفن!

وأضافت بلهجةٍ قاسية:

ـ كثر من السوقيين المتحضرين يدّعون ذلك.

دنا منّا سانشو المزيف مبتسمًا، واصطنع الانحناء، لكنَّ جسمه ظلّ مستقيمًا، وقال:

ـ أنتما على الرحب والسعة، سيدتي، سيدي، حضوركما يشرّفنا!

أخذ معطفينا ووشاحينا وقبعتينا واقتادنا إلى طاولة وسط المطعم، وُضعت عليها مزهرية زجاجية مستديرة مملوءة ماءً، تعوم عليه شموع بيضاء. لم نستحسن الزاوية، فاخترنا طاولة قرب النافذة. كان مكانًا جيدًا، يسمح لنا عبر النافذة بالتمتع بمنظر الثلج يتراقص في هالة المصابيح، وكذلك برؤية المطعم ككل. لمحنا رجلًا جالسًا في ركن في الخلف، على الطاولة التي ستُخصص لي لاحقًا، تغطيه سحب الدخان.

عرفته من يده اليمنى التي ينقُصها البنصر، عرفته من أنفه الأحمر الكبير. شين الأنف، ذلك الرجل الفاتن، البهي الطلعة في ما مضى، أصاب الصلع مقدمة رأسه، فيما تدلّى شعره على عنقه، لتبدو تسريحته شبيهة بتسريحة سرفانتس. ضمر وجهه كثيرًا، وترهّلت وجنتاه، كأنه فقد أضراسه الخلفية. لذلك، برز أنفه أكثر. التقطت أصابع ثلاث من يده اليمنى سيجارة شبه مستهلكة، وضعها على طرف شفتيه ومجَّها. عبقت في القاعة رائحة غريبة، رائحة التبغ الممزوج بمرشح السيجارة

المحترق. نفث الدخان من منخاريه العريضين. كانت نظراته الفارغة نظرات رجل مكتئب. لم أجرؤ على التحديق به، على الرغم من ذلك، لم أستطع ألا أفعل.

رحت أستذكر تمثال سرفانتس الذي شاهدت في حرم جامعة بكين، ففهمت سبب وجود شين الأنف هنا. ارتدى ثيابًا مضحكة، كناية عن جلباب طويل وسترة، ولف عنقه بقطعة قماش بيضاء من الكريب القطني. كنت أتوقّع أن أرى على خاصرته سيفًا، فلمحته في الواقع مسندًا جانبيًّا إلى زاوية الجدار، ولمحت إلى جانبه القفازين الحديد والترس والرمح. قلتُ في نفسي، لا بدَّ من أنْ يرافقه كلب هزيل ووسخ، وفعليًّا، جلس إلى قدميه كلب قذر، لكنَّه لم يكن نحيلًا جدًّا. قيل إن يد سرفانتس اليمنى كانت تنقصها إصبع. لكنَّ الكاتب لم يحمل ترسًا ولا رمحًا، ولذا، كان يجب أن يكون رفيقي دون كيشوت، ولكن وجهه كان وجه سرفانتس. ومع ذلك، لم يرَ أحد سرفانتس يومًا، وأكثر منه دون كيشوت الذي لم يكن له وجود. إذًا، أيًّا من الشخصيتين يجسّد شين الأنف، فليحسم كل فرد خياره بنفسه. شعرتُ بحزن عميق للحال التي وصل إليها صديقي القديم.

لقد سمعتُ سابقًا عن قدر ابنتيه الظريفتين المشؤوم، شين الأذن وشين الحاجب. كانت الشقيقتان مِنْ أجمل زهور كانتون دونغبي. لم يكن أصل شين الأنف واضحًا تمامًا، لكنَّ الأكيد أن الدم الغريب الذي ورثتاه منع وجهيهما من أن يكونا مسطحين قليلًا وممتلئين، لذلك، فأوصاف الجمال الأنثوي التي نجدها في القصائد والروايات الكلاسيكية الصينية لا يمكن أن تنطبق عليهما. كانتا غزالتين في قطيع خراف، طائرَيْ رهو مكللين بتاج بين الدواجن. لو وُلدتا في

عائلة ثريّة أو بلد غني، أو لو أنهما التقيتا مصادفةً في ما مضى شخصًا مرموقًا، على الرغم من ولادتهما في عائلة فقيرة، لكانتا على الأرجح أحدثتا وقعًا وصعدتا السلم الاجتماعي كالسهم. وربّما قصدت الشقيقتان الجنوب معًا بحثًا عن عمل بانتظار فرصة كهذه. سمعتُ أن مصنع الدمى الذي عملتا فيه كان يديره أجنبي، ويصعب الحكم إنْ كان فعلًا أجنبيًا. كان باستطاعة الشقيقتين الجميلتين والذكيّتين كسب المال بسهولة والتنعم بالحياة في هذا المحيط المترف، كأن تمارسا الدعارة مثلًا. لكنهما فضّلتا العمل بكدّ في ذلك المصنع، وتحمّلتا الشقاء والاستغلال، لينتهي الأمر بإحداهما رمادًا، والأخرى مشوهةً بسبب الحريق الرهيب الذي هزّ الصين بأسرها. وإذ نجت الصغيرة من الموت، فلأن أختها حمتها بجسدها. يا لهذا الألم! يا له من حزن! آه من الحسرة! يثبت ذلك أنهما لم تتذللا، ظلتا ابنتين طيبتين وحافظتا على نقاوة روحيهما.

حياة شين الأنف مأساة لا مثيل لها. استنتجتُ أنَّ وضعه في هذا المطعم حيث يؤدّي دور شخصية شهيرة راحلة أو رجلٍ غريب خيالي يشبه مصير ذلك القزم أمام مرقص «الجنة» في بكين، أو ذلك المارد عند مدخل حمامات مغارة المياه في غوانزو. كل واحد منهم يمارس الدعارة بطريقة ما، أحدهم يبيع قزامته، والآخر عملقته، وصديقنا أنفه الكبير. مصير مأسوي واحد يجمعهم.

سيدي العزيز، ذلك المساء، عرفتُ شين الأنف من النظرة الأولى، علمًا بأنني لم أره منذ حوالى عشرين عامًا، ولكنْ كان بمقدوري التعرّف إليه لو انقضى مئة عام، وحتى لو حصل اللقاء في بلدٍ آخر. أظن أنّه عرفنا كما فعلنا. فأصدقاء الطفولة لا يتكلون على نظرهم لتمييز

بعضهم بعضًا، يكفي أن يصغوا، ليسمعوا تنهيدة، أو عطسة، وها هم يحددون الشخص.

هل يجب التقدم منه ودعوته إلى مشاركتنا عشاءنا؟ ترددتُ والأسد الصغير. ومن لامبالاته المقصودة، ونظره المثبت على رأس الأيّل من دون أن يحيد قيد أنملة، فهمنا أنَّه كان هو كذلك في حالة توقع. ومرَّ في بالي كل المشهد الذي حصل ليلة «وداع جنيّ المنزل»، حين أتى مع شين الأذن يطالب بشين الحاجب. كان آنذاك عريض المنكبين، يرتدي سترة من جلد الخنزير سميكة، حمل جرن الثوم ليرميه في قدر الرافيولي، تنفس بطريقة بهيمية، تصرّف بعنفٍ، قلقًا، أشبه بدبّ ضخم أُثير غضبه. لم نره مذذاك. وأعتقد أنَّه، من جهته، كان يتذكر الماضي وتتنازعه آلاف المشاعر. لم نكنّ له أيّ حقد، وكنَّا متعاطفين مع مصيبته إلى أقصى حدّ، وإذا تردّدنا في الدنوّ منه وتقديم أنفسنا، فلأننا لم نعرف أيّ تصرّف هو الأسلم، إذ ممّا لا شكَّ فيه، حسب التعبير الدارج، أننا كنا نعيش حياةً هانئة، عكسه تمامًا. كيف يتصرف الشخص الهانئ العيش مع صديق يعاني الأمَرَّين، ذلك أمر يتطلب الكثير من الكياسة.

سيدي العزيز، حبّي للسيجارة مفرط، وذلك الميل مؤطر جدًّا في أوروبا، والولايات المتحدة، وكذلك في بلدكم. هناك، يذكّرون المدخنين دومًا بفظاظتهم وقلة تهذيبهم. ولكن عندنا، لا قوانين تمنع التدخين. تناولت علبتي، أخذت سيجارة، وأشعلتها. أعشق رائحة البارود والكبريت الناعمة التي تنبعث للحظة أثناء احتراق عود الثقاب. سيدي العزيز، ما كنت أدخنه في ذلك اليوم، سجائر من ماركة «بافيون دور»، تبغ محلي معروف غالي الثمن. يُحكى أن علبة منه كلفتها مئتا يوان، أي عشرة يوانات لكل سيجارة. تُباع ليبرة القمح بالكاد بثمانين

قرشًا، بمعنى أنَّ كل سيجارة توازي أكثر من اثنتي عشرة ليبرة قمح، ويمكن لتلك أن تصنّع خمس عشرة ليبرة خبز، أي ما يلبّي احتياجات شخص ما من الخبز طوال عشرة أيّام على الأقلّ، فيما تُستهلك السيجارة في ثوانٍ. وتوضيب هذا التبغ فاخر كذلك، يذكّرني بمعبد «بافيون دور» في كيوتو. لعلَّ مصمّم التغليف استوحى منه. أعلم في المقابل أن والدي يكره حقيقة أنني أدخن نوع التبغ هذا، واكتفى بعبارة قالها بنبرة قاسية: «ذلك سيّئ!». سارعت وشرحت له: لم أشتره، قُدّم لي هديّةً. أضاف بلهجة أقسى: «ذلك أسوأ!». ندمتُ لأنني أطلعت والدي على ثمن تلك السجائر، فذلك يُظهر حجم سطحيتي وتبجحي. أساسًا، لا أختلف كثيرًا عن حديثي النعمة الذين يتباهون بالعلامات التجارية ويتبخترون مع زوجاتهم. ولكنْ لم يكن باستطاعتي أن أرمي تلك السجائر الثمينة، ألا يُعدّ ذلك جرمًا أكبر؟ وتحمل تلك اللفافات شذى خاصًا، متى احترق، أثملك.

رأيتُ أنَّ جسم شين الأنف فقد توازنه، عطس بقوةٍ مرات عدة، فيما مالت عيناه ببطء عن رأس الأيّل باتّجاهنا، وقرأنا بدايةً في النظرات التي رمقنا بها تردّدًا، وانزعاجًا، وحيرةً، ثم، نهمًا، وأملًا، وشيئًا من الخبث، مشاعر كثيرة أسقطها علينا.

سيدي العزيز، وقف الرجل نهاية المطاف، جر سيفه كأنه عصا، واقترب عرجًا. وعلى الرغم من الإضاءة الخافتة، استطعنا تمييز وجهه، والانطباع الغامض الذي بدا على تقاسيمه يستحيل تفسيره بكلام دقيق. صَعُبَ عليَّ، في تلك اللحظة، أن أُفتي إن كان يحدّق بي أو بالدخان الخارج من فمي. نهضت سريعًا، أثار الكرسي خلفي جلبة قوية، وكذلك فعلت الأسد الصغير.

انتصب الرجل أمامنا، مددت يدي، متصنعًا المفاجأة والسعادة كأنني لحظت وجوده للتو: «شين الأنف...». لم يرد مباشرةً على بداية المحادثة تلك، ولم يحرك ساكنًا ليرد السلام، بل حافظ على مسافة بيننا، انحنى عميقًا، وبعد أن أسند يديه إلى السيف الذي تآكله الصدأ، قال كما يفعل ممثل في مسرحية: «سيدتي النبيلة، سيدي النبيل، أنا الفارس دون كيشوت الآتي من المانش في إسبانيا، أقدّم لكما احترامي، أنا الشخصية المتواضعة مستعدّ لخدمتكما من كل قلبي».

ـ من دون هزل، شين الأنف، قلت، ما الذي تفعله؟ لستُ إلّا وان القدم، وهي الأسد الصغير...

ـ سيدتي النبيلة، سيدي النبيل، بالنسبة للفارس الوفي، لا مهمّة أعظم من الحفاظ على السلام وإقامة العدل بحد السيف...

ـ صديقي العزيز، توقف عن أداء هذا الدور.

ـ لكنَّ الكون مسرح شاسع يُقدَّم عليه العرض نفسه كل يوم، سيدتي، سيدي، إذا أنعمتما عليَّ بسيجارة، أرضى عن طيبة خاطر بأن أقدّم لكما استعراضًا رائعًا لا مثيل له عن فن المبارزة بالسيف.

سارعتُ وأعطيته السيجارة المطلوبة، وبكل عناية، ساعدته على إشعالها. أخذ منها مجّةً طويلة، التمع طرفها ببريق مُعْم واحترقت سريعًا. قطَّب جبينه، فبرزت كل تجاعيد وجهه، لتتراخى من ثَمَّ كل عضلاته، فيما نفث الدخان من منخاريه. تعجبتُ وتأثرتُ لرؤيتي إلى أيّ حدّ يمكن للسيجارة أن تريح المرء وتجعله سعيدًا. على الرغم من أنني أدخن منذ فترة طويلة، لا أعدّ نفسي مدمنًا، لذا عجزت عن تصوّر ما يشعر به. مجَّ السيجارة ثانيةً، مستهلكًا تقريبًا الجزء الذي يحوي التبغ. مصنعو تلك السجائر الثمينة يستخدمون الحيلة عبر تجهيزها بمراشح

طويلة، ما يقلل نسبة التبغ ويُطَمْئن في الوقت نفسه أرواح المدخنين الأثرياء الذين يخافون من الموت ولكنهم غير قادرين على الاستغناء عن التدخين. بمجّات ثلاث، استهلك السيجارة وصولًا إلى المرشح. ناولته بحسن طويّة العلبة كاملة. نظر حوله حذرًا، سحبها بقوة من يدي وخبّأها في كمه. نسي وعده بأن يقدّم لنا استعراضًا رائعًا عن فن المبارزة بالسيف؛ جرَّ السيف، ورجله كذلك، وبأسرع ما يمكنه، توجّه نحو باب المدخل. على العتبة، التقط من سلة الخبز رغيفًا حمله معه.

«دون كيشوت! طَلَبْتَ مجددًا من الزبائن أغراضًا شخصية!»، صاح سانشو المزيّف، يحمل كوبين من الجعة السمراء يفيضان رغوةً، اتجه نحونا، لكنَّ صوته طارد شين الأنف. عبر النافذة، رأينا عاثر الحظ ذلك، يجر سيفه الصدئ ورجله الكسيحة، ولكنْ أيضًا ظله الطويل والمترنح، يتجاوز الساحة ويغيب في الظلام. تبعه الكلب النشيط. كان منظر الرجل مثيرًا للشفقة، لكن الكلب بدا بالمقابل متعجرفًا.

«ذلك الرجل لا يُحتمل!»، قال لنا سانشو المزيّف بنبرةٍ تنمّ عن الاعتذار، «ولكن ليُبرز محاسنه أيضًا، يقوم دائمًا من وراء ظهرنا بأمور تخجلُنا. فباسم ربّ عملي أقدّم لكما، سيدتي وسيدي، خالص اعتذاراتنا، ويطيب لي أن أفكر أنكما لم تنزعجا من تقديم بضع سجائر أو بضعة قروش إحسانًا لفارس يعاني العوز».

«إلامَ ترمي...»، بدا لي صعبًا الرد على السؤال الذي طرحه النادل البدين بتلك الطريقة، نحن لا نصوّر فِلمًا، ولا نمثل في مسرحية، فما الحاجة إلى استخدام تلك النبرة المتكلفة. وأضفت:

ـ هل هو أحد موظفيكم؟

«سيدي، أجابني النادل، سأخبرك الحقيقة صراحةً: عند افتتاح المطعم، أشفق عليه ربّ عملنا، فصمّم له هذا الزيّ، وطلب منه ومنّي أن نقف على المدخل لاجتذاب الزبائن. لكنه صاحب خصال سيئة، مدمن للكحول والتبغ، ومتى انتابته الحاجة إليهما يعجز عن القيام بأيّ أمر. ثمّ هناك ذلك الكلب الأجرب الذي يتبعه كظله. علاوةً على ذلك، ليست النظافة همّه الرئيس. أنا، مثلًا، أستحم مرتين يوميًا، وإن كان شكلي لا يخلب الألباب، فإنّ الرائحة التي تنبعث من جسدي طيبة. هذا جزء من الأخلاق المهنية لنادل في مطعم مرموق. لكنَّ ذلك الرجل، باستثناء المرات التي يبلله فيها المطر، لا يستحم، ورائحته تزعج الزبائن. كما أنه لا ينفك يخالف ما نهى عنه صاحب المطعم، فيطلب أشياء من الزبائن. ذلك الوغد، لو كنت مكان ربّ العمل لضربته بهراوة وطردته، لكنَّ قلب الأخير أطيب من الخبز الأبيض، أعطاه عدّة فرص، آملًا أن يتغيّر. بالطبع، رجل مثله لا يمكنه أن يصلح نفسه، كما لا يمكن للكلب أن يمتنع عن أكل البراز. وهبه ربّ عملنا مبلغًا من المال، آملًا ألّا يعود أبدًا، لكنَّه بعد أن أنفق المال رجع. لو كنت مكان صاحب العمل لسلمته للشرطة منذ أمد طويل، لكنه لطيف وكريم، يتساهل معه، وإن أثّر ذلك سلبًا على سمعة مطعمه. خفض النادل البدين صوته وأضاف: «سمِعْتُ لاحقًا أنَّه كان صديق ربّ العمل من المدرسة. لكن حتى لو كان ذلك صحيحًا، يجب ألّا يتساهل معه إلى هذا الحد. منذ فترة، اشتكى أحد الزبائن من رائحة دون كيشوت النتنة وبراغيث كلبه الأجرب، فوظف رب العمل شخصًا ليجبره على الذهاب إلى الحمامات العامة، معٍ كلبه، لغسلهما أضحت تلك قاعدة: كل شهر يؤخذ عنوةً ليستحم. وبدلًا من أن يكون شاكرًا لمعلمنا الذي لا يلزمه

شيء بالاهتمام به، ينهال عليه بالسباب كلَّما أُخضِع للاستحمام: «لي اليد، أيها الوغد، أنتَ تدمّر سمعتي كفارسٍ!».

سيدي العزيز، ذلك المساء بعد العشاء، سرتُ والأسد الصغير على ضفة النهر، كئيبين، باتجاه منزلنا الجديد. ذلك اللقاء مع شين الأنف تركنا عُرضةً لآلاف المشاعر. تحفَّظنا طويلًا عن الغوص في ماضٍ مؤلم. لقد تغيَّر المشهد العام تمامًا عمَّا كان عليه قبل عشرات الأعوام، أشياء كثيرة لم نتصور حدوثها، حتى في الحلم، تحققت، وبعض الأمور الأُخرى التي كان بإمكانها أن تكلفك حياتك في ما مضى لمدى جدّيتها أصبحت موضع سخرية واستخفاف. من دون أن نتبادل الكلام، أظن أن أفكارنا أخذت المنحى نفسه.

سيدي العزيز، التقيته المرَّة الثانية في المستشفى التابع للمنطقة الصناعية. رافقنا لي اليد ووانغ الكبد. كانت قد صدمته سيارة شرطة تابعة لمكتب الأمن العام البلدي، وأُصيب إصابةً بالغة. وفق الشرطي الذي كان يقود السيارة، والشهود العيان على حافة الطريق الذين شهدوا لمصلحة رجال الشرطة، كانت السيارة تسير بسرعة طبيعية في الشارع عندما اندفع شين الأنف عن الرصيف فجأة أمامهم. كانت عملية انتحار مؤكدة. تبعه الكلب. رمت السيارة شين الأنف في العلّيقات على حافة الطريق، فيما دهست الكلب. تكسرت رِجلا شين الأنف، وأُصيبت يداه وأسفل ظهره بكدمات، لكنَّ حياته لم تكن في خطر. الكلب، في المقابل، تناثر دماغه وانتشرت أمعاؤه على طول الطريق. لقد مات فداء معلمه.

بلَّغنا لي اليد خبر حادثة شين الأنف. أوضح لنا أن اللوم لا يقع فعلًا على الشرطيين، ولكنْ نظرًا إلى وضع المصاب، ولأنَّ الأخير

وسَّط أحد الأشخاص لتسوية القضيّة، وافق مكتب الأمن العام على أن يدفع له تعويضًا مقداره عشرة آلاف يوان. وذلك المبلغ، مقارنةً بإصاباته، لم يكن كافيًا. فهمتُ أن هدف لي اليد الرئيس من جمعنا، نحن رفاقه القدماء، لنعوده في المستشفى، كان جمع المال لدفع تكاليف الطبابة.

وُضع في غرفة كبيرة تحوي اثني عشر سريرًا، وكان سريره قرب النافذة ويحمل الرقم ٩. كنا في مطلع الشهر الخامس، وأمام النافذة، كانت قد تفتحت أزرار شتلة مغنوليا حمراء، وكان أريجها يعبق في الغرفة. وعلى الرغم من كثرة الأسرّة، كانت القاعة نظيفة جدًّا. وإذا استحالت مقارنة هذا المستشفى بمستشفيات بكين وشانغهاي المهمة، فإن مقارنته بالمراكز الطبية في الكومونات الشعبية قبل عشرين عامًا، تجعلنا نلاحظ التطور الكبير الذي طرأ. سيدي العزيز، رافقتُ آنذاك والدتي لأسبوع إلى مستشفى الكومونة الشعبية حيث خضعت لجراحةٍ، وكانت الفرش يغزوها القمل، والجدران ملطخة بالدماء، وأسراب الذباب تتنقل في الغرف. مجرد التفكير في الأمر يثير قشعريرتي. كانت قدما شين الأنف مجبّرتين بالجبس، وكذلك يده اليمنى، وكان ممدّدًا على ظهره، وحدها يده اليسرى كانت تتحرّك.

حين رآنا أدار وجهه إلى الجهة الأُخرى.

حاول وانغ الكبد كسر الجمود المزعج فمازحه قائلًا:

ـ أيُّها الفارس النبيل، كيف وصلت إلى هذه الحال؟ هل قارعت طواحين الهواء أم نازلت خصمًا؟

قال لي اليد بدوره:

ـ كان عليك أن تخبرني أنك لم تعد راغبًا في العيش. ما حاجتك إلى رمي نفسك بهذه الطريقة أمام سيارة للشرطة؟

قالت الأسد الصغير:

ـ إنَّه ممثل حقيقي، يؤدّي دور الفارس كما يجب، لا يكلمنا. يقع اللوم على لي اليد، لقد دفعك إلى الجنون.

وأضاف لي اليد:

ـ هو، مختلّ العقل، دعكِ من الأمر! إنَّه ملك التظاهر!

انفجر شين الأنف بالبكاء فجأة، خفض رأسه، هزت التشنّجات كتفيه، ويده اليسرى، الوحيدة المتحركة، حكّت الجدار.

دخلت ممرضة ضامرة بخطوٍ سريع، رمتنا بنظرة باردة، ثمّ خبطت على رأس السرير الحديد وقالت بنبرة قاسية:

ـ الرقم ٩، كُفَّ عن الصخب!

توقف فورًا عن البكاء، مال برأسه نحونا وحدق بنا.

أشارت الممرضة النحيلة بإصبع إلى الباقات التي وضعنا على منضدة السرير، قطبت جبينها، وقالت بلهجة قاطعة:

ـ يمنع نظام المستشفى إدخال الزهور إلى غرف المرضى.

فسألت الأسد الصغير، مستاءة:

ـ ما قصة النظام تلك، حتى في أهم مستشفيات بكين، لا وجود لأوامر كهذه.

لم تتكرّم الممرضة بمجادلة الأسد الصغير، فتوجّهت إلى شين الأنف:

ـ اطلُب بأسرع ما يمكن من عائلتك تسديد الحساب، فاليوم هو الموعد الأخير للدفع.

قُلْتُ غاضبًا:

ـ يا للأسلوب الفظ!

وردَّت الممرضة وقد زمّت شفتيها امتعاضًا:

ـ إنَّها متطلبات العمل!

ـ أين العمل الإنساني في كل ذلك؟ سأل وانغ الكبد.

فأجابت الممرضة:

ـ لستُ إلّا الناطقة بلسان المستشفى، أكرّرُ ما يُطلب مني قوله. إن كنتم تملكون حسًّا إنسانيًّا، فساعدوه على دفع التكاليف الطبّية، وأظن أن مدير المستشفى سيمنح كل فرد منكم ميدالية حُفِرت عليها عبارة 'نموذج إنسانيّ'».

همَّ وانغ الكبد بالردّ، لكنَّ لي اليد منعه.

ذهبت الممرضة حانقةً.

تبادلنا النظرات، ونحن نقدّر ضمنًا: إصابة شين الأنف بالغة، لا بدَّ من أن التكاليف مرعبة!

ـ لِمَ جلبتموني إلى هنا؟ سألنا شين الأنف بغيظ، إن شئت الموت، فالأمر يعنيني وحدي، ما شأنكم في ذلك، تبًّا لكم! لو لم تأتوا بي إلى هنا، لمتّ منذ أمد طويل، بدلًا من أكون ممدّدًا هنا، حيًّا، أتحمَّل كل هذه المصاعب والإهانات.

ـ لسنا من أنقذك، قال وانغ الكبد، الشرطي الذي صدمك طلب سيارة إسعاف.

ـ بما أنكم لم تأتوا بي إلى هنا، تابع بنبرةٍ تهكمية، ماذا جئتم تفعلون؟ تشفقون عليّ، ترثون لحالي؟ لست بحاجة إلى ذلك. ارحلوا، بسرعة، واحملوا معكم أزهاركم المرذذة سمًّا، رائحتها تؤلم رأسي؛ تفكّرون بمساعدتي على دفع التكاليف؟ لا حاجة لذلك. أنا فارس نبيل، الملك صديقي الشخصي، والملكة عشيقتي، ستدفع الخزانة ثمن طبابتي. وحتى لو لم يدفع الملك والملكة، لست بحاجة إلى صَدَقَتِكم. فابنتاي، الأجمل من الخالدات، موعودتان بنصيب أكبر من البحر الأصفر، وإن لم تغدوا ملكتين، فستكونان لا بد أميرتين، والمال الذي سيتدفق من أصابعهما يكفي لشراء هذا المستشفى!

سيدي العزيز، فهمنا طبعًا مغزى كلام شين الأنف المبالغ فيه. ادّعى حقًّا الجنون، ادّعى ذلك، لأن ذهنه كان أصفى من مرآة. مَنْ يؤدّي دور المجنون، يصبح معتادًا على ذلك، وعلى مرّ الزمن، يقبض الوهم على جزء منه. أمّا نحن، فحين رافقنا لي اليد في تلك الزيارة للمستشفى، لم نفعل ذلك من دون توجُّس. أن نقدّم بضع أزهار، أن نتفوّه بكلمات لطيفة، وحتى أن ندفع بضع مئات من اليوانات، لم يطرح ذلك مشكلة، ولكن أن نتحمّل تكاليف طبابته الباهظة، فذلك أمر مبالغ فيه قليلًا... إذ، في النهاية، لا تجمعنا أي صلة قرابة بشين الأنف، وإضافةً إلى ذلك، هنالك وضعه، لو كان إنسانًا طبيعيًّا... باختصار، سيدي العزيز، على الرغم من أننا لسنا مجرّدين من حسّ العدل، والتعاطف، نحن أشخاص عاديون جدًّا، ولم نبلغ درجة النبل الكافية التي تسمح لنا بتبذير مالنا والتصرّف بسخاء من أجل مُخْتَلّ لا مثيل له في المجتمع. لذا، أتى كلام شين الأنف المخالف للصواب كخشبة خلاص لنا، كمن يستفيد من سفح جبلٍ لينزلَ عن الحمار.

نظرنا إلى لي اليد الذي اصطحبنا إلى المستشفى، فحكَّ رأسه وقال:

ـ بُنَيّ، استعد عافيتك مطمئنًا، بما أنَّ سيارة شرطة صدمتك، فعليهم أن يتكفلوا بك حتى النهاية، وإنْ لم يحصل ذلك، فسنبحث عن حل...

ـ ارحلوا، ردَّ شين الأنف، لو بمقدوري حمل رمحي، لضربت أدمغتكم الغبية.

كانت تلك اللحظة المناسبة للانصراف. حملنا الباقات التي رُذّذت بعطرٍ سيّئ النوعية.

وفيما هممنا بالخروج، دخلت الممرضة النحيلة مع رجل برداء أبيض. شرحت لنا أنَّه نائب مدير المستشفى، المسؤول عن القسم المالي، فعرَّفت عنا باعتبارنا أقارب الرقم ٩. دخل نائب المدير توًّا في صلب الموضوع، أبرز الحساب، موضحًا أن تكاليف الإسعافات الأولية وطبابة شين الألف لا تزيد عن عشرين ألف يوان. وشدّد مرات عدة على أنَّها احتُسبت بسعر النفقات، ولو أُضيفت إليها الأرباح لتعدّت ذلك المبلغ بكثير.

طوال تلك العملية، لم يتوقف شين الأنف عن إطلاق الشتائم، وقد بلغ به الغضب ذروته: «ارحلوا! أيُّها النفعيون المرابون، يا دود الجثث، أنا لا أعرفكم، لا أعرفكم نهائيًّا».

حرَّك يده السليمة، ضرب بها الجدار، ثمّ تناول قنينة موضوعة على المنضدة ورماها على السرير المقابل، فحطت على المريض المسنّ، في الطرف الأخير، الذي عُلّق له مصل.

ـ اذهبوا! هذا المستشفى ملك ابنتي، وقد وظفتكم جميعًا، كلمةٌ مني وتفقدون مصدر رزقكم...

وفيما عمَّت الفوضى، سيدي العزيز، دخلت إلى الغرفة امرأة ترتدي ثوبًا أسود، وتضع برقعًا أسود. سيدي العزيز، لست بحاجة لأن أقول لك من هي، عرفتَ طبعًا من تكون. نعم، إنَّها ابنة شين الأنف الصغرى، شين الحاجب، التي نجت من حريق مصنع الدمى وتشوّهت.

دخلت الغرفة كأنها تطير، كأنها شبح. حمل الثوب والبرقع الأسودان معهما شيئًا من الغرابة، لكنهما استحضرا كذلك صورة الجحيم المفجعة. توقفت الجلبة فورًا، كما يتوقف ضجيج آلة قُطع عنها التيار الكهربائي. حتى الهواء الخانق صار باردًا. على المغنوليا أمام النافذة، غرَّد عصفور تغريدات ناعمة، شجيّة.

لم نستطع أن نُمَيّز وجهها، ولا أن نرى جزءًا ولو صغيرًا من جلد جسمها. لاحظنا فقط إلى أي حدّ كانت ممشوقة القد ونحيلة، وأطرافها طويلة ورفيعة، كانت مقاييسها مقاييس عارضة أزياء. عرفنا بالتأكيد أنَّها شين الحاجب. وبنحو طبيعي، استعدت والأسد الصغير صورة الطفلة في القماط، قبل عشرين عامًا. أومأت لنا برأسها، وقالت لنائب المدير:

«أنا ابنته، سأسدّد ديونه!».

سيدي العزيز، أحد أصدقائي اختصاصي في مركز الأبحاث المختصّ بالحروق البالغة في مستشفى ٣٠٤ في بكين، وهو برتبة أكاديمي. أوضح لي أن أولئك لا يحتملون أحيانًا آلامهم النفسية أكثر من أوجاعهم الجسدية؛ في الواقع، حين يرون في المرة الأولى وجههم المشوّه في المرآة، يصابون بصدمة عنيفة ووجع لا يُحتمل. تلزمهم شجاعة كبيرة للاستمرار في العيش.

سيدي العزيز، الكائن البشري ابن بيئته، ففي محيط معين يمكن للجبان أن يصير شجاعًا، ولقاطع الطرق أن يقوم بأعمال حسنة، وحتى البخيل العاجز عن دفع فلس قد تقوده المروءة إلى التبذير. ظهور شين الحاجب وشجاعتها على تحمّل مسؤولياتها أشعرانا بالخزي أولًا، ليتحول الشعور بالتالي إلى حسّ بالعدل. ثمّ انتابتنا الرغبة بالجود على معوزٍ. بدأ لي اليد بالمبادرة، لنتدخل جميعًا بعده، فقلنا لشين الحاجب:

ـ الحاجب، يا ابنتنا الصغيرة، سنتقاسم دين والدك.

أجابتنا شين الحاجب بنبرةٍ باردة:

ـ شكرًا لحسن مقصدكم، لكنَّ ديوننا تجاه الغير تكفينا، ما عدنا نحتمل المزيد.

وصرخ شين الأنف مغتاظًا:

ـ اخرجي من هنا! أيتها الجنيَّة المتّشحة بالأسود، وتجرئين على أن تدّعي أنك ابنتي! ابنتاي، إحداهما تدرس في إسبانيا وعلى علاقة بالأمير، وبدأنا التفاوض بشأن الزواج. والأخرى تعيش في إيطاليا حيث اشترت أقدم مؤسّسة مختصّة بإنتاج الخمور، وتصنع أفخر نبيذ، وقد استأجرت سفينة حمّلتها عشرة آلاف طن، وهي في طريقها الآن إلى الصين...

٩

سيدي العزيز، تجدونني مرتبكًا، لم أنصرف بعد إلى كتابة تلك المسرحية التي تنتظرونها منذ أمد طويل. أملك مادةً دسمةً، وأشعر بعجز ذلك «الكلب الذي أراد أن يعض جبال تايشان، ولم يدرك الوسيلة

المناسبة لفعل ذلك». ما نضج في ذهني أثناء مرحلة تصورها، تكسره دومًا الحقائق الممسرحة الغنية للحياة الواقعية التي ترتبط بموضوع المسرحية. ما يقلقني أكثر، أنني أغوص رغمًا عني في هموم هائلة. لا أعرف كيف أتحرر من دوري في هذه المسألة، أو بالحريّ، لا أعرف كيف عليَّ أن أقوم به.

سيدي العزيز، أظن أنكم أيقنتم أنَّ ما ذكرتُه أعلاه ليس مجرد أوهام، بل حقائق دامغة. انتهى الأمر بالأسد الصغير بأن أقرَّت لي أنَّها أخذت بالحيلة حيواناتي المنويّة، واختارت شين الحاجب أمًّا حاملًا لطفلي. شعرتُ بغضب شديد، فقدت السيطرة على أعصابي، وصفعتها بقوة. ضرب الآخرين ليس عملًا جيدًا، خصوصًا من قِبَلي، أنا المكلل بهالة لقب «الكاتب المسرحي»، يُفترضُ بي ألّا أستسلم لذلك السلوك البربري، لكنني جُنِنتُ من الغيظ.

حين رجعت من رحلتي على زورق الجمجمة - المسطحة الصغير، بدأتُ تحرياتي، ولكنْ كلما حاولتُ الدخول إلى مركز تربية الضفادع الثيران، اعترضني الحرّاس. اتصلت بيوان الخدّ وابن خالي على هاتفهما الجوّالين، لكنهما غيَّرا أرقامهما. لجحتُ بسؤال الأسد الصغير، فسخرت منّي ووصفتني بالمضطرب نفسيًّا. طبعتُ ما وجدت على الإنترنت من معلومات عن الأمهات الحوامل في مؤسسة الضفادع الثيران، وقصدتُ لجنة التخطيط الأُسري في البلدية لإخطارها بالوقائع. الشخص الذي استقبلني تسلّم مني الوثائق، ولكن لم يؤتِ مسعاي أيّ نتائج. ذهبت وعرضتُ القضية على مكتب الأمن العام، فأُجبت أن المسألة لا تتعلق بصلاحياتهم. اتصلت على خط العمدة المباشر، فأجابتني عاملة الهاتف أنَّها ستبلغه باتصالي...

سيدي العزيز، مضت أشهر على هذه الحال. عندما تمكنت أخيرًا من الحصول على اعتراف الأسد الصغير، كان الطفل في بطن شين الحاجب في شهره السادس. إذًا، في الخامسة والخمسين سأصبح، كالأحمق، أبًا. إن لم يوضع حد لذلك الحمل بعملية إجهاض ناجمة عن مادّةٍ مجهضة خطرة وغير إنسانية، فمحكومٌ عليَّ أن أصبح أبًا. في شبابي، سبّبتُ موت زوجتي المرحومة وانغ رينمي، وأعدّ ذلك أكبر ألم عرفته يومًا، كانت جريمةً لا يمكنني التكفير عنها أبدًا. ثمَّ، سيدي العزيز، على الرغم من إصراري، لم ينفعني ذلك بشيء، إذ لم يكن بمقدوري دخول مركز تربية الضفادع الثيران، ولو استطعتُ أن أفعل، لما أمكنني لقاء شين الحاجب. فهمتُ أنّه قامت هناك آليةٌ معقدة هي كناية عن ممر سرّي يقود إلى متاهة تحت الأرض. علاوةً على ذلك، ومن حديث الأسد الصغير، شعرت بأن يوان الخدّ وابن خالي هما جزء من هذه المافيا؛ إذا أقلقت راحتهما، يمكنهما القيام بأيّ شيء، مُتنكرين لروابط القربى أو الصداقة.

حين تَلَقّت تلك الصفعة، تراجعتِ الأسد الصغير بضع خطوات ووجدت نفسها مطروحة أرضًا. تأذى أنفها وسالت منه الدماء. ظلت طويلًا صامتة، لم تبكِ، لا، ضحكت بتهكم، ثمَّ قالت:

«آه، يا لها من صفعة! الخبب الوئيد، أيها الحقير! هكذا إذًا، تجرؤ على ضربي؟ أين أنتَ من ضميرك؟ ما قمتُ به، فعلتُهُ مِنْ أجلِكَ. لديك ابنة، ولم تُرزق ابنًا. من دون صبيٍ، لا خلف لك. لم أستطع أن أهبك وريثًا، وتلك حسرة في قلبي. لأُصلح الوضع وجدتُ لكَ أمًّا حاملة، لتُعطيك ابنًا، يرِثُ قرابتك الدموية ويحافظ على ذرّيتك. وأنتَ، بدلًا من أن تُقدّر صنيعي، تضربني، لقد حطّمت فؤادي...».

وانفجرت آنذاك بالبكاء. اختلطت الدموع بالدماء. لم أحتمل أن أراها بهذه الحال، ولكنْ حين خطر لي أنها تصرفت من ورائي بأمر بهذه الأهمية، انتابني الغضب من جديد.

قالت نائحةً:

«أعلم أنَّك تغتمّ من دفع مبلغ ستين ألف يوان. لن تتكلَّف شيئًا، سأحسم المبلغ من معاشي التقاعدي، وحين يولد الطفل، لن تعوله، سأتحمّلُ كاملَ نفقاته. باختصار، لم يعد الأمر يعنيك. قرأتُ في الصحيفة أنّه لقاء التبرّع بالمنيّ يُعطى الواهب مئة يوان مكافأةً، سأمنحك ثلاثمئة، وكأنك تبرعّتَ بسائلك المنوي. بإمكانكَ الرجوع إلى بكين، وأن تطلقني حتى، أو بإمكانك ألّا تطلقني، لا يهمّني الأمر، لم يعد لك علاقة بهذا الموضوع. ولكن ـ وهنا تغيَّر وجهها، صارت أشبه بمحارب بطولي ـ أضافت: إذا حاولت قتل ذلك الطفل، فسأنتحرُ أمامك».

سيدي العزيز، بفضلِ الرسائل التي كتبتُها لكم، أنتم تعرفون جيدًا خُلُقَ الأسد الصغير. تبِعَت العمة، ناضلت في مناطق كثيرة، التقت كل أصناف البشر، اختلقت طبعًا خليقًا بالأبطال بالتأكيد، لكنَّه يدفعها أيضًا إلى التصرّف كالأنذال. تلك المرأة، إذا استُفِزَّت، قادرة على كل شيء. لم يكن بوسعي إلّا أن أعتمد معها سياسة التهدئة، أن أُرضِخها للحق وأصيب نقطة ضعفها، أن أبذُل جهدي لإيجاد الطريقة الملائمة لحلّ تلك المعضلة.

وعلى الرغم من أن مجرَّد التفكير بالإجهاض أرعبني، وبدا لي نذير شؤم، قلتُ في نفسي، متوهمًا، إنَّه أحد الحلول. إذا وافقت شين الحاجب على أن تكون أمًّا حاملًا، فسبب ذلك، نهايةً، المال. وبناءً على

ذلك، بدا حلّ المشكلة بالمال منطقيًا. ولكنْ تبقى القضية الحاسمة معرفة كيف يمكنني الاجتماع بها.

لم أرها مذ التقينا في غرفة شين الأنف في المستشفى. خبَّأ ثوبها الأسود جسدها، أخفى برقعها الأسود وجهها. خلَّفت وراءها نوعًا من الغموض، حتّى شعرتُ بأنَّ في كانتون دونغي عالمًا سريًّا لم أغامر في اكتشافه بعد. هنالك يعيش نصراء المظلومين، ووسطاء روحانيون وأشخاص مقنعون. أعدتُ التفكير بأنني منذ فترة قصيرة دفعتُ خمسة آلاف يوان من أجل المساهمة في تكاليف طبابة شين الأنف، أعطيتُها للي اليد، ليُسلمها لشين الحاجب. لكنَّ رفيقي أعاد لي المال بعد بضعة أيّام قائلًا إن الأخيرة رفضته. لعل شين الحاجب قبِلَت أن تكون أمًّا حاملًا لتفي بالدين المترتب عن طبابة والدها. حين خطر لي ذلك، تشوش ذهني أكثر، كان ذلك صراحةً... شريرةٌ تلك الأسد الصغير. لم يبقَ أمامي إلّا أن أذهب إلى لي اليد، كان الأصح تفكيرًا من بين جميع رفاق صفي.

أمس، جلست قبالته في مطعم دون كيشوت. عجَّت الساحة أمام معبد الإلهة بالبشر، إذ تضمّن البرنامج استعراض «الليكرنة المُنعِمة بالأبناء». جلب لنا سانشو المزيّف زجاجتي جعة وابتعد حصافةً. كانت ابتسامته مبهمةً، وكأنَّه كشف سرّي. حين عرضتُ المسألة، متردّدًا، على لي اليد، فالأخير، على عكس ما توقعت، انفجر ضاحكًا.

قلتُ له، متكدرًا: «هكذا إذًا، تبتهج لبلايا الآخرين!».

رفع كأسه، طرقها بكأسي، شرب جرعةً كبيرة وقال لي:

ـ لأنَّ تلك، برأيكَ، بليَّة؟ ولكنْ، بالعكس، ذلك مصدر سرور! يا صديقي، تهانيَّ! أنْ يُرزق المرء بابن في سنٍّ متقدّمة، فذلك حدث سعيد في حياته!

ـ لا تسخر مني، أجبت قلقًا، على الرغم من أنني متقاعد، أظلُّ موظفًا، أيَّ تفسير أُعطي للمؤسسة إذا أتاني ولد؟

وأجابني لي اليد: «يا صديقي، كل تلك المصطلحات: المؤسسة، وحدة العمل، قيود نضع أنفسنا بموجبها في حال تبعية. الحقيقة هي التالية: نطفةٌ منك لقّحت بويضة من أجلِ تكوين حياة جديدة سترى النور قريبًا. أعظم حبور في هذا الوجود أن نشهد ولادة حياة تحمِل جيناتنا، نشأتُها استمرار لحياتِكَ».

ـ المشكلة الجوهرية، قاطعته، هي التالية: حين يولد الطفل، في أيّ دائرة للأحوال الشخصية أُسجّله؟

ـ كيف يمكنك أن تشغل بالك بأمر تافه كهذا؟ تابع، لم تعد الأوضاع كما كانت عليه، وكل شيء يُشترى بالمال. ثمَّ وإن لم نستطع تسجيله، سيحيا كأيّ كائن بشري على هذا الكوكب، وسيتمتّع نهايةً بكامل الحقوق التي تعود لكل إنسان.

ـ حسنًا يا صديقي، قصدتُكَ لتساعدني على إيجاد حلّ، وجُلّ ما تقوم به أنَّك تتلو عليَّ كلامًا فارغًا وشعوذات. عند عودتي إلى الديار، تعجبتُ أنَّكم جميعكم، سواء المتعلمون منكم وغير المتعلمين، تتحدثون بنبرة مسرحية مصطنعة، كيف حدث ذلك؟ أين تعلمتم ذلك؟

ضحك وقال: «تلك حال المجتمع المتحضر، وفي مجتمع كهذا، كل فرد ممثل في مسرحية، فلم، مسلسل تلفزيوني، أوبرا، حوار هزلي، سكتش، تمثيلية صغيرة للإذاعة، كل إنسانٍ يؤدّي دورًا، أليس المجتمع خشبة مسرح شاسعة؟».

ـ أتعبتني بثرثرتك، جِد لي حلًا سريعًا. أرجو أنَّكَ لا تأمل مع ذلك أن أنادي شين الأنف «حميّ»؟

ـ ولِمَ لا؟ هل تنطفئ الشمس عند ذلك وتكفّ الأرض عن الدوران؟ سأقول لك حقيقة ثابتة: لا تتصوَّر أنَّ جميعَ البشر يهتمون بقصّتك. هل يُخيَّل إليك عرضًا أن الكونَ بأسره لا يرى سواك؟ في الواقع، لكلّ منا همومه ولا أحد يهتمّ بقضيتك. أن تُرزق بابن من شين الحاجب، أو ابنة من امرأة أُخرى، أمر يعنيك وحدك. وإذا طابَ للبعض أن يحشر أنفه في شؤون الآخرين ليثرثر، فلن يدوم ذلك، بل سيتبدّد كما يتوارى ضباب الصباح، كما يمر الهواء. النقطة الجوهرية أنَّ ذلك الطفل فلذة منك، وستكسب الكثير من ولادته.

ـ ولكنْ، مع شين الأنف... قلت، يُعَدُّ ذلك عمليًّا سفاح القربى!

ـ ترّهات! أجاب، لا رابط دم يجمعك بشين الحاجب، عن أيّ زنى تتحدث؟ وفي ما خص السن، لا تُعدّ تلك مشكلة بتاتًا، ابن الثمانين الذي يتزوج شابةً في الثامنة عشرة، ألم تغدُ تلك قصّة جميلة تتناقلها الألسن؟ المشكلة الوحيدة أنَّك لم ترَ قطّ جسم شين الحاجب، إنها بمثابة أداة استأجرتها مرَّةً، وانتهى الأمر. باختصار، يا صديقي، لِمَ تتعب نفسك بالتفكير كما تفعل، باحثًا عن الهموم، الأفضل لك أن تمارس الرياضة البدنية لتتحضّر وتربّي ابنك.

ـ توقف، لا ينفع ذلك الكلام! أَبَنْتُ له حبوب الحمّى على شفتيّ، عيلَ صبري تمامًا! باسم صداقتنا القديمة، أرجوكَ أن تنقل هذه الرسالة إلى شين الحاجب: فلتضعْ حدًّا فورًا لهذا الحمل، سأدفع لها على ما اتُفِقَ تكاليف الأمّ الحامل، وأُضيف عشرة آلاف يوان تعويضًا

عن الضرر البدني الناجم عن الإجهاض. إذا وجَدَتْ أن المبلغ غير كافٍ، أُضيف عشرة آلاف أُخرى.

ـ لِمَ تفعل كل ذلك؟ إن كنتَ مستعدًا لتبذير المال بهذه الطريقة، انتظِر لتَلِد، ومتى سوّيتَ وضع الطفل مع دائرة الأحوال الشخصية، تصبح أبًا بكل معنى الكلمة.

ـ يستحيلُ عليَّ أن أتفاهم مع المؤسسة.

ـ ولكنْ، هل تعدُّ نفسك شخصية هامة إلى هذا الحد، أم ماذا؟ قال لي اليد، هازئًا. يا صديقي، المؤسسة لن تصرِف وقتًا للاهتمام بقضيتك. مَنْ تظن نفسَكَ؟ ألأنَّك كتبت بضع مسرحيات رديئة لا يقرأها أحد؟ أم تتخيَّل نفسك من أقارب الأمبراطور؟ لأنَّ لديك ابنًا، على البلد بكامله أن يحتفي بذلك؟

في تلك اللحظة، دخل بضعة سيّاح إلى المطعم، يحملون حقائبهم على ظهورهم، فركض سانشو المزيّف نحوهم كالسهم، واستقبلهم بكامل ابتسامته. خفضتُ صوتي لأقول:

ـ لن أطلبَ منكَ خدمةً طوال حياتي، ساعدني هذه المرَّة فقط.

مكتفًا يديه، هزَّ رأسه إشارةً بالنفي، بطريقةٍ تدلُّ على أنَّه، للأسف الشديد، لا يستطيعُ شيئًا.

ـ تبًّا لك، يا لكَ من مهرّج، تدعني أقفز في الحريق ولا تحرّك ساكنًا؟

ـ ما تطلبُه مني، هو أن أساعد على قتلِ روح، وكتم صوته كذلك. يمكن حتى للجنين في الشهر السادس أن ينادي والده من حشا أمّه!

ـ هل تساعدني، نعم أم لا؟

ـ لأنَّكَ تظنّ أنَّ باستطاعتي مقابلة شين الحاجب؟

ـ في كل الأحوال، بإمكانك مقابلة شين الأنف، انقل له ما قلتُ لك، ودَعْهُ بطريقةٍ ما ينقل الرسالة بدوره إلى شين الحاجب.

ـ من السهلِ إيجاد شين الأنف، قال لي اليد، مذ خرج من المستشفى، يتسوَّل كل يوم على مدخل معبد الإلهة، ومساءً يأتي إلى هنا ويبتاع الكحول بالمال الذي جمعه، وينتهز الفرصة ليأخذَ رغيف خبز. بإمكانِكَ انتظاره هنا، أو الذهاب قبلًا إلى حيث هو إن كنت مستعجلًا. لكنني آمل ألّا تُضطرّ إلى التحدث معه، لأنَّك ستصرف لعابك سدًى. لو بمقدورك أن تشفق عليه قليلًا، جنّبْهُ تلك العذابات. طوال تلك الأعوام، تعلّمت من تجاربي: أفضل السبل لحل معضلةٍ شائكة، مراقبة تطوّر الأمور بهدوء، والسير بمركبي في مجرى التيّار.

ـ عظيمٌ إذًا، سأسيّر زورقي بهذه الطريقة.

ـ يا صديقي، عندما يبلغُ ابنك شهره الأوَّل، سأُقيم وليمةً ونحتفل بذلك كما يجب.

١٠

لقد خرجتُ من المطعم، أشعر بارتياح. لا داعي بالفعل لأن أُقلِق خاطري إلى هذا الحدّ. لا يتعدَّى الأمر ولادة طفل! ما زال النور مشرقًا، والعصافير تغرّد فرحةً، والأزهار تتفتح، والعشب يخضوضر، والنسيم يهبّ عليلًا. في الساحة، انتشر موكب الإلهة الواهبة الأبناء كأنَّه إوزة برّية تفرد جناحيها، وعلى أصوات الأبواق الصاخبة، تقدمت عشرات

النساء اللواتي يَتُقن إلى الحصول على أبناء، يتزاحمن، على أمل التقاط الطفل الغالي من يدي الإلهة. والجمع الغفير، بكل زخم، مجَّد الولادة، أَمَلَ بالإنجاب، احتفل بالتناسل، وأنا كنت هنا، مهمومًا، أتألم، أقلق لأن امرأةً تحمل في حشاها طفلي. كان ذلك دليلًا على أن المشكلة تكمن فيَّ لا في المجتمع.

سيدي العزيز، وراء العمود الضخم إلى يمين بوابة معبد الإلهة، رأيتُ شين الأنف وكلبه. كان الكلب أجنبيًّا، تغطي بقع سوداء فروه، وظهر جليًّا أنه أغلى من الكلب المحلي الذي قضى تحت عجلات السيارة.

كيف يمكن لكلب كهذا أن يصبح رفيق متشرد؟ قد يبدو الأمر غريبًا، ولكن بعد التفكير، لا شيء يدعو إلى التعجب. في مكان مثل كانتون دونغبي شهِد نموًا حديثًا، تختلط العناصر المحلية بتلك الآتية من الخارج كما يُجرف الرمل والوحل معًا، ويصعب بالتالي التمييز بينهما والحكم أيهما القبيح وأيهما الجميل، أيهما الحقيقي وأيهما المصطنع. فبعض حديثي النعمة، تبعًا للاتجاهات السائدة، احترقوا رغبةً بداية ترقيهم الاجتماعي لشراء نمرٍ كحيوان أليف، وحين وجدوا أنفسهم مفلسين، شاؤوا بيع نسائهم لدفع ديونهم عينيًا. في الطرقات، معظم الكلاب الشاردة كانت أصيلة، غالية الثمن، ربّتها سابقًا عوائل ثريّة. يذكّر ذلك نوعًا ما بما حدث في روسيا بداية القرن الماضي، بعد الثورة، عندما نُفيت إلى هاربن روسيات بيض كثيرات من الطبقة الأرستقراطية، ووَجَب عليهن، ليأكلن، التنازل عن مرتبتهن الاجتماعية؛ بِعن مفاتنهن ومارسن الدعارة، أو تزوجن رجالًا من الطبقة الكادحة، لدرجة ظهور خلاسيين في تلك الأماكن. لعلّ شين الأنف مع أنفه

الكبير ومحجري عينيه الغائرين يرتبط بتلك الحقبة من التاريخ. وتستند شراكته مع الكلب المرقط المتشرد إلى وقائع مماثلة.

استسلمت إلى ذلك الهذيان فيما كنت على بعد عشرات الأمتار منهما، أراقب المعلم وكلبه. وُضعت العكازتان إلى جانب الأوّل، وأمامه قطعة قماش حمراء، لا بدَّ خُطّت عليها عبارات تلتمس التسوّل من أجل معوق. أحيانًا، انحنت امرأة مزينة بشكلٍ مبالغٍ فيه لتضع ورقة مالية صغيرة أو عملة معدنية في طاسة حديد قبالته. كلّما تسوَّل أحدهم، رفع الكلب المرقط رأسه وأطلق نبحاتٍ ثلاثًا بنبرةٍ ناعمة، تزخر حنانًا. ثلاث كل مرة، لا أكثر، ولا أقل. أثّر ذلك عميقًا في المانحين، وبعضهم حتى أعاد الكرة. في الواقع، طرحتُ جانبًا فكرة رشوته لحمل شين الحاجب ع'ى الإجهاض، وإذ دنوتُ منه، فعلتُ بدافع الحشرية: أَردت أن أعرف ما المكتوب على القماش الأحمر أمامه، عادةُ المثقف السيئة.

وقد قرأتُ النص التالي:

أنا في الحقيقة الخالدُ صاحب العصا الحديد(١)، قُدتُ كلبي اليشم وأتيتُ إلى الأرض. عمتي الإلهة التي تهب الأبناء الصغار، أرسلتني إلى هنا لتتوبوا. امنحوني فلسًا مقابلَ وريث نبيل، وعلى حصانٍ، عبر الطرقات، سيسير المرشح إلى رتبة الحاكمية...

أيقنتُ أنَّ تلك الكلمات من تأليف وانغ الكبد، وقد خطَّها كتابةً لي اليد، ليساعدا على طريقتهما رفيقًا أصابه الشقاء. طوى رجلي بنطاله الواسعتين، وبانت منهما ساقاه المقطوعتان الشبيهتان بباذنجتين عفنتين. فاستعدتُ حكايةً قصَّتها علينا والدتي.

---

(١) أحد الخالدين الثمانية: تحوي قارورته المغطاة بالقش أقراص الخلود، إنَّه شفيع الصيادلة.

عندما غدا «لي صاحب العصا الحديد» خالدًا، سألته زوجته حين نفد الوقود من المنزل لطهو الطعام: «ماذا أُشعِلُ الآن؟»، فأجابها: «ساقي»، ومد رجله في الموقد لتتأجج النار، وكانت ألسنتها متقدةً، وغلى الطعام في القدر، وأصبح شبه جاهز. دخلت عليهما آنذاك شقيقة زوجته، وحين رأت المشهد، صرخت مرتعدةً: «آه يا صهري، احذر ألّا تبقى كسيحًا!»، فاحترقت رجله توًّا.

ولقد حذرتنا والدتي، نهاية القصة: «عند حصول معجزةٍ، يجب الحفاظ على الصمت، وعدم الصراخ خصوصًا كأعمى فقد عصاه».

ارتدى سترة محشوّة قرميدية اللون تلطخت ببقع الشحم لدرجةِ اللمعان، حتى يُخيّل أنَّها درع. كنَّا في الشهر الرابع حسب التقويم القمري، وحمل النسيم الخفيف الدفء. في حقول القمح، إلى البعيد، نضجت السنابل. وفي المستنقعات البعيدة ومزرعة تربية الضفادع الثيران القريبة، تزاوجت الضفدعيات وعلا نقيقها. ارتدت الشابات فساتين حرير رقيقة تُبرز تكاوينهن، وعلى الرغم من ذلك، لبس الأخ ذلك الزيّ. بمجرد النظر إليه، شعرتُ عنه بالحر، لكنَّه ارتجف، متقوقعًا على ذاته. كان لون وجهه كالبرونز المعتق، التمعت الأجزاء الصلعاء من رأسه إلى درجةٍ كبيرة وكأنّه حُفَّ بقماش السنبادج. لم أفهم لِم ارتدى قناعًا وسخًا، أليخفي ذلك الأنف البارز؟ انبجس نظره من محجريه الغائرين، التقى نظري، شاردًا. أشحت عيني عنه بسرعةٍ وحدقتُ بالكلب. نظر إليَّ الحيوان بالنظرة اللامبالية والفارغة نفسها. كانت قائمته اليسرى مبتورة، كأنَّ آلة حادة قطعتها. أدركت أن الكلبَ ومعلّمه جمعتهما المصيبة، وأنني لن أستطيع أن أواجهه شفويًّا، وجلّ ما أقدر عليه، التبرع ببعض المال والانصراف بأسرع ما يمكن. لم أحمل في

جيبي إلّا ورقة مالية من فئة المئة يوان، خصصتها لتناول الطعام، لكنني لم أتردد ووضعتها في الطاسة أمامه. لم يحرك ساكنًا، فيما الكلب، كموظفٍ حريص، عوى ثلاث مرّات، على عادته.

غادرتهما متنهدًا. بعد أن سرت بضع خطوات، كان الأمر أقوى مني، عدت أدراجي. تساءلتُ: ماذا سيفعل بذلك المبلغ؟ لم تحو طاسة الحديد إلّا أوراقًا نقدية من فئة يوان واحد أو عملات معدنية وسخة بشكل يفوق التصور. تلك الورقة لافتة جدًّا! كنتُ مقتنعًا بأن لا أحد تكرَّم عليه إلى هذه الدرجة. لم أحسَب أن ورقة النقد تلك لن تثير اهتمامه.

سيدي العزيز، «كنتُ أسبرُ قلبَ رجلٍ صالح من موقعي كرجلٍ وضيع». وما شاهدته عندما رجعت، أثارَ حفيظتي: ركض من وراء العمود صبي بدين، أسمر اللون، في العاشرة من العمر تقريبًا، التقط ورقة المئة يوان من الطاسة، ووثب مبتعدًا. كانت حركته سريعة، وإلى أن استوعبتُ ما حدث، كان قد صار على بعد عشرات الأمتار، يهرول في الدرب الضيق على طول المعبد، متجهًا نحو مستشفى الكنز العائلي. كان الفتى أحولَ، ووجهه مألوفًا، لا بدّ رأيته في مكان ما. بعد إعادة التفكير، عرفته: هو الولد الذي، عامَ عُدنا إلى الديار، وأمام المستشفى نفسه يوم الاحتفال بافتتاحه، قدّم لعمتي ذلك الضفدع الأسود الضعيف، ملفوفًا بكيس ورقي؛ ففقدت العمة الوعي من شدة الخوف.

الغريب في الأمر، أنَّ شين الأنف لم يأتِ بأي رد فعل على الحادثة. خرخر الكلب خافتًا في وجه الصبي، أعلى رقبته، نظر إلى معلمه، ثمّ صمت، وضع رأسه على قائمتيه، وعاد كل شيء إلى هدوئه.

حنقتُ جدًّا لما أصاب شين الأنف وكلبه، وأصابني أنا كذلك. فالمال مالي. رغبتُ أن أشاطر الناس من حولي غيظي، ولكنْ، انصرف الجميع إلى أعمالهم، فالحادثة حصلت بسرعة البرق، من دون أن تخلّف أثرًا. لا يمكنني أن أسامح ذلك الفاسق الصغير الذي يقوّض نزاهة الأخلاق السائدة في كانتون دونغبي. أيُّ عائلة أنجبت هذه البذرة الرديئة؟ التعدّي على النساء، سرقة المعوّقين، إساءات لا يجوز التغاضي عنها. علاوةً على ذلك، ونظرًا إلى الرشاقة التي تصرف بها، يمكن الجزم بأنَّها ليست المرَّة الأولى التي يسرق فيها من طاسة شين الأنف. سرت مسرعًا في الاتجاه الذي سلكه الفتى. كان على مسافة خمسين مترًا أمامي. توقف عن العدو. قفز وقطع من صفصافة متدلية نبتت على حافة الطريق غصنًا يحمل أوراقًا طرية ذات لون أصفر شاحب. ضرب به الهواء. لم يلتفت وراءه. علم أن ذا العاهة الذي سرقه وكلبه الكسيح لن يلحقا به. انتظر أيُّها الفاسق الصغير، ها أنا ذا آتٍ.

دخل إلى سوق المنتجات الزراعية المشيَّد على طول النهر. غطَّت سطحه ألواح واقية من الشمس من البلاستيك الأخضر، فانعكس الضوء في الداخل أخضر. نشط الناس في العمل، فبدوا كأسماكٍ تسبح في الماء.

كان السوق مموّنًا بشكل لافت، وتتالت أجنحة العرض في صفوف طويلة، مشكّلةً ممرات متعرّجة. عُرضت في أكشاك الخضار والفواكه منتجات غريبة، عجزت أنا، ابن الفلاح، عن التعرّف إليها، كانت وفرة من الألوان والأشكال الخارجة عن المألوف. لا يمكن لمَنْ يتذكر الشحّ في السلع الذي كان سائدًا قبل ثلاثين عامًا إلّا أن يتنهد انفعالًا. الفاسق الصغير، الموجود في بيئته، توجه مباشرةً نحو سوق السمك.

سارعت الخطو محاولًا اللحاق به، ولكنْ جذبت نظري من دون توقف، الأسماك والسلاحف والقريدس والسرطانات المعروضة على الجانبين. تلك السلمونات الشبيهة بالخنانيص، ذات اللمعان الفضي، مستوردة من روسيا. أمّا تلك «السرطانات الزغباء» الشبيهة بعناكب ضخمة، والتي فتحت مقارصها، فمصدرها هوكايدو. وكان هنالك كذلك كركند من أميركا اللاتينية، وأذن البحر من أُستراليا، وأكثر الأصناف المتوافرة عادية طبعًا: الكُمة، وجراد البحر، واللوت، والسمك الصيني. وُضِع السلمون المقطَّع إلى أجزاء على فراش من الثلج الأبيض، فبرز لون لحمه برتقاليًّا أدكن. صعدَت من الدكاكين حيث تُشوى قطع السمك رائحة تدغدغ الأنف. توقف الفاسق الصغير أمام محل يشوي الحبار، أخرج الورقة النقدية، اشترى سيخًا، واسترد بقية المال. رفع رأسه وقرَّب من وجهه السيخ. ذكرتني حركته تلك بما يقوم به المحرّقون بالعو السيوف الذين يستعرضون أمام معبد الإلهة. وفيما التهم بحرفية قطعة من حبارة رشحت رُبًّا أحمر، وتحمل مجسّات رفيعة وطويلة، قفزتُ كالسهم، التقطته من قبته من الخلف، وصرخت:

«إلى أين ستفر، أيُّها السارق الصغير الحقير!».

تمكّن اللص بخفة من أن يفلت من قبضتي. أمسكته بمعصمه، فحاول أن يضربني بالسيخ الذي يرشح ربًّا. سارعتُ وأفلته، فهرب، منسلًا في الممر الضيق كسمكةٍ نهرية. لحقته، وأمسكته من كتفه. تخبَّط بشدة، فتمزق قميصه الرث وانفتح، مظهرًا جسمه اللماع مثل جلد إسقمري أسود(*). انفجر بالبكاء، من دون أن تنزل له دمعة، وكأنّه ذئب يعوي؛ وفي الوقت نفسه، سدَّد برداءة السيخ الحديد نحو بطني.

(*) نوع سمك بحري.

تراجعتُ في الحال، ولكنْ ليس كفايةً، فأصاب يدي اليسرى. بدايةً لم أشعر بشيء، سوى بحريق بسيط، ثمَّ تفاقم الألم، وتدفقت الدماء. ضغطت على الجرح بيدي اليمنى وصحت:

«إنَّه لص، لقد سرق مال كسيح!».

ولول السارق الصغير كخنزيرٍ مسعور، وانقضَّ عليَّ. كانت نظرته مرعبة حقًّا، سيدي العزيز، شعرت بالرعب، تراجعتُ، وتراجعتُ، متفاديًا ضرباته، ولم أنفك أصرخ. وهو، فيما وخزني، زعق:

«عليك أن تشتري لي قميصًا آخر! عليك أن تشتري لي قميصًا آخر!».

وتلفظ كذلك بكلام بذيء أعجز عن تدوينه على الورق، وأشعر بالعار سيدي العزيز أن يتكاثر في كانتون دونغي الطيب نسل من هذا الصنف. وإذ أصابني الذعر، استوليت من أحد الرفوف على لافتة خشب كُتِب عليها مصدر السلعة وسعرها واستخدمتها كدرعٍ لأحتمي من هجمات السارق الصغير. ازداد شرًّا وقست ضرباته، قاصدًا إقحامي في وضع ميؤوس منه. ثُقبت اللافتة الخشب عدة مرات، وأُصيبت يدي اليمنى كذلك، وسال الدم. سيدي العزيز، اضطربت واختلطت عليَّ الأمور، ما عدت أعرف ما الذي عليَّ أن أقوم به، لم أستطع إلا التراجع، بخطوات مترددة، وتحاشي الضربات، متكلًا على غريزتي لأنقذ حياتي. وتكرارًا، علِقَ كعبُ حذائي في أغراضٍ مختلفة مِن مثل سلّة سمك أو لوح معدني وكدت أقع على ظهري. لوَ أنني وقعت سيدي العزيز، لما كنتُ هنا أكتبُ لكَ. لو أنني وقعت، كنتُ إمّا أُشبعتُ طعنًا بالسيخ مِن ذلك الفتى الشبيه بفهدٍ شرس، وإمّا، نظرًا إلى خطورة إصاباتي، كنتُ نُقِلتُ إلى المستشفى ليتمّ إسعافي.

سيدي العزيز، يجب أن أعترف بأنني، في تلك اللحظة، كنت ضحيّة الخوف، وبانت على الملأ طبيعتي الجبانة، الضعيفة.

ارتعدتُ خوفًا، ونظرتُ يمينًا وشمالًا، آملًا أن يمدَّ لي باعة السمك يد العون وينقذوني من الخطر، لكنَّ بعضهم راقب المشهد، مكتفًا يديه، من دون أن يتدخل، فيما لم يبالِ البعض بما يجري، ولم يلتفتوا إلينا، وآخرون صفقوا حتى. سيدي العزيز، أنا فعلًا إنسان بلا كفاية، أتشبّث بالحياة وأخشى الموت، لا أحبُّ القتال، وها أنا ذا أتراجع خطوةً خطوة أمام طفلٍ لا يتعدى العاشرة. سمعتُ التوسّل الموسوم بنحيب يخرجُ، متقطعًا، من فمي، وكأنه نباح كلبٍ يتألم من الضرب...

«النجدة... النجدة!...».

أمّا الولد، فقد توقف عن البكاء منذ زمنٍ طويل ـ لم يبك في الحقيقة قطّ ـ جحظت عيناه من شدة الغضب، وفي هاتين العينين، اختفى البياض، وبدتا كشرغوفين ضخمين. عضَّ شفته السُفلى، حدَّق في وجهي، توقف لحظةً، ثمَّ انقضّ عليَّ.

«النجدة!...»، صحتُ رافعًا اللافتة الخشب... جرح يدي مجددًا، تدفقت الدماء... وثب مرة جديدة... شنَّ هجومًا تلو آخر، فيما تراجعتُ بطريقة مخزية أدعو إلى نجدتي، عُدْتُ القهقرى إلى أن وصلتُ إلى الضوء الساطع...

آنذاك، رميتُ اللافتة، أدرتُ ظهري وهربت؛ وبينما ركضت، ظللت أصرُخ «النجدة». سيدي العزيز، أشعر بالخزي وأنا أُخبركم عن تصرفي غير المشرّف، ولكنْ ليس لي أحد غيركم أحكي له ذلك. جريتُ، ومِنْ ذعري، لم أفكر أيّ درب أسلك، سمعت الناس يصرخون على جانبي الطريق، وصمّت صيحاتهم أذني. عدوت هكذا إلى شارع المطاعم.

وأمام مطعم صغير، رُكِنت سيارة رمادية اللون. قرأت على لافتة سوداء معلقة على واجهة المحل كلمة غريبة خُطت بالأحمر: «التدرجة»(*).

جَلَسَت إلى الباب امرأتان، إحداهما قوية البنية وبدينة، والثانية قصيرة ونحيلة. وقفتا فجأة، فاتّجهتُ نحوهما كأنني رأيتُ نجمَ الخلاص، علِقَت قدماي بشيء ما، وقعتُ، شُقَّت شفتي، سال الدم بين أسناني. ما أوقفني سلسلة من حديد موصولة بوتدين، من حديد أيضًا. انطرح أحد الوتدين أرضًا. اندفَعَت المرأتان، شدّتاني من ذراعي، رفعتاني عن الأرض. شعرت بأنهما تصفعانني عدة مرات، بصقتا عليّ. الولد الذي تعقبني، لم يقبض عليّ، اعتبرتُ نفسي محظوظًا. لكنني، لسوء الحظ سيدي العزيز، وقعتُ في براثن هاتين المرأتين من مطعم «التدرجة».

أكدتا جازمتين أن قدمي صدمت الوتد الحديد الذي رُبِطت إليه السلسلة، فوقع على سيارتهما وألحق بها ضررًا. سيدي العزيز، حملت مؤخرة السيارة فعليًا بقعة بيضاء بحجم ثقب إبرة، ولكن لا يمكن أن يكون سببها وقوع الوتد. تشبثتا بي، ومنعتاني من المغادرة، وانهالتا عليّ بسيل من الشتائم، فتحلَّق حولنا جمعٌ من الفضوليين. كانت القصيرة هي الأشرس بينهما، تشبه الولد الذي تعقبني بعناد. لم تنفك ترفع إصبعها في وجهي كأنها تريد أن تقتلع عيني. وباءت كل محاولاتي لشرح الوضع بالفشل أمام سبابهما. سيدي العزيز، جلست آنذاك القرفصاء، رأسي بين يدي، واستسلمت ليأس لم أعرفه يومًا. إذا قررتُ والأسد الصغير العودة إلى الديار، فلأننا تعرضنا في بكين لحادثة مماثلة في جادة معبد «الدفاع عن الوطن».

(*) دجاجة برية.

يقع المطعم قبالة مسرح الشعب، ويحمل اسم «التدرجة البرية»[1].

وإذ توجهنا لرؤية ملصقات المسرح، علقت أقدامنا بالطريقة نفسها في وتد من حديد معلق بسلسلة ومطليّ بالأبيض والأحمر. وقع الوتد، وكان على مسافةٍ من مؤخرة السيارة البيضاء، لكنَّ الشابة الجالسة أمام المطعم ـ كان شعرها مصبوغًا أشقر، ووجهها متشنّجًا، وشفتاها رقيقتين مثل حد السكين ـ اندفعت لتكتشف على مؤخرة السيارة بقعة بيضاء بكبرِ خرم إبرة، واتهمتنا بأننا سبَّبنا ذلك عند وقوع الوتد. شتمتنا مومئةً بحركات كثيرة، ومستخدمةً لغة سوقية لا تسمعها إلّا في أزقة بكين. قالت لنا:

«أنا مَنْ تُحدّثكم، ربيتُ في هذا الزقاق، وشهدت فيه مرور البشر، ومن جميع الأصناف! وأنتم، أيتها السلاحف المحلية الآتية من الأقاليم، بدلًا من أن تبقوا في أراضيكم الوعرة، ماذا جئتم تفعلون في العاصمة؟ هل لتُفقِدوا الشعب الصيني ماء وجهه؟».

فاحت من الفتاة البدينة رائحة قوية لمرهم مضاد للبواسير؛ فيما انقضت علينا، رفعت قبضتها، فلكمت أنفي. تجمع حولنا رجال أقوياء حليقو الرؤوس، كما مسنّون ذوو كروشٍ كبيرة، تهجموا علينا مبرزين أهمية أصولهم البكينية، وأجبرونا على الاعتذار ودفع تعويض.

سيدي العزيز، أنا القليل العزم، دفعت المبلغ واعتذرت. سيدي العزيز، حين عدنا إلى المنزل بكينا بمرارة، رأسينا في أيدينا، وقررنا العودة إلى كانتون دونغبي والاستقرار فيه. اعتقدنا أنّه في ديارنا، لن يجرؤ أحد على إهانتنا. من كان يتصور أن قسوة هاتين المرأتين ستتخطى بأشواط ما عانينا مع الفتاة في جادة معبد «الدفاع عن الوطن» في

(١) وتعني العبارة باللغة الصينية كذلك: «بنت هوى غير مسجلة».

بكين. سيدي العزيز، لا أفهم حقًّا كيف يمكن للإنسان أن يكون مخيفًا إلى هذا الحد؟

سيدي العزيز، تهددني خطر أعظم: رأيتُ الفتى يصل كفهدٍ. كان قد أنهى أكل الحبار عن السيخ، ما جعله مسننًا أكثر، وأدركت فجأةً أنَّه ابن المرأة القصيرة، ولا بدَّ أنّ البدينة شقيقتها الكبرى. دفعتني غريزة البقاء إلى التخبّط لأنهض، وفكرت بالركض، لأن الجريَ نقطة قوتي؛ طوال تلك الأعوام التي تنعّمت فيها بالرخاء، نسيتُ إلى أي درجة برعتُ في الماضي في هذا المجال. في تلك اللحظة، حين تربّص بي خطر مميت، استعدت تلك القدرة. حاولت المرأتان محاصرتي، وأطلق الفتى صيحات جنونية. فصرختُ مثل كلب محشور في زاوية. نزفتُ دمًا من كل مسامي، فتحتُ فمي، كشَّرت عن أنيابي، وقلتُ في نفسي إنهما ربما شعرتا بالخوف، لأنني لمحتُ آنذاك الخبلَ على محيّاهما، ولطالما تعاطفت مع النساء اللواتي يُظهرنَ ذلك الانطباع. استغللت لحظة ذهولهما تلك، وقفزت بين سيّارتين. هيا، ارْكُض وان القدم، وان الخبب الوئيد! الخبب الوئيد البالغ الخامسة والخمسين استرجع كل أهليته في سباق السرعة. عدوتُ كالمجنون في الشارع الضيق حيث فاحت رائحة الدجاج المشوي، والسمك، وأسياخ الضأن وروائح أُخرى لا أعرفها. وجدتُ ساقَيَّ أخفّ من الريش، كلَّما طرقتُ قدمي بالأرض، أحسست بمرونة رائعة تُعطي للخطوة التالية قوةً دافعة أكبر؛ كنتُ أيّلًا، كنت ظبيةً مونغولية، رجلًا خارقًا يمشي على سطح القمر وجسمه أخف من سنونوة. أحسست أنني جواد، ذلك الجواد الذي يقطر بدل العرق دمًا، ويستطيع بحوافره إيقاف سنونوة عن التحليق، حصان يطير في الأجواء، من دون قيد، من دون هَمّ...

لكنَّ ذلك الإحساس الذي راودني، لم يكن إلّا ابن لحظته. في الواقع، انقطعت أنفاسي، أحرقتني حنجرتي، خفق قلبي بشدة، توسّعت رئتاي، وثَقُلَ حِمْلُ رأسي. بدا كل شيء أسود أمام عيني، شعرت بأنَّ عروقي ستنفجر. تخبّطت مع ما بقي من طاقتي، وكان على غريزتي في البقاء أن تتكل على جسمي المنهار، تلك كانت الحقيقة. سمعت حولي صيحات تدعو إلى ضربي، طنّت في أذني كقصف الرعد. اندفع أمامي شاب ذو لحية طويلة، يرتدي بزة سوداء من طراز ماو، تشبه عيناه الخضراوان يراعتين تطيران مائلتين على درب جبلي وسط الليل. وإذ أوشكت أصابعه الشاحبة اللون أن تلتقطني، انطلق من فمي دم قذر إلى درجةٍ أنَّ وجهه الشاحب كذلك، تغيَّر لونه. سمعته يصرخ ذعرًا، ثمَّ جثا، وجهه مخبّأ في كفيه. سيدي العزيز، شعرت بالأسى، أدركتُ أن نيّته في اعتراضي تصرّف صحيح، تثبت أنَّه رجل عادل وصالح، لكنَّ الدم الوسخ الذي بصقته يذكر بالحبارة التي تُطلق أحشاءها حين تهرب خائفةً. لقد لطختُ وجهه، آذيتُ عينيه، وشعرتُ بالندم. لو كنتُ شخصًا نبيل المشاعر، لتوقفتُ واعتذرتُ وطلبتُ منه الصفح حتى وإن هُدّدتُ بسكين في ظهري، لكنني لم أفعل، سيدي العزيز، خجِلٌ أنا، لم أكن أهلًا لتعاليمكم. وفيما بعض رجال الخير الذين بدوا كقديسين وقفوا إلى جانب الطريق وأعلنوا رغبتهم بضربي، لم يقتربوا مني مع ذلك. لا شك في أنهم بعد الأداء ذلك، خافوا؛ جُلّ ما قاموا به، أنهم رشقوني بقوارير المشروب الغازي الذي كانوا يتناولونه، تركتُ ورائي ذلك السائل البنّي ورغوته الذهبية، رمز الحضارة الأميركية...

سيدي العزيز، لكل شيء نهاية، أكان جيدًا أم سيئًا. تسلسل الأحداث تلك حيث امتزج الحق بالباطل، تلك الملاحقة وذلك الهرب

انتهيا أخيرًا، حين انهرت منهكًا أمام مستشفى الكنز العائلي. في تلك اللحظة بالذات، خرجت من الفناء المغطى بالخضرة والمليء بأريج الزهور سيّارة بي أم دبليو، أنوار مصابيحها تلمع أكثر من الياقوت. سقوطي المفاجئ كدَّر من دون شك راكبيها إلى أقصى حدّ: كنت مضرّجًا بالدماء، أشبه بكلب ميت هبط من السماء. لا بد سببتُ لهم بدايةً خوفًا كبيرًا، وأخذوا عني بالتالي انطباعًا سيئًا. أُدرك أن المرء كلَّما ازداد ثراءً، أصبح أكثر تطيُّرًا، وأن درجة التطيُّر متناسبة طردًا مع درجة الثراء. أعلم أنهم يعلقون أهمية على القدر أكثر من الفقراء، وأنَّهم يتعلقون بالحياة أكثر من الأخيرين. وذلك أمر طبيعي. فالفقراء يخضعون لمصيرهم التعيس، فيما الأغنياء يقبضون على ثرواتهم بكلتا يديهم، كما يحملون إناءً خزفيًّا صينيًّا أزرق، لا يُقدَّر بثمن. سقوطي المفاجئ أمام سيارتهم البي أم دبليو جعلها تنتصب على رجليها كمهرٍ، جاحظة العينين، تصهل رعبًا. كنتُ مغتمًّا جدًّا، آسف حقًّا، معذرةً.

أُصِبتُ بالتشنّجات، أردتُ أن أتقدَّم لأفسح المجال للبي إم دبليو لتمرّ، لكنَّني كنت كحشرةٍ ثُبِّت ذنبها بمسمار صغير، مستحيل أن تتحرك. تذكرتُ مزحةً سمجة من طفولتي، كررتها حتى في شبابي: كنتُ أعلّق على الأرض أو على الجدار، بمسمار أو شوكة، حشرات زرقاء أو خضراء، ثمّ أشاهدها تتخبّط، أراقب كيف تدفعها غريزة البقاء إلى مصارعة جسد لا يذعن لأوامرها. آنذاك، لم أعرف الشفقة، بل استمتعت بالمشهد. مقارنةً بالحشرات، كنت صاحب سلطان لأنَّها لا تُدرِك حتى شكلي. بالنسبة للحشرة، كنت قوةً غامضة مصدر كلّ البلايا، لم يكن باستطاعتها أن تشعر حتى بيدي المشغولة بالتسبب بالأذى، كانت تحسّ فقط بالمسمار أو الشوكة. اليوم، أشعر بألم الحشرات التي

عذبتها بتلك الطريقة. اعذريني يا حشراتي الصغيرة، سامحيني، أنا آسف جدًّا...

رأيتُ رجلًا في السيارة يقرع قرعًا خفيفًا على المقود، أصدر بوق السيارة صوتًا ناعمًا. يشير ذلك بوضوح إلى أن السائق رجل كريم الأخلاق، مهذب وصبور، وليس أيّ حديث نعمة. وإلّا، لأطلق أبواقًا توازي بقوتها إنذارًا بهجوم جوي. وإلّا، لمدَّ حديث النعمة ذلك رأسه من باب السيارة وتقيّأ عليّ كل الكلام القذر. مِنْ أجل الرجل الطيب هذا، أردت التقدم سريعًا لأسمح له بالمرور، لكن جسمي لم يطعني.

أخيرًا، وقد عيل صبره، نزل من السيارة. كان يرتدي بزة رياضية بلون العنبر مع مربّعات برتقالية على ياقتها وأطراف كمّيها. أذكر أنني عندما كنت أكسب رزقي كيفما كان في بكين، سمعتُ أحدًا على بينة من العلامات التجارية، يلفظ بالصينية اسم تلك الماركة، لكنني نسيته. لا أحفظ أبدًا أسماء الماركات، وذلك يدلّ نوعًا ما على المعارضة النفسية، التجلي المنحرف للكره والغيرة اللذين يشعر بهما شخص من عامة الشعب تجاه الميسورين؛ كما أفعل عندما أفضّل الخبر المطهوّ على البخار، على المشويّ في الفرن، وصلصة الصويا السميكة بدلًا من الجبنة. نزل الرجل من السيارة، لم يشتمني، ولم يلبطني، لا، بل، على عجلة، اكتفى بالقول للحراس على مدخل المستشفى: «نحُّوه جانبًا».

بعد أن أعطى هذا الأمر، قطب جبينه، رفع رأسه، لاحقت عيناه الضوء، ثمّ عطس بقوة. استحضرت فجأةً كل ذكريات الماضي. بفضلِ تلك العطسة، عرفته مجددًا: كسياو الشفة السفلى، كسياو الصيف ـ الربيع، رفيق الصفوف الابتدائية الذي أصبح ثريًّا كبيرًا بعد أن شغل

وظيفة عليا. يُقال إنَّه انطلق في عالم الأعمال أثناء «موجة المضاربة على الفحم»، فحصَّل جناه الذهبي الأوَّل، ثمّ استغلَّ العلاقات التي كوَّنها أثناء شغل منصبه ليشنّ هجماته في كل الاتجاهات، مما درَّ عليه مالًا من كل صوب، وغدا صاحب مليارات. قرأتُ له مقابلةً، تحدَّث فيها عن طفولته عندما كان يأكل الفحم، وهذا ما أثار استغرابي. أذكر جيدًا أنَّه لم يتذوّقه: فبينما كان يراقبنا نفعل ذلك، كان يحدّق إلى القطعة التي يمسك بها. أرأيت، سيدي العزيز، كيف يمكنني حتى في أكثر الأوضاع خطورةً أن أحافظ على جدّيتي، لا يمكنُ شفائي.

حين عجز حارس بمفرده عن نقلي، عاونه آخر. أمسكاني من يدي وجرّاني بتأنٍ نحو اللافتة الإعلانية الضخمة على المدخل الشرقي للمستشفى، حيث أجلساني، ظهري متكئ على الجدار. رأيت صديقي يصعد إلى السيارة. رأيت المركبة تتخطى بحذر المطبّ على مدخل المستشفى، تلتفّ وترحل. تصوّرتُ، أكثر ممّا رأيت، بي الصغيرة بوجهها الجميل وشعرها المسبل على كتفيها، تجلس في المقعد الخلفي تحمل في حضنها طفلًا وردي اللون.

تحلَّق حولي جميع الذين طاردوني. قرَّبوا رؤوسهم، وحدقوا في وجهي: المرأتان، والصبي، والشاب الذي ذرّرته بالدم، وأولئك الذين رموني بقوارير الكوكا. شكَّلت عشرات الوجوه تلك أمامي لوحةً مريبةً. حاول الفتى لكزي بالسيخ، فمنعته المرأة التي تبدو أصغر سنًا من الأخرى. قرَّب رجل يظهر عليه أنه أستاذ إصبعين من أنفي، ففهمت أنَّه يريد أن يتأكد من أنني ما زلتُ أتنفس. قطعتُ أنفاسي، كانت تلك وسيلة أيضًا لأحمي نفسي. يوم كنتُ طفلًا، سمعتُ أحد قدامى القرية الذي عاد من غوانغدونغ يُخبِر أن أفضل طريقة للنجاة

من براثن نمر أو دب، إذا التقينا أحدهما في الغابة، هي التمدّد أرضًا، قطع أنفاسنا، والتظاهر بالموت. ينطلق ذلك من مبدأ أن كلّ حيوان متوحّش يملك بعضًا من الحسّ البطولي، فالبطل لا يهاجم من يطلب الرحمة، والحيوانات المتوحشة لا تأكل الجثث. أتت تلك الخدعة بنتيجة، انتفض الأستاذ هلعًا، ومن دون أن يتفوّه بكلمة، انسحب وغادر. أوحى تصرّفه للآخرين بالمحصّلة: الرجل ميت! حتّى لو عدّوني لصًّا سَرَقَ ما يعود للآخرين، فالقانون في بلدنا مع ذلك لا يعطي الحق للمواطنين الراغبين في إحقاق العدل بالتكافل جملةً للقضاء على طالح وسط شارع عام. تشتّت الجمعُ سريعًا، مذعورًا، فلا شيء يلزمه بتحمّلً أعباء هذهً القضية. هربت المرأتان كذلك، تدفعان الفتى أمامهما. تنفستُ الصعداء، أمكنني تذوّق عَظَمَة ميت والاحترام الذي يفرضه.

لا شكَّ في أنَّ الحارسين اتصلا بالشرطة، لأنهما الوحيدان اللذان توجّها نحو السيارة حين وصلت تزعق بكامل صفارتها، وأبلغا الشرطيين بما حدث. توجه نحوي ثلاثة رجال واستعلموا عن الوضع. كانوا شبّانًا، تشير أسنانهم الصفراء إلى أنهم من كانتون دونغبي. وخزني أنفي، نفر الدمع من عيني. رحتُ أبكي كطفلٍ صغير رأى أهله بعد أنْ أُسيئت معاملته. من الشرطيين الثلاثة، بدا الوحيد الذي يستمع بشيء من الجدية إلى قصتي مَنْ له حدبة صغيرة بين حاجبيه، فيما الآخران تأمّلا ساهيين اللافتة الإعلانية فوقنا.

حين أنهيتُ الكلام، سألني صاحب الحدبة الصغيرة:

ـ ما الذي يُثبت لنا أنَّك تقول الحقيقة؟

فأجبت:

ـ يمكنكم سؤال شين الأنف.

وسأل آخر، طويل القامة، من دون أن يحيد بنظره عن اللافتة، ولكن فمه مائل نحوي:

ـ هل تشعر أنَّك بخير؟ أتريد أن يعاينوك في المستشفى؟

هززتُ قليلًا ساقَيّ وقدمَيّ، فاستطعتُ تحريكها. ألقيتُ نظرةً على الجروح على ذراعيّ وكفيّ، لقد توقف نزف الدماء. فقال من له حدبة:

ـ إنْ كان الأمر لا يزعجك، فتفضّل ورافقنا إلى مكتب الشرطة لتقديم بلاغ خطي، وإلّا، فعُد إلى منزلك وعالج نفسك.

وسألت:

ـ هكذا إذًا، لن تتابعوا التحقيق في القضية؟

أضاف الشرطي نفسه:

ـ سيدي المحترم، يمكننا طبعًا أن نحقق في الأمر، ولكن عليك أن تعطينا إثباتات، وتُقدّم شاهدًا. هل يمكنك حمل شين الأنف على الشهادة، أو باعة السمك؟ أتكفل ألّا ترد المرأتان والفتى التهمة ضدَّك؟ ذلك الشقيّ، في الحقيقة، هو حفيد زانغ قبضة اليد، قاطع الطرق المعروف من قرية دونغفنغ، إنَّه حقًّا من ذرّية حقيرة، لكنَّه طفل، كيف يمكننا أن نقاضيه؟

ـ حسنًا، أجبت، لنُنْهِ القضية عند هذا الحد، لنقل إنّني سيّئ الطالع. كل خسارة تعلّمنا درسًا، في سنّي، عليَّ أن ألزم منزلي وألّا أخرج إلّا عند الضرورة، وأن أهتم بما يعنيني، ألعبُ مع أحفادي، وأستمتع بالسعادة مع العائلة! شكرًا لكم، لقد تسبّبت بإنفاق وقود عام، واستخدام سيّارةٍ عامة، وأزعجتكم.

ـ سيدي المحترم، هل تسخر منا؟

ـ أبدًا، بتاتًا، لا أسمح لنفسي بذلك، أنا صادق، صادق تمامًا!

استدار الشرطي صاحب الحدبة وزميله الطويل استعدادًا للمغادرة، لكنَّ الثالث، ذا الوجه العريض والفم الكبير، ظلَّ جامدًا يحدّق في الإعلان، من دون أن يبدي رغبةً في التحرك. فقال له الشرطي الأوَّل:

ـ أخي وانغ، هيّا بنا نذهب! متى رأيتَ أطفالًا، تتسمَّر في مكانك!

ردَّ الشرطي المعنيّ، مفرقعًا بشفتيه:

ـ هم ظرفاء! يؤكلون قشرًا ولبًّا!

وسأل الشرطي الأوَّل:

ـ وما الذي تنتظره لتبذر بذرتك؟

فأجاب الآخر:

ـ عبثًا تبذر في أرضٍ مالحة لا تُنبِتُ شيئًا!

وقال الشرطي الطويل القامة:

ـ لا تفعل شيئًا إلّا التهجم على زوجتك، قمْ بالفحوص اللازمة لنرى، لعلّ بذارك محمّص قليلًا، من يعلم؟

وردَّ الأخير:

ـ كأنَّ ذلك معقول...

ركبوا السيارة يتجادلون، وتركوني في حالي تحت اللافتة الإعلانية. شعرتُ بالإحباط والعجز. لو رافقتهم إلى مكتب الأمن العام وبلَّغتُ بالأمر خطيًّا، أكان سيتغيّر شيء؟ بما أنَّ المرأتين مِن بنات زانغ قبضة اليد الثلاث، فذلك يعني أن عمّتي عدوَّتهما. وأدركتُ لِمَ أراد الفتى

إخافة عمتي بواسطة الضفدع. دَفَعَتْه أمُّه وخالته إلى التصرّف بتلك الطريقة، انتقامًا لجدّته، علمًا بأنَّ عمتي لا تتحمّل مسؤولية موتها. بشرٌ من طينتهم، لا يمكن أن يُذعنوا للحق. للأسف، كنتُ سيّئ الحظ، هذا كل ما في الأمر. أولًا، إنها تجربة يُخضعني لها اللّه، يجب أن أتحمّل كل شيء، وإذا نجحتُ، فسأعرفُ السلام. كنتُ رجلًا تواقًا إلى المثاليات، كنت كاتبًا يؤلف مسرحيةً، تلك المصائب والصعوبات تُعدّ مادةً خامًا. ما يرفعُ شأن الإنسان، الآلام والمهانات التي لا يستطيع البشر العاديون قهرها؛ على سبيل المثال، هان كسين، الذي تغلّب على مهانة الخِصاء[1] أو كونفوشيوس، الذي عانى الجوع في بلاد شين وكي، أو كذلك صن بين الذي استطاع ابتلاع برازه[2]... مقارنةً بما تكبّده هؤلاء القدّيسون، أولئك الحكماء، ما قيمة الأوجاع والمذلّات التي تعرّضتُ لها؟ عند التفكير بتلك الطريقة، سيدي العزيز، أحسست باتساع بصيرتي، وانتظام أنفاسي، التمعت عيناي، واستعدتُ قواي رويدًا رويدًا. هيا أيها الشرغوف! انهض، أوكلت إليك السماء مهمّةً عظيمة، عليكَ أنْ تتحمّل المصاعب بشجاعة، من دون أن تتأفف أو تحقد على أحد.

وقفتُ، مع أن قروحي آلمتني، وقرّرت ألّا أنهار على الرغم من عواء معدتي جوعًا، وضعف ساقَيّ، واختلال بصري. بدايةً، تخيّلت أن عشرات الأشخاص يحدّقون بي، لكن ذلك كان مجرد وهم، حتى

---

(١) (٢٣١- ١٩٦ قبل الميلاد)، قائد عسكري ساعد أوّل أمبراطور من سلالة هان الغربية على ارتقاء سدة العرش.

(٢) قائد عسكري خبير بوضع الخطط الحربية في النصف الثاني من حقبة الممالك المتحاربة.

الحارسان على مدخل المستشفى لم يكترثا لأمري. ذلك يعزز ما قاله لي لي اليد. حين خطر الأخير على بالي، أعدت التفكير بالطفل الذي تحمله شين الحاجب، وما أحسست به اختلف تمامًا عن وجهة نظري السابقة. فيما استعرضت صباحًا كل الوسائل الممكنة لإجهاض ذلك الجنين، بدّلتُ رأيي. التفتُّ لأنظر إلى اللافتة الإعلانية، واتضحت الصورة في ذهني: أريدُ ذلك الطفل! أتوق إليه بحرارة! كان كنزًا وهبتني إياه السماء، ومِنْ أجله أُقاسي المشقات.

سيدي العزيز، أكشف لكم الأمر الآن، تلك اللافتة حملت في الواقع صور مئات الأطفال. بعضهم يضحك، آخرون يبكون، بعضهم عيونهم مفتوحة أو مغمضة، وآخرون بعين مفتوحة وأخرى مغمضة؛ البعض ينظر عاليًا، رأسه مرفوع، والبعض الآخر يحدق أمامه مباشرة. مدَّ أطفال أياديهم كأنهم يريدون التقاط شيء ما، آخرون أطبقوا قبضتهم كأنهم مستاؤون، منهم عضعض يدًا حشرها في فمه، وآخرون صمّوا بها آذانهم؛ أطفال يضحكون عيونهم مفتوحة، آخرون يبتسمون عيونهم مغلقة، وكذلك حال من يبكي منهم؛ البعض رؤوسهم صلعاء، وآخرون شعرهم غزير وأسود؛ بالنسبة للون الشعر ونوعيته، منه ما كان ذهبيًّا، ناعمًا، أو أشقر باهتًا، وإنما لمَّاعًا كمخمل الحرير. حملت بعض السحنات تجاعيد كثيرة، فبدا أصحابها مسنّين صغارًا، وكانت رؤوس البعض ضخمة، مع أذنين كبيرتين، يخيَّلُ لناظرها أنها خنازير صغيرة؛ وتنوّعت كذلك ألوان بشراتهم، منهم من كان ببياض كبة الأرز اللزجة، وآخرون بسواد الفحم؛ كشَّر البعض كأنه غاضب، وفتح البعض الآخر شدقيه كأنه يصرخ. كوَّر أطفالٌ شفاههم كأنهم يبحثون عن ثدي، وزمّها آخرون، ونحّوا رؤوسهم بالورب كأنهم يرفضون أن يرضعوا؛ مدَّ أطفال

كامل ألسنتهم الحمراء، ولم يُظْهِر آخرون إلّا طرفها الزهري. حمل منهم غمّازتين على الخدّين، وآخرون غمازةً مِن جهة واحدة؛ جفن بعضهم مضاعف، وجفن آخرين مشدود؛ معظمهم رؤوسهم مستديرة ككرة، وآخرون ممدّدة كقالب سكّر؛ قطب البعض جبينه كما يفعل المفكرون، وحملت نظرات البعض الآخر شغف الممثلين... باختصار، مئات الأطفال أولئك اختلفت تعابير قسماتهم، لكنهم زخروا حياةً، وكان بعضهم أجمل من بعض. ممّا ذُكِر في الإعلان، جُمِعت صور جميع الأطفال الذين وُلِدوا في المستشفى منذ تأسيسه قبل عامين، برهانًا لنجاح لافت. كانت قضيّة حقيقية وعظيمة، قضيّة نبيلة، عذبة...

سيدي العزيز، تأثرتُ عميقًا، اغرورقت عيناي بالدموع، سمعتُ نداء صوتٍ مقدّس، انتابني أعظم شعور يمكن أن يُحسّه الكائن البشري: حبّ الحياة. أمام الحب هذا، يُعَدُّ كلّ إحساس مبتذلًا، وضيعًا. سيدي العزيز، شعرت أن روحي خضعت لمعمودية مهيبة، ونلتُ فرصةً للتكفير عن خطاياي الماضية، ومهما كانت ظروف هذا العمل ومواصفاته ونتائجه، فسأفتح يدي للمولود الجديد الذي وهبتني إيّاه السماء!

١١

سيدي العزيز، كما قلت لك، ذلك اليوم، أمام اللافتة الإعلانية وصور مئات الأطفال، تلقت روحي معمودية النار. كل هواجسي، ومخاوفي، وحقيقة تعرّضي للطعن، والضرب، والإهانات، والمطاردة، شكل كل ذلك المسار الذي لا يمكن تفاديه للخضوع لتلك المعمودية، ما يذكّر بالمهالك الإحدى والثمانين التي تخطاها الراهب «السلال

الثلاث»(*) من سلالة تانغ[1] في طريقه، بحثًا عن الكتب المقدّسة. إن لم نواجه الصعوبات، فكيف نجني الثمرة المباشرة لأفعالنا الحاضرة لنلقى حياتنا اللاحقة، كيف نعي فجأة معنى وجودنا البشري؟

حين رجعتُ إلى المنزل، طهّرتُ بنفسي جروحي بقطنة سبيرتو، وذوبتُ في ماء الحياة بودرة يونان الطبية البيضاء التي تُستخدم لمعالجة القروح والكدمات التي تسببها الوقعات والضربات. وعلى الرغم من الألم البدني، شعرتُ براحةٍ نفسية. عانقتُ الأسد الصغير لحظة دخولها، فركتُ خدّي بخدّها، وقلت لها: «أشكركِ زوجتي الحبيبة لأنك كوَّنتِ لي ذلك الطفل، وإن لم تحمليه في أحشائك، تفعلين في قلبك، وهو كذلك الطفل الذي خلقناه معًا!».

بَكَت.

سيدي العزيز، فيما أكتبُ لكم، جالسًا إلى مكتبي، أفكّر بالطريقة التي سنربّي بها ذلك الطفل. اقتربنا مِنَ الستين، بدأت قوانا الجسدية تخور وطاقتنا تخف، ومبدئيًّا، علينا أن نوظف مربية ذات خبرة أو مُرضِعة حقيقية كي يشرب القليل من الحليب ذي الرائحة البشرية. لطالما قالت لي أمّي: الأطفال الذي يربّون على حليب البقر أو الغنم، لا يملكون رائحة بشرية. طبعًا، يمكن إرضاعهم حليب البقر، لكن ذلك له مخاطر جمّة. متى سيكفّ أولئك التجّار العديمو الأمانة والضمير عن «تجاربهم الكيميائية»، بعد «الحليب المجفف الخالي

(*) تريبل كورباي.

(١) «معلم شرائع التريبيتاكا»، الاسم الآخر المعطى للراهب تشيونتسانغ من أسرة تانغ الذي قام برحلة إلى الهند بحثًا عن الكتب الدينية البوذية، وقد ترجمها عند عودته إلى الصين.

من البروتين»[1] و«الحليب المجفف مع الميلانين»؟ أيُّ نوع من المواليد سيرى النور بعد «الأطفال ذوي الرؤوس الضخمة»[2] و«الأحبة الصغار حاملي حصى الكلى»؟ حاليًّا، يتصرفون بطريقة تستوجب الشفقة، أشبه بالكلاب الذين يخبئون أذنابهم بين قوائمهم حين يُضربون بالعصا، لكن سترون، بعد بضعة أعوام سيعاودون الكرّة ويخترعون صيغة أكثر رداءة لإلحاق الضرر بالآخرين. أعرف أن أعظم سائل على وجه الأرض هو اللبأ، ويحوي موادَّ كثيرة عجيبة تُجَسّد في الواقع حبّ الأم. سمعتُ أنَّ بعض الأزواج الذين استعانوا بأمّ حامل، دفعوا لها بعد ولادة الطفل مبلغًا كبيرًا مقابل الحصول على لبأ المرأة، وآخرين تركوا أطفالهم لشهر بعد الولادة مع الأمهات الحوامل كي يرضعنهنّ. ذلك يفرض بالطبع تكاليف إضافية. أوضحت لي الأسد الصغير أن مؤسسة الأمهات الحوامل ترفض تلك الممارسات، لأن الأم الحامل متى غذت الطفل، تعلَّقت به، مما سيولّد مشاكل لا نهاية لها. قالت الأسد الصغير، وعيناها تلمعان:

«أنا والدته، سأدرُّ حليبًا!».

سمعتُ أمي في الماضي تُخبر قصصًا مماثلة، لكنَّ عنصر السحر طغى عليها، ما جعلها غير قابلة للتصديق. قلتُ في نفسي إن أثداء النساء الشابات اللواتي ولدن وأرضعن يمكنها، بفعل الإثارة الناشئة من مصّ الطفل، علاوةً عن قلب مُحبّ، أن تدرّ حليبًا، ولكنَّ الأسد الصغير التي اقتربت من الستين ولم تُرزق بطفل واحد، لا يمكنها أن تشهد هذه

(١) منتوج نسبة البروتين فيه ١٪ بدلًا من ١٢ إلى ١٨٪ الموصى بها للمواليد بين ٠ و٦ أشهر.

(٢) مصابون باستسقاء الدماغ بسبب تضخُّم الجمجمة.

الأعجوبة. وإن حدث ذلك، فلن تكون أعجوبة، بل معجزة.

سيدي العزيز، لا أشعرُ بالحرج فيما أكلمكم عن تلك الأمور. بتفانٍ، أنقذتم طفلًا حكم عليه المستشفى بالموت المحتم، ولا بدَّ أثناء تربيتكم ابنكم واجهتم تجارب تقترن بالخوارق. ولذلك، أظنّ أنكم تتفهّمون أيّ ظرف أعيش، كما سلوك زوجتي الأقرب إلى السحر. في الفترة الأخيرة، تريدني عمليًّا أن أمارس معها الجنس كل مساء. مِنْ شمندرٍ سكري، عادت دراقةً معصارة. ذلك وحده يُعدّ بالنسبة لي معجزة، مفاجأة سارّة. تحذرني كلَّ مرَّة:

«الشرغوف، افعل ذلك بتأنّ، إيّاك والجموح، ستؤذي طفلنا!».

وبعد ممارسة الحب، تضع يدي على بطنها وتقول لي:

«تلمّس ذلك قليلًا، إنَّه يلبطني».

كل صباح، تغسل ثدييها بالماء الفاتر، وببطء، تمسّد حلمتيها.

أعلمنا والدي بالنبأ السار: الأسد الصغير حامل في شهرها السادس. أبي الذي أصبح على مشارف التسعين، بللت الدموع أخاديد وجهه، وارتجفت لحيته، وقال ممتنًا:

«السماء عادلة، وأجدادنا يملكون قدرات سامية، والصالحون يُكافأون، 'أميتوفو'!»(*).

سيدي العزيز، لقد اشترينا كل ما هو ضروري للطفل، ومن أجود نوعية. عربة الأطفال من صنع اليابان، السرير من كوريا، الحفاضات مصنعة في شنغهاي، المغطس من خشب السنديان مستورد من روسيا...

(*) أي «أميتابا» التي تعني الضوء السرمدي، وهو بوذا الأرض النقية المنتشرة في شرق آسيا وواضع أسس البوذية فيها.

عارضت الأسد الصغير معارضة قاطعة شراء الرضاعات، فرجوتها أن تفعل: «وإن لم يكفِ حليبك؟ هل نشتري إحداها احتياطًا؟». ابتعنا رضّاعة فرنسية الصنع، وحليبًا مجففًا مستوردًا من نيوزيلندا. وبما أننا لم نثق تمامًا بذلك الحليب المستورد، اقترحت شراء عنزة حلوب يرعاها والدي، فنسكن معه، نحلبها يوميًّا ونُرضع صغيرنا حليبًا طازجًا. رفعت الأسد الصغير ثدييها الهائلين، وقالت مستاءةً:

ـ إنني مقتنعة بأنَّ حليبي سيتدفق كنافورة!

اتصلت بنا ابنتي وسألتنا ما الذي يشغلنا إلى هذا الحد، فأجبت:

ـ يانيان، خجلٌ أنا قليلًا، ولكنْ لا بدَّ من أنَّ الخبر سار: والدتك حامل، سيكون لك أخ قريبًا!

تردّدت ابنتي لحظة، ثمّ سألتني متفاجئةً، سعيدة:

ـ أبي، هل تتكلَّم جديًّا؟

ـ بالطبع، أجبت.

ـ ولكن والدتي مسنة!

أضفت:

ـ تصفحي الإنترنت، في الدنمارك، أخيرًا، وضعت امرأة في الثانية والستين توأمين معافيي الصحة.

أطلقت ابنتي على الطرف الآخر من الهاتف تهاليل الفرح:

ـ ذلك رائع أبي، تهانيَّ لكما، تهانيَّ الحارّة! إلامَ تحتاجان؟ سأرسل ما تطلبان.

وأجبتُ:

ـ لا نحتاج إلى شيء، نجد هنا كل ما نشاء.

وأردفت ابنتي:

ـ لا يهم، سأرسل أيّ شيء هديةً من الأخت التي أصبحت عجوزًا. أبي، مبارك لكما، شجرة الحديد الألفية أزهرت، والغصن الميت منذ عشر ألفيات بَرْعَمَ، هنيئًا لكما تلك المعجزة!

سيدي العزيز، لطالما شعرتُ بتبكيت الضمير حيال ابنتي، لأنني كنت السبب المباشر في موت والدتها. مِنْ أجل مستقبلي المزعوم، ضحّيتُ بحياة وانغ رينمي والطفل الذي حملت في أحشائها. لو عاش، لكان اليوم في العشرين أو أكثر، وعلى الرغم مما سيقال، سأرزق بابن آخر. واسيت نفسي بأن الطفل الآتي هو في الحقيقة الآخر، متأخرًا عشرين عامًا، لكنَّه سيكون بيننا نهايةً.

سيدي العزيز، أعتذر منكم سلفًا لأنني سأؤجّل كتابة المسرحية إلى وقت لاحق. فالطفل الذي سيرى النور أهم. ولعلَّ في الأمر إفادة، لأن كل الأجزاء التي جمعتُ أحداثها كئيبة، مثخنة بالجراح، لا تنطوي إلّا على الإفناء واليأس، من دون أيّ ولادة أو أمل. عملٌ من هذا النوع لا يمكن إلّا أن يُفْسِد الأرواح، مفاقِمًا بذلك جرائمي. أرجوكم أن تثقوا بي، سيدي، أحرص على كتابة تلك المسرحية. حين يولد الطفل، سأحمل ريشتي لأشدو نِعَمَ تلك الحياة الجديدة. سيدي العزيز، لن أخذلكم أبدًا.

في تلك الفترة، رافقتُ الأسد الصغير في زيارةٍ للعمّة. كان نهارًا مشرقًا، وقد تفتحت أزهار شجرتي الصفيراء في الفناء، وهوى بعضها أرضًا. جلست العمة مستقيمةً تحتها، أغمضت عينيها، وتمتمت شيئًا. امتلأ شعرها الأشيب، الكث، الأقسى من العشب اليابس، بالزهور

المتناثرة، وحام النحل فوق رأسها. إلى بلاطةٍ وُضعت أمام النافذة، جلس على كرسيّ صغير العم هاو اليدينِ الكبيرتين. كان مَنْ حاز من المقاطعة لقب معلم الحرفة الشعبية، يُشكّل تمثالًا من الصلصال. كانت نظرته شاردة، مشتّت الفكر، وكأنه في عالمٍ آخر. تكلّمت العمة:

«هذا الولد، وجه والده مستدير، عيناه صغيرتان، أنفه أفطس، شفتاه سميكتان، وأذناه ممتلئتان؛ شكلُ وجه والدته يشبه حبّة اليقطين، عيناها لوزيتان، جفنها مطوي، فمها صغير، عظمة أنفها ناتئة، أذناها رقيقتان، من دون شحمة. يشبه الطفل عمومًا والدته، في ما عدا فمه، فهو أكبر، وشفتاه أسمك بقليل، وكذلك أذناه، فهما أكبر بشيء بسيط، وعظمة أنفه أقل نتوءًا...».

شاهدنا، وفقًا للتفاصيل التي ذكرتها العمة، طفلًا صلصاليًا يتشكّل رويدًا رويدًا بين يدي العم. بعد أن خطط العينين والحاجبين بقضيب خيزران، تفحّص التمثال للحظات، ووضع عليه اللمسات الأخيرة، حمله على لوحة، ووضعه أمام العمة.

رفعته العمة بيديها، ألقت عليه نظرةً، وقالت:

«عيناه أوسع بقليل، والشفتان أسمك كذلك».

تناول العم التمثال، صحّح ما يلزم، وقدّمه مجددًا إلى العمة. تحت حاجبيها الغضّين الأشيبين، كان نظرها ثاقبًا كالبرق.

حملت العمة الطفل الصلصالي، حدّقت إليه من بعيد، قربته منها ثمَّ فحصته، لتظهر على وجهها علامات الرضى.

«نعم، هذا هو».

تغيَّرت نبرة العمة فجأةً، وتوجهت بالكلام إلى الطفل الصلصالي:

«ها أنتَ ذا، أيُّها الشقيّ الصغير، أنتَ من قضى جنينًا، مِنْ بين ألفين وثمانمئة طفلٍ أفنتهم عمّتكم، ما كان ينقصني إلاَّ أنتَ، اكتمل العدد الآن».

أسندتُ إلى حافة النافذة قنّينة شراب كحولي حلو، فيما وضعتِ الأسد الصغير قرب قدمي عمتي علبة حلوى، وقلنا معًا:

«عمتي، جئنا لزيارةٍ قصيرة».

ارتبكت العمة، ولم تعرف كيف تتصرّف، مثل مُصَنّع سلع ممنوعة ضُبِط بالجرم المشهود. حاولت إخفاء طفل الصلصال تحتً ثيابها، وحين عجزت عن ذلك، توقفت.

ـ لنْ أُخفي شيئًا عنكما.

فقلت لها:

ـ عمتي، شاهدنا القرص المدمج الذي أهداه لنا وانغ الكبد، نفهمك، نفقه أسرارك الدفينة.

ـ حسنًا إذًا، هكذا أفضل.

قامت العمة ممسكة بكلتا يديها بالتمثال المشكَّل أخيرًا، ودخلت إلى الغرفة الجانبية الشرقية. قالت بصوت منخفض، من دون أن تلتفت نحونا:

ـ تعالا معي.

أمامنا، كان لقامتها الضخمة في ثيابها السوداء وقع غريب. سمعنا والدي في ما مضى يقول إنَّ العمة مختلة العقل قليلًا، ومذ عدنا إلى الديار، لم نزرها إلا قليلًا. وبينما رحتُ أتذكر كم كانت لامعةً سابقًا، انتابني الحزن فجأة لرؤيتها تعيش في جوّ الأسى هذا.

كان الجناح مظلمًا، وسادت في المكان رائحة رطوبة قوية. جذبت العمة مرسة مصباح الحائط، فأُضيئت لمبة مئة واط، أنارت مختلف أجزاء المبنى. تألف الجناح من ثلاث غرف، حيث سُدَّت كل النوافذ بقرميد من طين. شغلت الجدران شمالًا وجنوبًا وغربًا خزائن خشبية ذات عيون، كلها متشابهة، في كل منها طفل صلصالي.

وضعتِ العمة التمثال في الخزانة الفارغة الأخيرة، تراجعت خطوة، ثم أشعلت أمام مذبح في وسط الغرفة ثلاثة قضبان من البخور، ركَعَت، ضمّت يديها، وهمهمت بضع كلمات.

حذونا حذوها سريعًا، وجثونا على ركبتينا. لم أعرف أيّ صلاة يُفتَرَض تلاوتها. مرّت في خيالي الوجوه المعبّرة للأطفال على لافتة مستشفى الكنز العائلي الإعلانية واحدًا تلو آخر، مثل صور فانوس سحري. فاض قلبي رجاءً، وأحسست بالندامة، وبشيء من الخوف. أدركتُ أن العمة، بواسطة يدي زوجها، تُظهِر مجددًا كل تلك الأجنة التي سبَّبَت إجهاضها. فهمت أنَّها تستخدم تلك الوسيلة للتكفير عن الذنوب التي تشعر بها، ولكن لا يمكن لومها على أفعالها الماضية، لا يمكن! لو لم تقم بذلك، لفعل آخرون مكانها، وأولئك الرجال والنساء الذين حاولوا الإنجاب، منتهكين الأنظمة، يتحمّلون مسؤوليةً لا يمكنهم نكرانها أو التملص منها. من جهةٍ أُخرى، لو لم يتم ذلك، فكيف كانت ستبدو حال الصين اليوم، يصعب الجزم.

بعد إحراقها البخور، نهضت العمة وقالت، وجهها يفيض حبورًا:

«الخبب الوئيد، الأسد الصغير، وصلتما في الوقت المناسب، تحققت أمنيتي. انظرا جيدًا، جميع أولئك الأطفال يحملون اسمًا. جمعتهم هنا كي يستفيدوا من تقديماتي، ومتى اكتسبوا البصيرة،

سيذهبون إلى حيث يجب ليتقمصوا ويعودوا إلى الحياة من جديد».

جالت بنا العمة على الخزائن واحدةً تلو أُخرى، وشرحت لنا ما حلَّ بكل تمثال، أكان ذكرًا أم أنثى.

«تلك الصغيرة ـ قالت العمة مشيرةً إلى طفل صلصالي عيناه لوزيّتان، وقد ضم شفتيه ممتعضًا ـ كان يُفترض أن تولد تلك الفتاة في آب/أغسطس ١٩٧٤ في قرية عائلة تان، في منزل تان كسياليو ودونغ يو، لكن العمة قتلتها. حاليًّا، تسير أمورهم على أفضل حال، يملك والدها منشأة زراعية للخضار والبقول، ووالدتها صاحبة أصابع من ذهب، خَطر لهما أن يسقيا الكرفس بحليب البقر، وخضرواتهما ذات نضارة وطراوة لا مثيل لهما، يبيعان الكيلوغرام بستين يوان!

هذا الصبي ـ تابعت العمة تدلُّ على تمثال في خزانة أُخرى زمَّ عينيه وابتسم ابتسامةً خرقاء ـ هذا المضحك الصغير كان يجب أن يولد في شباط/فبراير ١٩٨٣، في عائلة وو جونباو وزو إيهوا، قرب جسر عائلة وو، لكنَّ العمة أهلكته. حاليًّا، إنَّه في أحسن حال، ويتمتع بالسعادة، تقمّص في كينغزو في عائلة مأمورين كبار، والداه موظفا دولة، وجدّه لوالدته من أرباب المناصب العليا على صعيد المقاطعة، غالبًا ما نشاهده على التلفزيون. أيُّها الظريف الصغير، أنا جديرة بثقتك اليوم.

هاتان التوأمان ـ أضافت العمة مشيرةً إلى تمثالين آخرين ـ كان يجب أن تولدا العام ١٩٩٠. أُصيب والدهما بالبرص، وعلى الرغم من شفائهما، كانت يداهما مثل قوائم الدجاج ووجهاهما مقيتين بصورة شيطانية؛ كانت ولادة الفتاتين في عائلة كهذه أشبه بالقفز في محيط من العذاب. بإفنائهما، أنقذتهما العمة؛ وهما اليوم كذلك على أفضل

ما يرام، وُلدتا العام ٢٠٠٠، ليلة رأس السنة، في مستشفى الشعب في مدينة جياوزو، إنهما كنزا هذه الألفية، والدهما مغني أوبرا «شا» مشهور، ووالدتهما تملك محل ثياب. العام الماضي، ليلة رأس السنة، ظهرتا على التلفزيون وأدتا مقطعًا من أغنية «زاو ميرونغ يتطلع إلى الفوانيس»: «بنفسجي اللون بالكامل، إنَّه فانوس الباذنجان؛ والذي يفتقر إلى الترتيب، إنَّه الفانوس الثوم المعمّر؛ إنه فانوس الخيار، الممتلىء بالشوك؛ فانوس اللفت، الطازج والمعصار؛ وهنالك أيضاً فانوس السرطان الذي يعقص، وعيناه مستديرتان؛ وفانوس الدجاجة التي تغني لأنها باضت بيضة...». اتصل بي أهلهما هاتفيًّا خصيصًا كي أتابع البرنامج على قناة جياوزو، وحين رأيتهما، آه، سالت دموعي...

وذلك أيضًا ـ أردفت العمّة تدل على طفل من الصلصال مصابٍ بالحَوَل ـ كان يجب أن يولد في عائلة زانغ قبضة اليد، في قرية دونغفنغ، لكنَّه أُبيد كذلك، وعلى الرغم من أنه لا يمكن إسناد تهمة قتله إلى العمة وحدها، تتحمّل الأخيرة جزءًا من المسؤولية. ذلك الشقي ولد في تموز/يوليو ١٩٩٥ في عائلة زانغ ليدي، الابنة الثانية لزانغ قبضة اليد، في القرية نفسها. قصدتني والدته، وكان لديها ابنتان، فإن حملت مجدّدًا، فسيُعدّ ذلك خرقًا للتخطيط الأُسري؛ وعلى الرغم من أن والد المرأة ضرب العمة في الماضي وشجّ رأسها وارتكب بحقها أخطاءً جسيمة، سمحت للابنة بحمل الطفل الذي كان يُفترض أن تلده الأم. كان يجب أن يكون شقيقها، وهو حاليًّا ابنها. لا يعرف هذا السر إلاَّ العمة، وأكشفه لكما اليوم، يجب أن تسكتا عنه كما قبران. ذلك الشقيّ ابن سوء، سبَّب للعمة خوفًا عظيمًا أفقدها رشدها يوم أعطاها ضفدعًا مغلفًا بكيس ورق، لكنَّ العمة لا تكنّ له ضغينةً؛ في عالمٍ موسومٍ

بالاختلاف، لا يمكن إنقاص كائن واحد، فالصالحون كائنات بشرية، والطالحون كذلك...».

نهايةً، أشارت العمة إلى آخر تمثال وضعته في الخزانة، وسألت:

ـ أتعرفانه؟

أجبتُ، وعيناي مغرورقتان بالدموع:

ـ عمتي، لا تُضيفي شيئًا، أعرفه...

وقالت الأسد الصغير بدورها:

ـ عمتي، سيولد ذلك الطفل قريبًا، والده مؤلف مسرحي، ووالدته ممرضة متقاعدة... شكرًا لكِ عمتي، أنا حامل...

سيدي العزيز، ألن تظنّوا فيما تقرأون ما كتبت لكم، أن كل ذلك ليس سوى ثمرة مخيلتي التي بدأت تشتطّ؟ أعترف بأنّ وضع عمتي النفسي يطرح فعلًا مشكلة، وزوجتي منهكة الأعصاب بسبب تلك الرغبة التي تتآكلها لتحظى بابن. لكنني آمل أنكم تبدون عطفكم، وتفهّمكم. حين نعتقد أنّنا ارتكبنا أخطاءً، نحاول دومًا أن نعزي أنفسنا، تلك حال كسيانغ لين، بطلة رواية لو كسون وعنوانها «البَرَكة»، وتعرفونها جيدًا. لقد وجدت نفسها وحيدةً، معدمة، ومع ذلك، أصحّاء العقول حولها لم يفضحوا الأكاذيب التي تختلقها، فتحوا لها طاقة الأمل، كي تتحرّر، كي تتخلص من الكوابيس ليلًا وتحيا من دون شعورٍ بالذنب. ولذلك، فمواكبة العمة والأسد الصغير بقناعاتهما، والصبّ حتى في اتجاههما، هو برأيي الخيار الصحيح. سيسخر مني من دون شك أصحاب المعارف العلمية، وسينتقدني أصحاب المقامات الأخلاقية الرفيعة، وقد يشكوني إلى الجهات

المختصّة حتى أيّ شخص يتمتع بضمير نادر، لكنَّ موقفي لن يتغيّر. من أجل ذلك الطفل، والعمّة والأسد الصغير اللتين مارستا تلك المهنة المتميّزة، أُفَضّلُ أن أُعدّ أحمق.

في ذلك اليوم، أخرجت العمة سماعتها الطبّية، ومتصنعةً الجديّة، فحصت الأسد الصغير. تمدّدت الأخيرة على ظهرها، كشفت عن بطنها، وقد تهلل وجهها فرحًا، فيما أنصتت العمة، بكل جدية وتركيز. وباليد التي أثنت عليها والدتي عشرات المرّات، مسّدت العمّة بطن الأسد الصغير، وسألت:

ـ صرنا في الشهر الخامس، أليس كذلك؟ كل شيء طبيعي، حركات الطفل واضحة، ووضعيته صحيحة.

ـ تخطيتُ الشهر السادس، أجابت الأسد الصغير، خجلةً.

ـ هيا، قفي، أضافت العمة، تقرع قرعًا خفيفًا على بطن الأسد الصغير، على الرغم من تقدمك في السن، أنصح بولادةٍ طبيعية. أعارض كليًّا الولادة القيصرية، فالمرأة التي لا تعرف آلام المخاض، لا تعي إحساس الأمومة.

ـ أنا قلقة بعض الشيء... أردفت الأسد الصغير.

ـ أنا هنا، عليكِ ألّا تقلقي، ردّت العمة رافعةً يديها، عليكِ أن تثقي بهاتين اليدين اللتين ولدتا عشرة آلاف طفل.

أمسكت الأسد الصغير بيد العمّة، قرّبتها من وجهها، وكطفل مدلل قالت:

ـ عمتي، أثق بكِ تمامًا...

١٢

سيدي العزيز، إنَّها فرحة كبرى!

وُلد ابني أمس، فجرًا.

وبما أنَّ الأسد الصغير بكريّة متقدمة في السن، حتى أطباء مستشفى الكنز العائلي الذين يقال إنهم درسوا في إنكلترا أو الولايات المتحدة، لم يجرؤوا على استقبالها. لذا، فكرنا بشكلٍ طبيعي بالعمة. فأفضلُ زنجبيلٍ هو الأقدم. وعلاوةً على ذلك، لا تثق زوجتي إلّا بها. ساعَدَتها على وضعِ عدد لا يُحصى من الأطفال، فلاحظت أنَّ العمة، في الظروف الحرجة، تتمتع بطبع جنرال كبير.

بدأتِ المخاض فيما كانت تعمل ساعات إضافية ليلًا في مركز تربية الضفادع الثيران عند يوان الخدّ وابن خالي. كان يُفترض مع بلوغها هذه المرحلة أن ترتاح في المنزل منذ أمد بعيد، لكنَّها عنيدة، ولا تأخذ بنصائح أحد. كانت تتنزه في الشوارع متبجّحةً، بطنها الضخم إلى الأمام، مثيرةً التعليقات والغيرة. الذين يعرفونها كانوا يحيونها من بعيد، قبل أن يدركوها:

ـ يا أختنا العزيزة، لِمَ لا ترتاحين في المنزل؟ الأخ شرغوف قاسٍ جدًّا معك.

وكانت تجيب:

ـ ليست الولادة أمرًا عسيرًا، ينطبق عليها مبدأ القَرْعة التي تقع متى نضجت. النسوة في قرانا يلدن من دون مضاعفات في بساتين القطن، وفي الأحراج على ضفاف الأنهار. في المقابل، تبدأ المشاكل عند المبالغة في الحذر.

تحدثت بمنطق الأطباء الصينيين المسنين. لدى سماعها، أومأ الناس برؤوسهم مرّات عدة، كثرٌ وافقوها الرأي، من دون أن يعارضها أحد.

حين وصلني الخبر أسرعتُ إلى مركز تربية الضفادع الثيران، وكان يوان الخدّ قد أرسل ابن خالي لاستدعاء العمة. ارتدت العمة مريولًا أبيض، ووضعت كمّامة، وجمعت شعرها الأشعث تحت قبعة بيضاء، وكانت نظراتها الحادة تعكس حماستها، ما ذكّرني بالأحصنة الأصيلة الرابضة في إسطبلٍ. بإشراف موظفةٍ بالأبيض، دخلت إلى غرفة التوليد السرية. جلستُ فيٍ مكتب يوان الخدّ، أشرب الشاي.

كان في وسط الغرفة مكتب أكبر من طاولة بينغ ـ بونغ، لونه أحمر قانٍ، ووراءه كرسيّ بمرفقين، دائر على محور، من الجلد الأسود، ذو مسند ظهر عالٍ. تكدست على المكتب كتب سميكة، انتصب بينها، من كان يصدق، علم صغير أحمر، كان هنا، على ما تصوّرت، لإضفاء بعض الهيبة والجدية على المكان. قرأ يوان الخدّ أفكاري، وقال برصانة:

ـ يا صديقي، قد أكون لصًّا، ولكنْ يحق لي أن أكون وطنيًّا كذلك.

سكب لي بحركة تنمّ عن خبرة شاي «كونغ ـ فول»[1] وقال بشيء من المباهاة:

ـ إنَّه «ذو لون أحمر» يُجلب من قمم ووبي، وعلى الرغم من أنه ليس ذا «أفنان ذهبية وأوراق مِنْ يشم»، إلا أنه مِن أجود الأصناف. حين يأتي رئيس المقاطعة في زيارة أجد نفسي مجبرًا على تكريمه

(١) شاي منقوع في مياه ينبوع لم تبلغ درجة الغليان.

بكوب منه. لكنني أقدّمه لك، لأنني ما زلت أتمتع ببعض الشهامة.

وإذ رأى أنني شارد الذهن، قال لي:

ـ اطمئن، لا تشغل بالك، سيسير كل شيء على ما يرام، بالتأكيد. قلَّما نزعج عمتك، فهي الإلهة الحامية لكانتون دونغبي، يكفي أن تأتي لتتلخص النتيجة بالآتي: «الأم والابن بأمان، والرضى للجميع»!

تمدّدتُ على أريكة جلد واسعة ومريحة، وغفوت. زارتني في الحلم أمي ووانغ رينمي. كانت أمي ترتدي ثوبًا من الساتان اللمّاع، وتتوكأ على عصا لها رأس تنين؛ وكانت وانغ رينمي تلبس سترة محشوّة لونها أحمر داكن، وسروالًا أخضر. بدا مظهرها قرويًّا جدًّا، من دون أن يُنْقِص ذلك من سحرها. كانت تحمل في يدها اليسرى صرّة من القماش الأحمر؛ عبر فتحات الصرّة ظهرت قطعة ثياب محوكة من الصوف الأصفر. لم تتوقفا عن السير في الممر، وكان وقع طَرَقات العصا على الأرض متباعدًا وخفيفًا. على الرغم من ذلك، أثار صوتها قلقي إلى أقصى حد، فقلت:

ـ أمّي، ألا يمكنكما أن تجلسا وتستريحا قليلًا؟ إنكما بذهابكما وإيّابكما تقلقان راحة الموجودين.

جلست أمي على الأريكة، ولكن سرعان ما وقفت لتقعد القرفصاء على الأرض. قالت إنَّها تعجز عن التنفس على الأريكة. تنازع وانغ رينمي شعورا الخوف والانزعاج، اختبأت وراء والدتي، وكطفلةٍ صغيرة، راحت تُدير وجهها إلى الجهة الأُخرى كلّما وقع نظري عليها. رأيتها تُخرج كنزة الصوف الصفراء من الصرّة. لم تكن أكبر من كفّ بالغٍ. قلت لها:

ـ توافقُ حجم دميةٍ، بالكاد.

أجابت، وقد احمرّت خجلًا:

ـ حُكْتُها تقريبًا على قياس الجنين الذي أحمل.

لحظت آنذاك بطنها الناتئ، وأظهرت بُقع الكلف على وجهها بوضوح أنها حامل. أضفتُ:

ـ لا يمكن أن يكون الطفل في الرحم صغيرًا إلى هذه الدرجة!

ردَّت وعيناها دامعتان:

ـ الخبب الوئيد، تكلَّم مع العمة كي تسمح لي بمتابعة الحمل وإنجاب الطفل.

طرقت أمي الأرض بعصاها وقالت:

ـ ضعيه الآن، أنا هنا، سأحميكِ. عصا العجوز تضرب برأسها الملك السيّئ وبكعبها الوزير الخائن، من يجرؤ على معارضتي، فلن يموت ميتة حسنة.

بعصاها، كبست أمي على الجهاز الموجود على الجدار، فانفتح توًا باب سرّي ببطء. شاهدت الغرفة مضاءة وكأنه نور النهار، وفيها طاولة عمليات مغطاة بشرشف أبيض، وقد وقف أربعة أشخاص بأردية بيضاء من كل جهة، فيما كانت العمة على رأس السرير، ترتدي الأبيض وقد سرحت شعرها كما يجب، ولبست إضافة إلى ذلك قفازين من الكاوتشوك. دخلت وانغ رينمي، وما إن رأت المنظر حتى استدارت، متأهّبةً للهرب، فمدّت العمة يدها وأمسكتها. بكت وانغ رينمي، وكطفلةٍ فقدت كل سندٍ، صاحت بي:

ـ باسم ذلك الزواج الذي جمعنا أعوامًا، أنقذني...

غمرني الحزن، وانهمرت دموعي. بإيماءة من العمة، اندفع الأشخاص الأربعة، وكنَّ ممرّضات على ما يبدو، فحملن وانغ رينمي إلى طاولة العمليات، وبسرعة البرق، عرّينها من ثيابها. بعد ذلك، رأيتُ يدًا صغيرة قرمزية تمتدّ بين فخذيها، الإبهام والخنصر والبنصر مطويّة، بينما الإصبعان الأخيرتان تمثلان «علامة النصر» الرائجة في العالمِ أجمع، ما دفع العمة والآخرين إلى إطلاق قهقهة مدوية. بعد أن ضَحِكتِ العمة قدر ما تستطيع، قالت:

ـ يكفي مزاحًا، اخْرُج الآن!

وهكذا، تسلل الطفل بهدوء خارجًا. وهو يفعل، رمى نظرات خاطفة في كل صوب، كما يفعل حيوان صغير ماكر. استغلت العمة الظرف، شدّته من أذنه، وأمسكت رأسه بين يديها وجذبته بقوة نحوها:

ـ يسرّني أن تخرج في النهاية!

سُمِعَ بالتالي ما يُشبه صوت الفوشار حين يفرقع، وحملت عمّتي على كفيها طفلًا ملطخًا بالدماء وسائل لزج...

استيقظت فجأةً مذعورًا، وارتجفتُ من البرد. فتح ابن خالي والأسد الصغير الباب. حملت الأخيرة طفلًا مقمّطًا، وعلا من القماط بكاء أجش. قال ابن خالي بصوت خافت:

ـ أهنئك بحرارة أخي الكبير، وُلِدَ ابنك!

أقلّنا في سيارته إلى القرية حيث يسكن والدي. وهي في الواقع قرية ضمن المدينة، كما قلت لكم في رسالة سابقة، نموذج ثقافي حافظ عليه رئيس المقاطعة ـ صار عمدة في تلك الأثناء. تمت المحافظة على الفن المعماري العائد إلى الثورة الثقافية: الشعارات الكبيرة

على الجدران، اللافتات الثورية على مدخل القرية، مكبر الصوت في وسطها، المكان حيث عقدت وحدة الإنتاج اجتماعاتها... بزغ النهار، وعلى الرغم من ذلك، خلت الطرقات من المارة، مرت فقط مسرعة باصات الفريق الصباحي تُقّل أطياف بضعة ركاب، فيما انصرف عدد من عمّال التنظيفات، لا يظهر من وجوههم خلف أقنعتهم إلّا بؤبؤ عيونهم، إلى تكنيس الأرصفة، مثيرين عاصفة من الغبار. رغبت بشدة في رؤية سمات الطفل، لكنَّ علامات التعب على وجه الأسد الصغير، الجليلة والسعيدة أكثر من ماخض أصلية، ردعتني عن القيام بذلك. وَضَعَت منديلًا قرميدي اللون على رأسها، وكانت شفتاها مشققتين. حضنت الطفل بقوة، وانحنت نحوه غالبًا، إما لتتأمّله، وإما لتشمَّ رائحته.

لقد نقلنا إلى منزل والدي منذ أمد بعيد الأغراض التي حضرناها للطفل. وإذ استحال علينا حاليًّا إيجاد عنزة حلوب، أوصى والدي على حصة من الحليب عند مربي ماشية في القرية، اسمه دو، تحلب بقرتاه يوميًّا مئة لِتر. وطلب منه والدي عدة مرات ألّا يضيف شيئًا إلى الحليب، فردّ الرجل:

«يا عمي، إن كنت لا تثق بي، فتعال واحلب البقرة بنفسك».

ركن ابن خالي السيارة أمام الفناء. انتظرنا والدي منذ وقت طويل على جانب الطريق. رافقته زوجة أخي الثانية وبضع نساء، لا بدّ نسيبات لنا، أتين كذلك لاستقبالنا. حملت زوجة أخي الطفل، فيما ساعدت الأخريات الأسد الصغير على النزول من السيارة، وواكبنها بتلك الطريقة وصولًا إلى الفناء، وأدخلنها من ثم إلى الغرفة المعدة لتُمضي فيها «شهر النِفاس».

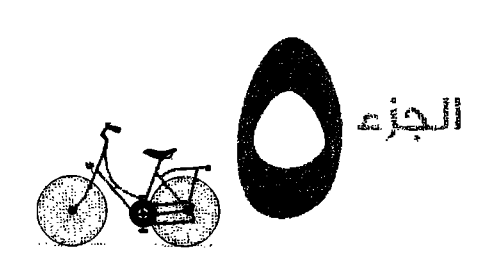
حلَّت زوجة أخي ربطة القماط من إحدى زواياه، ليرى والدي

ذلك الحفيد الآتي متأخرًا. كرر والدي مرات عدة، والدموع في عينيه: «جيد، آه، جيد». لمحتُ الطفل بشعره الأسود الداكن، وبشرته الحمراء الزاخرة بالحياة، فانتابني ألف شعور، وتدفق دمعي غزيرًا.

سيدي العزيز، ذلك الطفل نفحني بالشباب وأسقط عليَّ الوحي. تكوُّنه وولادته كانا بالتأكيد أصعب وأكثر تعقيدًا من أي طفل عادي، وقد تواجهنا في المستقبل مشاكل شائكة تتعلق بالاعتراف بهويته؛ على الرغم من ذلك، تقول العمة: «يكفي أن يتخطى الجنين 'عنق الزجاجة' ليغدو حياة. منذ تلك اللحظة، يصبح شرعًا مواطنًا صينيًا يتمتع بكافة الحقوق التي يمنحها البلد للأطفال». إذا اعترضته عثرات، فعلينا نحن، من أتى به، أن نتحمَّل كامل المسؤولية. سنمنحه الحب، نقطة على السطر.

سيدي العزيز، غدًا، أُرتِّب أوراق مؤلفي على طاولة العمل، وبأسرع وقت ممكن، أُنهي تلك المسرحية التي شهدت ولادتها مخاضًا عسيرًا. ستتشكل رسالتي التالية من كرَّاس ربما لن يؤدّى محتواه أبدًا على خشبة مسرح:

[الضفدع أو الضفادع].


الجزء ٥

سيدي العزيز،

لقد أنهيتُ أخيراً تلك المسرحية.

ترتبط أحداث كثيرة من الحياة الواقعية ارتباطًا وثيقًا بالقصة التي أروي، لدرجة أنني، أثناء كتابتها، ما عُدتُ أعرف إن كنتُ وفيًّا للحقيقة، أم أنني، بدافع الخيال، دخلت عالم الوهم. لم تستغرق منّي كتابتها إلّا خمسة أيّام. كنتُ أشبه بطفلٍ على عجلةٍ من أمره ليروي لأهله ما شاهد وما فكّر به. قد يبدو تشبيه رجلٍ بالخمسين بولدٍ صغير أمرًا مبالغًا فيه، لكن ذلك ما أشعر به في الواقع.

يجب اعتبار هذه المسرحية جزءًا عضويًا من قصة عمتي. إن كانت بعض أحداث المسرحية لم تحصل في الواقع، فذلك لا يمنع أنّ فصولها دارت في مخيلتي. لذا، بالنسبة لي، هي أصيلة.

سيدي العزيز، أنتظر ردّكم.

الشرغوف

٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٩

الضفادع

مسرحية من تسعة فصول

لائحة بالشخصيات

العمة: طبيبة متخصصة بالأمراض النسائية والتوليد، متقاعدة، تفوق سنها السبعين عامًا.

الشرغوف: مؤلف مسرحي، تخطى الخمسين.

الأسد الصغير: مساعدة العمة سابقًا، زوجة الشرغوف، تبلغ الخمسين ونيفًا.

شين الحاجب: أمٌّ حامل، تجاوزت العشرين، نجت من حريق تركها مشوّهة.

شين الأنف: والد شين الحاجب، رفيق الشرغوف منذ الصفوف الابتدائية، متشرّد، فاق عمره الخمسين.

يوان الخدّ: رفيق الشرغوف منذ المدرسة الابتدائية، صاحب شركة الضفادع الثيران ومدير مؤسسة الأمهات الحوامل السرّية، في الخمسينات من العمر.

ابن الخال الشاب: واسمه جين كسيو، ابن خال الشرغوف، يعمل موظفًا عند يوان الخدّ، تخطى الأربعين.

لي اليد: رفيق الشرغوف منذ المرحلة الابتدائية، صاحب مطعمٍ، تجاوز الخمسين.

رئيس دائرة الشرطة: فاق الأربعين.

وي الصغيرة: شرطية، تخرجت حديثًا من المدرسة الشُرطية، تخطت العشرين.

هاو اليدان الكبيرتان: مِن الأرباب في موضوع النحت الشعبي على الفخار، زوج العمة.

كين هي: مِن الأرباب في موضوع النحت الشعبي على الفخار، مرشح زواج من العمة.

ليو غيفانغ: رفيقة الشرغوف في المرحلة الابتدائية، مديرة مركز استقبال الزائرين في دائرة المقاطعة.

غاو منغجيو: رئيس مقاطعة غاومي خلال حقبة جمهورية الصين.

موظفون من الـ «يامن».

حارسا أمن في المستشفى.

شخصان مقنّعان بالأسود.

عاملة هاتف في التلفزيون، صحافية، وشخصيات أُخرى.

الفصل الأول

المستشفى الصيني ـ الأميركي ذو رؤوس الأموال المختلطة، «الكنز العائلي» للأمهات والأطفال. المدخل فخم، يُخيَّل أنه مبنى هيئة حكومية.

إلى يسار الباب، على حائط الحماية القليل الارتفاع والمغطى بالرخام عُلِّقت لوحة المستشفى. إلى يمينه، انتصبت لافتة إعلانية ضخمة حملت صور مئات الأطفال في وضعيات تختلف بعضها عن بعض.

وقف إلى جهة الشمال حارس أمن ببزة رمادية، مستقيمًا كما «الألف»، يُحيّي، يراقب السيارات الفاخرة التي تدخل إلى المستشفى أو تخرج منه. تصرفاته المتكلفة تسبغ عليه مظهرًا مضحكًا.

يلمع في الفلك قمر هائل الحجم. تُسْمَعُ وراء الستارة في خلفية خشبة المسرح أصوات المفرقعات، وأحيانًا تُنير السماء الأسهم النارية.

حارس الأمن (يُخرِج من جيبه هاتفه الجوال ويقرأ الرسائل، يُطْلِق ضحكةً)ـ هي هي هي...

(يتسلل رئيس الجهاز الأمني خلسة من باب المدخل الكبير)

رئيس الجهاز الأمني (يقف صامتًا وراء الحارس، ثمّ يوبّخه بصوت منخفض وبنبرةٍ قاسية): لي جياتي، لِمَ تضحك؟ (يشعر بأنَّ شيئًا ما قفز على قدمه). أُف، ولكنْ في أيّ فصل نحن، لِمَ لا يزال عدد الضفادع الصغيرة مرتفعًا إلى هذا الحد؟ لِمَ تضحك؟

الحارس (ينتفض فجأةً خوفًا، لا يعلم ما عليه القيام به، يتأهب سريعًا): سيدي، بصدد الضفادع، لأن الأرض تسخن بسبب الاحتباس الحراري. لا أضحك لشيء...

القائد: إن لم يكن لديك سبب لتضحك، فلمَ تفعل إذًا؟ (يهز قدمه ليتخلص من الضفدع الذي قفز عليها). ما يعني كل ذلك؟ هل يقع زلزال جديد؟ أسألكَ لِمَ تضحك؟

الحارس (يتأكد أن لا أحد في الجوار، ويقول ضاحكًا): سيدي، هذا النص يبعث على الضحك...

القائد: كم مرّة قلت لكم ألا تكتبوا رسائل أثناء الخدمة!

الحارس: سيدي، في الواقع، لم أرسل شيئًا. راجعت بعض الرسائل التي تلقيتها.

القائد: أليس الأمر هو نفسه؟ إذا ضبطتك المديرة ليو بالجرم المشهود، فستفقد مصدر رزقك.

الحارس: إذا حصل الأمر، فليكن كذلك. في كل الأحوال، ما عدت أرغب في الاستمرار في هذا العمل. فصاحب شركة تربية **الضفادع الشيران** زوج خالتي، وقد كلمتها والدتي لتطلب من زوجها أن يوظفني في الشركة...

القائد (وقد عيل صبره): آه، حسنًا، يكفي، مع خالتك من هنا، وزوج خالتك من هناك، شوشتَ رأسي. بما أنَّك تستطيع الاتكال على زوج خالتك، فأنت لا تخاف من فقدان وظيفتك، أمّا أنا مَنْ يُكلّمك، فأحتاج إلى هذا العمل لأعيش. لذا، أثناء الدوام، إرسال الرسائل وتلقيها، التحدّث على الهاتف، كل ذلك، ممنوع!

الحارس (استقام وتأهّب): حسنًا، حضرة القائد!

القائد: كُنْ حذرًا أكثر!

الحارس (استقام أكثر وتأهّب مجددًا): نعم، حضرة القائد! (وإذ عجز عن تمالك نفسه، بدأ بالضحك من جديد)، هي هي هي...

القائد: أيُّها الوغد، لو شربتَ بَوْل كلبةٍ لما استغربتُ الأمر، أم حلمت أنَّك تزوجتَ امرأةً ثرية؟ هيا، قل، لِمَ تضحك؟

الحارس: ولكنْ، لا شيء يضحكني...

القائد (وقد مدَّ يده اليمنى): أعطني لأرى!

الحارس: أُعطيكَ ماذا؟

القائد: وتسأل! هاتفك الخلوي طبعًا!

الحارس: سيدي، أضمن لك أنني لن أنظر إليه ثانية، هل يرضيك ذلك؟

القائد: تسخر منّي! هل تعطيني إيّاه أم لا؟ إذا رفضت، فسأقدّم توًا تقريرًا إلى المديرة ليو.

الحارس: سيدي، لي حبيبة، لا يمكنني أن أتخلى عن جوّالي...

القائد: أيَّام والدك، لم يكن للهاتف وجود، ولم يمنعه ذلك من الفوز بقلب والدتك... هيا، أسرِع!

الحارس (لا يمكنه إلّا أن يرضخ للأمر، فناول القائد هاتفه): لم أتقصّد الضحك، لكن النص يبعث على ذلك.

القائد (يبحث في الهاتف الجوال): أريد أن أعرف ما هي تلك المعلومة التي أضحكتك إلى هذا الحد... «مِنْ أجلِ تشكيل عدائين ممتازين، زَوَّجَت لجنة الرياضة الوطنية بطل سباق المئة متر، كْيان باو، إلى جين لو، بطلة سباق الركض الطويل. أوان الولادة، قصدت الأخيرة المستشفى، فسأل كْيان باو الطبيب: 'أيّ نوع من الأطفال وضعت زوجتي؟'، فأجاب الطبيب: 'لم يتسنَّ لي أن أَراه جيدًا، لأنَّه، ما إن وُلِد، حتى توارى بخفة'...». أتضحكك هذه القصة التي لا طعم لها؟ سأريك، سأقرأ لك بعض ما عندي (أخرج القائد هاتفه الخلوي، بقصد قراءة بعض القصص، وحين تنبّه فجأة إلى ما يفعل، وضع هاتفه، كما جوّال الحارس، في جيبه). هذا المساء عيد منتصف الخريف، وطلبت المديرة ليو أن نبقى متيقظين أكثر أيّام الأعياد!

الحارس (مدَّ يده، مطالبًا بهاتفه): جوالي!

القائد: أُصادره موقتًا، أُعيده له نهاية نوبتك!

الحارس (متوسّلًا): سيدي، في هذا العيد، تجتمع العائلة بفرح، تتناول كعكة القمر، تُطلِق المفرقعات النارية، يتأمل الناس القمر، يتحدثون عن الحبّ، وأنا أقف هنا كعصا، وعلاوةً على ذلك، تحرمني من سعادة إرسال رسالة قصيرة إلى حبيبتي!

القائد: أنت مثمل، اشتغل بجد، افتح عينيك وأذنيك جيدًا، ولا تدع أيّ شخص مشكوك بأمره يتخطى عتبة بوابة المستشفى...

الحارس: حسنًا، لا تأخذ على محمل الجد ثرثرات المديرة ليو، من يأتي إلى هنا في أيّام الأعياد؟ حتى قطاع الطرق واللصوص يحتفلون اليوم!

القائد: كن جديًّا! أتظنّ أنني أقول لك ذلك لأشاكسك؟ (خفض صوته وتابع بنبرةٍ غامضة)، ليلة رأس السنة، دخلت مجموعة من الإرهابيين إلى قسم التوليد وخطفت ثمانية أطفال رهائن...

الحارس (وقد استعاد رصانته): أواه...

القائد (بنبرةٍ غامضة): أتعلم مَنْ «امرأته الثانية» هنا بانتظار أن تلد؟

الحارس (مصغيًا): ...

القائد (همسًا، بنبرة غامضة أكثر): ... هل فهمت الآن؟ تذكر جيدًا: «المرسيدس» الضخمة السوداء والبي إم دبليو سيّارتاه، كلما رأيتهما، تأهّب وأدِّ التحيّة، لاحقهما بنظراتك، إيّاك والهفوات!

الحارس: نعم، سيدي! (مدَّ يده)، والآن، ستعيد لي جوالي، أليس كذلك؟

القائد: كلا وكلا، مستحيل! هذا المساء حافل بالعمل، إضافةً إلى زوجة المدير جين، يُتوقع أن تلد كنة السكرتير سونغ الليلة، سيّارتها أودي أ٦ سوداء، رقم لوحتها ٠٨٨٥٨، يسعدني أن تفتح عينيك وتراقب!

الحارس (مستاءً): القذرون الصغار، اختاروا اليوم موعدًا ليروا النور! قالت لي صديقتي إن القمر هذا المساء سيكون الأكبر حجمًا منذ

خمسين عامًا. (يرفع رأسه لينظر إلى القمر)، «متى نرى القمر مجدّدًا؟ أرفع كأسي وأسأل اللازورد»[1]...

القائد (ساخرًا): حسنًا، يكفي، أيها المتحذلق! لو تعلّمتَ جيدًا في المدرسة، لما كنتَ حارسًا أمنيًّا اليوم. (حذرًا)، ما هذا؟

(تدخل شين الحاجب على خشبة المسرح، ترتدي ثوبًا أسود طويلًا، ووجهها مخفي وراء برقع، أسود أيضًا، تحمل بيدها كنزة حمراء صغيرة).

شين الحاجب (تترنّح، كأنها ثملة): بُنَيّ... بُنَيّ... أين أنت؟ والدتُكَ تبحثُ عنكَ، أين اختبأت؟

الحارس: تلك المجنونة من جديد.

القائد: اطردها!

الحارس (متأهبًا): لا أستطيع أن أُغادر مكاني!

القائد: وأنا آمُرُكَ بأن تطردها!

الحارس: وأنا أقوم بالحراسة!

القائد: مساحة تغطيتك تشمل خمسين مترًا من كل جهة من الباب الرئيس!

الحارس: إذا حصل شيء مريب قرب ذلك الباب، فعلى الحارس الموجود في الخدمة أن يلزم مكانه، ويتخذ الإجراءات اللازمة لمنع المشتبه فيه من الدخول ويُبَلِّغ القائد فورًا. (يسحب جهاز الإرسال الذي يحمل على وسطه)، أُخْطِرُ القائد بأنّ مشتبهًا فيه

---

(١) قصيدة مغناة لسو دونغبو (سو شي، ١٠٧٣- ١١٠١).

يتقدمُ إلى يمين بوابة الدخول، أرجوكم أن تُرسلوا الدعم بأسرع وقت!

القائد: تبًّا لك يا ابن السوء!

(كل الأضواء مسلطة على ما يحدث أمام اللافتة الإعلانية)

شين الحاجب (تشيرُ بأصبعها إلى صور الأطفال على اللافتة): ولدي، ولدي، والدتُكَ تناديكَ، هل تسمعني؟ أتلعبُ الغُمّيضة مع أُمّكَ؟ هل تختبئ ولا تراني؟ أيُّها الماكر الحبيب، تعال بسرعة، أُمِّكَ ستُرضعك، إن لم تظهر الآن، فسيسرق الكلب الصغير الحليب... (تدلُّ على طفل في الإعلان)، تريد أن ترضع؟ لا، لن أُعطيكَ ثديي، لست طفلي. ابني جفنه مثنيّ، وعيناه واسعتان، عيناك صغيرتان... تريدُ أن ترضع أنتَ الآخر، لكنك لستَ طفلي كذلك، وجنتا ابني حمراوان كالتفاح، فيما بشرتُكَ صفراء... وأنتِ كذلك لن تحظي بحليبي لأن طفلي صبيّ سمين، وأنتِ مجرّد فتاة، كثيرة البَوْل، لا قيمة لكِ... (تستعيد صفاء ذهنها)، يدفعون خمسين ألف يوان مقابل صبي، وثلاثين ألفًا فقط للفتاة! يا أولاد الزنى، يا من تفضّلون الفتيان على الفتيات، تملكون الروح الإقطاعية، وما رأيكم بأمهاتكم؟ ألسن إناثًا؟ وجدّاتكم؟ لو لم يُولد إلّا الفتيان، ألن ينتهي الكون؟ وأنتم يا أصحاب الوظائف العليا والمثقفين ذوي الشأن، يا من تملكون المعرفة والذكاء، كيف لا تُدركون أمرًا بسيطًا إلى هذا الحد؟... ماذا؟ تقول إنك ابني؟ أيُّها الوغد الصغير، شممت رائحة حليبي وتدفعُكَ الشراهة إلى الشرّ، أليس كذلك؟ (تُحَرِّكُ منخاريها)، تريد أن تخدعني، أيّها الشقيّ الصغير، أنتَ تحلم! أُحَذِّرُك، حتى لو عصبوا عيني بعصابة سوداء، ووضعوا

طفلي بين ألف ولد، يمكنني أن أجده بفضلِ أنفي. لم تقل لَكَ أُمّكَ إذًا إنَّ لكل طفل رائحته الخاصة! إذا أردتَ أن ترضع، فابحث عن أُمِّكَ، آه، في الواقع، أنتم أبناء الأغنياء لا تقولون أمّي، بل «الوالدة»، وعبارة «يرضع حليب أمه» تُصبح عندكم «يتغذى من الوالدة»[1]... ماذا؟ لم تدرّ أُمُّكَ حليبًا؟ أيّ أُمّ هي تلك؟ تتحدثون يوميًا عن «التقدّم»، فيما أرى أنكم تتراجعون إلى درجة أنكم لتلدوا طفلًا، ما عدتم تستخدمون الفرج، وأثداء نسائكم لا ترشح حليبًا. تستعملون بدلًا منه حليب الأبقار والنعاج. الأطفال الذين يشربون الحليب ذلك، رائحتهم تُنتِنُ البقر والغنم. وحدهم مَنْ يرضعون من والداتهم لهم رائحة بشرية. مستعدون أنتم لأن تدفعوا لي لشراء حليبي؟ إذًا هنا، أنتم تتوهّمون، حتى لو قدمتم لي جبلًا من الذهب، لَما بعتُ حليبي، أحتفظ به لابني... يا صغيري، تعالَ سريعًا... وإلّا استولى أولئك الصغار على حليب أُمِّكَ، انْظُر كم يرغبون فيه، يفتحون أفواههم حتى؛ هم جائعون، فأمهاتهم بِعْنَ حليبهنّ لتُصنَّع منه موادّ التجميل التي يمرّغن بها وجوههن، والعطور التي يَرْشُشْن بها أجسادهن، جميعهن والدات سيئات، لا يُفكِّرنَ إلاّ بجمالهن، من دون الاهتمام بصحّة أطفالهن... تعال يا صغيري الشجاع، أَسرِع...

القائد (متأهبًا، محيّيًا): سيدتي، أنتِ هنا في مستشفى، فالمولدات والأطفال بحاجة إلى الهدوء، لذا أتمنّى عليكِ أن تغادري المكان سريعًا وأن تكفّي عن الصراخ والضجيج!

---

(١) العبارة الذي تُلفظ «ني» في الصينية، وتعني «الثدي، الحليب، الطفل»، تعني كذلك «الأمّ» (عند المنشوريين/من منشوريا أو منشوكو).

شين الحاجب: ومَنْ تكونُ أنت؟ وما الذي تقوم به هنا؟

القائد: أنا من جهاز الأمن.

شين الحاجب: وما هي مهمات جهاز الأمن؟

القائد: الحفاظ على النظام الاجتماعي، وحماية أمن المؤسسات، والمدارس، والشركات، ومكاتب البريد، والمصارف، والمراكز التجارية، والمطاعم، ومحطات القطار، وما إلى ذلك.

شين الحاجب: أعرِفُكَ! (تضحكُ مثل مجنونة)، ولكنْ طبعًا، أعرف من تكون، أنتَ أحد حرّاس يوان الخدّ الشخصيين، يسمّونكم «كلاب الحراسة»!

القائد: لا أسمح لكِ بأن تهيني كرامتنا! مِنْ دوننا، تعم الفوضى في المؤسسة.

شين الحاجب: هذا أنت، أنت مَنْ سرق طفلي! خلعت رداءك الأبيض، وقناعك، مع ذلك عرفتك!

القائد (مذعورًا): سيدتي، احذري، أنتِ مسؤولة عمّا تقولين، باستطاعتي أن أتقدم بشكوى ضد اتهاماتك الباطلة!

شين الحاجب: هل ظننت أنني لن أعرفك بثيابك الجديدة؟ أتظنّ أنك صالح لأنك ترتدي بزة رجال الأمن؟ لست سوى كلب ربّاه يوان الخدّ. ساعَدَتْني على الوضع وان القلب، تلك الشرّيرة، وبالكاد ألقيت نظرة على الطفل... (بألم) لا... لم تسمح لي بأن أفعل... غَطّيْنَ وجهي بقماش أبيض، رغبتُ بشدّة في أن أراه لحظةً، لكنهن لم يسمحن لي بذلك، خطفن طفلي... لكنني سمعتُ بكاءه، بكى بحثًا عني، أراد أن يراني هو أيضًا، هل يوجد في العالم أطفال لا

يرغبون في رؤية أمهاتهم؟ لكنهن أخذنه بالقوة. أعرف أنه جائع، يريد أن يرضع. لا بدّ من أنَّك تعلم أنَّ اللبأ لا غنى عنه للطفل، تظنُّ أنني ذات مستوى ثقافي متدنّ، لا أفهمُ شيئًا من تلك الأمور، لكنني أفقه الكثير. أغلى ما أملك، يتدفق من ثدييّ، بما في ذلك كالسيوم عظامي، وزيت نخاعها، وزلال دمي، وفيتامينات بشرتي، كل ذلك يتجمّع في ثديي، إذا شرب طفلي حليبي، فلن يصاب بالزكام والإسهال والحمّى، وسينمو جميلًا بسرعة وصحّة جيدة، لكنكم خطفتموه من دون أن يشرب مصّةً حتى.

(تتقدم شين الحاجب لتتهجّم على رئيس جهاز الأمن).

القائد (خائفًا): سيدتي، تستهدفين الشخص الخطأ بالتأكيد، أنا لا أعرف من يكون ذلك «الخد ـ المستدير» أو «الوجه ـ المربّع»[1]، لا أدري ما اسمه...

شين الحاجب: توقعتُ أن تُنكر معرفته، ذلك أمر طبيعي! أيُّها اللصوص، يا قطاع الطرق والخاطفون والأشرار، أنتم تتاجرون بالأطفال. تدّعي أنَّك لا تعرفني، لكنني أعرفك. ألست أنتَ مَنْ خدرني لأنام بعد أن أخذتم طفلي بالقوة؟ ألست أنتَ مَنْ حاول خداعي حين استيقاظي بالقول إن ابني وُلد ميتًا؟ ألستَ أنتَ مَنْ عرض أمام ناظريَّ هرًّا مسلوخ الجلد مدَّعيًا أنها جثة ولدي؟ أيها السارقون، بعد أن سرقتم طفلي، رفضتم دفع أتعابي. اتفقنا على أن تدفعوا لي خمسين ألف يوان مقابل صبي، لكنكم قلتم لي إنني لن أنال إلّا عشرة آلاف يوان لأنَّ الطفل وُلِد ميتًا، أخذتم طفلي وأردتم بالتالي

---

(١) اسم يوان له عبارة متجانسة الصوت تعني «مستدير». يصبح يوان الخدّ «مستدير الوجه». «مربع» اسم شائع كذلك.

سرقة لبئي! جئتم بكوب ومصّاصة لشفطه قائلين إن مليلترًا منه ثمنه عشرة يوانات! أيها الوحوش، ذلك اللبأ لابني. عشرة يوانات؟ لن أبيعه بمئة ألف يوان!

القائد: سيدتي، أطلب منكِ مجدّدًا مغادرة المكان، وإلّا فسأستدعي الشرطة.

شين الحاجب: الشرطة؟ عظيم، اطلبها. بحق، كنت سأقصد دائرة الشرطة. الشرطة تحب الشعب، وإذا أضاع مواطنٌ طفله، أليس منوطًا بالشرطيين البحث عنه؟

القائد: بالتأكيد، إن تعلَّق الأمر باختفاء كلب، فستبحث عنه، فكيف إن كان طفلًا.

شين الحاجب: حسنًا إذًا، سأذهب إلى دائرة الشرطة.

القائد: عظيم، اذهبي سريعًا. (يدُلُّها على الاتجاه)، اسلكي هذا الشارع، عند إشارة المرور، انعطفي إلى اليمين. تقع مفوضية شرطة المرفأ قرب الملهى الليلي.

(تخرج سيارة من المستشفى وهي تزمر).

شين الحاجب (تُطرق للحظة، وتستعيد فجأةً أنفاسها): أخذوا طفلي في هذه السيارة. (تندفع نحو المركبة)، أيُّها اللصوص، أعيدوا لي ابني...

(يحاول القائد إمساكها، لكنَّ شين الحاجب تُبدي فجأة امتلاك قوة هائلة، تدفعه، فيترجح).

القائد (مذعورًا): أمسكوها!

(يركض عنصر الأمن الذي يحرس الباب، يمسك بشين الحاجب التي

تعوق مرور السيارة. تتخبّط الأخيرة مثل عفريت. يصل القائد بدوره، يتعاون الرجلان للسيطرة عليها. أثناء العراك، يقع البرقع الأسود الذي يغطي وجه شين الحاجب، مظهرًا سمات البشاعة المخيفة لوجهها الذي أصيب بحرقٍ من الدرجة الثالثة. يتراجع الرجلان، مرعوبين).

الحارس: يا أمّي...

القائد: ينظر إلى الضفادع المهروسة على الأرض تحت العجلات أو المدوسة بالأرجل ـ تبًّا، من أين تخرج كل تلك المخلوقات اللعينة!

نهاية الفصل الأول

الفصل الثاني

تغرق خشبة المسرح كاملة بنور الأضواء الخضر، كأنها عالم مائيّ جزئيًّا، مغمّ. في الخلفية، توجد مغارة ينمو حولها العشب الطري. يصعد منها أحيانًا نقيق الضفادع وبكاء الأطفال. عُلِّق عشرات الأطفال فوق خشبة المسرح. تهز التشنّجات أطرافهم، ويُحدث بكاؤهم جلبةً.

على مقدمة الخشبة، وُضعت لوحتان لتشكيل الأطفال الصلصاليّين، جلس القرفصاء وراءهما هاو اليدان الكبيرتان وكين هي، يعجنان الصلصال، غارقَين في عملهما.

تخرج العمة بصعوبة من المغارة، ترتدي ثوبًا أسود طويلًا، واسعًا للغاية، وشعرها مشعث.

العمة (وكأنها تتلو عن ظهر قلب): اسمي وان القلب، عمري ثلاثة وسبعون عامًا عملت طبيبة نسائية طوال خمسين عامًا تحديدًا. بعد تقاعدي حتى، لم أنعم بلحظة هدوء، نهارًا وليلًا. يصل عدد الأطفال الذين ساعدت على وضعهم إلى تسعة آلاف وثمانمئة وثلاثة وثمانين. (ترفع رأسها، تنظر إلى الأطفال المعلقين في

الأجواء)، ما أعذب بكاءكم يا أولاد! تشعر العمة بالطمأنينة لسماعكم، من دونكم، لا تستكين. صراخكم أجمل صوت عرفه العالم، تهويداتكم صلاة لراحة أنفس الموتى بالنسبة للعمة. مؤسف أننا لم نملك في الماضي مسجّل صوت لحفظ صراخكم لحظة ترون النور. لكانت العمة استمعت إليه في حياتها، وعند موتها، طلبت بثّه أثناء جنازتها. بكاء تسعة آلاف وثمانمئة وثلاثة وثمانين طفلًا قد يؤلِّف موسيقى رائعة! ... (غارقةً في أحلام لا تنتهي)، ليهزَّ بكاؤكم السماء والأرض، فليصحب العمة إلى الجنة...

كين هي: بصوتٍ منخفض: احذري أن يرسلكِ نحيبهم إلى الجحيم!

العمة (تدور بخفة بين الأطفال المعلقين في الجو، مثل سمكة تسبح برشاقة. تتسلل بينهم، تصفقهم على أردافهم): هيا، ابكوا أحبائي الصغار، ابكوا! إن لم تفعلوا، فذلك يعني أن الأمور لا تسير على ما يرام، صراخكم دليل صحة...

هاو اليدان الكبيرتان: أيُّها الأبله!

كين هي: عمن تتكلم؟

هاو اليدان الكبيرتان: عن نفسي!

كين هي: ذلك مقبول، إن كنت تتكلم عن نفسك، أمّا أن تقصدني، فلا، (بغرور)، لأنني أشهر فنّان نحّات على الفخار في كانتون دونغبي، ومَنْ ينكر هذه الحقيقة، فذلك شأنه. أنا الأوَّل في مهنة العمل على الفخار. على البشر أن يتعلموا الترويج لأنفسهم، إن لم يعتبر المرء نفسه شخصًا مهمًا، فمن يوليه الاحترام؟ التماثيل التي أُشكِّل أعمال فنّية ثمينة، ثمن الواحد مئة دولار.

هاو اليدان الكبيرتان: هل سمعتم أنتم الآخرين؟ هذا ما يسمّى الادّعاء! حين كنت أشكّل الصلصال، كنت بعد طفلًا يحبو بحثًا عن ذرق الدجاج لتأكل! مَنْ يحدّثك، عيّنه رئيس المقاطعة سيد الحرف الفنية الشعبية! فما قيمتك أنتَ؟

كين هي: رفاقي، أصدقائي، سمعتم جيدًا، أليس كذلك؟ لا أقول إنَّك مدَّعٍ، لكنك جريء، ومعتوه، ومضطرّ قهرًا للتكرار، شكَّلت طوال حياتك أطفالًا من صلصال، وعجزت عن إكمال أحدهم، تصنع واحدًا، تدمّره، متخيلًا أن التالي سيكون الأفضل. تشبه دبًّا أخرقَ يكسر سنابل الذرة في الحقل. رفاقي، أصدقائي، انظروا إلى يديه، واسمه هاو اليدان الكبيرتان[1]! ليست هاتان يدين، إنهما قائمتا ضفادع، بط، لديه غشاء نسيجيّ حيوانيّ بين أصابعه...

هاو اليدان الكبيرتان (يرمي غاضبًا الصلصال من يده باتجاه كين هي): تفاهات! أيُّها الأبله، ارحل من هنا حالًا!

كين هي: آه فعلًا، وبأي حق تطردني؟

هاو اليدان الكبيرتان: هذا منزلي.

كين هي: ومَنْ يُثبت ذلك (يشير إلى العمة والأطفال المعلقين)، هي؟ هم؟

هاو اليدان الكبيرتان (يدل على العمة): يمكنها أن تثبت ذلك.

كين هي: باسم ماذا؟

---

(١) عبارة «اليدان الكبيرتان» تعني «المعلم الكبير» شكلًا ولفظًا، كان يمكن ترجمتها كذلك «المعلم الكبير هاو» أو «ويعمل بيد معلم؟». في الصينية، يقرأ ويسمع القارئ المعنيان في آن واحد.

هاو اليدان الكبيرتان: إنها زوجتي!

كين هي: باسم ماذا تؤكد أنها زوجتك؟

هاو اليدان الكبيرتان: لأننا تزوجنا.

كين هي: مَنْ يُثبت ذلك؟

هاو اليدان الكبيرتان: يكفي أنني ضاجعتها!

كين هي (في ذروة الألم، يأخذ رأسه بين يديه): كلا!... أنتِ كاذبة! خدعتني، أفنيتُ شبابي مِنْ أجلِكِ، كيف قبلتِ، قلتِ لن تتزوجي أحدًا طوال حياتك؟

العمة (توجّه الملامة إلى هاو اليدين الكبيرتين): لمَ تخاصمه؟ لقد التزمت بعهد.

هاو اليدان الكبيرتان: لقد نسيت.

العمة: آه، نسيت بكل بساطة؟ إذًا، سأذكّركَ. قلتُ لك في الماضي إنني أقبل الزواج بك، شرط أن تقبله، تَعُدَّه شقيقي الصغير، تتقبّلَ جنونه، وهفواته، وأوهامه، وتسهر على أن لا ينقصه المأكل والمسكن والملبس.

هاو اليدان الكبيرتان: وأسمح بأن يضاجعكِ، أليس كذلك؟

العمة: أبلهان، هذا ما أنتما عليه!

كين هي (مستاءً، يشير إلى هاو): هو الأبله، أنا طبيعي جدًّا!

هاو اليدان الكبيرتان: لا ضرورة لأن تزعق بهذه الطريقة وتغضب لأنك تشعر بالمهانة! أنتَ أبله، ولو تمكنت من رفع قبضتك أعلى من شجرة، وتدفق من عينيك الكرز الأحمر، ونبت لكَ قرنا تيس، وطارت من فمك عصافير صغيرة، واكتسى جسمك كاملًا بجلد

خنزير، لما تغيّرت تلك الحقيقة. إنها محفورة كما يحفر الإزميل بالصخر!

العمة (بسخرية): كل تلك العبارات النمّامة، تعلمتها من كتيّب مسرحية الشرغوف؟

هاو اليدان الكبيرتان: مسددًا إصبعه نحو كين هي: لا يمرُّ شهران من دون أن تحتاج إلى إقامة لثلاثة أشهر في مستشفى مارشان النفسي. هنالك، يلبسونك قميص المجانين، تتناول المهدّئات، وإن لم يكفِ ذلك، يُخضعوكَ للصدمات الكهربائية. تخرج عظمًا وجلدًا، تائه النظرة، كأنَّك يتيم أفريقي، يُغطي وجهك براز الذباب ما يُذَكِّر بجدارٍ مشقق. ولكن، ألم يمضِ حوالى شهرين على خروجك من هناك؟ غدًا، أو بعد غد، لا بدَّ من أن تعود، أليس كذلك؟ (يُقلِّدُ بإتقان صفارة سيّارة إسعاف، ترتجف كامل أعضاء كين هي، يجثو على ركبتيه). هذه المرة، يجب ألّا تخرج منه أبدًا. تصرفاتك المجنونة عامل نشاز في مجتمع متناغم!

العمة: كفى!

هاو اليدان الكبيرتان: لو كنتُ طبيبًا، لسجنتك في المكان طوال الحياة، صدمتُك بالكهرباء إلى أن تبصُق رغوةً بيضاء ويصاب جسمك بالتشنّجات، إلى أن تفقد وعيك ولا تستفيق أبدًا، أو إذا استيقظت، تكون فقدتَ ذاكرتك.

(كين هي، رأسه في يديه، يتخبط أرضًا ويصرخ رعبًا بشكلٍ تقشعر له الأبدان).

هاو اليدان الكبيرتان: أن تتدحرج أرضًا كالحمار، تصرُّف لا قيمة له.

هيا، تمرّغ بالأرض بعد! ها هو ذا وجهك يستطيل، تحسّسه؛ تكبر أذناك؛ ستغدو للتو حمارًا، والحمار يجرّ رحى الطاحون، ويدور. (كين هي، على يديه ورجليه، يرفع مؤخرته، مقلدًا حمارًا يدفع حجر الرحى). أحسنت، يا لكَ من حمار نشيط! حين تُنهي طحن ليتري الصويا السوداء، ستجرش مكيالًا من الذرة البيضاء. الحمار الطيّب لا يحتاج إلى عصابة العين، الحمار اللطيف لا يأكل الطحين سرًّا. إذا اشتغل بكدّ، يعامله معلمه بالحسنى، العلف الذي أحضرته لك في خدمتك.

(تقترب العمة لتساعد كين هي على النهوض، لكنه يعضّ يدها).

العمة: وأنت، لا تقدِّر قيمة الأشخاص كما يجب.

هاو اليدان الكبيرتان: قلت لك سابقًا، لا يعنيك هذا الشأن، الأفضل لكِ أن تهتمي بأولئك الأطفال كي لا يبردوا ويجوعوا. مع ذلك، يجب ألّا يأكلوا أو يدفأوا كثيرًا. كما ردَّدْتِ، يجب أن يجوع الطفل ويبرد قليلًا ليبقى هادئًا. (يلتفِتُ نحو كين هي)، لِمَ لا تجرّ الحجر؟ أيها الكسول، لا تعمل إلّا على وقع السوط؟

العمة: كُفَّ عن تعذيبه! إنَّه مريض!

هاو اليدان الكبيرتان: هو، مريض؟ كلا، أنتِ المريضة!

(يتقيأ كين هي رغوةً بيضاء، ويُغمى عليه).

هاو اليدان الكبيرتان: هيا، قِف، توقف عن أداء دور الميت. ليست تلك المرة الأولى! اعتدتُ هذا المشهد. يمكن لحشرةٍ على كومةٍ من الروث أن تفعل ذلك. أتظنّ أنني سأخاف إن تظاهرت بأنَّك ميت؟ لا، لستُ خائفًا! ليتك تفعل، في الواقع! هيّا، مُتْ سريعًا!

(تتقدم العمة كي تسعف كين هي، فيعترض هاو اليدان الكبيرتان سبيلها).

هاو اليدان الكبيرتان: متألّمًا: عيلَ صبري. لن أسمح بعد اليوم بأن تعالجيه بهذه الطريقة...

(تتحرك العمة شمالًا، يفعل المثل، تنتقل إلى الجهة الأُخرى، يتبعُ حركتها).

العمة: إنَّه مريض! بالنسبة للطبيب، لا يوجد إلّا نوعان من الأشخاص في العالم: الأصحّاء والمرضى. لو ضرب أبي وأمي أمس، وأُصيب بالمرض اليوم، لنسيتُ حقدي وعالجتُه؛ وحتى لو أُصيب شقيقه الأكبر بنوبة صرع وهو يغتصبني، لعالجتُه كذلك!

هاو اليدان الكبيرتان (يتسمّر فجأةً في مكانه، ويهمس بصوتٍ مشحون بالألم): أخيرًا تعترفين بالحقيقة، أقمتِ علاقات ملتبسة مع الشقيقين!

العمة: تلك قصّة من الماضي، وهذه هي الحال منذ آلاف السنين، جميع مَنْ يعترفون بالماضي هم مادّيون، وجميع من ينكرونه هم مثاليون!

(تجلس قرب كين هي، تضمّه إلى صدرها مثل طفل، تهدهده، ترندح بصوت منخفض أغنية كلماتها غير واضحة).

«حين أُفكِّرُ فيك، ينفطر قلبي من الألم... حين أُفكِّرُ فيك، يعنُّ على بالي البكاء، لكنَّ الدموع لا تسيل... أريد أن أكتُب لك، لكنني لا أجد عنوانك... أرغب أن أُغني، نسيتُ العبارات... أودّ تقبيلك، تضيعُ مني شفتاك... عناقك، فلا أجد جسدك...».

(يتسلل من المغارة المظلمة صبيّ يرتدي مئزرًا أخضر مطرّزًا عليه ضفدع، حليق الرأس مثل قشرة بطيخ، يسير على رأس جحفل من الضفادع التي تجلس في كراسيَّ نقالة، مسلحة بعكازات، قوائمها الأمامية ملفوفة بضمادات ـ يؤدّي دورها أولاد صغار. يصيح الصبي: «ادفعي الدَيْن، ادفعي الدين!»[1]. تنق الضفادع: «كي كي كي... كاك... كاك».

تُطْلِق العمة صرخةً مرعبة، تترك كين هي، وتحاول الفرار عن المسرح من الولد والضفادع.

هاو اليدان الكبيرتان وكين هي، الذي استعاد وعيه، يتصدّيان لهجمات الصبي والضفادع، ويؤمّنان خروج العمة، يطاردهما الآخرون).

نهاية الفصل الثاني

(١) يُسمّى الأولاد الذين يموتون صغار السن «الأبالسة المطالِبين بالدَيْن».

الفصل الثالث

صالة استقبال العامة في دائرة الشرطة. ليس في القاعة إلّا طاولة طويلة، عليها هاتف. عُلّقت على الجدران أعلام مطرّزة، لوحات تكريمية، وأمور من ذلك القبيل.

تجلس الشرطية، وي الصغيرة، مستقيمة إلى الطاولة، وتشير إلى كرسيّ أمامها داعيةً شين الحاجب إلى الجلوس. تلبس الأخيرة الثياب نفسها: الثوب الأسود الطويل الذي يغطي جسدها، والبرقع الأسود الذي يحجب وجهها.

وي الصغيرة (بكامل جدّيتها، تتحدث مثل الطلاب): أيتها المواطنة، تفضلي بالجلوس، أرجوك.

شين الحاجب (بطريقة فظة): لِمَ لَمْ توضع الطبول أمام القاعة؟

وي الصغيرة: الطبول؟

شين الحاجب: كانت موجودة في الماضي، لِمَ لا تعيدونها؟ من دون الطبول، كيف يمكن للشعب قرع الطبل ليطالب بالعدالة؟

وي الصغيرة: ما تتحدثين عنه يعود إلى زمن اليامن، أيام المجتمع الإقطاعي! حاليًا، تسود الاشتراكية، أُزيلت هذه المظاهر منذ أمد بعيد!

شين الحاجب: ليس في دائرة كايفنغ...

وي الصغيرة: هل شاهدت ذلك في مسلسل تلفزيوني؟ «باو لونغتو جالسًا القرفصاء، يتأمل في دائرة كايفنغ»[1] ...

شين الحاجب: أريد مقابلة باو لونغتو.

وي الصغيرة: حضرة المواطنة، هنا مفوضية شرطة المرفأ، وأنت في قاعة استقبال العامة، وأنا وي يينغ، الشرطية المناوبة في الخدمة، أتمنى إن كانت لديك مشكلة أن تطلعيني عليها لأدوّنها في الملف وأبلغها إلى رئيسي.

شين الحاجب: قضيتي معقدة، وحده باو لونغتو يستطيع حلها.

وي الصغيرة: حضرة المواطنة، باو لونغتو غائب اليوم، أطلعيني على مشكلتك، لأقدّم بها تقريرًا إلى باو لونغتو، ما رأيك؟

شين الحاجب: أتكفلين ذلك؟

وي الصغيرة: نعم! (تشير إلى الكرسي أمام الطاولة)، تفضلي بالجلوس، أرجوك.

شين الحاجب: لستُ إلّا مواطنة عادية، لا أجرؤ.

وي الصغيرة: أطلب منكِ الجلوس.

شين الحاجب: أشكركِ.

---

(١) قاض مشهور في حقبة السلالة الحاكمة سونغ الشمالية، وكان يؤدي خدمته في كايفّنغ في مقاطعة خنان الحالية.

وي الصغيرة: أتريدين ماءً؟

شين الحاجب: لا، شكرًا.

وي الصغيرة: قولي لي، حضرة المواطنة، تدركين أننا لا نمثل مسلسلًا تلفزيونيًّا، أليس كذلك؟ ما اسمكِ؟

شين الحاجب: كان اسمي شين الحاجب، لكن شين الحاجب تلك ماتت، أو بالأحرى، مات جزء منها، وما زال الآخر حيًّا، لذا ما عدت أعرف ما اسمي.

وي الصغيرة: أيتها المواطنة، أتمازحينني أم تريدين مني أن أشاكسكِ؟ نحن في مفوضية الشرطة هنا، المكان جدي، ولا نمزح.

شين الحاجب: كنت أملك في الماضي أجمل حاجبين في كانتون دونغبي، ولذلك حملتُ ذلك الاسم. أمّا اليوم، فلا حاجبين لي... وليس ذلك فحسب، بل (بنبرةٍ حادة) صرت من دون أهداب وشَعر! لذا، ما عدتُ مؤهّلة لحمل ذلك الاسم.

وي الصغيرة: وقد أدركت مع مَنْ تتعامل: حضرة المواطنة، لن تنزعجي مني إذا طلبتُ منكِ رفع البرقع عن وجهك.

شين الحاجب: مستحيل!

وي الصغيرة: إن أصبتُ جيدًا، فأنتِ إحدى ضحايا الحريق في مصنع دونغلي للألعاب؟

شين الحاجب: أنتِ سريعة البديهة.

وي الصغيرة: كنتُ آنذاك في المدرسة الشرطية، وتابعت الأخبار على التلفزيون. أولئك الرأسماليون أشرار، وأتعاطف مع مصيبتك من

أعماق قلبي. إذا أردتِ المطالبة بتعويضات عن تلك الكارثة، فالأفضل لك أن تتّجهي إلى القضاء، أو تراجعي لجنة الحزب وإدارة البلدية، أو وسائل الإعلام.

شين الحاجب: ألا تعرفين إلى أيّ درجة القاضي باو نزيه؟ وحده يستطيع الدفاع عني.

وي الصغيرة (وقد أدركت أنها أمام حائط مسدود): حسنًا، تكلمي، سأفعل ما بوسعي لتصل قضيتك إلى رؤسائي.

شين الحاجب: أريد أن أتقدم بشكوى ضدهم، لقد اختطفوا ابني.

وي الصغيرة: مَنْ سرق طفلك؟ خذي وقتكِ، تكلمي من دون انفعال. اشربي بدايةً كوب ماء لترطّبي حلقك، صوتك أجش.

(تصبّ ماءً في كوب وتقدّمه لشين الحاجب)

شين الحاجب: لا، شكرًا. أعرفُ أنَّكِ ستستغلين تلك اللحظة فيما أشرب لرؤية وجهي. أكرهُ وجهي، لا أحتمل أن يراه الآخرون.

وي الصغيرة: أعتذر، لم أقصد ذلك.

شين الحاجب: منذ احترقت، لم أنظر في المرآة إلّا مرة واحدة، وصرت أكره المرايا وكل ما يعكس شكل الإنسان. بدايةً، فكرتُ في الانتحار بعد تسديد ديون والدي، لكنني غيرتُ رأيي. لو انتحرت، لماتَ طفلي جوعًا وغدا يتيمًا. سمعتُ بكاء ولدي، أنصتي... بُحَّ صوته مِن فرط البكاء، أردتُ أن أُرضعه، كان ثدياي منتفخين ككرتين، كادا ينفجران. لكنهم أخفوا ابني...

وي الصغيرة: مَنْ «هم»؟

شين الحاجب (حذرةً، تراقبُ الباب): إنها الضفادع الثيران التي تفوق بحجمها غطاء قِدْرٍ، نقيقها يشبهُ الخوار، إنها الضفادع الثيران شرّيرة، تأكل الأطفال...

وي الصغيرة (تقف وتذهب لتغلق الباب): أختي العزيزة، لا تخافي، هذه الجدران معزولة صوتيًّا.

شين الحاجب: تتمتع بنفوذ عريض، وهي متواطئة مع السلطات المحلية.

وي الصغيرة: القاضي باو لا يهابها.

شين الحاجب (تتركُ مقعدها وتجثو على ركبتيها): أيُّها المحترم باو، الظلم الذي طالني أعمق من البحر، أرجو من حضرتكم أن تدعموني بصفتي مواطنةً.

وي الصغيرة: اعرضي قضيتكِ.

شين الحاجب: حضرة القاضي، تفضلوا بقبول طلب المواطنة شين الحاجب، المولودة في كانتون دونغبي في مقاطعة غاومي. لطالما أظهر والدي شين الأنف تفضيلًا جليًّا للأطفال الذكور، محتقرًا الفتيات، وآنذاك، ليحظى بابن، أجبر والدتي على الحمل خارج التخطيط الأُسري؛ لسوء الحظ، اكتُشِف السر، وراحا يختبئان يمينًا ويسارًا، إلى أن قبضت عليها السلطات المحلية على النهر. للأسف، تُوفيت والدتي بعد أن ولدتني على طوف. حين رأى والدي أنني فتاة، خاب ظنّه وأهملني ولم يهتم بأمري، ليستردّني لاحقًا. وبما أنني ولدت خارج الإطار الذي حدده التخطيط الأسري، دفع جزيةً مقدارها خمسة آلاف وثمانمئة يوان. انصرف إلى معاقرة

الكحول، وراح يشرب يوميًّا، وحين يثمل يضربني وأختي، ويهيننا. تبِعتُ شقيقتي شين الأذن إلى الجنوب، إلى غواغدونغ بحثًا عن عمل، أردت إيفاء ديني تجاه والدي وإيجاد مستقبل يحفلُ بالوعود. كنتُ وأُختي شين الأذن مِنْ أجمل الشابات المشهود لهن، ولو سلكنا درب السوء، لجنينا أموالًا طائلة، لكننا حافظنا على استقامتنا الأخلاقية، تشبّهنا باللوتس الذي يترفع من دون دنس فوق الوحل. من كان يظن أن حريقًا سيقضي على شقيقتي ويشوّهني بهذه الطريقة...

(تمسح وي الصغيرة دموعها بمنديل ورقيّ).

شين الحاجب: ماتت أُختي في الحريق لأنها أرادت أن تحميني... شقيقتي الكبرى، لِمَ أنقذتني؟ بدلًا من أن أعيش كما أنا الآن، نصف آدمي، نصف إبليس، ألم يكن من الأفضل أن أموت...

وي الصغيرة: أولئك الرأسماليون البغيضون! يجب إلقاء القبض عليهم، إعدامهم!

شين الحاجب: ليسوا سيئين إلى هذه الدرجة، أعطوني عشرين ألف يوان تعويضًا عن موت شقيقتي، دفعوا كامل نفقات طبابتي في المستشفى، وخمسة عشر ألف يوان تعويضًا. وهبتُ والدي المبلغ كاملًا، قلت له: «أبي، الغرامة التي تكبّدتها بسبب ولادتي خارج التخطيط الأُسري، إضافةً إلى الفوائد لعشرين عامًا، أوفيكَ إيّاها برمّتها، ما عدتُ أدينُ لك بشيء!».

وي الصغيرة: والدكِ، من جهته، ليس رجلًا صالحًا.

شين الحاجب: مهما بلغ من السوء، يبقى أبي، ولا يحق لكِ إهانته.

وي الصغيرة: ماذا فعل بذلك المال؟

شين الحاجب: ما الذي سيفعله؟ أكل، وشرب، ودخَّن، صرف المال كله!

وي الصغيرة: يا له من سافل، لا يوازي حيوانًا حتى.

شين الحاجب: سبق أن قلت لكِ، لا أسمح لكِ بشتمه.

وي الصغيرة: بنبرة السخرية من الذات: أصرِفُ طاقتي هباءً. وماذا حصل بعد ذلك؟

شين الحاجب: عملتُ في شركة الضفادع الثيران.

وي الصغيرة: أعرِفُ تلك الشركة، صيتُها ذائع. سمعتُ أنهم يستخرجون من جلد الضفدع مُنتجًا ذا جودة لحماية البشرة، إذا نجحوا، فسيحصلون على شهادةٍ عالمية.

شين الحاجب: أتقدمُ بالشكوى ضدهم.

وي الصغيرة: تكلمي.

شين الحاجب: تربية الضفادع الثيران ليست سوى تغطية، عملهم التجاري الحقيقي، ولادة الأطفال.

وي الصغيرة: ماذا تعنين بذلك؟

شين الحاجب: وظفوا عددًا كبيرًا من الشابات يلدن الأطفال لعائلات الأثرياء.

وي الصغيرة: تلك الأمور تحدث إذًا حقيقةً؟

شين الحاجب: توجد في الشركة عشرون غرفةً سرّية، استخدموا عشرين امرأة، منهن مَن كنَّ متزوجات، وأخريات عازبات، بعضهن

قبيحات، والأخريات حسناوات. يمكن أن يتم الحمل بعلاقة جنسية أو من دونها...

وي الصغيرة: هه، ماذا تقولين؟ ما تعنين «بعلاقة جنسية» و«من دون علاقة جنسية»؟

شين الحاجب: لا تدعي الطهارة! وكأنك لست على علم بتلك الأمور! ما زلتِ عذراء؟

وي الصغيرة: حقًا، لا أفهم ما تقصدين...

شين الحاجب: «مع علاقة جنسية» تعني أن الموظفة تضاجع الرجل، ويعيشان معًا كزوجين إلى أن تتم الولادة. في الحالة الأُخرى، تُلقَّح رحم المرأة صناعيًّا بالمنيّ الذكري بواسطة أنبوب. هل أنتِ عذراء؟

وي الصغيرة: وأنتِ؟

شين الحاجب: بالطبع إنني عذراء.

وي الصغيرة: لكنكِ ذكرتِ أنَّكِ ولدتِ.

شين الحاجب: نعم، رُزِقت بطفلٍ، لكنني عذراء. طلبوا من الممرضة أن تلقحني بالمني في رحمي، فحملت على الرغم من كل شيء. لكنني لم أضاجع الرجل. ما زلت طاهرةً، ما زلت عذراء!

وي الصغيرة: حين تقولين «هم»، مَنْ تقصدين نهايةً؟

شين الحاجب: ذلك ما لا أستطيع البوح به، إن فعلت، فسيقتلون ابني...

وي الصغيرة: إنَّه الضخم، رئيس مؤسسة الضفادع الثيران. اسمه... آه،

نعم، «الخد المستدير»[1]؟

شين الحاجب: أين هو يوان الخدّ؟ أبحثُ عنه تحديدًا. أيُّها الوحش، خدعتَني، تواطأتُم جميعًا على خداعي! ادّعيتم أن جنيني وُلد ميتًا، أريتموني هرًّا مسلوخًا قائلين إنَّه ابني، لعبتم نسخة حديثة من مسرحية «الأمير الوريث يُستبدلُ بهر»[2]. استخدمتم تلك الوسيلة لحرماني من المال الذي أستحقه، ظننتم أنكم بتصرفكم هذا، سأتخلى عن فكرة البحث عن طفلي. لا أريد المال، ها أنا أقول لكم، لا أحبُّ المال، ها أنا أكلّمكم، لو كنتُ أَوَدُّه، يوم كنتُ في غواندونغ، عرض مدير تايواني استئجاري لثلاثة أعوام مقابل مليون يوان. لكنني أردتُ طفلًا، ابني هو الأسمى في العالم، المحترم باو، عليكم أن تدعموني...

وي الصغيرة: حين طلبوا منكِ أن تكوني أمًّا حاملًا، هل وقّعتِ عقدًا معهم؟

شين الحاجب: أوه، طبعًا، وأعطوني ثلث المبلغ، على أن يدفعوا الباقي بعد الولادة، حين أسلمهم الطفل من دون مشاكل.

وي الصغيرة: قد نواجه هنا صعوبة، ولكن لا عليكِ، سيجلو المحترم باو القضية. أكملي.

شين الحاجب: قالوا لي إن المنيّ يعود لشخص هام، وجيناته ممتازة،

---

(١) لعب على تجانس الأصوات، يوان، اسم العائلة، يمكن أن يعني كذلك «مستدير»، إن لم تؤخذ طريقة الكتابة في الحسبان. مراجعة الملاحظة، صفحة ٤٥٢.

(٢) مسرحية من حقبة السلالة الحاكمة يوان، تخبر قصة خليلة إمبراطورية محظية تسرق طفل منافسة لها وتضع مكانه هرًّا قبل أن تبلغ أنها ولدت مسخًا. الطفل الذي أنقذه أحد الخصيان، أصبح إمبراطورًا وأعاد الاعتبار لوالدته.

ويُعدّ عبقريًا. أشاروا إلى توقّفه عن التدخين، وشرب الكحول، وتناوله يوميًا أذن البحر، والقثّاء، واتباعه حمية طوال ستة أشهر، ليحظى بطفل ذي صحة جيدة.

وي الصغيرة: ساخرةً: يملك البعض قدرةً على الاستثمار!

شين الحاجب: تتطلب تربية ذرّية ممتازة اهتمامًا وصبرًا، لذا، يجب التغاضي عن التكاليف. قالوا إن الرجل رأى صورة لي قبل أن أتشوّه، ووجد أنني خلاسية جميلة.

وي الصغيرة: ولكن، إن كنتِ لا تحبين المال، فلمَ وافقتِ على أن تكوني أمًّا حاملًا؟

شين الحاجب: هل قلت إنني لا أحب المال؟

وي الصغيرة: نعم، منذ لحظات.

شين الحاجب: محاولةً التذكر: آه نعم، تذكرت، ذلك لأن أبي أصيب بحادث سير وخضع لعملية جراحية؛ وافقتُ على أن أكون أمًّا حاملًا، لأدفع نفقات طبابته.

وي الصغيرة: أنت حقًّا ابنة بارّة. والد مثله، كان الأجدر أن يبقى في المستشفى.

شين الحاجب: قلت الأمر نفسه، لكنه والدي نهايةً.

وي الصغيرة: لذا قلت إنك ابنة بارّة.

شين الحاجب: أعرف أنَّ ابني لم يمت، سمعت صراخه حين وُلِد... أصغي، إنَّه يبكي مجدّدًا... مذ رأى النور، لم يرضع منّي ابني نقطة حليب... طفلي المسكين...

(يدفع مفوض الشرطة الباب ويدخل)

مفوض الشرطة: تبكين، تصرخين، إن كان لديك ما تقولين، فقوليه كما يجب!

شين الحاجب: تركع: أيها المحترم باو، يجب أن تدعمني بصفتي مواطنةً...

مفوض الشرطة: ما الذي يجري؟ تعم الفوضى المكان.

وي الصغيرة، تهمس: سيدي، لعلنا وقعنا على قضية مثيرة! (تُناول المفوض الملاحظات التي دوّنتها، يتصفحها برشاقة)، يتعلق الأمر على الأرجح بجرائم دعارة نسائية منظمة وخطف الأطفال والمتاجرة بهم.

شين الحاجب: حضرة المحترم باو، أنقذوا طفلي...

مفوض الشرطة: حسنًا، أيتها المواطنة شين الحاجب، تلقيت شكواك، سأنقلها إلى المحترم باو، عودي الآن إلى منزلك وانتظري التطوّرات.

(تخرج شين الحاجب عن الخشبة)

وي الصغيرة: أيُّها القائد!

مفوض الشرطة: تسلّمتِ منصبك للتوّ، ولا تدركين الوضع. أصيبت هذه المرأة في حريق مصنع دونغلي للألعاب، وفقدت رشدها منذ عدة أعوام. تستحق أن نتعاطف معها، ولكن، على الرغم من نيّاتنا الحسنة، لا نستطيع مساعدتها بشيء.

وي الصغيرة: سيدي، ما رأيت...

مفوض الشرطة: ما الذي رأيته؟

وي الصغيرة: محرجة: يسيل الحليب على صدرها!

مفوض الشرطة: قد يكون عرقًا، أليس كذلك؟ وي الصغيرة، تسلّمتِ وظيفتك مجددًا، في مهنتنا، إذا أردنا التنبه للأمور، يجب ألاَّ نكون مفرطي الحساسية!

نهاية الفصل الثالث

الفصل الرابع

الديكور هو ديكور الفصل الثاني نفسه.

هاو اليدان الكبيرتان وكين هي يجلسان إلى طاولتهما، يشكلان أطفالًا.

يدخل خلسةً إلى المسرح رجل متوسّط السن. يرتدي بزة رمادية رثة، ربطة عنق حمراء، في جيب سترته قلم حبر، ويحمل تحت إبطه محفظة وثائق.

هاو اليدان الكبيرتان (من دون أن يرفع رأسه حتى): الشرغوف، أنتَ مجدّدًا؟

الشرغوف (بنبرة التملق): عمي هاو، فعلًا أنتَ شخص مذهل، بفضلِ حاسّة سمعك، تدرك حضوري.

هاو اليدان الكبيرتان: لا شأن لسمعي بالأمر، أنفي ينبئُني.

كين هي: حاسة شم الكلب أقوى بعشرة ألف مرّة من حاسة الإنسان.

هاو اليدان الكبيرتان: هكذا، بكل بساطة، تجرؤ على إهانتي!

كين هي: آه، أهنتُك إذًا؟ لم أقل إلّا أن حاسة شم الكلب تفوق حاسّة الإنسان!

هاو اليدان الكبيرتان: وتواصل إهانتي؟ (يشكِّل سريعًا الصلصال الذي بين يديه على صورة وجه كين هي، يعرضُ النتيجة على الأخير وعلى الشرغوف ثمَّ يرميها بقوةٍ على الأرض) سأسحقك بهذا الشكل، أيُّها القليل الحياء!

كين هي (لا يعترف بالهزيمة، يشكل بالصلصال رسم هاو اليدين الكبيرتين، يرفعه عاليًا ليراه الشرغوف، ثمّ يطرحه أرضًا): سأقضي عليك أيها الكلب!

الشرغوف: عمي هاو، عمي كين، دعا الغضب جانبًا، ما شكلتماه كان يمكن أن يُعدّ عملًا فنيًّا من الدرجة الأولى، مؤسف أنكما حطّمتماه!

هاو اليدان الكبيرتان: كفّ عن الثرثرة، وحاذر من أن أشكلك وأطرحك أرضًا!

الشرغوف: أرجوك أن تشكّل رسمي، ولكنْ لا تكسره. حين أنشر مسرحيتي، سأصوّر عملك ليكون الغلاف.

هاو اليدان الكبيرتان: قلت لك منذ زمن بعيد، تفضِّلُ عمتك أن تذهب وتراقب النمل وهو يتسلّق الأشجار على أن تحضر مسرحيتك النتنة.

كين هي: عليك أن تعتني بحقولك بدلًا من كتابة تلك المسرحية! إذا نجحتَ، فسآكلُ كرة الصلصال هذه.

الشرغوف (بتواضع): عمي هاو، عمي كين، عمتي كبرت في السن، لم تعد ترى جيدًا، لا أجرؤ على أن أطلب منها قراءتها، سأتلوها عليها، بصوت عالٍ، وعليكما أيضًا بالمناسبة نفسها. أنتما تعرفان

بالطبع أن كاو يو ولاو شي كانا يقصدان المسرح ليقرآ نصوصهما على الممثلين والمخرج.

هاو اليدان الكبيرتان: لكنك لستَ كاو يو، ولا لاو شي.

كين هي: ولسنا ممثلين، ولا مخرجين.

الشرغوف: ولكنكما من شخصيات مسرحيتي! لقد صرفتُ الكثير من الحبر لأظهركما على أفضل وجه، يحزنني ألا تسمعا ما كتبتُ عنكما. إن فعلتما، فسأعدّل المقاطع التي لا تعجبكما، قبل أداء المسرحية ونشر الكتاب، حينذاك، لن ينفع الندم. (فجأةً، تغدو نبرته مؤثرة)، صرفت كامل جهدي، طوال عشرةْ أعوام، لأؤلف تلك المسرحية، خسرت كلّ ما أملك، بعتُ حتى دعائم من سقف منزلي. (يداه على صدره، يسعل متألمًا عدة مرات). لأكتب تلك المسرحية، دخنت أسوأ أنواع السجائر، وحين عجزت عن شرائها، لففت ورق الصفيراء، أمضيتُ الليالي أرِقًا، أرهقت صحّتي، أفنيت حياتي، ولِمَ؟ مِن أجل الشهرة؟ بهدف الكسب المادي؟ (بصوتٍ حاد)، كلا! دفعتني محبتي للعمة، أردتُ أن أمجّد إنجازات أمّ كانتون دونغبي الحنون! إن لم تسمعاني أقرأ مسرَحيتي، فسأموت هنا، أمام ناظريكما!

هاو اليدان الكبيرتان: أتحاول إخافتنا؟ كيف تفكر أن تنتحر؟ شنقًا، أم بالسم؟

كين هي: لسماعك، أجدك مؤثرًا، من جهتي، أرغب في سماعك تتلوها.

هاو اليدان الكبيرتان: يمكنك قراءتها، ولكن ليس في منزلي.

الشرغوف: أولًا، هذا منزل عمتي، إذا اعترفت بذلك، يصبح منزلك بالتالي.

(تخرج العمة بصعوبة من الكهف)

العمة، ببلادة: مَنْ أتى على ذِكري؟

الشرغوف: عمتي، هذا أنا.

العمة: أعلم أنه أنت. ماذا أتيت تفعل هنا؟

الشرغوف (يسارع إلى فتح المحفظة، يُخرج منها رزمة أوراق، ويبدأ القراءة على عجلة): عمتي، هذا أنا، الشرغوف، من قرية الحَيّين، (يتبادل هاو اليدان الكبيرتان وكين هي النظر، متعجبين)، والدي هو يو بيشينغ، ووالدتي صن فوكسيا، أنا أحد «أطفال البطاطا الحلوة» أولئك وثاني طفل رأى النور على يديك. ساعدتِ كذلك على ولادة زوجتي تان يوي، اسم والدها تان جينهي، ووالدتها هوانغ يولينغ...

العمة: يكفي! ما إن أصبحتَ مؤلّفًا مسرحيًّا حتى غيّرتَ اسم عائلتك؟ هل بدّلت عمرك أيضًا؟ وأهلك؟ وقريتك؟ وزوجتك؟

(تتنقل العمة على الخشبة بين عشرات الأطفال المعلقين في الهواء. تشرد أحيانًا بأفكارها، مطأطئةً رأسها، أو تدق الأرض بقدميها وتضرب صدرها؛ فجأةً، تصفق أحد الأطفال على قفاه، فيبدأ بالبكاء. تضرب العمة الأولاد بالدور على مؤخراتهم، ليعلو نحيبهم جميعًا. وسط الصراخ، تنطلق العمة بمقطوعة لا تنتهي، فيما يخفت النحيب).

العمة: اسمعوني جيدًا يا «أطفال البطاطا الحلوة»، أنا مَنْ سحبتُكم

مِنْ حيث كنتم! أيُّها المضحكون الصغار، جميعكم أزهق طاقتي. مارست العمة تلك المهنة طوال خمسين عامًا، ولم تحظَ إلى اليوم بلحظة راحة. منذ خمسين عامًا، كَمْ وجبة ساخنة تناولَت؟ كم ليلةً كاملةً نامت؟ يداها ملطختان دمًا، جبينها يتصبّب عرقًا، نصف جسمها في الغائط، والنصف الآخر في البَوْل، هل ظننتم أنَّ مهنة طبيبة الريف النسائية سهلة؟ أيّ عتبةٍ لم أطأ من خمسة آلاف منزل وأكثر تقع في القرى الثماني عشرة من كانتون دونغبي؟ أي بطن أقهب من بطون أمهاتكم وزوجاتكم لم أرَ؟ أمّا آباؤكم الأوغاد، فأنا مَنْ أجرى لهم عملية قطع القناة الدافقة! بعضكم اليوم أصبحوا موظفين، جمع آخرون الثروات، يمكنكم أن تتجاسروا على رئيس المقاطعة، أن تتباهوا أمام العمدة، ولكنْ معي، تصرّفوا بتهذيب. حين أفكر في تلك الحقبة، أرى أنَّه كان يجب خصاء حتى آخر كلب ذكر من الرهط الذي كنتم، لكنتُ وفرت الكثير من الآلام على نسائكم. توقفوا عن الابتسامة الماجنة تلك، كونوا جدّيين! فالتخطيط الأسري يرتبط بالاقتصاد الوطني ورفاه الشعب، إنَّه من الأولويات. يمكنكم دومًا التكشير، إظهار أنيابكم، لن ينفع ذلك، إذا اقتضت الضرورة الإجهاض، أو الخصاء، فسينفّذان مهما كان الأمر. بين الرجال، لا يتمايز أحدهم عن الآخر، من قال ذلك؟ ألا تعلمون؟ وأنا كذلك لا أعرف. المهم أنه أصاب في قوله. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكننا الاستغناء عنكم. شاء اللّه أن تكون الأمور على هذه الحال حين خلق العالم: النمور، أو الأرانب البرّية، أو الصقور، أو عصافير الدوري، أو الذباب، أو البعوض... يكفي أن ينقص جنس واحد، ليختلف الكون. سمِعْتُ أنّه في غابات

أفريقيا العذراء، تعيش إحدى القبائل على الأشجار. بنوا أعشاشًا كثيرة، تبيض فيها النساء. حين تبيض المرأة، تجلس القرفصاء على أحد الأغصان، تأكل الفواكه البرية، فيما الرجل يغطي جسمه بأوراق كبيرة ويحضن البيض في العش. بعد سبعة أيّام، يكسر الأطفال رأس القشرة ويقفزون خارجها، وما إن يولدون، حتى يتقنوا تسلق الأشجار. أتصدقون ذلك؟ كلا؟ أنا، بلى. لقد ساعدتُ على وضع بيضةٍ بيديَّ هاتين، أكبر من كرة. وُضِعت أعلى الكانغ، لتُحضن خمسة عشر يومًا، وخرج منها بقفزة طفل مكتنز، أبيض، سُمّيَ دانشينغ، أي «المولود مِن بيضة». للأسف، تُوفي بالتهاب الدماغ. لو عاش، لكان اليوم في الأربعين، ولكان، من دون أدنى شك، أديبًا. حين بلغ عامه الأوَّل، أُخضِع لتقليد «خيار الأغراض»[1]. فحمل أوّلًا ريشة بين يديه. حين يغيب النمر[2] عن الجبل، يعلن القرد نفسه ملك الحيوانات، بعد موت «المولود من بيضة»، آن دورُك لتلعب بالريشة والحبر...

الشرغوف (مبديًا إعجابه الشديد): عمتي، تتكلمين حقًّا بفصاحة، لست خبيرة في الطب النسائي فحسب، بل تملكين أيضًا موهبة المؤلّف المسرحي! يُعَدُّ ما قلت ارتجالًا مقطوعة مذهلة!

العمة: ماذا تقصد بـ«ارتجال»؟ لا يخرج من فم العمة إلّا كلمات تمعّنت وفكرت فيها طويلًا. (تشير إلى الرزمة في يد الشرغوف)، هل تلك المسرحية التي كتبتَها؟

---

(١) تُقدم إلى الطفل كل أنواع الأغراض لمعرفة مستقبله عن طريق خياره.

(٢) لدى الصينيين، النمر هو ملك الحيوانات وليس الأسد.

الشرغوف (بتواضع واحترام): نعم.

العمة: ما عنوانها؟

الشرغوف: وا[1].

العمة: هل تفكر بعبارة «الضفدع» أم بعبارة «الطفل»[2]؟

الشرغوف: حاليًا، بالضفادع، ولكن يمكننا استبدال العنوان بكلمة «طفل»، وأن يحمل الجزء الثاني اسم نووا. خلقت نووا الكائنات البشرية، والضفدع رمز ذرّية ذكورية كثيرة التناسل، وهو طوْطم كانتون دونغبي، نجد أمثلة كثيرة تكرم الضفادع، مثل تماثيلنا الفخارية، والمنحوتات الخشبية، وغيرها.

العمة: وكأنك لا تعلم أن عمتك تخاف من الضفادع؟

الشرغوف: تهدف هذه المسرحية تحديدًا إلى تحليل أسباب خوف العمة. حين تقرئين هذه المسرحية ستُحلّ تلك العقدة ولن تخشي الضفادع بعد ذلك.

العمة، تمدّ يدها: في هذه الحال، أعطيني إيّاها.

(يعطيها الشرغوف الكتاب ممتثلًا لأمرها باحترام)

العمة: تتوجه بالحديث إلى كين هي وهاو اليدين الكبيرتين: من منكما سيحرق تلك السخافات؟

الشرغوف: عمتي، ذلك جنى عشرة أعوام من الجهد!

العمة (ترفع ذراعيها وتفلت ما بيدها، فتتناثر أوراق المؤلّف على

(١) عنوان هذا الكتاب في اللغة الصينية.

(٢) تُلفظ الكلمتان بالطريقة نفسها باللغة الصينية، لكنهما تختلفان كتابةً. مراجعة الملاحظة، ص ٢٨٨.

المسرح كلِّه): لستُ حتى بحاجة لأن أقرأ، يكفي أن أشمّ لأدرك أي ضِراط أطلقت ههنا! مع معرفتك المحدودة، أتظن أنك قادر على تحليل سبب خوف العمة من الضفادع؟

(يتنازع الشرغوف وكين هي وهاو اليدين الكبيرتين على لمِّ الأوراق المتناثرة على المسرح)

العمة (غارقة في ذكرياتها): يومَ رأيتَ النور، كانت العمة تغسل يديها على ضفة النهر، فرأت أسرابًا من الشراغيف تتدافع في الماء. كان عام قحط شديد، وفاق عدد الحشرات كمّية المياه. أوحى ذلك المشهد للعمة بسلسلة من الأفكار. نهايةً لن يتحول إلّا شرغوف واحد من أصل عشرة آلاف إلى ضفدع، ليعود معظمها طينًا. تلك الحقيقة تشبه إلى حدٍّ كبير الحيوان المنوي البشري، فمِن الكمّية الكبيرة الموجودة في المني، الأرجح أن واحدًا من عشرة ملايين سيتّحد بالبيضة لإنجاب جنين. رأت عمتك آنذاك أن هنالك روابط غامضة بين الشراغيف والخصوبة البشرية. وحين طلبت مني والدتُكَ أن أختار لك اسمًا، انطلقت كلمة «شرغوف» من فمي. فردَّت أمُّكَ: «إنَّه اسم جميل، نعم! الشرغوف، فالطفل الذي يحمل اسمًا متواضعًا كهذا، تسهل تربيته». الشرغوف، اسمك فأل خير!

الشرغوف: آه، شكرًا عمتي!

العمة: ومن ثمَّ، في «صحيفة الشعب»، عرضوا «وسيلة لمنع الحمل بواسطة الشراغيف»، حيث وصفوا للنساء أثناء فترة «الإباضة»، وقبل العلاقة الجنسية، تناول أربعة عشر شرغوفًا حيًّا لمنع الحمل. ولكنْ، لم تأتِ النتيجة كما كان متوقعًا، فولدت تلك النسوة ضفادع!

هاو اليدان الكبيرتان: توقفي عن الكلام، ستصابين مجددًا بالمرض.

العمة: ما الذي تقوله؟ من يمرض؟ لست سقيمةً، هم المرضى، أولئك الذين يأكلون الضفادع. أرسلوا جمعًا من النساء إلى ضفة النهر. قطعن رؤوس الضفادع بواسطة مقص، وقشرن جلدها كمن يخلع سروالًا. أفخاذها تشبه أفخاذ النساء. مذ ذاك، صرت أخشى الضفادع. أفخاذها... تشبه أفخاذ النساء...

كين هي: الذين أكلوا الضفادع عوقِبوا في نهاية المطاف، فالضفادع تحمل طفيليات، متى دخلت إلى العقل البشري، أصابت المريض بالعَتَه، لتُشبه حتى تعابير وجهه شكل الضفادع.

الشرغوف: هذا عنصر هام لحبكة المسرحية، الذين أكلوا الضفادع يتحوّلون جميعًا في النهاية إلى ضفدعيات، فيما العمة بطلة تحمي الضفادع.

العمّة (متألمة): كلا، لأنَّ يدَيْ العمة ملطختان بدماء الضفادع. عمتك الجاهلة للوضع، خدعتها الأخيرة، أَكلَت كبّةً مصنوعةً من لحمها المفروم. يشبه ذلك القصة التي أخبرني إيّاها أخو جدك عن الملك وِن من سلالة زو الذي تناول بالطريقة نفسها لحم ابنه. فرّ بعد ذلك من العاصمة زاوغي، أحنى رأسه إلى الأمام ليتقيأ بعض اللحم الذي، ما إن لمس الأرض، حتى تحوَّل إلى صيصان متلاحمة، والحالة هذه «اللحم» و«المتلاحمة» لهما الجذر نفسه[1]. عادت العمة ذلك اليوم، ومعدتها مقلوبة رأسًا على عقب، وبدا شيء مثل

---

(١) تتحول الكبّة إلى أرنب برّي في النسخة الأصلية باللغة الصينية، ولكن إذا تُرجمت حرفيًّا إلى العربية، يُفتقد التلاعب بالألفاظ (الجناس)، من هنا أتى خيار «صيصان متلاحمة».

نقيق يصعد من بطنها، شَعَرَت بانزعاج وغثيان؛ حين وَصَلَت إلى ضفة النهر، انحنت وتقيّأت أشياء صغيرة خضراء، تحوَّلت، لحظة لامَسَتِ المياه، إلى ضفادع...

(يخرج الولد الذي يرتدي مئزرًا أخضر على رأس رهط من الضفادع المعوقة. يصرخ الصبي: «ادفعي الدين! ادفعي الدين!». تطلقُ الضفادع من جهتها نقيقًا غاضبًا).

تصرخ **العمّة** من الخوف وتفقد رشدها.

يحضن **هاو** اليدان الكبيرتان العمة ويفرك خدَّيها.

يطرد **كين** هي الأولاد والضفادع معًا.

يجمع **الشرغوف** أوراق المسرحية واحدة تلو أُخرى)

الشرغوف (يُخرج من جيب سترته بطاقة دعوة ذات لون أحمر قانٍ):

عمتي، في الواقع، أعرف السبب الجوهري لخوفك من الضفادع. أعلمُ كذلك أنَّكِ حاولت في الأعوام الأخيرة، بشتى الوسائل، إصلاح ما تعتبرينه «أخطاءً». في الحقيقة، لم ترتكبي سوءًا، وتلك الضفادع المعوقة ليست إلّا أوهامًا كوّنتِها بنفسك في ذهنك. عمتي، بمساعدتِكِ، وُلد لي ابن. للاحتفال بذلك، أقيم مأدبة كبيرة أدعوكم إليها، العمة، (يلتفتُ نحو هاو وكين) وأنتما كذلك، يُسعدني أن تشرّفوني بحضوركم!

نهاية الفصل الرابع

الفصل الخامس

المساء، تسلط الإضاءة من زاوية مائلة، تغرق خشبة المسرح في نور ذهبي.

في زاوية من معبد الإلهة، وتحت دعامة ضخمة من الرواق المسقوق، يتقوقع شين الأنف وكلبه. يمكن أن يؤدّي ممثل دورَ الأخير. أمامهما طاسة حديد، فيها نقود وأموال ورقية، ووُضِعت عكازتان خشبيّتان قرب شين الأنف.

تدخل شين الحاجب إلى المسرح، ترتدي ثوبًا طويلًا أسود، يغطي وجهها برقع أسود كذلك، تبدو مثل شبح.

يتبعها رجلان، يرتديان الزيّ والبرقع نفسيهما.

شين الحاجب: تنوح: بُني... بُنَيّ.... أين أنت؟ بُنيّ... أين أنت؟

(يدنو منها الرجلان اللذان يلبسان الأسود)

شين الحاجب: مَنْ تكونان؟ لِمَ ترتديان الأسود وتخفيان وجهيكما مثلي؟ آه، فهمت، أنتما كذلك من ضحايا الحريق...

الرجل الأول باللباس الأسود: ذلك صحيح، نحن أيضًا ضحيتاه.

شين الحاجب، مستدركةً الأمر: ولكنْ لا، لَمْ يُصَب في الحريق إلّا العاملات، وجليّ أنكما رجلان.

الرجل الثاني باللباس الأسود: نحن ضحيّتا حريق آخر.

شين الحاجب: في هذه الحال، أرثي لوضعكما...

الرجل الأول باللباس الأسود: آه، نعم، حالنا يُرثى لها...

شين الحاجب: تتألمان...

الرجل الثاني باللباس الأسود: نعم، كثيرًا...

شين الحاجب: زرعوا لكما جلدًا؟

الرجل الأول باللباس الأسود (لم يفهم): عن أي جلدٍ تتكلمين؟

شين الحاجب: يأخذون الجلد عن الردفين، والفخذين، والأماكن غير المصابة من الجسم لوضعها في الأماكن المحروقة، لم يفعلوا لكما ذلك؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: بلى، بلى، أخذ الأطباء جلد ردفينا وألصقوه على وجهينا...

شين الحاجب: وزرعوا لكما حاجبين؟

الرجل الأول باللباس الأسود: نعم، نعم.

شين الحاجب: استخدموا شعر الرأس أم شعر العانة؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: ماذا؟ يُمكن استعمال شعر العانة مكان الحاجبين؟

شين الحاجب: إن كان جلد الرأس محروقًا بالكامل، لا يبقى خيار إلا باستخدام شعر العانة، فذلك أفضل من لا شيء، وإلا ظل الشخص أجردَ مثل ضفدع.

الرجل الأول باللباس الأسود: ذلك صحيح، لا شعر لنا، ونحن أملس من الضفادع.

شين الحاجب: هل نظرتما في المرآة؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: أبدًا.

شين الحاجب: أكثر ما نخشى، نحن المحروقين، النظر في المرآة. أكثر ما يرعبنا، المرايا.

الرجل الأول باللباس الأسود: نعم، وحين نرى إحداها، نكسرها.

شين الحاجب: ذلك لا ينفع، يمكنكما كسر المرايا، ولكن ليس بمقدوركما تدمير واجهات المحالّ، وبلاط الرخام، ولا الماء الذي يعكس صورتكما، وأقل من ذلك تلك العيون التي تلاحقنا. عند رؤيتنا، يصرخ الناس هلعًا، يهربون منا، ويبكي الأطفال من شدة الخوف. يلقبوننا بالأبالسة، بالمسوخ، تُعدُّ عيون الناس آلاف المرايا بالنسبة لنا، لذا لا يمكن كسرها كلها، ويبقى وسيلتَنا الوحيدةَ قناعٌ يخبّئ وجهنا.

الرجل الثاني باللباس الأسود: نعم، نعم، نعم، لذا نخفيه ببرقع أسود.

شين الحاجب: هل خطر لكما الانتحار؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: نحن...

شين الحاجب: كما عرفت، خمسٌ من شقيقاتي في سوء الطالع انتحرنَ إلى اليوم، بعد أن نظرنَ في المرآة...

الرجل الأول باللباس الأسود: ضحايا المرايا!

الرجل الثاني باللباس الأسود: لهذا السبب نكسر كل المرايا التي نصادفها.

شين الحاجب: بدايةً، أردتُ أن أقتل نفسي، لكنني تخطيتُ الأمر لاحقًا...

الرجل الأول باللباس الأسود: الحياة جميلة، الأفضل أن نحياها بدلًا من الموت، مهما كانت الميتة حسنة.

شين الحاجب: حين حملت، وشعرت بذلك الولد يتحرك داخلي، لم أعد أرغب في الموت. أحسست أنني شرنقة شنيعة تنمو فيها حياة صغيرة حلوة، وقلت في نفسي، حين تُكسر، لن أكون سوى قشرة خاوية.

الرجل الثاني باللباس الأسود: أحسنتِ التعبير!

شين الحاجب: حين ولدتُ الطفل، لم أغدُ غشاءً فارغًا محكومًا عليه أن يختفي بنفسه، شعرت بأنني أعيش بحيوية، لم أيبس أو أتحطم، بل على العكس، انبعثت من جديد. صارت بشرتي المشدودة طريّةً، رطبة، اكتنز ثدياي حليبًا... تلك الولادة أمدّتني بحياة جديدة... لكنهم أخذوا ولدي...

الرجل الأول باللباس الأسود: اتبعينا، نعرف مكانه.

شين الحاجب: تعرفان مكان ابني؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: بحثنا عنك لنساعدك ونقودك إليه.

شين الحاجب، منفعلة: أشكرُ السماء والأرض، بسرعةٍ قوداني إليه، خذاني لأرى ابني...

(يستعد الرجلان باللباس الأسود للخروج من المسرح، ممسكين بشين الحاجب).

يقفز كلب شين الأنف على الرغم من قائمته الكسيحة، ويعضّ قدم الرجل الأول اليسرى.

يهبّ شين الأنف بدوره، يلتقط عكّازتيه، يتقدم قافزًا متكئًا على عكازة، فيما ينهال بالأخرى ضربًا على الرجل الثاني.

يفلت الرجلان من قبضة شين الأنف وكلبه ويتراجعان إلى جهة من المسرح، ويلمع في يديهما سلاح قاتل يبدو أنَّه خنجر. يقف شين الأنف وكلبه من الجهة الأخرى. تقف شين الحاجب على مقدمة الخشبة، مؤلفةً معهم شكل مثلث).

شين الأنف (يصيح): دعا ابنتي بسلام!

الرجل الأول باللباس الأسود: أيُّها الرجعي، ماذا تنتظر لتموت؟ أيُّها السكّير، المشرّد، المتسوّل، وتجرؤ على أن تدّعي أنها ابنتك؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: تقول إنَّها ابنتك؟ نادِها لنرى إن كانت سترد عليك.

شين الأنف: الحاجب... ابنتي المسكينة!

شين الحاجب، غير مبالية: لعلّك أخطأت بالشخص؟ بالتأكيد.

شين الأنف، بحزن شديد: الحاجب، أعرف أنَّكِ تحقدين عليّ، والدك

لا يليق بكِ، ولا بشقيقتك، ولا بوالدتك، لقد آذيتكم، والدك مجرم، كارثة، ميت ـ حيّ...

الرجل الأول باللباس الأسود: آه، آه، تشعر بالندم؟ هل هنالك كنيسة في المكان؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: عليكَ أن تمشي عشرات الكيلومترات باتجاه الغرب، على طول النهر، هنالك كنيسة كاثوليكية رُمِّمت أخيرًا.

شين الأنف: الحاجب، والدك يعرف أنَّك وقعتِ في الفخ الذي نصبوه لك، مَنْ استغلّوكِ هم أصدقائي القدامى، سأساعدك على التماس العدالة.

الرجل الأول باللباس الأسود: يا لكَ من عجوز أبله، تنحَّ جانبًا.

الرجل الثاني باللباس الأسود: أيتها الشابة، اتبعينا، نؤكد لكِ أنَّكِ سترين ابنك.

(تسير شين الحاجب نحو الرجلين، يتقدم شين الأنف وكلبه ليعترضا طريقها).

شين الحاجب، ساخطةً: من تكون أنت؟ بأيّ حق تعترض سبيلي؟ أريد أن أذهب وأرى ابني، إن لم تكن تعلم. لم يرضع طفلي مذ ولدته، إنْ لم أفعل فسيموت من الجوع، أتعرف ذلك؟

شين الأنف: الحاجب، تكرهينني، وأتفهّم ذلك؛ أتقبل ألّا تعدّيني والدكِ. ولكن، لا يمكنكِ مرافقتهما، لقد باعا طفلكِ، إذا تبعتهما، فسيدفعانكِ إلى النهر ويغرقانِك، سيدّعيان أنَّكِ انتحرتِ. فعلا ذلك مرّات كثيرة...

الرجل الثاني باللباس الأسود: أيُّها المختل العجوز، عشتَ على هذه الأرض طويلًا، كيف تشكّك بتلك الطريقة في نزاهة الناس؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: عمَّ تتحدّث هنا؟ كيف يمكن أن تُرتكب جرائم بشعة من هذا النوع في مجتمع مثل مجتمعنا؟

الرجل الأول باللباس الأسود: هل شاهدتَ الكثير من أفلام الفيديو في المحالّ على جانبي الطريق؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: وتراوِدُكَ الكوابيس بسببها.

الرجل الأول باللباس الأسود: وترى الرأسمالية في الاشتراكية.

الرجل الثاني باللباس الأسود: وتخلط بين الصالحين والطالحين.

الرجل الأول باللباس الأسود: وترى القلوب الطيّبة قلوبًا يملأها الحقد.

شين الأنف: ولكنْ، لطالما امتلأت قلوبكم بغضًا مثل الحمير، أنتم يخنة بقر، قيء هررة وكلاب، حثالة المجتمع، سفلة الناس...

الرجل الثاني باللباس الأسود: هكذا إذًا، تشتمنا مدّعيًا أننا حثالة المجتمع، سفلة الناس؟ أنتَ الخنزير الذي يبحث عن زاده في القمامة، أتعلم ما نقوم به؟

شين الأنف: طبعًا أعرف، وليس ما تفعلون اليوم وحسب، بل ما قمتم به كذلك.

الرجل الأول باللباس الأسود: أرى أنَّ من واجبنا أنْ ندعوك إلى الاغتسال في مياه النهر المجلدة؟

الرجل الثاني باللباس الأسود: وغدًا صباحًا، الذين يأتون من أجلِ حرق البخور وتعليق سلسلة في عنقِ طفلٍ صلصالي، سيكتشفون أنَ

المتسول العجوز على باب المعبد اختفى، كما كلبه الأعرج.

الرجل الأول باللباس الأسود: ولن يهتم أحد لذلك.

(يتصارع الرجلان مع شين الأنف وكلبه. يقضيان على الكلب، ويطرحان شين الأنف أرضًا. في اللحظة التي يهمّان فيها بطعنه، ترفع شين الحاجب البرقع، فيظهر وجهها المنفر، المرعب، وتطلق صرخةً مدوّيةً، شيطانية، ما يثير هلع الرجلين، فيتركان شين الأنف ويهربان)

نهاية الفصل الخامس

الفصل السادس

تُفتح الستارة على طاولةٍ كبيرة مستديرة، وسط فناء مزرعةٍ، صُفّت عليها الأكواب والصحون. يُقرأ في الديكور في خلفية المشهد: «مأدبة كبيرة للاحتفال بشهر على ولادة الطفل الذهبي».

يقف الشرغوف على مقدمة الخشبة، يستقبل المدعوّين الآتين للتهنئة. يرتدي تماهيًا مع سلالة تانغ زيًّا من ساتان الحرير طُرِّز عليه رمزا «السعادة» و«طول العمر».

لي اليد، ويوان الخدّ، رفيقا الشرغوف في المدرسة الابتدائية، كما ابن خاله وشخصيات أُخرى، يدخلون إلى المسرح واحدًا تلو الآخر، ويردّدون عبارات المجاملة والمباركة نفسها.

تصعد العمة بوقار إلى الخشبة، تلبس ثوبًا أحمر داكنًا طويلاً، يرافقها هاو اليدان الكبيرتان وكين هي.

الشرغوف (فرِحًا): عمتي، ها قد جئتِ أخيرًا.

العمة: شهدت عائلة وان ولادة وريث نبيل ولا آتي؟

الشرغوف: إذا وُلِد طفلٌ ذهبي في آل وان، فالفضل يعود أوَّلًا للعمة!

العمة: هيّا، لا تبالغ في تبجيلي. (تُلقي نظرةً على المدعوّين، وتقول ضاحكةً) جميعُهم، من دون استثناء (لا يفهم الجمع ما تقول، فتشير إلى هاو اليدين الكبيرتين وكين هي، وتضيف)، ما عداهما، ولدتكم جميعًا بهاتين اليدين أيُّها الزعران. أعرفُ أدنى شامةٍ على بطون أمهاتكم. (تضحك المجموعة)، ماذا، ألم تدعُ ضيوفك بعد للجلوس إلى المائدة؟

الشرغوف: لم يجرؤ أحدهم على القيام بذلك قبل أن تصلي.

العمة: ووالدك؟ ناده ليأتي ويجلس على رأس الطاولة.

الشرغوف: أبي مريض، قصد بيت شقيقتي الكبرى لينعم بالهدوء وطلب أن تجلسي مكانه.

العمة: لا يمكنني إلّا أن أرضخ في هذه الحال.

الجمع: لكِ مكان الشرف، لكِ مكان الشرف.

العمة: الشرغوف، تخَطّيْتَ والأسد الصغير الخمسين، وعلى الرغم من ذلك، وعلى غير انتظار، ولدتما ابنًا ظريفًا، وإن لم تستطيعا المطالبة بإدراج ذلك في كتاب غينيس للأرقام القياسية ـ اسمه غينيس، أليس كذلك؟ ـ أشهدُ مع ذلك أنني طوال الخمسين عامًا لممارستي مهنة الطب النسائي لم أعرف وضعًا مماثلًا، لذا يجب اعتبار ذلك فرحًا عظيمًا!

الشرغوف: يعود الفضل في ذلك إلى علاج العمة السحري!

العمة، متنهّدةً: كانت العمة في شبابها مادّيةً قلبًا وقالبًا، باتت مع تقدّمها في السن مثاليةً أكثر فأكثر.

لي اليد: في تاريخ الفلسفة، يجب أن نحفظَ مكانًا للمثالية.

العمة: يمكن الجزم، الأمر ليس نفسه بين مَنْ تلقّى علومًا ومَنْ لم يفعل.

يوان الخدّ: جميعنا فلّاحون: المادّية، المثالية، كل ذلك لا يهمّنا.

العمة: لسنا أكيدين من وجود الأرواح في هذا العالم، لكنَّ المكافأة الملائمة، بلى، إنَّها موجودة. إذا استطاع الشرغوف والأسد الصغير أن يُرزقا بطفل وقد تجاوزا الخمسين، فذلك يعني أن عائلة وان العريقة راكمت فضائل عالية بفضل الأجيال السابقة.

ابن الخال الشاب: ويجب ألّا ننسى علاج العمة.

العمة: مَنْ يملك قلبًا صادقًا ينجح في كل شيء. (تتوجه إلى الشرغوف)، لطالما عاشت والدتك في شحّ، أمّا أنتم ومَن هم من جيلكم، فتحْيَون جيدًا، تملكون المال، يجب استغلال هذا الحدث السعيد لتغيير نمط حياة العائلة، إظهار المزيد من الجود!

الشرغوف: اطمئني عمتي. إن كنّا لا نأكل حوافر الجِمال أو أقدام الدببة، فموائدنا لا تخلو من الدجاج، والبط ولحوم أُخرى، فضلًا عن السمك، لا ينقصنا شيء.

العمة (تنظر إلى الأطباق على الطاولة): سبعة صحون، ثمانية أكواب. يبدو العدد صحيحًا. والكحول؟ ما الكحول الذي سنشربه؟

الشرغوف (يُخرج من صندوق تحت الطاولة قنينتي ماوتي): سنشرب ماوتي.

العمة: أصليّ أم مقلد؟

الشرغوف: حصلتُ عليه بواسطة ليو غيفانغ، مديرة مركز الاستقبال في البلدية، أكّدت لي أنَّه أصليّ.

لي اليد: إنَّها إحدى رفيقات صفنا القديمات.

يوان الخدّ: بالضبط، الأكثر مكرًا هم رفقاء الصف القدامى.

العمة: آه! إنَّها ابنة ليو باوفو الثانية، من قرية ليو، طفلة أُخرى رأت النور على يدي.

الشرغوف: ذكَّرتُها عمدًا بذلك، فتأثّرت كثيرًا، وأخرجت الكحول من الخزنة.

العمة: ولذلك، أعتقد أنَّها لم تختر لي كحولًا مغشوشًا.

(يفتح الشرغوف القنينة ويطلب من العمة تذوّق محتواها وإبداء رأيها)

العمة: إنه لذيذ، أصليّ، مئة في المئة. هيّا، املأوا كؤوسكم!

(يسكب الشرَّغوف المشروب للجميع)

العمة: حسنًا، بما أنني ضيفة الشرف، سأبدأ برفع الأنخاب... نشرب الكأس الأولى لشكر الحزب على إدارته المتميّزة، فسمح لنا جميعًا بالخروج من الفقر المدقع والوصول إلى الثراء، بتحرير أرواحنا، وعيش حياة أفضل؛ لولاه، لما حظينا بكل تلك الأحداث السعيدة. بمقدور كل منكم أن يميّز ذلك، ألست محقة؟

(يوافق الجميع)

العمة: إذًا، كأسكم مقفّاة!

(يشرب الجميع الكأس بجرعة واحدة)

العمة: أرفع النخب الثاني لشكر أرواح أمواتنا الصالحين من عائلة وان، الذين راكموا على مرّ الأجيال فضائل عظيمة، وسمحوا بذلك لذرّيتهم بأن تعرف الهناء.

(ويشرب الجميع مجددًا الكأس بجرعة واحدة)

العمة: أصِلُ مع النخب الثالث إلى صلب الموضوع، أهنّئ الشرغوف والأسد الصغير، الزوجين المتحدين، على ولادة طفلهما في سنّهما المتقدّمة هذه، وأتمنى لهما السعادة والرخاء.

(يرفع المدعوّون كؤوسهم، يردّدون التهاني، مثيرين الجلبة. تدخل ليو غيفانغ إلى المسرح أمام موظفين يحملان علبًا من الكرتون، ووراءهم مجموعة من الأشخاص، بينهم صحافية من التلفزيون ومصورة)

ليو غيفانغ: تهانيَّ، تهانيَّ الحارة!

الشرغوف: رفيقتنا العزيزة، كيف يحصل أنَّكِ أتيت؟

ليو غيفانغ: ولكنْ، أتيت لأشارككم نخب الفرحة! ماذا، ألستُ على الرحب والسعة؟ (تجول حول الطاولة لتتبادل السلام وعبارات المجاملة مع المدعوّين، وتسلِّم على العمة). عمتي، يبدو شبابك متجدّدًا!

العمة: تجدّد شبابي؟ أمسيت بالحري إبليسة عجوزًا، نعم!

الشرغوف: ظننتُ أنَّكِ لن تستجيبي للدعوة. ولكنْ، كان عليكِ أن تأتي ببساطة، لِمَ كل هذه الأغراض، لا بدّ كلفتك الكثير!

ليو كيفانغ: لكنني طباخة ماهرة، عن أيّ كلفة تتحدث؟ (تشير إلى

العلب)، قليت السمك، طهوت لحمًا بالهلام، وحضرت الخبز، صنعتُ كل ذلك بيدي، ويمكنكم الحكم على مواهبي. عمتي، جلبتُ لكِ، عربون احترام، قنينة ماوتي معتقة من خمسين عامًا.

العمة: ماوتي ذو خمسين عامًا، أمر ذو شأن حقًا، ليلة رأس السنة، العام الماضي، قدَّم لي أحد مسؤولي مدينة بينيان قنينة جلبتها كنّته، ما إن فتحناها، حتى عبقت الغرفة برائحة الكحول!

الشرغوف (متحرزًا): رفيقتنا العزيزة، لِمَ أتيتِ بكل هؤلاء الأشخاص؟

ليو غيفانغ (بعد أن جذبت نحوها الصحافية): غاو الصغيرة. نسيتُ أن أعرّفكم إليها، هي صحافية في القناة التابعة للتلفزيون البلدي، مسؤولة عن برنامج «وجوه من المجتمع»، ومنتجته. غاو الصغيرة، هذا العم الشرغوف، المؤلف المسرحي، الذي رُزِق ابنًا في سنّ متقدّمة، مما يُعدّ أمرًا مهمًا. وهذه الشخصية (تدفع الصحافية باتجاه العمة)، إنَّها أمّنا المنذورة لنا جميعًا في كانتون دونغبي، بمعنى آخر، الجميع، بغضّ النظر عن رتبتهم في ترتيب الأجيال، أكانوا شبابًا أم مسنين، يسمونها «العمة»، وجيلنا، والجيل الذي يلينا، وما بعده كذلك، رأينا النور على يديها.

العمة (ممسكةً بيد الصحافية): يا للشابة الجذابة، بمجرد النظر إليكِ، أدركُ كيف هما والداكِ. في ما مضى، عندما كانوا يبحثون عن زوج أو زوجة لأولادهم، كانوا يدققون أوَّلًا بمستوى العائلة إن كان مشرِّفًا، أقترحُ حاليًّا أن يهتمّوا بدايةً بالجينات، ومن ثمَّ بالطبقة الاجتماعية. يجب أن تكون الجينات سليمة لتنعم الأجيال اللاحقة بالصحة والذكاء، وإلّا، فعبثًا يحاولون.

الصحافية (تومئ إلى المصوّرة أن تبدأ بالتصوير): العمة مواكبة للعصر فعلًا.

العمة: تبالغين في القول، ببساطة، أنا على اتصال بأشخاص من مختلف المهن، وسمعتُ كلامًا مطابقًا للعرف الجاري.

الشرغوف (يهمس في أذن ليو غيفانغ): رفيقتي العزيزة، يجب ألّا تُنشر المسألة علنًا، أليس كذلك؟

ليو غيفانغ، بصوت منخفض: ستصبح غاو الصغيرة كنتنا، ويجب مساعدتها، لأنَّ المنافسة في التلفزيون على أشدّها، والجميع يتنازعون على الأخبار، والمواد والأفكار.

الصحافية: أيّتها العمة، أتعتقدين أن البروفسور تيتار وزوجته استطاعا أن ينجبا ابنًا في سنّ متقدّمة بفضل جودة جيناتهما؟

العمة: آه، طبعًا، كلاهما جيناتهما جيدة.

الصحافية: وبرأيك، جينات مَنْ أفضل، الشرغوف أم زوجته؟

العمة: قبل أن تطرحي عليّ هذا السؤال، يجب أن تحاولي أوّلًا أن تفهمي ما معنى الجينات.

الصحافية: في هذه الحال، أيمكنكِ أن تشرحي لمشاهدينا، بلغة واضحة ومقتضبة، ما هي الجينات؟

العمة: ما هي الجينات؟ هي أجَلُ العمر الممنوح لكل فرد! نعم، تلك هي، إنّها القضاء والقدر!

الصحافية: القضاء والقدر؟

العمة: لا تمسّ الذبابة البيضة التي لا تكون متشققة، أتدركين ذلك؟

الصحافية: نعم.

العمة: أصحاب الجينات السيئة يشبهون البيض المتشقّق قبل الإباضة. فهمتِ الآن، أليس كذلك؟

ليو غيفانغ: غاو الصغيرة، لندع العمة تشرب وتتنفس قليلًا، قابلي بدايةً العم الشرغوف. وإليكِ العم يوان الخدّ، والعم لي اليد، جميعنا رفاق منذ المدرسة، وجميعهم متمرّس في مسألة الجينات تلك، يمكنكِ مقابلتهم واحدًا تلو الآخر. (تسكب كحولًا للعمة)، أدعو للعمة بالصحّة وطول العمر، فلتحمي دومًا أطفال كانتون دونغبي!

الصحافية: العم الشرغوف، أعرف أنَّك من مواليد العام ١٩٥٣ وقد بلغت الخامسة والخمسين؛ في أريافنا، يكون الأشخاص في هذا العمر أجدادًا، ولكن وُلد لكَ أخيرًا ابن، أودّ أن تخبرنا عمّا تشعر به.

الشرغوف: الشهر الماضي، البروفسور لي من جامعة كيدونغ، البالغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا، حمل ابنه الذي أتمَّ شهره الأوَّل وعاد في المستشفى والده الذي تخطى المئة عام وثلاثة أعوام، ألم تطالعي الخبر؟

الصحافية: بلى، بلى.

الشرغوف: لرجلٍ في الخمسين، أجدُ أنني في أفضل طاقاتي، الموضوع الشائك هو المرأة.

الصحافية: هل يمكننا مقابلة زوجتك؟

الشرغوف: إنَّها ترتاح، ستأتي بعد قليل لتشرب الأنخاب مع الجميع.

الصحافية (تُدير المذياع نحو يوان الخدّ): المدير يوان، حين رأيت أن

البروفسور الشرغوف ولد ابنًا، ألم تقفز وتفرح وتتحرق رغبةً لتجربة الاختبار بدورِكَ؟

يوان الخدّ: اسمعوا هذا! «قفزتَ وفرحتَ وتحرّقتَ رغبةً لاختبار الأمر»! نعم، قفزت وهللت، لكنني لا أنوي اختبار شيء. لا بد أنَّ جيناتي ليست ذات جودة عالية لأنني ولدت ابنين لا يمكن تحمّلهما. وإذا رزقت بثالث، أتوقع ألّا يكون أفضل منهما. ثمَّ إنّ نصفي الآخر مثل أرضٍ يابسة، أن أزرع شجرةً في هذه الظروف، يعني أن أحظى بعود يابس بعد ثلاثة أيام.

لي اليد: باستطاعتك طلب مساعدة «امرأة ثانية».

يوان الخدّ: يا صديقي العزيز، كيف يمكنك أن تقول أمرًا من هذا القبيل في هذه السن؟ جميعنا أشخاص نزيهون، أخلاقنا رفيعة، من يأتي بعملٍ مخزٍ إلى هذا الحد؟

لي اليد: آه، ذلك فعل شائن؟ إنها الموضة، الاتجاه السائد، الأمر يحسِّن الجينات ويسمح بمساعدة الفقراء والضعفاء، ويحفز الرغبات الدفينة.

يوان الخدّ: توقف عن الكلام، إذا بُثَّ الشريط، فستتعرّض للملاحقة، أليس كذلك؟

لي اليد: اسألهما، هل تجرؤان على بثه؟

الصحافية (تضحك من دون أن تجيب، تستدير نحو العمة وتسألها): أيّتها العمة، سمعتُ أنَّكِ ابتكرتِ علاجًا سحريًا للفتوّة، يسمح للنساء اللواتي بلغن سن اليأس بأن يستعدن شبابهن؟

العمة: يروي الكثيرون أنَّه بفضل ذلك العلاج أيضًا تغيّر جنس الجنين في بطن أمه، هل تصدقون أنتم أيضًا أمورًا كتلك؟

الصحافية: ربما من الأفضل أن نصدّق على ألّا نفعل.

العمة: توجد الأرواح منذ اللحظة التي نؤمن بها، إن لم نفعل، تبقَ مجرد تماثيل صلصالية. ذلك ما يعتقده الناس.

الشرغوف: غاو الصغيرة، اجلسي وصديقتك واشربا معنا، يمكنكما لاحقًا متابعة المقابلة. ما رأيكما؟

الصحافية: اشربوا أنتم، تصرّفوا كأننا لسنا هنا.

لي اليد: لكنكما هنا تجولان بيننا، كيف ندّعي أنكما غير موجودتين؟

الصحافية: عليكم... ألّا تَعدّونا كائنات بشرية، تصرفوا وكأننا... ما تشاؤون!

يوان الخدّ: غيفانغ، رفيقتنا العزيزة، حين أتذكر الماضي الجميل، أجد أنَّك كنتِ معبودتي، لذا لا بدّ من أن أشرب نخبك!

ليو غيفانغ (ترفع كأسها وتدق كأس يوان الخدّ): أتمنى أنْ تحقق مؤسسة رفيقي القديم لتربية الضفادع الثيران النجاح والازدهار، وأن يرى النور قريبًا «علاجك لحماية بشرة الجميلات».

يوان الخدّ: لا تغيّري الموضوع، يجب أن أقول لك إلى أيّ درجة كنت مغرمًا بك.

ليو غيفانغ: لا تتصرّف كالأبله، وتحاول أن تخدعني. ليس سرًا على أحد أنّه في مؤسسة الضفادع الثيران للمدير يوان الخدّ، الفتيات الحسناوات متوافرات بكثرة!

الصحافية (تستغل مناسبة الهدوء تلك لتتحدّث في المذياع): أعزائي المشاهدين، في حلقة «وجوه من المجتمع» لليوم، سنعرض عليكم حدثًا سعيدًا جرى في كانتون دونغبي. المؤلف المسرحي الشهير الشرغوف، الذي عاد إلى الديار بعد حصوله على التقاعد للانصراف إلى التأليف، وزوجته الأسد الصغير، وكلاهما تخطى الخمسين، شهدا على الرغم من ذلك تكوّن لؤلؤة الفرح سرًّا من جديد. وُلد لهما، الشهر الماضي، ابن جميل، يزخر بالحيوية والصحة...

العمة: يجب أن يرى الآن المدعوّون الطفل!

(يخرج الشرغوف من المسرح راكضًا)

ليو غيفانغ (تُحملق بيوان الخدّ وتقول له همسًا): توقف عن قول الحماقات، العمة غير راضية.

(يدخل الشرغوف ممسكًا بالأسد الصغير. لفَّت الأخيرة رأسها بمنشفة، وحملت طفلًا مقمّطًا.

تُسرع المصوّرة وتبدأ بالتصوير.

يُصفق الحشد ويعبِّر عن تهانيه)

الشرغوف: تعالي، لتراه العمة أوَّلًا.

(تتقدم الأسد الصغير وتقف أمام العمة. ترفع الأخيرة القماط وتنظر إلى الطفل)

العمة (تتنهد، متأثرة): يا له من طفل جميل، نعم، جيناته ممتازة، أسارير وجهه متناسقة، لو وُلِدَ في زمن النظام الإقطاعي، لنجح في امتحانات الحاكمية وحلَّ أوّل!

لي اليد: ما كان ليتوقف عن هذا الحد، لعله أصبح إمبراطورًا حتى!

العمة: نستطيع أن نزايد قدر ما نشاء، نحن الاثنين.

الصحافية (تضع المذياع أمام العمة): العمة، أنت ساعدتِ في توليد هذا الطفل، أليس كذلك؟

العمة (تدسُّ مغلفًا أحمر في الأقمطة، يحاول الشرغوف والأسد الصغير ردعها، فتومئ بيدها): تلك هي العادة، أنا عمته، أملك المال. (تتوجه بالحديث إلى الصحافية)، ذلك لأنهما يثقان بي. تخطت الأسد الصغير سن الإنجاب، شقَّ عليها الأمر. اقترحت عليها أن تقصد المستشفى من أجلِ «قص البطيخة»، فرفضت أن تخضع لولادة قيصرية. دعمتها العمة في موقفها، فالمرأة لا تشعر بأنوثتها إلّا حين تلد بالطرق الطبيعية، وبذلك تُدرك كيف تكون أمًّا!

(فيما انصرفت العمة إلى المقابلة، جالت الأسد الصغير والشرغوف على الحاضرين، تأملوا الطفل، ووضع كل منهم مظروفه الأحمر في الأقماط).

الصحافية: العمة، لا شك هو الطفل الأخير الذي ساعدتِ على وضعه؟

العمة: أتظنين ذلك؟

الصحافية: يُقال إنّه إضافةً إلى نساء كانتون دونغبي اللواتي يحترمنك ويثقن بك، حتى النسوة من بينغدو وجياوزو كن يأتين إليكِ، هل ذلك صحيح؟

العمة: رأت العمة النور لتحيا حياةً صعبة.

الصحافية: سمعتُ كذلك أن يديك تملكان طاقة عجيبة، يكفي أن

تضعيهما على بطن الماخض ليخُفّ الألم الذي تشعر به، وبالتالي، يختفي قلقها وخوفها.

العمة: هكذا تنشأ الأساطير.

الصحافية: عمتي، مدّي يديكِ أرجوك، أريد أن أصوّرهما عن قرب.

العمة (بنبرةٍ ساخرة): «تحتاج الجماهير إلى الأساطير»! (تلتفت نحو الحاضرين)، أتعرفون مَنْ صاحب هذا القول؟

لي اليد: وفق النبرة، لا بدّ يعود إلى رجلٍ عظيم.

العمة: إنَّه مِنْ ابتكاري.

يوان الخدّ: ولكنْ، تُعدّ العمة تقريبًا شخصية بارزة.

ليو غيفانغ: كيف تقول «تقريبًا»، هي حقًا كذلك!

الصحافية (بنبرة رزينة): هاتان اليدان العاديتان وضعتا آلاف الأطفال...

العمة: وهاتان اليدان نفساهما أرسلتا إلى الجحيم آلاف الأجنة! (تشرب كأسها بجرعة واحدة)، يدا العمة ملطختان بنوعين من الدماء، أحدهما يعبق أريجًا، والآخر تنبعث منه رائحة نتنة.

ليو غيفانغ: العمة، أنتِ إنسان كامل حيّ في كانتون دونغبي، الإلهة التي تهب الأبناء، كلَّما تأمّلتُ تمثالها في المعبد، وجدتُ أنها تشبهك، أنَّكِ كنتِ مثالًا لها.

العمة (ثملة بعض الشيء ومشتتة الأفكار): تحتاج الجماهير الشعبية إلى القليل من الأساطير...

الصحافية (تتوجّه بالمذياع نحو الأسد الصغير): سيدتي، أتمنى عليكِ أن تعبّري لنا عن انطباعاتك.

الأسد الصغير: عمَّ يجب أن أتكلم؟

الصحافية: عمَّا تشائين، ما أحسستِ على سبيل المثال حين عرفتِ أنَّكِ حامل، ما شعرتِ به أثناء الحمل، لِمَ أصررتِ على أن تولدك العمة...

الأسد الصغير: حين أدركت أنني حامل، خُيِّل إليّ أنني أعيش حلمًا. كيف يمكن لامرأة تجاوزت الخمسين، انقطع حيضها قبل عامين، أن تحمل فجأةً؟ أمّا الحمل بحدّ ذاته، فقد أمضيته بين السعادة والقلق. شعرت بالفرح لأنني سأغدو أمًّا أخيرًا، عملتُ مع العمة عشرات الأعوام طبيبة توليد، ساعدتها في توليد عدد كبير من الأطفال، من دون أن أُنجب. ومَنْ لا ترزق طفلًا فليست امرأة كاملة، لا تستطيع أن ترفع جبينها في حضور زوجها، حاليًّا، صار ذلك من الماضي.

الصحافية: والخوف الذي شعرتِ به؟ ما الذي أقلقكِ؟

الأسد الصغير: خصوصًا سنّي المتقدّمة، خشيت أن ألِدَ طفلًا ضعيف البنية، ومن ثمَّ، توجّست من «قص البطيخة» إن عجزتُ عن التوليد طبيعيًّا. طبعًا، لحظة الولادة، ما إن وضعت العمة يديها على بطني، حتى زالت كل مخاوفي. لم يبقَ عليَّ إلّا أن أتبع إرشاداتها لتنتهي عملية الولادة.

العمة (بتأثيرٍ من الكحول): لقد غسلتُ الدم المنتن بدمٍ عطره زكيّ...

(يدخل شين الأنف إلى المسرح فجأةً، متّكئًا على عكازتيه)

شين الأنف: تحتفلون بالشهر الأول على ولادة حفيدي ولا تدعونني، أنا، جدّه لوالدته، لأشرب نخبًا، ألا يُعدّ ذلك وقاحةً؟

(يبدو الجمع بكامله مصعوقًا)

الشرغوف (مرتعبًا، قلقًا): صديقي العزيز، اعذرني، بصدق، نسيتك تمامًا، اعذرني...

شين الأنف (يُطلق ضحكةً هستيرية): وتسمّيني «صديقي العزيز»، ها ها! (مشيرًا بعكّازه إلى الطفل في حضن الأسد الصغير)، بالنظر إلى ما هو عليه، يجدر بك أن تجثو على ركبتيك، تطرق جبهتك في الأرض ثلاث مرّات وتتوجه إليَّ باعتباري «حميك»، أليس صحيحًا!

يوان الخدّ (يقترب ليُخرِج شين الأنف من المكان): صديقي شين، صديقي العزيز شين، هيّا بنا نذهب، سأصطحبك إلى مطعم «ملك أذُن البحر» لتسوية الأمر.

شين الأنف: ابتعد عنّي، أيها الوغد القليل الحياء، أتحسب أنَّك ستُطبق فمي بسمكك الوسخ وقريدسك العفن؟ يمكنكَ أن تبرع في هذا المضمار! اليوم، يوم فرح على شرف حفيدي، لن أذهب إلى أيّ مكانٍ آخر، سأبقى هنا لأشرب نخب السعادة! (يهوي على كرسيّ وينظر إلى العمة)، العمة، قلبك مرآة صافية، كل ما يتعلق بالولادات في كانتون دونغبي يخضع لسلطتك، تعرفين إن كانت «البذرة» لم تنمُ عند فلان، وإن لم تُنْبِتْ أرضُ علان عشبًا. تساعدينهم عندئذٍ على اقتراض «البذور»، واستخدام أفضل سماد، «تسرقين الدعائم

وتغيّرين الركائز»[1]، «تذهبين سرًا إلى شينكانغ»[2]، «تجتازين البحر فيما تخدعين السماء»[3]، «تُضَحّين بشجرة الخوخ كي تُنقذي شجرة الدراق»[4]، «تُطلقين سراح أحدهم لتَقبضي عليه بطريقة أفضل»[5]، «تستعيرين خنجرًا كي تقتلي»[6]... لقد اختبرتِ كل الخدع الحربية الست والثلاثين...

العمة: ولم تُطَبِّق أنتَ إلّا اثنتين منها: «تثير الجلبة في الشرق لتهجمَ من الغرب»[7]، و«الزيز الذهبي يتخلص من نسوله»[8]. كِدتَ في الماضي تخدعني. تلك الدماء النتنة التي لطخت يدي (تضعهما تحت أنفها وتشمهما)، أنتَ سبَّبت نصفها!

لي اليد (يصب الكحول لشين الأنف): العزيز شين، صديقي شين، دعنا نشرب، نرفع الأنخاب.

شين الأنف (يشرب الكأس بجرعة واحدة): يا رفيقي العزيز، أنتَ شخص نزيه. ساعدني على المطالبة بحقي.

---

(١) الخطتان الحربيتان الرقم ٢٥ و٣٦ المطبقتان لا في فن الحرب وحسب، بل كذلك في الدبلوماسية والصفقات التجارية. الكتيب الذي نُصَّ في عهد سلالة كينغ الحاكمة، عُثر عليه ونشر العام ١٩٤١. ويعني: حرمان العدوّ من الدعم من دون أن يلحظ ذلك.

(٢) الخطة الرقم ٨: خداع العدو بعملية إلهاء لمفاجأته لاحقًا.

(٣) الخطة الرقم ١: إخماد حذر العدو بعمل عمومي.

(٤) الخطة الرقم ١١: التضحية ببيدق من أجل تحقيق النصر.

(٥) الخطة الرقم ١٥.

(٦) الخطة الرقم ٣: استخدام أحدهم لإلحاق الضرر بآخر.

(٧) الخطة الرقم ٦.

(٨) الخطة الرقم ٢١: المناورة من دون تغيير المظهر الخارجي.

لي اليد (يقاطعه فيما يصب له كأس كحول كبيرة): وحدها السماء تعرف أين يكمن الحق! هيّا صديقي، دعنا ننطلق بأقصى سرعة!

شين الأنف: هل تريد أن تُثملني؟ تحاول أن تغلق فمي بالكحول، أنت مخطئ.

لي اليد: بالتأكيد إنني مخطئ، تتحمّل الكحول أكثر من أي شخص، وألف كأس **لا** تثملك. لكنَّ ما نتناوله اليوم، ماوتي أصلي، مؤسف ألّا تتذوّقه، أليس كذلك؟ هيا، نخبك!

شين الأنف (يُرجع رأسه إلى الوراء ويشرب بجرعةٍ واحدة كأسًا كبيرةً، فتنقطع أنفاسه، وتسيلُ دموعه): العمة، الشرغوف، الأسد الصغير، يوان الخدّ، جين كسيو، أنا شين الأنف، عانيت الكثير من الصعوبات حتى وصلتُ إلى ما أنا عليه، والأمر محزن! هل هنالك شخص أكثر مني تعاسة من بين الخمسة آلاف الذين تضمهم قرى كانتون دونغبي الثماني عشرة؟ هيّا، قولوا، هل هنالك أحد؟ لا، طبعًا، لا أحد أكثر بؤسًا مني. ولكنْ، جمعيكم تحالفتم كي تشاكسوني، أنا، المعوَّق. أتقبّل أن تُهينوني، لأنني أساسًا غير صالح، تفعلون ذلك عوَضَ السماء، لتعاقبوني على أفعالي! لكن كان يجب ألّا تسيئوا معاملة ابنتي! شين الحاجب، الطفلة التي رأيتموها تنمو، أجمل فتاة في كانتون دونغبي، كان يُفترض أن تتزوّج وأختها شين الأذن في البلاط، أن تغدوَا إمبراطورتين أو خليلتيْ إمبراطور، ولكنْ، حصل ما حصل... يجب ألّا ألوم إلّا نفسي... إنَّه العقاب المناسب... ابنتي حملَت طفلَكَ (يشير إلى الشرغوف غاضبًا)، كسبت ذلك المال لتدفع ثمن طبابتي، ولكنْ أنتم، رفاقي القدماء، أعمامها، المؤلف المسرحي، المدير الكبير، اختلقتم الأكاذيب، مَن يُصدِّق،

وادّعيتم أنَّ ابنها وُلِد ميتًا. حسمتم أربعين ألف يوان مِنْ أجرها كأمّ حامل... تعلو السماء رؤوسكم بثلاثة أقدام، وتراكم! آه أيتها السماء، لِمَ لا تفتحين عينيك وتشاهدين ما يجري؟ انظري ما يفعل أولئك الأشرار الذين يفرضون قوانينهم بطريقةٍ تعسفية... صديقتي الصحافية، صوِّري، سجّلي كلّ ذلك، كي تعلني الحقيقة على الملأ ويُدرك المجتمع ما يدور حوله...

ليو غيفانغ: صديقي شين، تتباهى بأنَّك تتحمّل الكحول، وها أنتَ ذا بعد كأسين تتفوّه بالترّهات.

شين الأنف: كم أنتِ حاذقة ليو كيفانغ، ما إن تغيّرت السلطة القضائية في مركز الاستقبال التابع للبلدية حتى بدَّلت آراءكِ وأصبحتِ مديرته، وتملكين حاليًّا المليارات. رجوتُكِ أن تجدي عملًا لابنتي، ولو في المطابخ، لكنَّكِ رفضتِ وادّعيت أن المؤسسة تخفض عدد الموظفين، ولا يمكنكِ إسداء هذا المعروف إليّ...

ليو كيفانغ: أعترف صديقي العزيز بأنني أخطأت بحق شين الحاجب، وأتحمّل المسؤولية، سأعولها وأؤمن احتياجاتها، هل يُرضيك ذلك؟

(يحاولُ يوان الخدّ، وجين كسيو والآخرون الإمساك بشين الأنف لإخراجه من المكان).

شين الأنف (متخبّطًا): لم أرَ حفيدي بعد. (يُخرِجُ من جيبه مغلفًا أحمر)، حفيدي العزيز، وإن كان جدُّك فقيرًا، لا يمكنه إلّا أن يقوم بواجباته، لذلك أعدَّ لكَ مظروفًا أحمر...

(يرافقُ يوان الخدّ، وجين كسيو والآخرون شين الأنف ويُخرجونه من

المكان. آنذاك، تدخل شين الحاجب إلى المسرح من ناحيةٍ أُخرى، تلبس فستانها الأسود الطويل، والبرقع الأسود يغطي وجهها.

عند رؤيتها، يُصاب جميع المدعوّين بالذهول، ويطبِقُ الصمت فجأةً على المكان)

شين الحاجب (تشُمُّ بطريقة مبالغ فيها، بهدوء بدايةً، ثمّ بصخب، أكثر فأكثر): ابني الحبيب، أشمُّ رائحتك العطرة، الحلوة، القويّة (مثل ضريرة، تمشي تحسّسًا إلى أن تقترب من الأسد الصغير، وفي الوقت نفسه، يعلو بكاء الطفل بين الأقماط). ولدي، طفلي الشجاع... مُذْ وُلِدْتَ، لم ترضع قطرة حليب، لقد جوَّعتُم طفلي...

(تنتزع شين الحاجب الطفل من يدي الأسد الصغير، وتهرول خارج المسرح. يتسمّر جميع الحضور للوهلة الأولى، مذعورين، متفاجئين)

الأسد الصغير (تمدُّ يديها، محبطةً): بُنَي، طفلي الغالي الحبيب...

(تُبادر الأسد الصغير للحاق بشين الحاجب، يتبعها الشرغوف والآخرون، تعُمّ الفوضى المسرح)

نهاية الفصل السادس

الفصل السابع

(في خلفية المشهد، يتغيَّر الديكور باستمرار. يظهر تارةً طريق يكتظ فيه المارة، وتارةً أُخرى سوق يتدافع فيها المشترون، وطورًا حديقة عامة. يتدرب البعض على رياضة تاي تشي، البعض الآخر يتنزه وعصافيره، وآخرون يعزفون على الكمان. تشير هذه التغيّرات في الخلفية إلى الأمكنة التي تقطعها شين الحاجب أثناء فرارها.

تركضُ حاملةً الطفل، بينما تتفوّه بعبارات غير مترابطة تتعلق بالطفل).

شين الحاجب: حبيبي... وجدتكَ أمُّكَ أخيرًا... لن تتخلّى عنكَ أبدًا...

(الأسد الصغير، والشرغوف، والآخرون يطاردونها)

الأسد الصغير: طفلي الغالي... بُنَيّ...

(تظهر أحيانًا على المسرح شين الحاجب، تركض وحيدة؛ تلتفت إلى الوراء فيما تعدو. أحيانًا أُخرى، تصيح بالناس على جانبي الطريق: «النجدة، أنقذوني، أنقذوا طفلي!»).

(وأحيانًا، تظهر الهاربة ومطاردوها في آن واحد على المسرح. تتلمّس شين الحاجب النجدة من المارّة: «أنقذونا!»، بينما الأسد الصغير والآخرون يصرخون في الناس أمامهم: «أوقفوها، أوقفوا سارقة الأطفال تلك! أوقفوا تلك المجنونة...»).

(تقع شين الحاجب، تقف، تتعثّر مجدّدًا، تنطرحُ أرضًا، تنهض من جديد).

(من رفعِ الستارة حتى إسدالها، يُسمع صوت حاد لعزف كمان ذي وترين، يختلطُ ببكاء الطفل).

نهاية الفصل السابع

الفصل الثامن

تصوير المسلسل التلفزيوني غاو مينغجيو.

يجسّد المشهد محكمة اليامن في المقاطعة في زمن جمهورية الصين. على الرغم من بعض الابتكارات، كل شيء مطابق لنظام الحكم القديم. عُلِقت في وسط القاعة لافتة، دُوِّن عليها أفقيًّا بأحرف عريضة: «العدل والشفافية». على جانبيها، رُفِعت كذلك عارضتان عموديًّا تحملان الرمزين التاليين: «هبّة هواء، وابلٌ من المطر، فسحة سماءٍ زرقاء»، و«نصفُ مثقفٍ، نصف جندي، نصف بربري». انتصب فوق الملفات حذاء ضخم.

ارتدى غاو مينغجيو بزة سوداء من طراز صن يات ـ سن، وضع قبعة، وتدلت على صدره من جيب سترته الداخلية سلسلة ساعةٍ فضّية. وقف على كل جانبٍ من المسرح موظفو اليامن؛ حملوا في أيديهم «عصيّ المياه والنار»[1]، لكنَّ هندامهم تغيَّر، لبسوا بزات صن يات ـ سن سوداء، ما يضفي عليهم مظهرًا مضحكًا.

(١) عصيّ يستخدمها جلاوزة اليامن، كان يُلوَّن نصفها بالأسود (لون الماء)، والنصف الآخر بالأحمر.

كل فريق المسلسل منهمك بالعمل، من المخرج، إلى التقنيين، والمصوّرين ومسجّلي الصوت.

المخرج: استعدوا، كل شخص إلى مكانه... نبدأ التصوير!

غاو مينغجيو (يمسك الحذاء من طرفه، ويدق به بقوة على الطاولة الطويلة والضيقة): آه، يا إلهي... كم هذا مُمِلّ! (يُغني)، مأمور المركز غاو يجلس في المحكمة، يدرس القضية الشائكة ~ ~ تتنازع سلالتا زانغ ووانغ على الأملاك ~ ~ آل زانغ على حق، وآل وانغ محقون كذلك ~ ~ وعليَّ أن أقرِر مَنْ على خطأ، ومَنْ على صواب ~ ~... أنا مأمور المركز، اسمي غاو، من عائلة مينغ ـ تيانجين، مولود في باودي، قاعدة القضاء التابعة لتيانجين، التحقتُ في شبابي بالجيش، وتبِعتُ الجنرال فينغ يوزيانغ[1] من الشمال إلى الجنوب، من ساحة معركةٍ إلى أُخرى؛ حققتُ إنجازات مرّاتٍ عدة، فولّاني الجنرال منصب رئيس الحرس. في أحد الأيام، فيما كان أحد مأموريَّ يتنزّه برفقة بنت هوى يرتدي نظّارة سوداء، رآه الجنرال، فلامَني لعدم تصرّفي بحزم مع جنودي. شعرتُ، أنا غاو، بخزي عظيم، وأحسستُ في أعماقي بأنني لم أكن على مستوى المسؤولية التي أوكلها إليّ الجنرال، ولذلك، استقلتُ من منصبي وعُدْتُ إلى دياري. في السنة التاسعة عشرة للجمهورية (١٩٣٠)، زارني أخي الأكبر، وابن بلدي، ورفيقي في السلاح هان فوجو الذي كان يحكم شاندونغ، مراتٍ ثلاثًا في منزلي المتواضع[2]،

(١) يُلقب بـ «الجنرال المسيحي» (١٨٨٠-١٩٤٨). في العام ١٩٣٠، تحالف مع يان شيشان، أحد أمراء الحرب، ضد شيانغ كاي ـ شيك.

(٢) ليو بي، في زمن الممالك الثلاث (العام ٢٠٧)، قصد ثلاث مرات كوخ زوج ليانغ، المخطط الحربي الحذق، ليطلب مساعدته في استرجاع الإمبراطورية.

ليطلُب مني أنا، غاو، الخروج من عزلتي؛ صَعُبَ عليَّ أن أرفض شهادة التقدير تلك التي تنمّ عن صداقة عميقة. ذهبتُ إل شاندونغ لأتولى منصبي، فكُنتُ بدايةً عضوًا في المجلسِ الإقليمي، ثمّ أصبحت مأمور مركز في بينغوان وكوفو على التوالي، وأُحِلْتُ هذا الربيع إلى غاومي. هنا، الناس عنيدون وماكرون، يعيث السارقون فسادًا، تزدهر ألعاب القمار، تسبّب السموم والأفيون الضرر، ووضع الأمن العام كارثي. أنا، غاو، بعد تسلمي مهامي، ضربتُ بيدٍ من حديد، وقررتُ أن أُحقق الإصلاحات، وأضع حدًّا للصوصية، وأُعَظِّم البرّ بالوالدين. والأهم من ذلك، قُمت بالسر وبصورة مدنية بتحريات شخصية، لأزِنَ بطريقة أفضل القضايا الشائكة (بصوتٍ منخفض)، طبعًا، ارتكبتُ بعضَ القصص المضحكة، لسنا قدّيسين، ومَنْ لا يُخطئ؟ القديسون أنفسهم، ألم يقصّروا في واجباتهم؟ قدَّم لي الوجهاء قولين مأثورين: «هبّة هواء، وابلٌ من المطر، فسحة سماء زرقاء»، و«نصف مثقف، نصف جندي، نصف بربري». قولان محقان، محقان تمامًا! ومنحوني لقبًا: «غاو، النعلَ الآخر للحذاء»! لأنني أنا، غاو، أُحبّ أن أضرب بنعل الحذاء وجه جميع المراوغين والنسوة الشرّيرات! (يُغني)، «يستخدم المأمور في الأزمات القوانين الصارمة ~ ~ لنكن بربريين إذا لزم الأمر ~ ~ ونطبّق الخطط الحربية لنقتل قطاع الطرق ~ ~ على نعل الحذاء وُلِدَ غاو، الحاكم النزيه ~ ~ أيُّها الجلاوزة...».

الجلاوزة: حاضرون!

غاو مينغجيو: هل كل شيء جاهز؟

الجلاوزة: نعم!

غاو مينغجيو: أدخِلوا صاحب الشكوى والادعاء!

الجلاوزة: فليدخل صاحب الشكوى والادعاء!

(تدخل شين الحاجب، تحمل الطفل، راكضةً ومتعثرة).

شين الحاجب: المحترم باو، يجب أن تساعدني...

(تلحق بها الأسد الصغير، والشرغوف، والآخرون، واحدًا تلو آخر.

الممثلون الذين يؤدّون أدوار آل زانغ ووانغ في السيناريو الأصلي يختلطون بهم، يدخلون إلى خشبة المسرح حيث يسود الهرج والمرج).

المخرج (ثائرًا من الغضب): أوقفوا التصوير! أوقفوا التصوير! ما الذي يحدث؟ يا للفوضى العارمة! يا مدير المسرح! يا مدير المسرح!

شين الحاجب (تقع جاثية على ركبتيها في قاعة المحكمة): المحترم باو، أنت قاضٍ نزيه، عليك أن تدعم المواطنة التي أنا هي!

غاو مينغجيو: مأمور المركز الذي هو أنا لا يُدعى باو، بل غاو.

شين الحاجب (تتكلم فيما الطفل يبكي): المحترم باو، المواطنة التي أمامك ضحيّة ظلم فادح، ظلم لا مثيل له، يجب أن تفصل في هذه القضية بكل إنصاف!

(يجذب يوان الخدّ وابن الخال الشاب المخرج ويحدّثانه بصوت منخفض. يومئ الأخير برأسه موافقًا مرّات عدة على التوالي. يُسمع قول يوان الخدّ، ولكنْ بشكلٍ غير واضح: «ستساعدك شركتنا بمبلغ مئة ألف يوان!».

يتوجّه المخرج نحو غاو مينغجيو ويهمس بضع كلمات في أذنه.

يشيرُ بيده إلى المصوّر والآخرين لإكمال التصوير.

يتقدّم يوان الخدّ نحو الأسد الصغير والشرغوف، ويتبادل معهما همسًا بضع كلمات).

غاو مينغجيو (يحمل الحذاء من طرفه ويضرب به بقوة على الطاولة الطويلة والضيقة): أيّتها المواطنةُ الماثلةُ أمام قوس المحكمة، اسمعي هذا جيدًا: سأتساهل اليوم وأشذ عن القاعدة، وأضيف ملفّك إلى القضايا التي يجب أن أفصل فيها. أعلني اسمك، ومكان ولادتك، وأسباب شكواك، ومن هم المتّهمون، قولي الحقيقة كاملةً، أتعلمين ما المبدأ الذي أطبّقه على الكَذَبة؟

شين الحاجب: كلا، أجهله سيدي.

الجلاوزة (بصوتٍ واحد): آواه، آواه!...

غاو مينغجيو (يلتقط الحذاء ويضرب به الطاولة بقوة): إنْ تفوّهتِ بأدنى كِذبة، أضربكِ على وجهكِ بهذا الحذاء!

شين الحاجب: فهمت.

غاو منغجيو: قولي الحقيقة كاملةً.

شين الحاجب: ألتمس منكَ أيُّها المحترم أن تنظر في قضيتي. اسمي شين الحاجب، من كانتون دونغبي في مقاطعة غاومي. أنا يتيمة الأمّ منذ الولادة، ربّتني أختي الكبرى، وتبعتها حين وجدت عملًا في مصنع الألعاب، قضت شقيقتي في حريق هائل، أمّا أنا، فاحترق وجهي...

غاو مينغجيو: اسمعي، شين الحاجب، ارفعي البرقع عن وجهك لأتمكن أنا، مأمور المركز، من رؤيتك.

شين الحاجب: ذلك مستحيل، سيدي القاضي.

غاو مينغجيو: ولِمَ؟

شين الحاجب: ما دمتُ أرتدي هذا البرقع، أظل كائنًا بشريًا، متى رفعته عن وجهي، أصيرُ شيطانة.

غاو مينغجيو: اسمعيني شين الحاجب، حين أحكم في قضية، أتبع الإجراءات القانونية. ترتدين برقعًا، كيف أعرف مَنْ تكونين؟

شين الحاجب: أيّها المحترم، اطلُبْ منهم أن يضعوا أيديهم على عيونهم.

غاو مينغجيو: ضعوا أيديكم على عيونكم.

شين الحاجب: أيها المحترم، يجب أن تدعمني. سيدي، المواطنة التي أكون عرفت مصيرًا مشؤومًا...

(تضع شين الحاجب الطفل أرضًا، ترفع برقعها، وتخبّئ وجهها بين يديها. يومئ غاو مينغجيو إلى الحضور، فتندفع الأسد الصغير فجأةً وتأخذ الطفل).

الأسد الصغير (فيما تنوح): طفلي، حبيبي، طفلي الصغير الذهبي، دع أمك تراك... الشرغوف، انظُر ما حصل للطفل... تلك المجنونة، القاسية القلب، قتلته حين رمته أرضًا.

شين الحاجب (تركض كالمجنونة نحو الأسد الصغير وهي تصرخ): ابني... سيادة القاضي، لقد سَرَقت ولدي...

(يلتقط الجلاوزة شين الحاجب. تدخل العمة ببطء إلى خشبة المسرح).

الشرغوف: ها هي العمة!

الأسد الصغير: عمتي، انظري، ما الذي حصل للطفل الذهبي؟

(تقرص العمة عدة مواضع من جسم الطفل، تتلمس أخرى، فيبدأ

بالبكاء. يناول الشرغوف الأسد الصغير رضّاعةً، تضعها الأخيرة في فم الطفل، فيتوقف عن البكاء).

شين الحاجب: سيدي القاضي، يجب ألّا تسمح لها بأن تُرضع ابني حليب البقر، المليء بالسموم. سيدي، يزخر صدري بالحليب... وإن كُنتَ لا تصدّقني، أَكبِسُ على ثدييّ لأُريكَ ذلك، سيدي...

(يدخل شين الأنف ولي اليد إلى خشبة المسرح).

شين الأنف (يطرقُ الأرض بعكّازيه): تصرَّف باسم السماء والأرض وضميرك! احكُم بعدلِ السماء والأرض وضميرك...

غاو مينغجيو حزينًا وشفوقًا: اسمعي، شين الحاجب، الأفضل أن تُغطي وجهكِ!

شين الحاجب (مضطربة، تبحث عن برقعها وتضعه على وجهها): سيدي، لا بدّ أخفتك... أعتذر منكَ سيدي...

غاو مينغجيو: شين الحاجب، بما أنني تسلمتُ قضيتكِ، عليَّ أن أكشف الحقيقة وأوضِح الأمور.

شين الحاجب: أشكرُ سيادتكم.

(يحيط الشرغوف ويوان الخدّ بالأسد الصغير، ويستعدون للخروج).

غاو مينغجيو (يطرقُ بالحذاء على الطاولة): لا يُسمح لكم بالخروج! مَنْ يجرؤ على الانسحاب فيما لم أنظر بعد بالقضية وأُصدر الحكم! أيها الجلاوزة، راقبوهم!

(يشير المخرج بيديه لغاو مينغجيو ويغمزه. يتصرف الأخير وكأنه لم يرَ شيئًا).

غاو مينغجيو: أيّتها المواطنة شين الحاجب، لا تنفكّين تردّدين أن الطفل ابنكِ، وبناءً على ذلك، أسألُكِ: مَنْ والدُه؟

شين الحاجب: موظفٌ كبير، ثريّ، شخصيةٌ مرموقة.

غاو مينغجيو: على الرغم من كونه موظفًا كبيرًا، ومهمًا، ومرموقًا، ألا يملكُ اسمًا؟

شين الحاجب: لا أعرف اسمه.

غاو مينغجيو: متى تزوّجتِه؟

شين الحاجب: المواطنة التي أكون، لم تتزوّج يومًا.

غاو مينغجيو: آه، فهمت... حملٌ من دون زواج. ولكنْ، متى... قمت بالأمر معه؟

شين الحاجب: سيدي، لم أفهم ما تقصد.

غاو مينغجيو: حسنًا، متى نمتِ معه، كيف أقول ذلك؟ متى مارستما الحب معًا، هل فهمتِ ما أقصد؟

شين الحاجب: أيّها المحترم، لم أمارس الجنس مع أيّ رجل، ما زلت عذراء.

غاو مينغجيو: آخ! كلما تكلمتِ، زادت الأمور غموضًا. إن لم تمارسي الجنس مع رجل، فكيف حملتِ إذًا وولدتِ؟ ألا تملكين أيّ معرفة عن علم وظائف الأعضاء؟

شين الحاجب: سيادة القاضي، المواطنة التي أكون لم تقل إلّا الحقيقة. (تدل على الأسد الصغير والآخرين)، بواسطة أنبوب...

غاو مينغجيو: طفل أنابيب.

شين الحاجب: كلا.

غاو مينغجيو: أفهم كيف يحدث ذلك، يتم التلقيح اصطناعيًّا، كما الحال في تربية الماشية.

شين الحاجب: سيادة القاضي، (تجثو على ركبتيها)، أرجوك، امنحني رعايتك واحكم في القضية بإنصاف تام. فكَّرتُ، بدايةً، في أن أنتحر وأرمي بنفسي في النهر عند ولادة الطفل ودفع تكاليف طبابة والدي متى تقاضيت ثمن أتعابي كأمّ حامل. ولكنْ، حين حملت، وشعرت بالطفل يتحرك في أحشائي، فارقتني فكرة الموت. لست الأمّ الحامل الوحيدة، لكنَّ الأخريات لم يحببن الأطفال في أحشائهن كما فعلتُ. وجهي مشوّه، وجسمي كذلك؛ كلما كان الطقس رطبًا، تحكني الندوب، تؤلمني بشدة، وحين يكون الطقس جافًا، تتفتح جروحي، تنزف. سيدي القاضي، لم تكن أشهر حملي التسعة سهلة. سيدي القاضي، أخبار الآلام التي عانيت، لا تنضب، ولن أقصّها كلها عليك. باتخاذي كلّ الاحتياطات اللازمة، استطعتُ أن ألدَ الطفل، لكنهم خدعوني، ادّعوا أنَّه وُلِدَ ميتًا... عرفتُ أنَّه حيّ يُرزق... بحثتُ عنه طويلًا، بحثتُ ووجدتُه... لا أريد مالًا، لو دفعوا مليونًا أو عشرة ملايين، أُريد الطفل فقط، ببساطة ألتمسُ من حضرتكم طلب منحي الطفل عبر إصدارٍ حكمٍ بذلك...

غاو مينغجيو (متوجّهًا إلى الشرغوف والأسد الصغير): هل أنتما متزوجان شرعًا؟

الشرغوف: منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

غاو مينغجيو: وطوال تلك الأعوام، لم تُرزقا بأيّ طفل؟

الأسد الصغير (منزعجة): ألم نحظَ بابن أخيرًا؟

غاو مينغجيو: مَنْ ينظر إليكما، يرَ أنكما تخطيتما الخمسين، أليس كذلك؟

الأسد الصغير: أدركتُ أنَّك ستطرحُ هذا السؤال. (تشيرُ إلى العمة)، حضرتها طبيبة نسائية في كانتون دونغبي، ولّدت آلاف الأطفال، وساعَدَت على شفاء حالات كثيرة من العقم النسائي، لعلَّكَ رأيتَ النور على يديها كذلك؟ يمكنك أن تسألها، لأنها تابعتني من لحظة الحمل حتى الولادة، ويمكنها أن تشهد على ذلك.

غاو مينغجيو: أعرف كقاضٍ منذ زمن طويل الصيت الذي تتمتع به العمة، وتُعدّين كذلك من حكماء القرية، فضائلك عظيمة ولكِ مكانتكِ، كلمةٌ منكِ توازي كنوزًا.

العمة: لقد ولّدت حقًّا ذلك الطفل.

غاو مينغجيو (متحدثًا إلى شين الحاجب): هل هي مَنْ ساعدكِ على وضعه؟

شين الحاجب: سيادة القاضي، قبل أن يدخلوني غرفة التوليد، عصبوا عينيّ.

غاو مينغجيو: لا يمكن لمأمور مركز أن يفصلَ في هذه القضية، عليكم أن تجروا فحوص الحمض النووي.

(يهمس المخرج في أذن غاو مينغجيو. يجادله الأخير بصوت منخفض).

غاو مينغجيو (يزفرُ طويلًا، ويُغني): غريبةٌ، غريبةٌ، هذه القضية غريبة ~ ~ تُزعِجُني، أنا غاو ~ ~ لِمَنْ أحْكُم بذلك الطفل ~ ~ لديَّ

خطة رهيبة (ينزل إلى قاعة المحكمة) اسمعوني جيدًّا جميعكم، بما أنكم أتيتم تدَّعون الشكوى أمام قوس محكمتي، سأنتقِلُ من المسرحية الخيالية إلى الواقع، سأحكُمُ بالقضية! يا جلاووووزة!

الجلاوزة: حاضرون!

غاو مينغجيو: مَنْ لا يخضع لأوامري، اضربوه على وجهه بالحذاء!

الجلاوزة: نحن بأمرِكَ!

غاو مينغجو: شين الحاجب، الأسد الصغير، تتمسَّكُ كلٌّ منكما بمواقفها، ويبدو أن كلتيكما على حق. يصعب عليَّ حاليًّا أن أُصدِرَ حكمًا، لذا أطلبُ مِنَ الأسد الصغير أن تعطيني الطفل بدايةً.

الأسد الصغير: ولكنني، لا...

غاو مينغجو: يا جلاوزة!

الجلاوزة (بصوتٍ واحد): هووووو، هووووو...

(يوشوش المخرج في أُذن الشرغوف، يلكز الأخير بإصبعه الأسد الصغير ليشير عليها بأن تعطي الطفل لغاو مينغجيو).

غاو مينغجيو (يحني رأسه لينظر إلى الطفل بين يديه): إنَّه حقًّا طفل جميل، لا غرابة في أن تتنازع عليه الأسرتان. شين الحاجب، الأسد الصغير، اسمعاني جيدًّا، لستُ قادرًا على إصدار حكم يقرّر لِمَن يعود الطفل، لا يمكنني إلّا أن أدعكما تأخذانه من بين ٍيديّ، من تقبض عليه نهايةً، تحتفظ به! بما أن الوضع مبهم، فلنلعب على عنصر الغموض! (يرفعُ الطفلَ عاليًا)، انطلقا!

(تهجم شين الحاجب والأسد الصغير، تشد كلٌّ واحدةٍ الطفل صوبها، فيبدأ بالبكاء.

شين الحاجب (تنتزع الطفل فجأة بقوة، وتضمّه بين ذراعيها).

غاو مينغجيو: يا جلاوزة! اقبضوا على شين الحاجب وخذوا منها الطفل.

(يستعيد الجلاوزة الطفل بالقوة ويسلمونه لغاو مينغجيو).

غاو مينغجيو: شين الحاجب، يا للجرأة. لقد كذبتِ حين ادّعيتِ أنَّكِ والدة الطفل، لأنَّك حين استوليتِ عليه، لم تبالي لبكائه ولم تشعري بالأسف، وهذا يدل جليًّا على أنَّك كذبتِ بالقول إنَّكِ والدته. الأسد الصغير، مِن جهتها، وبينما كانت تحاول الإمساك بالطفل، سمِعَت صراخه، وكان حبّها لابنها أقوى، فأفلتت قبضتها خوفًا مِنْ أذيّته. في الماضي، فصل القاضي المحترم باو في قضية مماثلة في مركز ولاية كايفنغ: «الأمُّ هي التي أفلتت قبضتها!». لذا، وبناءً على ما تقدَّم، أحكم بمنح الطفل للأسد الصغير. شين الحاجب، تستحقين عشرين ضربة حذاء لأنَّكِ سرقتِ طفل أُخرى واخترعتِ الأكاذيب، ولكنْ، نظرًا إلى إعاقتكِ، لن أعاقبكِ، هيّا، اخرجي من قاعة المحكمة!

(يُعطي غاو مينغجيو الطفل للأسد الصغير.

تتخبط شين الحاجب، تصرخ، لكنَّ الجلاوزة يقبضون عليها).

شين الأنف: غاو مينغجيو، أيُّها القاضي الأعمى!

لي اليد (يلكز شين الأنف بإصبعه): صديقي العزيز، لِنُنْهِ القضيّة عند هذا الحد، طلبتُ من الشرغوف ويوان الخدّ أن يُعطيا شين الحاجب تعويضًا بقيمة مئة ألف يوان.

نهاية الفصل الثامن

الفصل التاسع

منزل العمة، الديكور هو نفسه.

هاو اليدان الكبيرتان وكين هي لا يزالان في مكانهما يشكلان أطفالاً من صلصال.

يقف الشرغوف على طرف، يحمل في يديه رزمة أوراق، ويخطُب.

الشرغوف: لو سُئلْتُ ما اللون الذي يطغى على كانتون دونغبي، لأجبتُ من دون تردد: الأخضر!

هاو اليدان الكبيرتان (يُدمدم، مستاءً): وماذا عن الأحمر إذًا؟ والسورغو، والجزر، والشمس، والسترات المبطنة، والمتبّلات، والتفاح...

كين هي: والصلصال، والغائط، والأسنان، والسراعيب، كلها ببساطةٍ صفراء، ولكنْ لا وجود للذهب...

الشرغوف: لو سُئلتُ ما الصوت الذي يطغى على كل الأصوات في كانتون دونغبي، لأجبتُ بفخر: نقيق الضفادع!

هاو اليدان الكبيرتان: لا أرى سببًا في ذلك يدعو إلى الفخر؟

كين هي: في بكاء الأطفال مثلًا ما يدعو إلى الفخر، نعم.

الشرغوف: ذلك النقيق الكئيب مثل خوار العجول الصغار، المحزن مثل ثغاء الخواريف، الواضح مثل قوقأة الدجاجة التي تبيض، الرنان والموجع مثل صراخ المولود...

هاو اليدان الكبيرتان: وماذا عن الكلب؟ والهر؟ والحمار؟

الشرغوف (مغتاظًا): ولكنْ لِمَ تحاولون مشاجرتي؟

كين هي: برأيي، تلك المسرحية، في العمق، ليست إلّا شِجارًا.

العمة (بلا مبالاة): تلك الكلمات التي تلوتَها، هل أنا مَن قالها؟

الشرغوف: إنَّها شخصية «العمة» في المسرحية مَنْ تتفوه بها.

العمة: وشخصية «العمة» تلك في المسرحية، هل تمثلني أم لا؟

الشرغوف: تجسّدكِ، ولا تجسّدكِ.

العمة: كيف تشرح ذلك؟

الشرغوف: إنَّها القاعدة العامة في الابتكار الفني؛ مثل أطفال الفخار الذين يشكّلانهم، فهم صور مأخوذة من الحياة الواقعية، مضافٌ إليها ثمرة خيالهما وإبداعهما.

العمة: إن أُدّيَتْ تلك المسرحية، ألا تخشى أن تتعرّض للمشاكل؟ السبب أنَّك تستخدم الأسماء والألقاب الحقيقية للأشخاص.

الشرغوف: هذه مسوّدة، عمتي، حين أعتمد النسخة النهائية، سأغيِّر كل الأسماء بأُخرى أجنبية، ستغدو العمة العمة ماريا، ويصبح هاو اليدان الكبيرتان هنري، كين هي، أليندي، شين الحاجب أسمّيها تونيا، وشين الأنف فيغارو... حتى كانتون دونغبي يصير بلدة ماكوندو[1].

---

(١) اسم القرية التي تدور فيها أحداث رواية غابرييل غارسيا ماركيز «مئة عام من العزلة».

هاو اليدان الكبيرتان: هنري، يعجبني الاسم.

كين هي: الأفضل أن تسمّيني رودان أو ميكل ـ آنج، فطبيعة عملهما لا تختلف كثيرًا عمّا أقوم به.

العمة: الشرغوف، المسرح هو المسرح، والواقع هو الواقع، ما زلت أعتقد أنَّك كُنتَ مجحفًا بحق شين الحاجب، وكذلك كُنتُ أنا. في الفترة الأخيرة، عُدْتُ أُعاني من الأرق، وذلك العفريت الذي أتى يطالبني بإيفاء دَيْني على رأس جحافل الضفادع المخلعة تلك، رجَعَ يشاجرني كل ليلة، ولا أشعر بجلد بطن الضفادع البارد وحسب، بل أشم أيضًا رائحتها المنتنة والمقززة...

هاو اليدان الكبيرتان: إنها هلوسات ناتجة عن انهيار عصبي. مجرّد هلوسات؟

الشرغوف: أيتها العمة، أُدرك ما تعانين نظرًا إلى الطريقة التي حُلَّت بها تلك القضية، وضميري يؤنبني كذلك، ولكنْ كيف كان بالإمكان الفصل فيها بغير تلك الوسيلة؟ ليقل الناس ما يشاؤون، الحقيقة أنَّ شين الحاجب مجنونة، علاوةً عن أنَّها مشوّهة بشدّة، أنْ نترك تلك الحمقاء ذات الوجه المخيف تربّي طفلًا يُعَدُّ عملًا غير مسؤول! إضافةً إلى ذلك، أنا والده بيولوجيًّا، وإن حصل ذلك من دون إذني. حين تكون الأم غير متزنة ولا يمكنها إعالة نفسها، من الطبيعي أن يتولى الوالد مسؤولية ابنه، وحتى لو رُفعت القضية أمام محكمة الشعب العليا، لصدر الحكم نفسه. ألست محقًّا؟

العمة: لو أعدنا لها الطفل، لشُفيَتْ. بين الأمّ وولدها، تحصل المعجزات...

الشرغوف: لا يمكننا المخاطرة بحياة الطفل، فالأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نفسية، قادرون على ارتكاب أيّ شيء.

العمة: لا يمنعهم ذلك من محبّة الأطفال.

الشرغوف: لكنَّ ذلك الحب قد يلحق الضرر بالأطفال. عمتي، يجب ألّا تشعري بعقدة الذنب. قُمنا بكامل واجباتنا إنسانيًا. ضاعفنا تعويضها، طبّبناها كي يتحسّن وضعها، حتى تجاه شين الأنف، صفينا نيّاتنا. لاحقًا، حين تتعافى تمامًا ويكبر الطفل، سنجد اللحظة المناسبة لنخبره الحقيقة... علمًا بأنّ ذلك سيؤلمه كثيرًا.

العمة: كي أكون صادقةً معك، يجب أن أقول لك إنني، في الفترة الأخيرة، فكرتُ بالموت غالبًا...

الشرغوف: عمتي، لا تستسلمي لتلك الأفكار السخيفة. بالكاد تجاوزتِ السبعين، وأبالغ إن قلتُ لكِ إنَّكِ الشمس لحظة الشروق، لكنك كشمس الساعة الثانية أو الثالثة من بعد الظهر، ولا يُعدُّ الأمر مديحًا منّي، فشمس ما بعد الظهر بعيدةٌ عن المغيب والليل. ثمَّ إنّه لا يمكن لأهل كانتون دونغبي الاستغناء عنكِ!

العمة: لا أرغبُ أبدًا في الموت. حين لا نمرض، ولا يظلمنا القدر، وشهوتنا جيدة وننام ملء جفوننا، لِمَ نريد الموت؟ لكنْ أنا، أعجز عن النوم! في منتصف الليل، حين يكون الجميع نيامًا، أظلّ ساهرة وحدي والبوم على الشجرة. يصحو هو ليلتقط الفئران، أمّا أنا فلِمَ لا أنام؟

الشرغوف: يمكنك تناول منوِّمٍ، تعاني شخصيات كثيرة مرموقة من الأرق، وتتعاطى تلك العقاقير.

العمة: لن تؤثر عليّ...

الشرغوف: اتبعي علاجات صينية...

العمة: أنا طبيبة! افهم، لستُ مريضةً، لكنَّ أوان العقاب حلَّ، بسبب جميع أولئك الأطفال الذين قضيتُ عليهم، آن أوان الحساب. في عزّ الليل، حين يسود الهدوء وينعق البوم، يحضرون جميعهم، أجسادهم تغمرها الدماء، ينوحون، ترافقهم الضفادع الكسيحة. يمتزج بكاؤهم بنقيق الضفادع، ووسط ذلك الصخب يصعب تمييز الأصوات بعضها من بعض. تلاحقني الضفادع، وأهرب إلى مختلف أنحاء الفناء. لا أخاف من عضّاتها، لكنني أخشى بطنها البارد، والرائحة المقرفة والعفنة المنبعثة من أجسادها. أسألُكَ: ممَّ خافت العمة طوال حياتها؟ فالنمور، والفهود، والأسود التي ترعب الناس العاديين، لم تَهَبْها العمة يومًا، لكنها تشعر برهاب كابوسي أمام أشباح تلك الضفادع.

الشرغوف، متحدّثًا مع هاو اليدين الكبيرتين: ألا يجدر بك استدعاء راهب طاويّ لطرد هذا الشرّ؟

هاو اليدان الكبيرتان: ما تقولُه هنا، مقطوعة من المسرحية كذلك.

العمة: حين أعجز عن النوم، أفكر، تكرّ أمامي لحظات حياتي، مذ أوَّل طفلٍ ولدته، وصولًا إلى الأخير، مشهدًا تلو مشهد، وكأنه فِلم. مبدئيًّا، لم أقصد الأذى طوال حياتي... ولكن تلك الأفعال... هل هي سيئة؟

الشرغوف: عمتي، هل يمكن نعت تلك الأفعال بـ «الإساءة»؟ حاليًا، يستحيل إصدار حكم مبرم بشأنها، وإن كانت «إساءة»، لا يمكِنُ تحميلك مسؤوليتها. عمتي، كفّي عن لوم نفسك، لا تستسلمي لتبكيت الضمير، أنت شخصية ذات مقام عالٍ، لست مجرمة.

العمة: هل هذا صحيح؟ لستُ مذنبة؟

الشرغوف: لو طُلب من سكان دونغبي انتخاب شخصٍ ذي أخلاق رفيعة، لحُزْتِ أكبر نسبةٍ من الأصوات.

العمة: هل يداي طاهرتان؟

الشرغوف: ليستا طاهرتين فحسب، بل مقدّستان أيضًا.

العمة: حين ينتابني الأرق، أتذكر موت زوجة زانغ قبضة اليد، ووانغ رانمي، ووانغ المُرَّة الصفراء...

الشرغوف: لم تحدث تلك الميتات بتقصير أو خطأ منكِ. لستِ مسؤولة عنها.

العمة: قبل أن تلفظ أنفاسها، قالت لي زوجة زانغ قبضة اليد أمرًا، أتعرف ذلك؟

الشرغوف: كلا.

العمة: قالت: «وان القلب، لن تموتي ميتةً حسنة!».

الشرغوف: تلك الشريرة، ما أقسى قلبها.

العمة: ووانغ رانمي أسرّت لي أمرًا قبل موتها، أتعلم ذلك؟

الشرغوف: بماذا أسرّت؟

العمة: قالت: «عمتي، أشعرُ ببردٍ شديد...».

الشرغوف (متأثرًا): رانمي، أشعر بالبرد أيضًا...

العمة: أتعرف ما قالت لي بدورها وانغ المُرَّة الصفراء؟

الشرغوف: كلا، لا أعرف.

العمة: أترغب في معرفة قولها؟

الشرغوف: طبعًا... ولكنْ...

العمة، بحماسة: قالت لي: «شكرًا عمتي لأنَّكِ أنقذتِ طفلي». ولكن، بصراحة، هل كنتُ مَنْ أنقذ طفلها؟

الشرغوف: بالطبع.

العمة: في هذه الحال، يمكنني أن أموت وضميري مطمَئن.

الشرغوف: أخطأتِ عمتي، يجدر بكِ القول: أنام بسلام، أحيا من دون هموم.

العمة: مَنْ ارتكبَ الأخطاء، لا يمكنه أن يضع حدًّا لحياته، ولا يحقُّ له ذلك، عليه أن يحيا، ويكابد، ويتحمّل العذابات والأحزان، مثل سمكة تُدار وتُشوى على الجانبين، كحشائش وأعشاب تغلى في القدر، يجب عليه تحمل كل ذلك للتكفير عن ذنوبه، ويموت أخيرًا مرتاح البال.

(تتدلى من القوس فوق خشبة المسرح عقدةُ أنشوطة سوداء، تدنو العمة وتُدخل فيها عنقها، وتركل الكرسي الصغير الذي اعتلت.

يستمرّ هاو اليدان الكبيرتان وكين هي غارقين في تشكيل أطفال الفخار.

يستولي الشرغوف على سكين، يعيد الكرسي إلى مكانه ويقفز عليه، يقطع الحبل، فتقع العمة أرضًا).

الشرغوف، يساعد العمة على النهوض: عمتي! عمتي!

العمة: هل انتهى الأمر، هل مُتُّ؟

الشرغوف: يمكن قول ذلك، لكنْ مَنْ مثلك لا يموت أبدًا.

العمة: وفقًا لكلامك، أولَدُ من جديد.

الشرغوف: نعم، يمكنُ قول ذلك.

العمة: جميعكم بخير؟

الشرغوف: نعم، جميعنا!

العمة: والطفل الذهبي؟

الشرغوف: هو على أحسن ما يرام.

العمة: هل درَّت الأسد الصغير حليبًا؟

الشرغوف: نعم.

العمة: بوفرة؟

الشرغوف: بغزارة.

العمة: بأيّ فيض؟

الشرغوف: حليبها يتدفق مثل نافورة.

يُسدلُ الستار



مو يان اسم مستعار يعني بالصينية «لا تتكلّم». اختاره الكاتب عمدًا ليشير إلى أن علوّ صوته اللاذع في قصصه ورواياته الجريئة بموضوعاتها المحرّمة، قد أزعج السلطات، وليقول بسخرية أن عليه أن يتذكر ذلك. اسمه الحقيقي غوان مويه، وهو من مواليد العام ١٩٥٥. شغل منصب نائب رئيس رابطة الكتاب الصينيين الرسمية، وتُرجِمَ الكثير من مؤلفاته إلى لغات عدة. حاز جائزة نوبل للآداب عام ٢٠١٢ وهو أول مواطن صيني مقيم يفوز بهذه الجائزة. بالإضافة إلى جوائز كثيرة في جعبته منها جائزة ماو دون للأدب الصيني عن روايته هذه، وهي أرقى جائزة صينية تمنح للأعمال الروائية.

«عالم مو يان الروائي مزيج من الواقع والخيال، وله سمات اجتماعية وتاريخية، يذكّرنا في ثرائه وتعقيده بعوالم فولكنر وماركيز.» - لجنة جائزة نوبل للآداب

«في الصين، لا يدخل الكاتب الجيد في صراع مباشر مع الحكم. غالباً ما يختبئ نقد المجتمع وراء القصة، ووراء اللغة». في أجواء من الواقعية السحرية، تأتي رواية مو يان الأحدث هذه، لتتناول موضوع سياسة تنظيم الأسرة في الصين أي سياسة الطفل الواحد التي ظلّت سارية حتى العام ٢٠١٥، لتستبدل بها، في العام ٢٠١٦، سياسة الطفلين.

«العمّة»، بطلة مو يـان، قابلةٌ قروية اتخذت لنفسها دور الرقيب على تطبيق سياسة تحديد النسل إبان الثورة الثقافية، لتلاحق النساء الحوامل لإجهاضهنّ قسرياً. و«الشرغوف»، أي فرخ الضفدع، هو الراوي الذي يفتتح الرواية برسالة يبعث بها إلى معلّمه الروائي الياباني، يخبره فيها بأنـه في صدد كتابـة مسرحيـة مستندةٍ إلى حيـاة عمّـتـه. وبين قـصـة «العـمّة»، ومسـرحيّة «الشرغوف»، تُسرد حياة آلاف القرويّين الصينيين، ويطّلع القارئ على الثقافة الصينية وعلى إحدى أهمّ وأكثر المشاكل حساسيةً في الصين الحديثة، لكنّه في الوقت نفسه، يؤخَذ إلى عالمٍ خياليّ غرائبي، حيث يتعالى نقيق الضفادع، وتُبثُ الأرواح في التماثيل.

«اعتاد أهل القرية القول إن من يشتري تمثالَ طفلٍ شكّله «هاو اليدان الكبيرتان»، ويربط حول عنقه حبلًا رفيعًا أحمر، ويقدم له الهدايا، يُرزق بطفلٍ يشبه بكل شيء التمثال الصغير. ولكنْ، لم يكن يحق للفرد أن يختار بنفسه الطفل الفخار. حين تقصده لشراء تمثال، يبدأ بتفرّسك بدقة، ثمّ تغوص يده ليُعطيك أخيرًا التمثال الذي اختاره لك. إذا وجدتَ أن الدمية ليست جميلة، لم يكن يبدلها، تخاله يقول لك: «هل يوجد في الدنيا آباءٌ يتذمّرون من بشاعة أطفالهم؟». ولذا، تدقق أكثر بتفاصيل الطفل الذي أعطاك، ورويدًا رويدًا، تجده جذابًا وعلى مرّ الوقت، اقتنع الناس بأن شراء أحد تماثيله الصلصالية يوازي طلب طفل حقيقي».

هذه روايةٌ تطرح أعمق الأسئلة الأخلاقية، تتناول صين ماو وما بعد ماو، وتبثّ في روحك الكثير من ضحكات الأطفال! روايةٌ ستظلّ تُقرأ لأجيالٍ وأجيال.

ISBN 978-9953-88-965-8



الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر